

دراسات
في
تأثير الدولة البيزنطية

تأليف

دكتور حسنين محمد ربيع
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

دار النهضة العربية
١٢١ شارع عبدالخالق ثروت بالقاهرة

دراسات
في
تأريخ الدولة البيزنطية

تأليف

دكتور حسنين محمد ربيع
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

الناشر

دار النهضة العربية
٢٢ شارع عبدالغنى زوين - بالقاهرة

دار وهذان الطباعة والنشر
٦ ميدان بركة الرطلى
تليفون : ٦٠٥٠٣٦

فهرس موضوعات الكتاب

٧	• • • • •	مقدمة
		الفصل الأول
١١	• • • • •	ظهور الدولة البيزنطية
		الفصل الثاني
٥٩	• • •	المسلمون والبيزنطيون في عصر أسرة هرقل
		الفصل الثالث
١٠٢	• •	عصر مناهضة عبادة الأيقونات (٧١٧ - ٨٦٧ م)
		الفصل الرابع
١٥٦	•	بداية النهاية للدولة البيزنطية (١٠٥٧ - ١٢٠٤ م)
		الفصل الخامس
٢٤٩	• •	اضمحلال الدولة البيزنطية (١٢٠٤ - ١٣٥٤ م)
		الخبرائط
٣٢	• • • • •	١ - مدينة القسطنطينية
٧٤	• • • • •	٢ - أقاليم الثغور في آسيا الصغرى
١٦٠	• • • • •	٣ - الدولة البيزنطية حوالي سنة ١٠٢٥ م
٢١٦	• • • • •	٤ - الدولة البيزنطية في عصر أسرة كومنين
٣٠٣	• • • • •	المصادر والمراجع
٣٢١	• • • • •	كشاف
٣٢٣	• • • • •	أولا - الاعلام والأمم والشعوب والقبائل
٣٣٥	• • • • •	ثانيا - البلدان والمدن والأماكن والبقاع
٣٤٣	• • • • •	ثالثا - المصطلحات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الدولة البيزنطية دولة عظيمة لعبت دورا هاما في التاريخ كقوة سياسية وحربية لقرون طويلة ، وكمركز حضارى ثقافى . وحتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى كانت هذه الدولة مركزا هاما للحضارة فى العالم المسيحى . وحمل البيزنطيون مشعل الحضارة الانسانية فى أوروبا العصور الوسطى فى الوقت الذى غزت فيه الشعوب الجرمانية والسلافية معظم أوروبا ، وسادت الفوضى والاضطراب البلاد التى وقعت تحت وطأتهم . ونجحت الدولة البيزنطية فى أن تقدم للشعوب الجرمانية والسلافية ثقافتها وحضارتها ، وبالتالي جذبت هذه الشعوب الى مدار الحضارة وأبعدتهم عن الهمجية ، مما جعل هذه الشعوب تدين بالكثير لبيزنطة التى أنجبت رجالا عظماء ، وجنودا أكفاء ، ودبلوماسيين مهرة ، ومصلحين وعلماء وأدباء ساهموا فى تقدم الحضارة البشرية . وساعدت الدولة البيزنطية فى تحقيق ذلك الدور الحضارى ما تمتعت به من تشريعات وقوانين متطورة ، ونظام ادارى متين ، وقدرة فائقة على التجديد والتطور المستمر .

ولاشك أن الدولة البيزنطية حفظت أوروبا من حركة الفتوحات الاسلامية فى القرنين السابع والثامن الميلاديين . ولو سقطت بيزنطة قبل قيام العرب بحركة فتوحاتهم لانتشر الاسلام فى جميع أنحاء أوروبا ، واعتنقت كل الشعوب السلافية وكل شعوب وسط أوروبا الاسلام ، واصطبغت البلاد الواقعة شمال البحر المتوسط بالصبغة

العربية الاسلامية كما حدث للبلاد الواقعة جنوب وشرق ذلك البحر ،
وما تبع ذلك من نتائج وآثار حضارية وثقافية •

وعندما انتصر المسلمون وامتدت حركة الفتوحات الاسلامية الى
الشام ومصر وأعلى العراق وشمال أفريقية في القرن السابع الميلادي ،
ثم الى كريت وصقلية وبعض مدن جنوب ايطاليا في القرن التاسع
الميلادي ، ثم الى آسيا الصغرى في القرن الحادي عشر الميلادي — وهي
أقاليم كانت تحت حكم بيزنطة لقرون طويلة — اصطبغت هذه البلاد
بالمصبغة الاسلامية ، وتأثرت بما أحدثه الاسلام من ثورة فكرية حضارية
في عالم المصور الوسطى بسبب ما احتواه من ثراء روحى وفكرى
 واجتماعى كان عاملا مباشرا في ظهور حضارة عظيمة فكرية ومادية •

وعندما هددت السلاجقة المسلمون الدولة البيزنطية في عقر دارها
في آسيا الصغرى ، وهزموا جيش البيزنطيين في معركة منازكرد في
ذى القعدة ٤٦٣ هـ / أغسطس ١٠٧١ م ، وتوغل السلاجقة في آسيا
الصغرى ، وانتقلت هذه البلاد من الحضارة اليونانية والآداب
المسيحية الى العقيدة والحضارة الاسلامية ، أرسل البيزنطيون الى
الغرب الأوروبى اللاتينى يطلبون العون والمساعدة ضد المسلمين •
ولكن خاب أملهم عندما قدمت الحملة الصليبية الأولى لا لى تطرد
السلاجقة المسلمين من أقاليم شرق آسيا الصغرى ، وانما لى تعبر
الى بلاد الشام ، ويستولى أمراء الصليبيين على مدن وقلاع كانت
لبيزنطية قبلها في أيدي البيزنطيين • وكانت صدمة عنيفة للدولة
البيزنطية ، أثرت في علاقاتها بالامارات الصليبية والغرب الأوروبى
لستين طويلة •

وتجدر الإشارة الى أن هذه العلاقات العدائية أو شبه العدائية
بين المسلمين والبيزنطيين لم تمنع الاتصال الحضارى بينهما ،

فالمسلمون نظروا الى البيزنطيين وتراثهم الحضارى نظرة تتسم بسعة الأفق والتطلع الحضارى ، فحاولوا جاهدين أن ينقلوا الكثير من هذا التراث ، واستفادوا من النظم البيزنطية فى الحرب والسياسة والادارة والبلاط وغيرها . وكانت ارحلات المسلمين الى القسطنطينية — سواء أكانوا أسرى حرب أو تجارا أو رحالة — دورا هاما قيما استفاد منه المسلمون من الحضارة البيزنطية ونقلهم الكثير من مظاهرها الى بلدان الدولة الإسلامية ، ومن ثم كان للصلات الإسلامية — للبيزنطية وعوامل التأثير والتأثر بين الحضارتين الإسلامية والبيزنطية دورها الفعال فى مسار التاريخ الإسلامى .

ولم تنجح العلاقات الخارجية للدولة البيزنطية فى معظم الأحيان ، فقد عانت هذه الدولة من أوقات عصيبة وضربات عنيفة من جانب المسلمين الفاتحين والنورمان والبلغار وغيرهم . وفقدت بيزنطة — بتوالى السنين — أقاليم كثيرة ، وعانت أيضا فى أخريات أيامها من الفتن والثورات والمشكلات الاجتماعية والأزمات الاقتصادية حتى أصبحت العيوب فى أيدى البنادقة والجنوية وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة وغيرهم . وحدث هذا فى وقت أصبحت فيه الدولة البيزنطية منهكة وأصابها الاضمحلال بعد أن صمدت كقوة يحسب حسابها قرابة ألف عام . ولكن الخواذات والأخطار الخارجية التى أحاطت بها ، والفتن والأزمات الداخلية التى نخرت عظامها ، جعلتها عاجزة عن دفع المخاطر التى أدت الى مصيرها المحتوم على أيدي العثمانيين المسلمين سنة ١٤٥٣ م .

ومع هذه النهاية وذلك المصير للدولة البيزنطية ، فإن عين الباحث لا تهمل أبدا الدور الهام الذى لعبته هذه الدولة فى تاريخ المصور الوسطى ، فقد كانت بمثابة القاسم المشترك الأعظم فى تاريخ أوروبا المصور الوسطى بصفة عامة ، وتاريخ شرق أوروبا وتاريخ الحركة الصليبية بصفة خاصة ، فضلا عن تاريخ الدولة الإسلامية . ولا يحتوى

هذا الكتاب على سرد لحواث تاريخ الدولة البيزنطية — كما جرت العادة — منذ ظهورها حتى سقوطها — تاريخ أسرة حاكمة بعد أسرة ، أو عهد امبراطور بعد امبراطور — وانما يحتوى الكتاب على دراسات في موضوعات معينة ، تفسر وتوضح بعض جوانب تاريخ هذه الدولة في مراحل معينة من تاريخها . وتتفتح هذه الدراسات مجالات واسعة أمام الباحثين لدراسة موضوعات جديدة في التاريخ البيزنطى : مثل علاقات بيزنطة بالدولة الاسلامية قبل الغزو السلجوقى وبعده ، وبالغرب اللاتينى ، وبالمدن التجارية الايطالية ، والأحوال والنظم الادارية والاقتصادية ، والحياة الاجتماعية والثقافية وغيرها للدولة البيزنطية ، رهى موضوعات قد لا تتضح عند سرد التاريخ السياسى للدولة البيزنطية .

ولا أقول أن هذا الكتاب قد وصل الى حد الكمال فالكمال لله سبحانه وتعالى وحده ، وانما هو محاولة لمعالجة موضوعات معينة في تاريخ الدولة البيزنطية ، فلا تزال المكتبة العربية تفتقر الى المزيد من الدراسات في تاريخ هذه الدولة . والله من وراء القصد انه نعم المولى ونعم النصير .

حسني محمد ربيع

القاهرة في : ٣ جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ

١٦ فبراير ١٩٨٣ م

الفصل الأول

ظهور الدولة البيزنطية

اختلف الباحثون في تحديد سنة معينة لظهور الدولة البيزنطية فقد أشار الأستاذ أوستروجورسكى Ostrogorsky . . عند حديثه عن الامبراطورية الرومانية المسيحية - الى الرأى القائل بأن مفاهيم الرومان السياسية والثقافة اليونانية والديانة المسيحية كانت العوامل الرئيسية التى حددت نمو الصفة البيزنطية وتطورها ، وأن اقتران الثقافة الهلنستية بالديانة المسيحية داخل اطار الامبراطورية الرومانية هو الذى أدى الى ما نعرفه باسم الدولة البيزنطية . وأضاف الى ذلك أن هذا التطور حدث نتيجة زيادة اهتمام الامبراطورية الرومانية بالشرق بسبب أزمة القرن الثالث الميلادى . وكان أول مظاهر هذا الاهتمام هو الاعتراف بالمسيحية ، وتشبيد عاصمة جديدة على البوسفور ، وأن هذين الحدثين انتصسا الميادين المسيحية وانتقال المركز السياسى للامبراطورية الرومانية الى الشرق الهلنستى ، يمثلان بداية العصر البيزنطى (١) . واتخذ الأستاذ فازيليف Vasiliev فى كتابه تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، والأستاذة هسى Hussey فى كتابها العالم البيزنطى سنة ٣٣٤ م باعتبارها السنة التى بدأت فيها الدولة البيزنطية تأخذ طابعها الخاص . ومن المعروف أنه فى تلك السنة بالذات انفرد قسطنطين الكبير بحكم الامبراطورية الرومانية ، وفيها اختار مكان مستوطنة بيزنطة اليونانية

Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine State, tr. by Joan Hussey, (1)
Oxford, 1968, pp. 27 — 28 ;

انظر العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٧ .

على البوسفور مركزا لتأسيس عاصمة جديدة للامبراطورية في الشرق (٢) •

ومن المعروف أن الامبراطورية الرومانية بلغت الذروة في القرن الثاني الميلادي عندما أصبح البحر المتوسط بحيرة رومانية • غير أن هذه الامبراطورية واجهت في القرن الثالث الميلادي ثلاث أزمات تمخض عنها ظهور الدولة البيزنطية أو الامبراطورية الرومانية الشرقية ، أو دولة الروم ، وهذه الأزمات هي :

١ — عدم الاستقرار السياسي والاضطراب الاقتصادي الذي تعرضت له الامبراطورية الرومانية •

٢ — اغارات القبائل الجرمانية والفرس •

٣ — قصور الوثنية وعدم قدرتها على ملء حاجات الناس النفسية وغيرها •

وخلال القرن الثالث وفي خضم تلك الأزمات فقدت الامبراطورية الرومانية مظهرها وطابعها اللاتيني الوثني ، وبدأت بالتدرج تأخذ شكلا يونانيا مسيحيا (٣) •

ولاشك أن عدم الاستقرار السياسي وما واكبه من مطالب النظم الاجتماعية للامبراطورية ومؤسساتها الثقافية ، أضعف الامبراطورية وهددها وعرضها للدمار • فقد بدأ عدم الاستقرار السياسي منذ مقتل الامبراطور كاراكلا سنة ٢١٧ عندما بدأت سلسلة من الاغتيالات ، فلم يعد هناك نظام معين لاختيار الأباطرة ، ولم يعد لمجلس السناتو أى

Vasiliev, Hist. of the Byzantine Empire 324 — 1453, ed. (٢)

Madison, 1961 ; Hussey, The Byzantine world, London, 1967 p. 11.

Vryonis, Byzantium and Europe, London, 1967. p. 11. (٣)

دور في ذلك ، ولعب قادة الفرق العسكرية في ولايات الامبراطورية دورا كبيرا في تعيين وعزل الأباطرة ، فشاعت بذلك الحروب الأهلية(٤) .

والمتابع لتاريخ الامبراطورية الرومانية خلال الخمسين سنة السابقة لحكم الامبراطور دقلديانوس ، أى خلال الفترة ما بين سنتي ٢٣٥ — ٢٨٥ م يلاحظ أنه ادعى عرش الامبراطورية أكثر من ستة وعشرين امبراطورا اغتيل معظمهم قبل الوصول الى العرش . وكان المنهزمون من هؤلاء الأعداء يلقبون (بطفاة) والمتنصرون (أباطرة) ، وكان المنتصر دائما يستأصل معارضيه ومناوئيه ، كما كان معظم المتنازعين للوصول الى عرش الامبراطورية من خيرة القادة العسكريين واكثرهم(٥) .

وأدى عدم الاستقرار السياسى وكثرة الحروب الداخلية واغارات قبائل الجرمان واليهون الى اضرار خطيرة ومدمرة للأحوال والنظم الاقتصادية للامبراطورية الرومانية . فقد عانت الامبراطورية في القرن الثالث من فقدان التوازن التجارى مع الشرق ، وقلة المتحصلات الضريبية ، وزيادة نفقات الدولة ، وانتشار الأوبئة والطواعين نتيجة الفقر والضعف وسوء التغذية ، مما أدى الى قلة عدد السكان ونقص القوى البشرية خاصة في مجال الزراعة . واضطر الأباطرة الى غش العملات النقدية بزيادة نسبة النحاس والمعادن الرخيصة الأخرى ، فانخفضت قيمة العملات واختفت العملات الذهبية ، وحلت العملات النحاسية بدلا من الفضة ، فارتفعت الأسعار . واهترت الثقة في العملة الرومانية . وأدى هذا كله الى تضخم نقدى ، وبدأ أفراد المجتمع

(٤) على النجراوى ، يدخل الى دراسة التاريخ الأوربي الوسيط ، ص ١٦٩ .
(٥) انظر سيد الناصرى ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسية والحضارى ، ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .

يعتمدون اعتمادا كبيرا على نظام المقايضة نتيجة غش وتزييف العملات النقدية (٦) .

وفي القرن الثالث نمت أيضا نظام الضياع الكبيرة (Latifundium) في أنحاء الامبراطورية ، وهو نظام اعتمد في الدرجة الأولى على الاثمنان المعدمين ، وكان ذلك على حساب صغار الملاك الذين تصرفوا — لكثرة الأعباء الضرائب — في ملكياتهم الصغيرة بالرهن والبيع لأصحاب الضياع الكبيرة ، وخضعوا لهم مما أدى الى اختفاء الطبقة الوسطى البورجوازية ، وأصبحت هناك مساحات من الأراضي غير صالحة للزراعة بعد أن هجرها أصحابها الى مناطق القلاع والحصون طلبا للحماية (٧) .

أما عن اغارات القبائل الجرمانية فقد توغلت هذه القبائل في أوروبا داخل خطوط الدفاع للامبراطورية الرومانية على طول نهري الراين والدانوب . وتحدث المؤرخ تاكيتوس Tacitus في كتابه الشهير Germania جرمانيا (٨) عن هذه الشعوب الجرمانية المتبربرة . وهي قبائل وشعوب كثيرة لا حصر لها ، ذكر تاكيتوس عددا كبيرا من

Vryonis, Byzantium, pp. 11—12 ; Jones, "Thoughts on the decline of the Roman Empire, Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo Univ., Vol. XXIII, Part 1 (1961), pp. 9 — 18 ;

رستوفتريف ، تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعية والاقتصادية ، ج ١ (المن) ص ٦٠٤ — ٦١٧ .
(٧) Ostrogorsky, Byzantine State, pp. 29 — 30.
العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ١٩ — ٢٠ ، على الفمراوى ، مدخل ، ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

(٨) ولد تاكيتوس سنة ٥٥ م ، وتلقى تعليمه كاهن لأحد الفرسان الرومان ، وترقى في سلك الوظائف وعين قنصلا عام ٩٧ م ثم حاكما لولاية آسيا سنة ١١٢ — ١١٣ م ، وتوفي سنة ١١٨ م وقد ترجم كتابه الى اللغة العربية ، ابراهيم على طرخان ، تاكيتوس والشعوب الجرمانية ، ط . القاهرة ١٩٥٩ .

أسمائها ، كان موطنها الأصلي البلاد المحيطة بالبحر البلطى ، وكانت بلادهم كثيفة بالغة القسوة ، مليئة بالغابات والأكراس والمستنقعات . وكان الجرمان يسكنون فى أكواخ مشيدة من الأغصان والطمى ويفضلون الحوب والقتال على زراعة الأرض . وإذا لم ينشغلوا فى أعمال حربية انصرفوا الى الصيد والراحة والدعة وموائد الخمر ، تاركين مسئولية المنزل والأرض الى النساء وكبار السن ، أما المحاربون فيمكنون الى الاسترخاء والبطالة(٩) .

وانتهزت القبائل الجرمانية ما حل بالامبراطورية الرومانية من انهيار وضعف ، وتحركت جنوبا فى المناطق الواقعة بين نهري الألب والراين ، وأصبح نهر الراين منذ منتصف القرن الأول قبل الميلاد نقطة حدود طبيعية تفصل بين الجرمان البرابرة وبين العالم الرومانى . وفى عهد الاسكندر سيفيروس Alexander Severus (٢٢٢ - ٢٣٥ م) أغار الجرمان فى أعداد قليلة داخل أقاليم الامبراطورية على طول نهري الراين والدانوب فى بداية الأمر ، ثم زادت أعدادهم بنسبة كبيرة فى منتصف القرن الثالث الميلادى . وفى سنة ٢٥٦ عبر الفرنجة Franks نهر الراين الأدنى وعبرت قبائل الألمان Alemanni نهر الراين فى الجنوب ووصلوا حتى شمال إيطاليا قبل أن تستطيع قوات الامبراطورية الوقوف أمام هذا الغزو . وكان القوط Goths أقوى القبائل الجرمانية قد قتلوا سنة ٢٥١ الامبراطور دكيوس Decius ، وتوسعوا فى قلب البلقان ، وأغاروا على سواحل بحر مرمرة وبحر ايجه والبحر الأسود . ورغم أن الامبراطور كلوديوس القوطى C'audius Gothicus (٢٦٨ - ٢٧٠ م) نجح فى إيقاف اغارات القوط جنوب الدانوب ،

(٩) انظر : طرخان ، تكتيوس ، ص ٤٧ - ٧٣ ، سعيد غاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ص ٦١ - ٦٥ ، اسحق عبيد ، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ص ١٠٥ - ١٠٩ ، اسحق عبيد ، من الآراك الى جستينان ، ص ١١ .

وذلك عن طريق مبالسة بعض القبائل القوطية واستخدامها في خدمة الامبراطورية ، واستيطانها في الأراضي المهجورة عند أطراف الامبراطورية ، الا أن الامبراطور أورليان Aurelian سحب سنة ٢٧٠ م آخر فرقة رومانية من ولاية داكيا Dacia وذلك بعد أن أدرك هذا الامبراطور أنه لا فائدة من الاحتفاظ بهذه الولاية لضعف تحصيناتها وكثرة نفقات حمايتها ، واستولى القوط على ما وراء ذلك (١٠) .

وتعرضت الامبراطورية الرومانية لخطر جديد من الشرق ، فدولة البارثيين أو الدولة الاشكانية التي نشأت على أنقاض مملكة السلوقيين، انقسمت الى دويلات منفصلة ، ونشأت في جنوب بلاد فارس أسرة من عبدة النار هزمت في ٢٢٤ - ٢٢٦ م أرتابانوس الخامس Artabanus V (أردوان الخامس) كبير ملوك الأشكانيين وقضت على دولتهم . وفي سنة ٢٢٦ توج أردشير الأول Ardashir — من أسرة ساسان — شاهنشاه وقامت الدولة الساسانية في بلاد الفرس . ورغب ملوك الساسانيين في احياء الامبراطورية الشرقية التي قضى عليها الاسكندر الأكبر وقادته . وادعى الساسانيون بأحقيتهم في الاستيلاء على مصر وآسيا الصغرى . واصطدمت جيوش الدولة الساسانية بالرومان عند أطراف أقاليم نهري دجلة والفرات والشام وأرمينية . وفي سنة ٢٦٠ هزم شابور الأول Shapur I الجيوش الرومانية وأسر الامبراطور فاليريان Valerian . وهكذا لنتهز الجرمان والفرس فرصة ضعف الامبراطورية الرومانية وأزمتها في القرن الثالث الميلادي وقاموا باغارات مستمرة على أطرافها (١١) .

Vryonis, Byzantium, p. 14.

(١٠)

Ibid., pp. 14—16.

(١١)

وعن قيام الدولة الساسانية ، انظر ارثر كريستنسن ، ايران في عهد الساسانيين ، ص ٧٢ - ٨٣ .

وفي وسط تلك الأزمات الطاحنة التي واجهت الامبراطورية في القرن الثالث وجد الرومان أن الوثنية لم تحقق لهم الا القليل من الراحة والأمان والطمأنينة • وتطلع سكان الامبراطورية الى الديانات الشرقية لما تمنحه للانسان من قوى روحية وراحة نفسية وجزاء في الحياة الأخرى • وساد الامبراطورية صراع نفسى نتيجة للانفلاس الروحي والفكرى • يضاف الى ذلك أن الديانات الشرقية نافست الوثنية ليس فقط في النواحي الروحية والدينية ، وانما في المستوى العالى لطقوسها أيضا • وبالتالي انتشرت في انحاء الامبراطورية في القرن الثالث ديانات مثل مثراس الفارسية Mithra وسيل Cybele والمسيحية واليهودية وايزيس واوزيريس • وبالتالي يوضح انتصار المسيحية في القرن الرابع ظاهرة انتشار مثل هذه الديانات الشرقية في القرن الثالث ووقوف المثقفين المسيحيين في وجه الديانات المنافسة للمسيحية (١٢) •

وفي تلك الأوقات الصعبة التي مرت بالامبراطورية الرومانية في القرن الثالث ، وفي ذروة عملية المخاض التي انتهت بظهور الدولة البيزنطية تولى عرش الامبراطورية دقلديانوس Diocletian (٢٨٤ — ٣٠٥) الذي عرف كإدارى قدير أكثر من جندي شجاع • وتدرج دقلديانوس في عدة مناصب إدارية من القاعدة حتى القمة رغم أنه كان يرغبى الأصل من إقليم ايليريا المطل على البحر الأدرياتي • وشاهد دقلديانوس المشكلات والأزمات التي أخذت تنخر في عظام الامبراطورية في القرن الثالث ، وازداد خبرة لتولييه وظائف متعددة أهله ليصبح من المصلحين الناجحين • وما أن تولى دقلديانوس عرش الامبراطورية سنة ٢٨٤ الا وأدرك أن هذه الامبراطورية العظيمة التي تعاني من مشكلات داخلية وغزوات الفرس والجرمان لا يمكن إدارتها بواسطة

حاكم واحد وبوسائل ادارية تقليدية ، لهذا أخذ على عاتقه ، وتبعه في ذلك قسطنطين الكبير فيما بعد ، القيام باصلاحات تميزت باقامة سلطة مركزية حازمة مع فصل تام بين السلطتين المدنية والعسكرية (١٣) .

وفي سنة ٢٨٦ بدأ دقلديانوس اصلاحه الادارى بأن جعل السلطة العليا في الامبراطورية في يد امبراطورين كل منهما يلقب بلقب أغسطس Augustus يحكم أحدهما الشطر الشرقى من الامبراطورية ، ويقوم الآخر بحكم الشطر الغربى منها . وفي سنة ٢٩٣ م قرر دقلديانوس أن يساعد كلا من الامبراطورين نائب اتخذ لقب قيصر *Caezar* يحل محل أغسطس بعد وفاته أو استعفائه . واستقر دقلديانوس في الولايات الآسيوية ومصر وجعل مدينة نيقوميديا مركزا له ، وعين رفيق بسلاح قديم له اسمه ماكسيميان *Maximian* أغسطس على الغرب يحكم إيطاليا وأفريقية وأسبانيا ومقره مدينة ميلان . أما القيصران فهما جاليريوس *Galerius* الذى حكم شبه جزيرة البلقان وولايات الدانوب المجاورة ، ومركزه مدينة صيرميوم *Sirmium* وهو قيصر لدقلديانوس ، وقسطنطيوس خلوروس *Constantius Chlorus* (والد قسطنطين الكبير) الذى حكم غاليا وبريطانيا ومركزه في مدينة تريفيس *Treves* ومدينة يورك *York* وكان قيصرا لماكسيميان .

ويلاحظ أن الغرض الأساسى مما قام به دقلديانوس هو منع قيام الجند بتنصيب الأباطرة وعزلهم ، واعتبر هؤلاء الحكام الأربعة أنهم يحكمون امبراطورية رومانية واحدة غير منقسمة ، وكل المراسيم والأوامر والقرارات الامبراطورية تصدر بأسماء الأربعة . وتجدر الإشارة الى أن الامبراطورية أدركت ضمينا — وقتذاك — بوادر الاختلاف بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى ، وأن ادارة الامبراطورية لا يمكن أن تتم بواسطة حاكم واحد . وحقق هذا الاصلاح الادارى في عصر دقلديانوس النجاح ، وأمد الامبراطورية بحكومة قوية استطاعت

أن تقف في وجه الغزوات الخارجية ضد الامبراطورية ، ولكن الى حين(١٤) •

وقام دقلديانوس — كما فعل قسطنطين فيما بعد — بالفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية بأن قسام بحرمان حكام الولايات من السلطات العسكرية ومن قيادة الجيوش داخل ولاياتهم مما أدى الى زيادة سلطة الحكومة المركزية • وأبعد أعضاء مجلس السناتو (الشيوخ) من النبلاء عن تولي وظائف كبيرة في الجيش ، وعين في الوظائف العسكرية رجالا من الفرسان أى من الطبقة الوسطى الذين ألهتهم كفاءاتهم لتولى هذه المناصب(١٥) •

أما عن مشكلة الدفاع عن الامبراطورية ضد اغارات الفرس والجرمان فقد قام دقلديانوس باتخاذ اجراءات عسكرية هامة اذ أنه قام باصلاح قلاع الحدود القديمة ، وشيد قلاعاً جديدة ، وأصلح أسوار المدن ، وحشد فرقة عسكرية جديدة للدفاع عن الامبراطورية وحماية سلطة الامبراطور من الطغاة المفتصبين سميت باسم قوات رفاق الامبراطور أو الحرس الخاص Comitatuses • وجهاز دقلديانوس جيشاً آخر لحماية حدود الامبراطورية سمي باسم حرس الحدود Limitanei ليرابط على الراين والدانوب والفرات • ويتم توزيع الأراضي الواقعة عند حدود الامبراطورية على حرس الحدود لزراعتها مقابل الخدمة الحربية والدفاع عنها ، فتكونت طبقة الجند المزارعين التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ الدولة البيزنطية • ولما كانت هذه

Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 62 — 63 ; Vryonis, (١٤)

Byzantium, pp. 16 — 18 ; Hussey Byzantine World, p. 14 ;

العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ٢١ ، سيد الناصري ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٣٣٠ — ٣٣٧ •

(١٥) بيتز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣ ، انظر ايضا نشر ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢ — ٤ •

الاجراءات غير كافية لمواجهة غارات الجرمان ، جيز دقلديانوس جيوشا ميدانية خفيفة متحركة *Vexillationes* ثوابط في قلب الولايات في المدن الهامة ، ومنها تنتقل بسرعة الى ميادين القتال ، ولم يعد للفرقة القديمة الثقيلة *Legio* المسماة قيمة كبيرة . ورابطت هذه الجيوش الخفيفة في آسيا الصغرى ووسط البلقان لحماية ولايات الامبراطورية من غارات البرابرة اذا اخترقوا الحدود . وفي عاصمة الامبراطورية اُضيفت قوات جديدة الى القوات التي تصاحب الامبراطور (١٦) .

غير أن اصلاحات دقلديانوس وزيادة أعداد العسكريين والمدنيين أدت الى زيادة كبيرة في نفقات الدولة ، فاعادة تنظيم وإدارة ولايات الامبراطورية زاد من عدد كبار الموظفين قوى الرواتب الكبيرة مما أرهق الدولة . ولم تقض هذه الاصلاحات على مشكلة غش العملات النقدية وزيادة التضخم النقدي وزيادة الأسعار ونفقات المعيشة . وتدل لائحة الأسعار التي صدرت سنة ٣٠١ م على مدى اهتمام الحكومة بهذه المشكلات الاقتصادية ، وكذلك على فشلها في وضع حد لزيادة نفقات المعيشة . واحتوت لائحة الأسعار هذه على أسعار السلع المختلفة مثل القمح والشعير واللحوم والخضروات والفواكه المختلفة والسمك وأنواع المنسوجات وأدوات الكتابة وخلافه فضلا عن أجور الحرفيين . ولم تنفذ هذه اللائحة بكل دقة ، لأن الدولة لم تكن المنتجة للسلع حتى تستطيع التحكم في أسعارها ومصادر انتاجها بالإضافة الى التغير الذي حدث للقيم النقدية (١٧) . وعندما تأكد دقلديانوس من نقص متحصلات

(١٦) Ostrogorsky, *Byzantine State*, pp. 42 — 43 ; Vryonis, *Byzantium*, pp. 19 — 20 ; Baynes, *Byzantine Studies and Other Essays*. London, 1955, pp. 181 — 5 :

العربى ، الدولة البيزنطية ، ص ٢٥ ، سيد الناصرى الامبراطورية الرومانية ، ص ٣٤١ — ٣٤٢ .
(١٧) عن لائحة الأسعار التي أصدرها دقلديانوس سنة ٣٠١ انظر ، سيد الناصرى ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٣٤٦ — ٣٥٠ .

الضرائب النقدية الواردة لخزانة الامبراطورية ، أعاد فرض الضريبة القديمة التي كانت تجبى نوعا *Annona* ضريبة القمح . وأصبحت هذه الضريبة تجبى على شكل محصولات زراعية أو منتجات حيوانية ، وقصدت الدولة باعادة هذه الضريبة القديمة القضاء على غش العملات النقدية وثبيت الأسعار ، وضمان التصاق المزارعين بالأرض لزراعتها . وحرص الامبراطور على ضرورة تقدير ضريبة الأراضي الزراعية وتعدد أنواع المحاصيل . وساعد ذلك الحكومة على تقدير ميزانية سنوية معتمدة على الانتاج الزراعى للامبراطورية . أما التجار والحرفيون فى المدن فلم يدفعوا ضريبة الأثونا ، بل كانوا يدفعون ضريبة نقدية كل خمس سنوات عرفت باسم *Chrysargyron* (١٨) .

ولم يستطع دقلديانوس — الذى ظل وثنيا — أن يحل مشكلة قصور الوثنية وما تبع ذلك من عدم شغل الحاجات النفسية لسكان الامبراطورية . ومنذ نهاية القرن الأول الميلادى وحتى اعتراف قسطنطين الكبير بالمسيحية كان الموت ينتظر كل من اعتنق المسيحية . ورغم هذا التهديد الا أن المسيحية انتشرت بين طبقات المجتمع . ووجد بعض الأباطرة — الذين اعتقدوا بأن انقضاء الامبراطورية ان يتحقق الا عن طريق اتباع الطقوس الوثنية الرومانية — فى المسيحية خطرا يهدد كيان الامبراطورية ، وعملوا على طمس معالم المسيحية واستئصالها والقضاء على أتباعها قبل أن تتأصل جذورها فى الأرض . وبدأت سلسلة من الاضطهادات ضد المسيحيين ، فعلى سبيل المثال أصدر الامبراطور سفيريوس عام ٢٠٢ مرسوما يحرم اعتناق المسيحية ، وأمر بتطبيق هذا المرسوم بصرامة متناهية . وفى عام ٢٥٠ أصدر الامبراطور دكيوس *Decius* مرسوما يقضى بالزام كل مواطن بالحصول على شهادة من الجهات المسئولة تفيد أنه قام بتقديم القرابين للالهة

الوثنية ، وأنه سكب الزيت على الأرض اكراما لها • وقد تعرض الذين رفضوا الامتثال لمرسوم الامبراطور للاضطهاد والعذاب بصورة وحشية (١٩) • ويرى الأستاذ فريونى Vryonis أن الامبراطور دكيوس اضطهد المسيحيين ، لا لأنه استخف وأزدرى المسيحية ، بل لأن المسيحيين رفضوا تقديم القرابين للالهة الوثنية ، في الوقت الذى رأى هذا الامبراطور أن أمن الدولة لن يتحقق الا بالمصالحات للالهة الوثنية ، ومعنى هذا أن اضطهاد دكيوس للمسيحيين كان ذا دوافع سياسية أكثر من كونها دوافع دينية (٢٠) •

أما الامبراطور دقلديانوس فقد حرص في معظم سنوات حكمه على اتباع سياسة تسامح دينى مع المسيحيين • وكان القيصر جالوريوس Galerius — نائب دقلديانوس في الشرق — معارضا عنيدا للمسيحية ومن ألد أعدائها ، وبذل جهده لدفع دقلديانوس على اضطهاد المسيحيين • وفيما بين سنتى ٣٠٢ — ٣٠٥ أصدر دقلديانوس وجالوريوس أربعة مراسيم تحث على اضطهاد المسيحيين ، بما في ذلك حرق الأنابيل والكتب الدينية ، ومنع المسيحيين من التجمع ، وتحريم القيام بأى صلوات أو طقوس دينية واعتبارهم خارجين عن القانون ، وقتل كل الرجال والنساء والأولاد الذين رفضوا تقديم القرابين للالهة الوثنية (٢١) • وكان وقع الاضطهاد شديدا على الأقباط في مصر لدرجة أنهم اتخذوا من سنة ٢٨٤ م ، وهو تاريخ تولية دقلديانوس حكم الامبراطورية ، بداية للتقويم القبطى (٢٢) •

(١٩) انظر جوزيف نسيم يوسف ، مجتمع الاسكندرية في العصر المسيحي (حوالى ٤٨ — ٦٤٢) في كتاب مجتمع الاسكندرية عبر العصور ، ص ٨٣ — ٨٥ •

Vryonis, Byzantium, p. 23.

(٢٠)

Ibid., p. 23.

(٢١)

(٢٢) جوزيف نسيم يوسف ، مجتمع الاسكندرية في العصر المسيحي •

ص ٨٦ — ٨٧ •

وكان انتصار المسيحية هو في الحقيقة تاريخ ظهور الدولة البيزنطية في عصر قسطنطين الكبير . ففي سنة ٣٠٥ مرض دقلديانوس وتقدم به السن فتنزل هو وماكسيميان عن لقبهما الامبراطوري واعتزلا العمل السياسي ، وأصبح جالوريوس حاكما للقسم الشرقي للامبراطورية خلفا لدقلديانوس ، في حين أصبح قسطنطيوس (والد قسطنطين) حاكما للقسم الغربي خلفا لماكسيميان . وكان قسطنطيوس قد عرف بمواقفه السلمية تجاه المسيحيين ، غير أنه توفي فجأة في السنة التالية ٣٠٦ في بريطانيا مركز حكمه وخلفه ابنه قسطنطين (٢٣) . وفي سنة ٣١١ مرض جالوريوس مرضا عضالا أعقد أن سببه هو انتقام آله المسيحيين له ، لهذا أصدر فجأة مرسوما يمنع فيه اضطهاد المسيحيين وعفا عنهم ، وأعلن حقهم في الوجود . ويبدو أن هذا المرسوم لم ينفذ بصورة فعلية (٢٤) .

ففي تلك السنة ٣١١ ودقلديانوس لا يزال على قيد الحياة (مات سنة ٣١٢) شبت حرب أهلية ، وأعلن الثائرون خلع جالوريوس من منصبه وتعيين Maxentius ماكسنتيوس بن ماكسيميان . واغتم قسطنطين موت ماكسيميان وجالوريوس واتحد مع الأعسطس الجديد ليكيينيوس Licinius وتمكنا سنة ٣١٢ من هزيمة ماكسنتيوس في معركة فاصلة تسمى وقعة جسر ملفيان Milvian Bridge على نهر التيبر قرب روما . وغرق ماكسنتيوس في نهر التيبر أثناء محاولته الهرب من

(٢٣) كان قسطنطين ابنا غير شرعى للامبراطور قسطنطيوس خوريوس Constantius Chlorus من عشيقته هيلينا (هيلانه) الذى اتام معها عدة سنوات في بينينيا Bithynia ثم هجرها سنة ٢٨٩ ليتزوج من ثيودورا Theodora ابنة زوجة الامبراطور ماكسيميان . وتربى قسطنطين في القصر الامبراطوري في نيقوميديا حيث تطلع منذ صغره على اسرار الحكم والسياسة ، انظر سيد الناصري ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٢٥٧ .

(٢٤) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 50 — 51 ; Vryonis, Byzantium, pp. 23 — 24.

المعركة • واجتمع بعد ذلك قسطنطين وليكينيوس عند مدينة ميلان في مارس ٣١٣ وأعلن التسامح الديني للمسيحيين وأصدرا وثيقة سميت خطأ باسم مرسوم ميلان ، ذلك لأن النص الأصلي للوثيقة لم يعثر عليه • ولم تكن هذه الوثيقة مرسوما ولكنها رسالة موجهة الى أحد حكام الولايات في آسيا الصغرى والشرق عامة (حاكم نيقوميديا) ، تحتوى على توجيه بحسن معاملة المسيحيين وتوضح سياسة التسامح التى اتبعتها الدولة تجاههم (٢٥) •

والحقيقة أن هذه الرسالة الصادرة من قسطنطين وليكينيوس عبارة عن تأكيد لما ورد في مرسوم جاليريوس الصادر في سنة ٣١١ • وأعطت هذه الرسالة المسيحيين وغيرهم من معتنقى الديانات الأخرى كامل الحرية في اتباع العقيدة التى يختارونها ، وبالتالى أصبحت المسيحية ديانة معترف بها كغيرها من الديانات في الامبراطورية • وحثت هذه الرسالة حكام الولايات على عدم اضطهاد المسيحيين وأن يرد اليهم أماكن تجمعاتهم التى اعتادوا التجمع فيها للعبادة والتى صودرت أو اشتراها بعض الأفراد • واحتوت الرسالة أيضا على وعد باعادة ممتلكاتهم المصادرة ، ودفع التعويضات اللازمة من الخزانة الامبراطورية للذين اشتروها (٢٦) •

وتجدر الاشارة الى أن انتصار المسيحية تحقق في عصر قسطنطين الكبير • ولم يكن في ذلك اعتراف بحقها في الوجود فقط ، بل وفي وضعها

(٢٥): Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 50 — 52 ;
انظر اسحق عبيد ، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ص ٥٦ ، ولم يتم الصفاء بين قسطنطين وليكينيوس مدة طويلة ، اذ قام النزاع بينهما قتل فيه ليكينيوس سنة ٣٢٤ ، وانفرد قسطنطين بالحكم منذ ذلك التاريخ حتى وفاته سنة ٣٣٧ م .
(٢٦) انظر نص الرسالة في :

Ashour and Rabic, Fifty documents in Medieval History,
Cairo, 1971, pp. 9 — 10.

تحت حماية الدولة ، وهذا في حد ذاته ذو مغزى واضح في تاريخ المسيحية الأولى (٢٧) . فالمسيحية ظهرت قبل قسطنطين بحوالى ثلاثة قرون ولم يكن حتى عصر قسطنطين قد اعتنقها الا أقلية صغيرة في عالم البحر المتوسط ، لهذا كان انتصار المسيحية بالذات على ديانات شرقية أخرى يرجع بالدرجة الأولى الى تحمس وتفضيل الدولة لها ، ومثلها مثل الديانة الزردشتية عندما وقف حكام فارس الساسانيين الى جانبها واتخذوها دين الدولة مما أدى الى انتشارها (٢٨) .

واختلف الباحثون في شرح الدوافع الحقيقية لاعتراف قسطنطين بالمسيحية ، فال مؤرخ الكنسى يوسيبوس Eusebius أسقف قيسارية بفلسطين وصديق الامبراطور قسطنطين (٢٩) يعتقد بأن دوافع الامبراطور هى دوافع دينية أملتها الارادة الالهية . وهناك رواية تنسب — ربما خطأ — الى يوسيبوس أن قسطنطين قص عليه أنه رأى سنة ٣١٢ م قبيل خوضه معركة جسر ملفيان ضد خصمه ماكسنطيوس صليبا نورانيا على قرص الشمس يحيط بالأفق عند المغرب مكتوبا عليه بهذا ستنتصر (in hoc signo vinces) . ثم تراءى المسيح في الليلة التالية في حلم حاملا نفس العلامة مخبرا الامبراطور

Vasiliev, Byzantine Empire, I, p. 52.

(٢٧)

Vryonis, Byzantium, p. 22.

(٢٨)

وعن الزردشتية دين الدولة والصلوات الوثيقة بين الدولة والدين طوال العهد الساساني ، انظر كريستنس : ايران في عهد الساسانيين ، ص ١٢٠ — ١٦٨ .

(٢٩) ولد يوسيبوس حوالى سنة ٢٦٠ م في فلسطين ، واضطهد وسجن في قيسارية سنة ٣٠٦ . وفي سنة ٣١٣ وبعد انتصار المسيحية اخير اسقنا لخدمة قيسارية واصبح من اعلم واشهر رجال عصره ومن القريبين الى الامبراطور قسطنطين ، فقد اشترك في مجمع نيقية سنة ٣٢٥ وكان جالسا الى يمين الامبراطور ، كما اشترك في مجمع انطاكية سنة ٣٣١ وغيره من المجامع الكنسية . وكان يوسيبوس عالما واديبا عظيما كتب كتبها في التاريخ الكنسى وآخر عن حياة قسطنطين فضلا عن كتاباته في المسائل اللاهوتية والعقائدية ، ومات سنة ٣٤٠ ، انظر :

Eusebius, The Ecclesiastical History. London, 1926, Introduction, pp. ix — xxvii.

بأن يتقدم الى المعركة بالصليب • وعند الفجر قص قسطنطين رؤياه على رفاقه • ويقال ان الصليب كان مرسوما على دروع رجاله عندما خاضوا غمار معركة جسر ملفيان التي أتاحت له السيادة على الغرب ، وبالتالي اعتقد قسطنطين بأن آله المسيحيين أعطاء المساعدة والعون في فزاعه ضد خصمه ليكينوس(٣٠) •

ويقال أيضا أن تأثر قسطنطين بالمسيحية يرجع الى حد ما الى دور أمه هيلانه التي اعتنقت المسيحية ، واعتبرت فيما بعد قديسة (القديسة هيلانة) • وهيلانة ولدت في آسيا الصغرى وتزوجها قسطنطيوس أو عشقها ، وأنجبت له قسطنطين سنة ٢٧٤ ثم هجرها لأسباب سياسية سنة ٢٨٩ أو ٢٩٢ • ويبدو أن هيلانة لعبت دورا هاما في اعتناق قسطنطين بالمسيحية ، وعملت على رفع شأنها في جميع أنحاء ورية بعد سنة ٣١٣ ، فزارت بيت المقدس ، حيث وزعت العطايا والهبات بسخاء ، وساهمت في تشييد الكثير من الكنائس • ويقال انها أثناء زيارتها لبيت المقدس اكتشفت صليب الصلبوت • ولم يذكر أحد من المؤرخين المعاصرين شيئا عن دور هيلانة في مسألة العثور على خشبة الصليب ، كما يرجح بعض الباحثين أنها توفيت قبل اكتشافه(٣١) •

Vasiliev, Byzantine Empire, I, p. 50 ; Vryonis, Byzantium, (٣٠)
p. 24 ;

بل : مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ ،
عبد القادر اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٣ ، اسحق عبيد ،
الامبراطورية الرومانية ، ص ٥٥ — ٥٦ ، سيد الناصري ، الامبراطورية ،
ص ٣٦٢ •

(٣١) انظر اسحق عبيد ، قصة عثور القديسة هيلانه على خشبة
الصليب اسطورة ام واقع ؟ ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٧
(١٩٧٠) ص ٥ — ٢١ •

ويرى البعض أن سياسة قسطنطين الدينية قد أملت ضرورات سياسية ، وأنه أدرك بذلك أن المسيحية سوف تصبح قوة عالمية (٣٢) . والدليل على ذلك أنه أدرك أن اضطهاد المسيحية لم يعق انتشارها ، بل ازداد المسيحيون تمسكا بها . يضاف الى ذلك أن قسطنطين أدرك أن دعوة المسيحية للمساواة والسلام والمحبة والائثار تحتّم ضرورة اتباع سياسة ايجابية نحوها حتى تستطيع أن تملأ حاجات الناس النفسية مع قصور الوثنية . يضاف الى ذلك أن قسطنطين وجد أن الامبراطورية سوف تعتمد بشكل رئيسي في مواردها المالية على ولاياتها في آسيا الصغرى والشام ومصر ، حيث انتشرت المسيحية بعد مخاطر القوط والفرس وغيرهم ، مما رأى معه ضرورة كسب ولاء سكان الولايات الشرقية حفاظا على وحدة الامبراطورية .

وكيفما كان الأمر ، فاعتراف قسطنطين بالمسيحية لم يكن يعنى منحها حق وجود شرعى مماثل للوجود الوثنى فحسب ، بل كان يعنى تثبيت دعائمها وتمهيد الأرض لازدهارها . فقد منح الامبراطور رجال الدين المسيحيين نفس الحقوق والامتيازات التي كان يتمتع بها كهنة الديانة الوثنية ، وأعفوا من الضرائب وتأدية الوظائف المدنية حتى يتسنى لهم تأدية واجباتهم الدينية . وازدادت الكنائس غنى نتيجة ما كان يصل اليها من هدايا وأموال وهبات وأراض وأملاك من الدولة ومن سكان الامبراطورية . وأعلى المسيحيون من حضور الاحتفالات الوثنية . ويقال ان قسطنطين أمر بتشييد عدد كبير من الكنائس في أنحاء الامبراطورية مثل كنيسة القديس بطرس في روما وكنيسة الصعود على جبل الزيتون وكنيسة المهد في بيت لحم . وزين قسطنطين فيما بعد عاصمته الجديدة القسطنطينية وما جاورها بعدد من الكنائس ، أشهرها

كنيسة الرسل وغيرها ، كما تم في عهد قسطنطين تشييد كنائس في أماكن أخرى في أنطاكية ونيقوميديا وشمال أفريقية (٣٣) .

ومن الجدير بالذكر أن الامبراطور قسطنطين الكبير رأى — بعد اغترافه بالمسيحية كديانة من الديانات المعترف بها في الامبراطورية — أن وحدة واحياء الامبراطورية تعتمدان على وحدة الكنيسة ، وبالتالي استخدم قوة الامبراطورية وعظمتها في محاولة لربء الصدع في النزاع الذى بدأ يظهر وقتذاك بين رجال الدين . وتصرف قسطنطين لا كإمبراطور رومانى Pontifex maximus بل كإمبراطور وبإسا بيزنطى في آن واحد Byzantine Caesaropapism . والدليل على ذلك أن الامبراطور قسطنطين عندما عقد في سنة ٣٢٥ في مدينة نيقية Nicæa أول مجمع دينى مسكونى (عالمى) لبحث رجال الدين العقيدة وشئون الكنيسة ، هو الذى بدأ بالدعوة الى هذا المجمع ، ودعا الأساقفة الى نيقية وجعلهم في ضيافة الدولة ، ورأس جلسات المجمع ووجه قراراته ، وفرض على الأساقفة القرارات اللاهوتية التى فضلها ، وترك بذلك بصمات واضحة على علاقات الكنيسة بالدولة في الشرق . ومعنى هذا أن الامبراطور البيزنطى أصبح سيد الكنيسة والمتمسك في شئونها ، مما كان له أثر كبير في تاريخ الكنيسة الشرقية (٣٤) .

وكانت أهم القضايا التى بحثها مجمع نيقية المسكونى آراء أحد كهنة مدينة الاسكندرية ويدعى آريوس Arius الاسكندرى (حوالى ٢٥٠ — ٣٣٩) الذى كان يقول بأن المسيح مخلوق بشر ، وأنه أقل من الأب في الجوهر ، وبالتالي فإنه أقل منه مرتبة . وأضاف بأنه لايد أن

Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 52 — 53. (٣٣)

Vryonis, Byzantium, pp. 25 — 26: Hussey, Byzantine (٣٤)

world, p. 12.

يكون هناك وقت لم يكن فيه المسيح مخلوقا ، وكان فيه الله الخالق وحده . فأنكر آريوس ألوهية المسيح ، وأنكر صفة الشبه بين الأب والابن ، وأثار بذلك عاصفة من الاحتجاج والانقسام في العالم المسيحي ، مما جعل الامبراطور قسطنطين يهتم بأمر هذا الانشقاق ويوجه الدعوه الى جميع الأساقفة في الامبراطورية للاجتماع في مجمع مسكوني في نيقية . ولبي الدعوة ٣١٨ أسقفا من أساقفة العالم المسيحي منهم أساقفة روما والاسكندرية وقرطاجنة وأنطاكية ونيقوميديا وغيرهم . ودامت جلسات المجمع سبعة وتسعين يوما برئاسة الامبراطور (٣٥) . ولعب الثماس السكندري أثناسيوس Athanasius الذي لم يكن تجاوز — وقتذاك — التاسعة والعشرين من عمره دورا هاما في هذا المجمع . فقد شرح هذا الثماس السكندري الذي صار فيما بعد أسقفا لكرسى الاسكندرية ، لمثل كنائس العالم معنى الايمان ، ثم فند آراء آريوس في براعة واقتناع . ورأى أثناسيوس أن آراء الأريوسيين مصيرها الى الزوال والفناء ، لأنه : « كما أن الأب أزلي يجب أن يكون الابن أيضا أزليا ، لأن كل ما نراه في

(٣٥) من أحسن الكتب التي عالجت موضوع مجمع نيقية في دراسة

مستفيضة :

Stanley, Lectures on the History of the Eastern Church, London, 1908, pp. 52 — 174.

انظر أيضا عن مجمع نيقية :

Daoud, 'Alexandria and the early church councils', in *Cahiers d'Alexandrie*, Serie II (1964), pp. 51 — 54 ; Nichols, The Growth of the Christian church, Philadelphia, 1941, pp. 55 — 56 ;

اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٥٥ — ٥٩ ، العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ٢٨ — ٢٩ ، ميشيل جرجس ، الكنيسة المصرية ، ص ٧٠ — ٧١ ، جوزيف نسيم يوسف ، مجتمع الاسكندرية في العصر المسيحي ، ص ١٠٨ — ١١٥ ، اسحق عبيد ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٨٣ -

الأب يجب أن يكون بلا جدال فى الابن ، الأب نور والابن شعاع ونور حقيقى ، الأب آله حق والابن آله حق » (٣٦) .

واخيرا رفض المجمع آراء آريوس وقرر أن الابن أى المسيح من نفس جوهر الأب Homoousios ، وبالتالي قرر قدسية المسيح وأنه آله حق من آله حق . وهذا بدأت أسس العقيدة المسيحية تتكون وتأخذ شكلا محددًا . وقرر المجمع حرمان آريوس ووضع قانونا عاما للايمان المسيحى أوله (نؤمن بآله واحد) أى أن الثالوث واحد لا ينقسم ، كما وضع قانونا لأصل نظام الكنيسة وانتخاب رعاتها وتأديبهم . وقرر المجمع أيضا منع الزواج الثانى لمن كان متزوجا من رجال الدين المسيحى وماتت زوجته (٣٧) .

..... * هذا التعاون بين الكنيسة والدولة الذى
أبى كثير من المشاكل ، اذ أصبحت الدولة
بيروقراطية مدنية فصاروا مجبرين على أن تكون طرفا فى كل
الخلافا والمنازعات الكنسية ، وبالتالي لم تعد الخلافات المذهبية
من خصوصيات الكنيسة وحدها ، بل كانت تتأثر بالظروف السياسية .

وبعد أن اعترف قسطنطين الكبير بالمسيحية كديانة من ديانات
الامبراطورية كان لابد لاكتمال ظهور الدولة البيزنطية أن
تشيّد مدينة مسيحية الصبغة لتكون عاصمة للدولة بدلا من روما
التي ظلت حصنا للوثنية الى وقت ليس بقصير ، لهذا نقل قسطنطين
عاصمة الامبراطورية الى شواطئ البوسفور فى الشرق . ومن المعروف
أن بعض أباطرة الرومان حاولوا منذ عهد يوليوس قيصر (قتل
سنة ٤٤ ق م) الانتقال بعاصمتهم الى الشرق . فقد فكر يوليوس

(٣٦) انظر رسائل اثناسيوس الرسولى عن الروح القدس ، تعريب
القس مرقس داود ، الرسالة الثانية ، ص ٨٦ — ٨٨ .
(٣٧) ميشيل جرجس ، الكنيسة المصرية ، ص ٧١ .

قيصر في جعل الاسكندرية أو طروادة في آسيا الصغرى عاصمة له .
 وسبق القول بأن ققلايانوس جعل مقر حكمه مدينة نيقوميديا في آسيا
 الصغرى عندما احتفظ لنفسه بالجزء الشرقي من الامبراطورية (٣٨) .
 ولانسك أن نقل مركز الثقل السياسي للامبراطورية من الغرب الى
 الشرق من مدينة روما الى مدينة قسطنطين الجديدة كان حدثا هاما .
 فالشرق كان أغنى بموارده الاقتصادية وأكثر سكانا من الغرب .
 وكان نقل العاصمة الى الشرق تخلصا من مشكلات هربية واجهت
 الامبراطورية في الغرب خاصة في الدانوب الأدنى ، حيث اشتدت
 هجمات الجرمان البرابرة ، كما كان لابد من الوقوف في وجه الخطر
 الفارسي الساساني الذي بدأ يزداد — وقتذاك — وادعى الحق في
 استرداد جميع الأقاليم التي كانت تابعة للامبراطورية الفارسية
 القديمة (٣٩) .

وفي سنة ٣٣٤ بعد انتصار قسطنطين على شريكه ليكيانيوس
 وانفراده بحكم الامبراطورية بدأ في بناء عاصمته الجديدة (القسطنطينية)
 على البوسفور بجوار خرائب مستوطنة بيزنطة اليونانية . وأقام
 هذه المستوطنة اليونانية مجموعة من الاغريق سكان مدينة ميجارا ،
 تلك المدينة البحرية التي كانت من أنشط مدن هيلاس (اليونان) .
 ويرجع الفضل في اختيار موقع مستوطنة بيزنطة القديمة الى القائد
 البحري بيزاس Byzas الذي سميت باسمه . وبقيت مستوطنة بيزنطة
 ذات مركز تجاري هام ، لأن أوروبا كانت تقف خلفها وآسيا أمامها ،
 ويحمي الماء جانبيين من جوانبها ، ويحمي الجانب الثالث سور قوي
 لا تتحكم فيه أية مرتفعات مجاورة . وكان موقعها الممتاز سببا لتنازع
 الحن الأيونية من ناحية ، والفرس من ناحية أخرى للاستيلاء عليها .
 ومنذ سنة ٤٧٠ ق.م ارتبط مصير مستوطنة بيزنطة بمصير مدينة أثينا.
 وظلت وفية لها أثناء الحرب البيلوبونيسية . ثم بدأت علاقة بيزنطة

Vasiliev, Byzantine Empire, I, p. 58.

(٢٨)

Ostrogorsky, Byzantine State, p. 44.

(٣٩)

بروما • وفي سنة ١٩٦ م دمرتها الجيوش الرومانية بقيادة سبتيميوس سيفيروس لانضمامها الى منافس له ، وحولها الى مجرد قرية تابعة لادينة برنثوس Perinthus المجاورة لها (٤٠) • وقد اختار قسطنطين هذا الموقع الاستراتيجي الممتاز بجوار خرائب مستوطنة بيزنطة القديمة لتشييد عاصمته •

وتنقص أسطورة من الأساطير أن قسطنطين الكبير سار على قدميه وخلفه حاشيته ، ورسم بحريته حدود المدينة مدعيا بأنه يتبع دليلا خفيا يسير أمامه ليريه حدود مدينته (٤١) • وفي يوم ١١ مايو سنة ٣٣٠ احتفل بتدشين العاصمة الجديدة التي أطلق عليها اسم روما الجديدة ، الا أن الرجال أكثروا أن يطلقوا عليها اسم القسطنطينية نسبة الى مؤسسها قسطنطين • ولهذه المناسبة أمر قسطنطين بسك عملات برونزية صغيرة تخليدا وتذكارا لهذه المناسبة • وقد تم سك هذه العملات في مدينة روما (٤٢) • ويرى شارل ديل Charles Diehl وغيره أن يوم ١١ مايو سنة ٣٣٠ ، وهو يوم تدشين القسطنطينية ، هو اليوم الذي تمت فيه ولادة الدولة البيزنطية (٤٣) • كما يؤكد رنسيمان Runciman أن عام ٣٣٠ هو خير تاريخ يمكن اتخاذه نقطة بداية للتاريخ البيزنطي (٤٤) •

(٤٠) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 57 — 58 ;

انظر لومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٣ — ٧ ، ١١ ، السيد الناصري ، الاغريق تاريخهم وحضارتهم ، ص ١٦٦ — ١٧١ ، عبد القادر اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٩ .
(٤١) لومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٧ ، جيون ، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ج ١ ، ص ٤٩٨ .

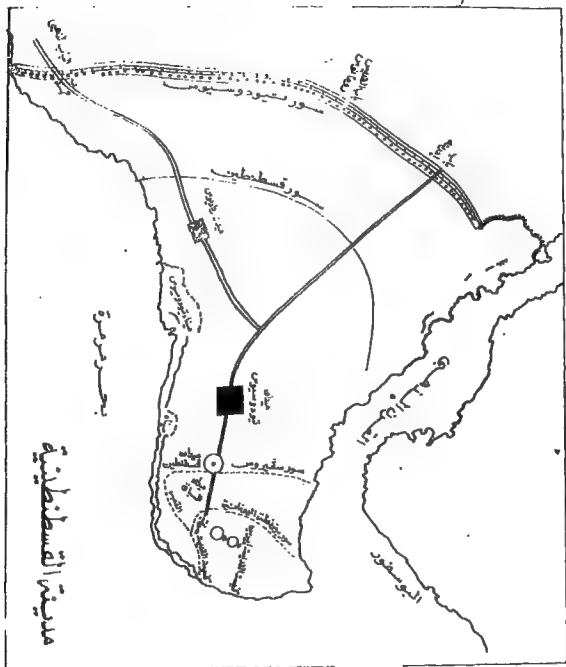
(٤٢) Alföldi, A., 'On the foundation of Constantinople :

A few notes", in *The Journal of Roman Studies*, Vol. 37 (1947), p. 10.

Charles Diehl, *Byzantium, Greatness and*

(٤٣) Decline, New Brunswick, New Jersey, 1957, p. 5 ; Moss, *The Formation of the East Roman Empire*, in *Cam. Med. Hist.* Vol. 4, Part 1, p. 2.

Runciman, *Byzantine Civilization*, London, 1966, p. 14. (٤٤)



والحقيقة. أن الامبراطور قسطنطين الكبير شيد مدينة أصبحت أنظمت مدينة في أوروبا العصور الوسطى لقرون طويلة . وكان موافقا في اختيار موقع العاصمة الجديدة عند نقطة التقاء قارتي آسيا وأوروبا ، وتحتل مثلثا من الأرض يحتضنها البوسفور من الشرق ، ويطل عليها القرن الذهبي من الشمال ، وبحر مرمرة Propontis من الجنوب ، ولا يفكّن الوصول إليها برا إلا من جهة واحدة ، وهذا جعلها مدينة حصينة آمنة من أى غزو برى أو بحرى . وتحكمت العاصمة الجديدة في الطريق الموصل بين أوروبا وآسيا ، وبين البحر الأسود والبحر الايجى والبحر المتوسط . وسرعان ما أصبحت القسطنطينية أهم مركز للتجارة الدولية (٤٥) . فقد تمتعت المدينة الجديدة بأحسن ميناء طبيعى في عالم العصور الوسطى ، فالقرن الذهبى يجمعها من التيارات البحرية والرياح ، وهو عميق في مياهه لدرجة أن يأوى إليه اعداد كثيرة من السفن . وأدى موقع القسطنطينية عند ملتقى الماء والطرق التجارية البرية التى تصل الشرق بالغرب ، والجنوب بالشمال الى أن أصبحت العاصمة مركزا وسوقا عالميا لتجارة الحرير، الوارد من الصين وتوابل الشرق والقمح المصرى والرقيق من الغرب والفراء من الشمال (٤٦) .

وقرر قسطنطين أن يجعل عاصمته الجديدة مهيأة لتلعب الدور الذى كان لروما القديمة . فأسس بها مجلسا للشيوخ (السناتو) ، وأمر بتشييد الأبنية الفخمة والحمامات والكنائس والقاعات واليادين والحدائق وملاعب السباق Hippodrome . وأمد سكانها بالخبز بدون

أنظر (٤٥) Bréhier, L., 'Constantin et la fondation de Constantinople', *Revue historique*, cxix (1915), pp. 124 ff.; Moss, The Formation of the East Roman Empire, pp. 5—10; Vasiliev, Byzantine Empire, I, p. 60; Hussey, Byzantine World, p. 11;

العربى ، الدولة البيزنطية ، ص ٢٦ — ٢٧ ، بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٧ — ٨ .

Vryonis, Byzantium, p. 27.

(٤٦)

«مقابل» ، وشجع رعاياه على الاستقرار في عاصمته . يضاف الى ذلك أن القسطنطينية كانت تتميز منذ تأسيسها بالطابع الميحي الواضح في كل نواحي الحياة فيها ، وعدم الصلة بالماضى الوثني (٤٧) .

وإذا كان اعتراف قسطنطين الكبير بالمسيحية سنة ٣١٣ وتشييده لعاصمة مسيحية جديدة سنة ٣٣٠ يحددان بداية عصر جديد تم فيه صيرورة الدولة البيزنطية بصبغة مسيحية شرقية ، الا أن هذه الدولة تعرضت لثلاث هزات أو لزلات عنيفة كادت تعصف بها وبمستقبلها ، وهذه الهزات أو الزلات هي :

١ - حركة الارتداد إلى الوثنية أو بعث الوثنية في عصر الإمبراطور جوليان .

٢ - التهديد الجرمانى .

٣ - الخلافات الدينية المذهبية .

أما عن حركة الارتداد إلى الوثنية فتكمن خطورتها في أن المسيحية انتصرت كما سبق القول - لأن الإمبراطور قسطنطين ساندتها ووقف

عنها (٤٧) ، ومن أهم معالم القسطنطينية وشوارعها وتصويرها وكتبتها وصناعاتها ، انظر :

Charles Diehl, Byzantinism, pp. 94 — 111 ; Ostrogorsky, Byzantine State, pp. 45 — 46 ; Vyronis, Byzantium, pp. 26 — 27 ;
بينما ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٣ — ١٥ ، إومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٨ — ٢٠ ، وأورد ابن رسته (الأعيان النفيسة ، ص ١١٠ — ١٢٢) حديث هارون بن يحيى في وصف القسطنطينية التي كان قد سبى وجمال إليها ووصفها بأنها « مدينة عظيمة » وتحدث عن أسواقها وقصورها وميدان الضيق الذي سماه البفرون Hippodrome .
انظر أيضا وصف الرحالة ابن بطوطة لقسطنطينية القسطنطينية الخطي التي زارها وتحدث عن أسواقها وشوارعها وكتائسها وأديرتها (رحلة ابن بطوطة ، ص ٣٤٤ — ٣٥٥) .

بجوارها ، وبالتالي كادت المسيحية أن تصاب بنكسة خطيرة عندما وقف الامبراطور جوليان المرتد الى جانب الوثنية محاولا اعلدتها واسترداد مجدها وعظمتها المندثرة ، ولم يمض بعد ربع قرن من الزمان على وفاة قسطنطين .

فيعد وفاة قسطنطين الكبير سنة ٣٣٧ قسمت الدولة البيزنطية بين أبنائه الثلاثة قسطنطين الثاني وقسطنطيوس وقنسطانز ، وتلقب كل منهم بلقب أغسطس . وشب نزاع بين الأخوة الثلاثة قتل خيلا قسطنطين الثاني سنة ٣٤٠ ثم قنسطانز سنة ٣٥٠ ، واستطاع قسطنطيوس توحيد الامبراطورية في تلك السنة ٣٥٠ واستمر حكمه حتى سنة ٣٦١ . غير أن المشكلة التي واجهت قسطنطيوس بعد مقتل أخويه كانت مشكلة وراثة العرش لأنه لم يكن لديه أولاد . ولم يبق من أسرة قسطنطين سوى جالوس Gallus وجوليان Julian ولدي عمه . وعين الامبراطور قسطنطيوس جالوس قيصر ، غير أنه أثار زبنة الامبراطور فدبر اغتياله سنة ٣٥٤ ، وعين جوليان في السنة التالية ٣٥٥ قيصر ، وزوجه من أخته هيلينا Helena . وأرسله على رأس جيش الى غاليا للوقوف في وجه الجرمان . ونجح جوليان في هزغارات الجرمان عبر نهر الراين ، وهازب واعجاب جنوده . وعندما مات قسطنطيوس سنة ٣٦١ نودي بجوليان امبراطورا ، وكان آخر من حكم الامبراطورية من سلالة قسطنطين الكبير (٤٨) .

وما أن أصبح جوليان امبراطورا حتى أظهر الميل التي كان يخفيها . فقد كان معجبا بالفن والثقافة والمعرفة التي أوجدتها الحضارتان الوثنيتان اليونانية والرومانية . وقد أثار انتباه العلماء والكتاب خاصة أن ما كتبه هو شخصا يضاف ضوا على فلسفته

Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 65 — 66, 70 — 71 ; (٢٤٨) .
استحق عيب ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٦١ — ٦٢ .

وأعماله • وكان يشعر بعداء شديد للمسيحية ، لهذا أصدر قرارا بفتح المعابد الوثنية وتقديم القرابين للالهة الوثنية ، ونظم هيئة كهنوت وثنية على غرار هيئة الكهنوت المسيحية • ووصل عداء جوليان للمسيحية الى درجة أنه عزل المسيحيين من الوظائف المدنية والعسكرية ، وعين عوضا عنهم أشخاصا يدينون بالوثنية • ورفع الصلبان والرموز المسيحية التي كانت ترسم أو تنقش على أعلام الجيش ودروع الجنود وأبدلها بشارات وثنية • ومنع جوليان أيضا تعيين مدرسين من المسيحيين وقصر وظائف التدريس على الوثنيين حتى ينشأ الجيل الجديد على مبادئ الوثنية لا المسيحية (٤٩) •

أما عن العوامل التي دفعت جوليان الى هذا الاتجاه الوثني ، فمن المعروف أن السنوات الأولى من حياته كانت بالنسبة له سنوات قلق وخوف ، فقد ماتت أمه بعد ولادته ببضعة شهور ، وفقد والده وسنه ست سنوات ، وكان موضع مراقبة واضطهاد من الامبراطور قسطنطيوس الذي دبر أمر اغتيال بعض أفراد أسرته • وأجبره قسطنطيوس على الإقامة في قبادوقيا حيث تأثر بأستاذة ماردونيوس Mardonius وهو عالم يوناني برع في الأدب والفلسفة ، عرف جوليان بأهمات كتب الآداب القديمة ، في الوقت الذي تلقى فيه جوليان تعليمًا دينيًا من عالم مسيحي ، من المحتمل أن يكون يوسيبوس Eusebius ولهذا تلقى جوليان نوعين مختلفين من التعليم لم يتلاقيا • وأمره الامبراطور قسطنطيوس بعد ذلك بالانتقال الى نيقوميديا لمتابعة دراساته وقراءاته • وكان يقوم بالتدريس في نيقوميديا في ذلك الوقت الفيلسوف ليبانيوس Libanius أعظم علماء البلاغة في عصره • وأظهر جوليان ميلا واضحا نحو الآراء والمعتقدات الوثنية متأثرا بآراء ليبانيوس الذي كان يظهر فضائل الوثنية الهلينية ومساوى المسيحية •

Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 68 — 73.
Ostrogorsky, Byzantine State, pp. 49 — 50.

(٤٩)

وأكمل جوليان صلته بالأفكار والتعاليم الوثنية حين أمره قسطنطيوس بالانتقال إلى مدينة أثينا بعد مقتل أخيه جالوس . وكانت أثينا حاضرة العالم اليوناني القديم ومعقل الفلسفة الوثنية . وعبر جوليان في رسائله عن إعجابه الشديد بأثينا موطن سقراط وجدائدها وضواحيها . وإلى هذه الفترة من حياة جوليان يعزو الباحثون تخلي جوليان النهائي عن المسيحية واعتناقه الوثنية . وتجدر الإشارة إلى أن جوليان أخفى ميوله الوثنية خوفا من الامبراطور قسطنطيوس . وما أن أصبح جوليان امبراطورا حتى وجد الفرصة المناسبة للقيام بحركة ارتداد عن المسيحية إلى الوثنية (٥٠) .

غير أن جوليان لم يحكم سوى مدة قصيرة (٣١١ — ٣١٣) مما أنقذ الدولة البيزنطية من حركة الردة إلى الوثنية . وواجه معارضة وصعوبة في تحقيق هدفه ، ففي صيف ٣١٢ — على سبيل المثال — زار الامبراطور جوليان المرتد الأقاليم الشرقية ، وتوقف عند مدينة انطاكية التي كانت معتلا هاما من معاقل المسيحية في الشرق ، ووصف جوليان أهلها بأنهم اختاروا الكفر أي المسيحية في رأيه . وكان استقبال الامبراطور في انطاكية استقبالا فاترا يشوبه الكره . ورفض بسكانها المشاركة في احتفال وثني دعا إليه الامبراطور ، وتهكموا على لحيته الطويلة التي كانت شيئا غريبا لهيئة امبراطور من الأباطرة . وتأكد جوليان أثناء مقامه في انطاكية أن المسيحية راسخة الجذور وليس من السهل اقتلاعها . وفي ربيع سنة ٣١٣ غادر الامبراطور انطاكية لحرب الفرس حتى يقضى على غاراتهم على مملكة أرمينية وبلاد ما بين النهرين . وأصيب جوليان في معركة ضد الفرس بطعنة رمح أودت بحياته بعد ذلك بقليل . ولم يعرف من الذي طعن الامبراطور بهذا

Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 68—70 ;

(٥٠)

جيبون ، اضطلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ج ٢ ، ص ١٨ — ٤٥ ، عبد القادر اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٨ — ٢٩ .

الرمح ، ودارت روايات بأن المسيحيين هم الذين قتلوه . غير أن ما يهنا هنا هو أنه بموت جوليان المرتد — آخر أباطرة أسرة قسطنطين الكبير — ماتت معه محاولته لبحث الوثنية من جديد ، وانقضت المسيحية مرة أخرى وصبغت الدولة البيزنطية بصبغتها الخاصة (٥١) .

وتعرضت الدولة البيزنطية في نهاية القرن الرابع الميلادي لأخطار لا يقل خطورتها عن خطر بحث الوثنية ، فقد انسابت القبائل الجرمانية مغيرة على أقباليم الدولة في الشرق . ومن الجدير بالذكر أن القوط حددوا الدولة البيزنطية ذاتها في الشرق قبل توغلهم في الغرب . فمع بداية القرن الأول الميلادي استقر القوط على الشواطئ الجنوبية للبحر البلطى ، وحوالى النصف الثانى من القرن الثانى هاجروا جنوبا حيث استقروا شمالي البحر الأسود ، وأقاموا في المقاطعات الواقعة في حوض الدانوب الأدنى . وهناك انقسم القوط الى طائفتين : القوط الشرقيون Ostrogoths أو Ostgoths والقوط الغربيون Visigoths . وتأثر القوط ثقافيا بالمستعمرات اليونانية الواقعة على شواطئ البحر الأسود ، وبالتالي تأثروا بالحضارة الرومانية . وفي القرن الثالث اختبز القوط الفوضى والاضطراب والضعف الذى عانت منه الامبراطورية كثيرا ، فاستولوا على الشواطئ الجنوبية للبحر الأسود وغزوا كرميا Crinea وآسيا الصغرى . وأثناء تقدمهم على الساحل الغربى للبحر الأسود أبحروا في نهر الدانوب وأخذوا طريقهم الى بحر مرمرة ، واخترقوا الدردنيل ونهبوا كيزيكوس Cyzicus ونيقوميديا وغيرهما . وذهب القرامنة القوط الى أبعد من ذلك بأن هاجموا مدينتى افيموس Ephesus وسالونيك Thessalonica . وما ان وصلوا الى شواطئ اليونان حتى هاجموا كورنثه وأثينا ، وأغاروا على جزر كريت ورودس وقبرص في اغارات متعددة للنهب والسلب ، وعادت

سفنهم محملة بالغنائم الى مواطنهم عند الشواطئ الشمالية للبحر الأسود • وزاد خطر القوط لدرجة أن اضطر الامبراطور جوردريان Gordian (٢٣٨ - ٢٤٤) الى دفع اتاوة سنوية لهم • وعندما خرج اليهم الامبراطور دكيوس Decius لصددهم سقط امامهم صريعا في سنة ٢٥١ • ويتوالى السنين دخل القوط في خدمة الرومان في الجيش ، فقد كانت هناك فرقة من القوط في الجيش الروماني تحت قيادة ماكسيميان الذي اعتزل العمل السياسي سنة ٣٠٥ كما سبق ذكره • وخدم القوط في جيش قسطنطين الكبير في نزاعه ضد ليكينيوس وأمنوه بأربعين ألف جندي • وقد اعتنق القوط المسيحية ، ومن المحتمل أنها انتقلت اليهم عن طريق الأسرى المسيحيين الذين أسرههم القوط من اقاليم آسيا الصغرى في حملاتهم البحرية المتعددة • ويذهب الفسنتل الى الأسقف أولفيل Ulfila أو ولفلاس Wulfilas (٣١١ - ٣٣١) في اعتناقهم المسيحية في القرن الرابع • وهو قوطي من حيث المولد قضى سنوات عديدة في القسطنطينية حيث تلقى تعليمه • واعتنق المسيحية على المذهب الأريوسي ، ونقل الانجيل الى اللغة القوطية • وكان لهذا أثر كبير في تاريخ القوط وعدم اندماجهم مع سكان الدولة البيزنطية التابعين لذهب ثيقيه (٥٢) •

وكان على الدولة البيزنطية أن تواجه مشكلة خطيرة أخرى في الوقت الذي هد في القوط كيان الدولة ذاتها • ففي سنة ٣٧٦ تقدم الهون الآسيويون Huns من أواسط آسيا نحو اقاليم الامبراطورية • والهون من القبائل الرعوية من مناطق الاستبس التي خرج منها سلسلة من الغزاة الرعويين ، الذين أحدثوا الرعب في المجتمعات المستقرة

(٥٢) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 84 — 86 ;

عن القوط انظر أيضا ، سعيد عاشور ، أوروبا المصور الوسطى ج ١ ، ص ٦٩ - ٧٠ ، أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٦ - ٣٥ .

في العالمين المسيحي والاسلامي . ومن هؤلاء الغزاة الذين اتجهوا من
وسط آسيا الى الغرب البلغار والآفار والباتريناك (البشناق) والغز
والكومان والنبول . وخرج الهون من وسط آسيا مرغمين من خلال
المنفذ الواقع بين جبال أورال وبحر قزوين . وظهروا أولا في جنوب
روسيا حيث شتتوا قبائل الألان Alans وهزموا القوط الشرقيين ،
وأرغموا القوط الغربيين على الاتجاه ناحية الدولة البيزنطية بعد
هزيمتهم أمام الهون عند نهر دنيستر Dniester River (٥٣) .

وفي سنة ٣٧٦ التمس القوط الغربيون من امبراطور القسطنطينية
فالنس Valens السماح لهم بعبور نهر الدانوب ليسلموا من خطر
الهون ، والمقام جنوب الدانوب . وتمهدوا بزراعة الأرض ، ووعدوا
تقديم الجنود للجيش البيزنطي ، وأن يطيعوا كل أوامر الامبراطور .
ويقال انه دخل الامبراطورية حوالي ٤٠٠ — ٥٠٠ ألف قوطي نصفهم
من المحاربين . وأجابهم فالنس الى مطلبهم دون أن يدرك أخطار
وجود شعب كامل السلاح يهدد السكان الأصليين في الأراضي الرومانية
بنية النهب والسلب . وسرعان ما تضايق القوط من سوء معاملة القادة
والموظفين البيزنطيين لهم . ولم تجد شكواهم أذنا صاغية ، فثار
القوط وحصلوا على مساعدات من قبائل الألان وغيرهم ، وتقدموا الى
ترافيا قاصدين القسطنطينية ذاتها . وكان الامبراطور فالنس وقتذاك
في حملة حربية ضد الفرس . وعندما وصلت أخبار القوط ، غادر
انطاكية الى القسطنطينية . وفي يوم ٩ أغسطس ٣٧٨ م التقى فالنس
بجموع القوط الغربيين على مقربة من مدينة أدرنة Hadrianople . وهزم
الجيش الامبراطوري هزيمة ساحقة ، وقتل الامبراطور فالنس ومعه
ثلثا قوات الامبراطورية . ولم يستغل القوط انتصارهم فعندما

ظهروا أمام أدرنة والقسطنطينية لم يستطيعوا اقتحام أسوار تلك المدن
اليونانية الحصينة (٥٤) *

وكان لهزيمة فالانس أمام القوط نتائج خطيرة ، فقد انتشر القوط
في شبه جزيرة البلقان حتى أسوار القسطنطينية * وكان على الدولة
البيزنطية ، ولم يمض بعد نصف قرن من الزمان على تمام ولادتها ،
أن تصارع في سبيل الدفاع عن كيانها * وأصبح واضحا استحالة تحقيق
انتصار عسكري على القوط ، وكان لابد من مسالمتهم للخروج من الموقف
اليائس للدولة البيزنطية * وفي سنة ٣٧٩ تولى ثيودوسيوس الأول
أو العظيم Theodosius I عرش بيزنطة * ورغم أنه امبراطور
عسكري إلا أنه سمح للقوط في سنة ٣٨٢ بالاستقرار في الأطراف
الشمالية من تراقيا ، ومنحهم السيادة الكاملة والاعفاء من الضرائب
مقابل الخدمة العسكرية التي تعهدوا بتقديمها الى الامبراطورية *
واشترط الامبراطور عليهم أن يكونوا في خدمة الامبراطورية معاهدين
Foederati . ولما كان ثيودوسيوس الأول معجبا بصفات القوط
وشجاعتهم فقد استخدم أعدادا كثيرة منهم في الجيش الامبراطوري *
وبهذه الطريقة تجنبت الدولة البيزنطية تغلغل الجرمان في أراضيها ،
بل أصبحوا في خدمة الجيش ، وارتقى جماعة منهم الى منصب القيادة
في جيوش بيزنطة (٥٥) *

Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 86 — 87 ; Vryonis, (٥٤)
Byzantium, p. 30 ; Ostrogorsky, Byzantine State, p. 52 ;

العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٤ ، أومان ، الامبراطورية
البيزنطية ، ص ٢٩ — ٣٤ ، اسحق عبيد ، من الأرك الى جستنيان ،
ص ١٦ — ١٧ .

Ostrogorsky, Byzantine State, pp. 52 — 53 ; Vryonis,
Byzantium, pp. 30 — 31 ;

العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ٢٤ — ٣٥ ، سعيد عاشور ، أوروبا
العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٧١ .

ومنذ نهاية القرن الرابع حتى عصر الامبراطور البيزنطى جستنيان Justinian فى منتصف القرن السادس وقع الغرب فى براثن الجرماني . فبعد موت ثيودوسيوس العظيم سنة ٣٩٥ قسمت الامبراطورية بين ولديه ، فكان الشرق من نصيب أركاديوس Arcadius والمغرب من نصيب هونوريوس Honorius . وكان ذلك فى الوقت الذى ازداد فيه نفوذ الجرماني السياسى والحربى داخل الامبراطورية . واعتمد هونوريوس فى الغرب على قائد جرمانى وندالى تدير اسمه ستيليكو Stilicho للوقوف فى وجه القوط الغربيين . ونجح ذلك القائد فى اجهاض محاولات القوط الغربيين بقيادة ألاك Alaric فى غزو ايطاليا وذلك بالحق الهزيمة بهم سنة ٤٠٢ فى معركة جرت عند بلدة بوللنتيا . وأتهم ستيليكو بعد ذلك بتحالفه مع ألاك وقوبل بمعارضة شديدة من السيناتو الرومانى ، مما أدى الى تدمير بين الجند ، واضطر هونوريوس الى التضحية بستيليكو وأمر باغتياله فى ٢٢ أغسطس ٤٠٨ متهما اياه بالاهمال فى حماية حدود الامبراطورية وتعاطفه مع الأراك (٥٦) .

وانتهز ألاك فرصة التخلص من ستيليكو واتباعه فزحف مع جماعات من القوط الغربيين نحو ايطاليا ، واقتحموا مدينة روما وحاصروها ونهبوها سنة ٤١٠ م . وتأثر الرومان كثيرا من حادث سقوط روما فى أيدي القوط لأنها لم تسقط قط حتى عندما غزا هانيبال ايطاليا ، واعتبروها كارثة معنوية وعسكرية ودينية . وظن الناس ان نهاية العالم قد اقتربت . واتهمت المسيحية بأنها قضت على الطموح السياسى والقومى فى نفوس الرومان ، وأن تعاليمها كانت سبب الكارثة التى حلت بروما العظيمة . وانبرى القديس أوغسطين للدفاع عن

(٥٦) انظر اسحق عبيد ، من الأراك الى جستنيان ، ص ٢٢ - ٣٦ ، سعيد عاشور ، اوربوا المصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٧١ - ٧٣ .

المسيحية وفقد هذه المزاغم ورد هذه الاتهامات في كتابه المعروف مدينة الله De Civitate Dei الذي بدأ في كتابته سنة ٤١٣ وانتهى منه سنة ٤٢٩ (٥٧) .

وكان في امكان الارك العبور الى افريقية والاستقرار هناك مع اتباعه القوط الا أنه مات فجأة في نهاية عام ٤١٠ . وقاد خليفته والليا Wallia القوط شمالا واستقر بهم في جنوب بلاد الغال حيث تلقى تعليمات الإمبراطور بطرد قبائل جرمانية أخرى استقرت هناك حديثا . فقد انتهرت قبائل السوفي Suevi والالان Alani والوندال Vandals فرصة انشغال القائد ستيليكو مع الارك في شمال ايطاليا وأقليم ايليريا وتقدموا الى غاليا في طريقهم الى اسبانيا متبعين سلبية النهب والسلب . وفي غاليا تلقى قائد الوندال جزريك Gaiseric طلبا من الحاكم البيزنطي في شمال افريقية ، وكان خارجا عن سلطة الدولة ، لمساعدته ووعد في مقابل ذلك بنصف الولايات البيزنطية في شمال افريقية . وفي سنة ٤٢٩ عبر الوندال والالان الى الساحل الافريقي ، وفي سنة ٤٣٩ استولى جزريك على قرطاجنة . وزادت قوته وسطوته لدرجة أن هاجم مدينة روما ذاتها سنة ٤٥٥ ، وأغار على البيلوجونيز سنة ٤٦٥ (٥٨) .

أما ايطاليا فقد أصبحت غنيمة سهلة لقبائل الهون الآسيويين والقوط الشرقيين . فالهون كانوا قد أقاموا على شواطئ البحر الأسود حتى سنة ٤٢٥ عندما نفذوا بقيادة قائدهم أتيلا Attila الى تراقيا وهددوا العاصمة القسطنطينية . ولكي تتجنب الدولة البيزنطية اغاراتهم

(٥٧) انظر الدراسة الهامة عن كتاب مدينة الله في :

اسحق عبيد ، الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية مع دراسة في « مدينة الله » ، ص ١٣٤ - ١٥٢ ، انظر أيضا سيد الفاضل ، الإمبراطورية الرومانية ، ص ٤٠٠ .
(٥٨) Vryenis, Byzantium, p. 32 .

المخرية. اضطرت الى دفع اتاوات مالية كبيرة لهم . وفي سنة ٤٤٧
حول الهون أنظارهم الى الغرب بحذاء الدانوب ، ثم عبروا الراين
وهاجموا بلاد الغال . وتحالف القوط الغربيون مع الجيوش الرومانية
ضد الهون ، وأنزلوا بجمعهم هزيمة ساحقة قرب شالون سنة ٤٥١ .
وفي العام التالي ٤٥٢ قام الهون تحت قيادة أتتلا بهجوم مفاجيء على
ايطاليا وهددوا روما ذاتها . وخرج البابا ليو الاول العظيم
(٤٤٠ — ٤٦١) لمفاوضة أتتلا ولنمحه من دخول روما . ولم ينقذ
ايطاليا سوى موت أتتلا المفاجيء سنة ٤٥٣ وانتهيار واختفاء خطر
الهون بعد أن تمزقت مملكتهم (٥٩) .

أما عن دور القوط الشرقيين في ايطاليا فمن المعروف أنهم لم يفروا
عبر الدانوب كما فعل القوط الغربيون ، بل ظلوا تحت سيطرة الهون
حوالى مدة سبع وسبعين سنة ، أى حتى سنة ٤٥٣ عندما انتهت
امبراطورية أتتلا (٦٠) . وبعد سنة ٤٥٣ استقر القوط الشرقيون في
شمال باونيا على حدود ايطاليا كمعاهدين Foederati للدولة
البيزنطية . وفي سنة ٤٧٦ قام زعيم بعض جموع الجرمان واسمه
أودوفاكس Odovacer بخلع آخر الأباطرة الرومان في الغرب وهو
رومولوس أغسطس Romulus Augustulus ودخل مدينة رافنا Ravenna .
وأغرى الامبراطور البيزنطى زينون Zeno زعيم القوط الشرقيين
واسمه ثيودريك Theodoric بغزو ايطاليا « والحفاظ على العرش
هناك حتى مجيئه » حسب قوله . وبذلك تغلص زينون من غارات
القوط الشرقيين المخرية في البلقان . وفي سنة ٤٨٨ توغل القوط
الشرقيون في أعداد كبيرة من الرجال والنساء والأطفال في ايطاليا
تحت قيادة ثيودريك . ودخل ثيودريك رافنا سنة ٤٩٣ وقتل أودوفاكس ،

(٥٩) سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ص ٧٦ — ٧٧ ،
العرنى ، الدولة البيزنطية ، ص ٤٣ .
(٦٠) سعيد عاشور ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٨٧ .

ونجح في تأسيس مملكة قوطية • غير أن ثيودريك لم يعتبر نفسه امبراطورا أو حاكما مستقلا ، ولكن اعتبر نفسه ممثلا للامبراطور الروماني المقيم في القسطنطينية(٦١) •

وتجدر الإشارة الى أن عصر الامبراطور أنستاسيوس الأول (٤٩١ — ٥١٨) شاهد قيام مملكة القوط الشرقيين في ايطاليا بقيادة ثيودريك ، ومملكة الفرنجة في غاليا بزعمارة كلوفس Clovis (٤٨٦ — ٥١١) • وهاول كل من ثيودريك وكلوفس الحصول على اعتراف ضمنى بمملكتيهما من الامبراطور البيزنطي • واعترف الامبراطور انستاسيوس بثيودريك حاكما على ايطاليا ، وبالتالي أصبح ملك القوط الشرقيين حاكما شرعيا في نظر مواطنيه • ولكن حال اعتناق القوط المسيحية على المذهب الأريوسى دون قيام علاقة وذ صداقة حميمة مع البيزنطيين • وأرسل انستاسيوس الى كلوفس براءة منحه فيها مرتبة قنصل ، أى أصبح نائبا للامبراطور في إقليم من أقاليم الامبراطورية ولو من الناحية النظرية • وقبل كلوفس تلك البراءة بامتنان ، وبخاصة أنها كانت مرتبة شرفية للملك الفرنجى لم تتضمن أية التزامات مقابل هذه الوظيفة ، بل أعطت حكم كلوفس صبة شرعية في نظر رعاياه(٦٢) •

وشاهد عصر الامبراطور انستاسيوس أيضا اغارات الصقالية (السلاف) والبلغار على البلقان • ومن الملاحظ أن هذه الاغارات لم تكن ذات نتائج خطيرة خلال تلك الفترة في التاريخ البيزنطى ، وذلك

Vryonis, Byzantium, p. 34 ; Vasiliev, Byzantine Empire, I, p. 106 — 107 ; Hussey, Byzantine world, pp. 14 — 15 ;
نظر أيضا : جيون ، اشمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ج ٢ ، ص ٣٤٩ — ٣٦٣ ، اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٤٩ — ٥١ ،
العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٥٤ — ٥٥ .
Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 110 — 111 ;
العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٥٤ — ٥٥ .

لأن هذه الجماعات من البرابرة انسحبوا وتراجعوا إلى مواطنهم الأصلية التي قدموا منها بعد أن نهبوا سكان القرى البيزنطية . غير أن تلك الأغارات كانت مقدمة لغارات الشعوب السلافية على البلقان في القرن السادس الميلادي . ولكي يحمي الامبراطور انستاسيوس القسطنطينية من أغارات البرابرة الشماليين شيد في تراقيا ، وعلى بعد ٤٠ ميلا غرب القسطنطينية ، سورا امتد من بحر مرمره إلى البحر الأسود . ولم يحقق ذلك السور هدفه للحيلولة دون تقدم الأعداء البرابرة نحو العاصمة ، لأن تشييده تم بسرعة ولم سببته الزلازل من تخريب لهذا السور (٦٣) .

ويهمنا هنا القول بأن أوصال الامبراطورية تقطعت في الغرب تماما ، ونشأت ممالك جرمانية جديدة على أنقاض الامبراطورية في الغرب ، فقد انتزع الوندال ولاية افريقية ، واحتل القوط الغربيون والبرجنديون أسبانيا ففسلحوا جنوب غاليا ، وعبر الألمان الراين الأعلى واستقروا في الألزاس ، وعبر الفرنجة الراين الأدنى ووصلوا السومر والميز ، وسقطت إنجلترا في أيدي السكسون . ويلاحظ أنه على الرغم من أن الخطر الجرمانى ظهر أول ما ظهر عنيفا في الشرق عندما هدد القوط بيزنطة ، وهزموا جيوش الامبراطورية عند أدرنه ، الا أنهم أرغموا على الاتجاه غربا ، وبالتالي وقع الغرب الأوروبى تحت أقدام الجرمان . ولعل السر في نجاة الشرق من تخريب الجرمان يرجع إلى الثراء المادى للولايات الشرقية مثل أرمنية والشام ومصر ، وقوة الشرق الروحية . وقاوم المجتمع الحضري في الشرق توغل البرابرة بنجاح لما كان لدى الشرق من رجال وثروة ونظم ، على حين كان الغرب في موقف غير متكافئ من حيث القوى البشرية والثروة . وبالتالي نجت الدولة البيزنطية من غزو الجرمان ، وبتوالي السنين لم يعد لهذه الدولة نفوذ فعلى في إيطاليا مما جعل البابوية في روما تزداد قوة ونفوذاً وسلطاناً .

أما الخطر الثالث الذى هدد الدولة البيزنطية فى مطلع حياتها فهو الخلافات الدينية المذهبية . ويلاحظ أن هذه الخلافات نجمت الى حد ما فى الحاق ضرر كبير فى الشرق البيزنطى بينما فشل اللجرمان فى تحقيق ذلك ، فى الوقت الذى لم تكن هذه الخلافات المذهبية موجودة فى الغرب اللاتينى . ومن المعروف أن اعتراف الامبراطور قسطنطين الكبير بالمسيحية ساعد على سرعة انتشارها الى حد كبير . وخلال القرن الذى اعقب موت قسطنطين كان أباطرة الدولة البيزنطية ، ما عدا جوليان ، يعتقدون المسيحية . غير أن انتشار المسيحية ونمو الكنيسة اديا الى ظهور كنائس كبرى فى الشرق بجانب كنيسة القسطنطينية وهى كنائس بيت المقدس وانطاكية والاسكندرية . وكان لكل كنيسة من هذه الكنائس ادعاءات خاصة من حيث السيادة وغيرها ، لذلك كان من الصعوبة تحقيق الوفاق أو المساواة أو الاتحاد بينها من الناحية النظرية ، لأن بعض هذه الكنائس كان أكثر أهمية من بعض . وفى القرن الخامس زاد التنافس بين هذه الكنائس ، إذ أن أساقفة الاسكندرية وروما استنكروا ارتفاع شأن أساقفة القسطنطينية ، وجادل - عبثا - أساقفة انطاكية القضاء على ادعاءات أسقفية بيت المقدس . يضاف الى ذلك النزاع والتنافس بين كنيسة القسطنطينية وروما ، فإذا تمتع أساقفة روما القديمة بمركز ديني كبير باعتبار أن روما كانت عاصمة للامبراطورية ، ادعى نفس المركز أسقف روما الجديدة أى أسقف القسطنطينية . وللقوف فى وجه ادعاءات كنيسة القسطنطينية شرح البابا داماسوس Damasus فى أواخر القرن الرابع سمو كنيسة بطرس فى روما (١٤) .

ومما زاد من الخلافات الدينية المذهبية أن المجتمع البيزنطى نشأ مجتمعاً دينياً ، وكان اللاهوت هو الموضوع المفضل للمناقشة حتى بين عامة سكان القسطنطينية . وأشهر جريجورى أسقف نيسا

Gregory of Nyssa (٣٤٠ - ٤٠٠) أنه عندما ذهب إلى العاصمة القسطنطينية وجد سكانها يتحدثون في اللاهوت بنجارية « فإذا سألت أحدا عن ثمن سلعة من السلع أجاب سائلا عن المولود وغير المولود ، وإذا سألت أحدا عن ثمن الفيز أخبرك صاحب المخبز بأن الأب أعظم من الابن وأن الابن يجب أن يكون دون الأب ، وإذا طلبت من الصمامي أن يجد لك الحمام أجابك بأن الابن وجد من لا شيء » (٦٥) .

وشغلت قضية الثالث التي أثارها القس السكندري آريوس علماء اللاهوت وكذلك الأباطرة لأكثر من نصف قرن من الزمان . وقد رأينا فيما سبق (٦٦) أن آريوس أنكر الوهية المسيح وأنكر صفة الشبه بين الأب والابن ، ورفض مجمع نيقية ٣٢٥ آراء آريوس . ولعبت الأريوسية دورا هاما خلال حكم الامبراطور فالنس ، غير أن موت هذا الامبراطور سنة ٣٧٨ أمام القوط أعطى ضربة قاسية للمذهب الأريوسي . فعندما تولى ثيودوسيوس الأول عرش الامبراطورية سنة ٣٧٩ شقيق الخناق على الأريوسيين الهراطقة والوثنيين ، وأصدر قرارا سنة ٣٨٠ أعلن فيه أن المسيحي الحق هو الذي يؤمن بالثالوث : الأب والابن والروح القدس كما بشرت به الأناجيل وكتابات الرسل ، أما ما عداهم فهم الهراطقة (المعتوهون) ليس من حقهم أن يطلقوا على أماكن عبادتهم كلمة كنائس وهم معرضون للعقاب الشديد والاضهاد (٦٧) . وفي السنة التالية ٣٨١ دعا ثيودوسيوس إلى مجمع ديني مسكوني في القسطنطينية ، وهو المجمع المسكوني الثاني الذي رأسه أسقف أنطاكية ولم يخضه أحد من كنيسة روما والاسكندرية . وأعاد هذا المجمع التأكيد على المذهب الأثناسيوسي ، وأوصى باعتبار

Vryonis, Byzantium, p. 38.

(٦٥)

(٦٦) انظر ما سبق ص ٢٨ - ٣٠ .

Vasiliev, Byzantine empire, I, p. 80 ;

(٦٧)

أسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٩٢ ، العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٥ - ٣٦ .

الأريوسية هرطقة ، وأكد قرارات مجمع نيقية ٣٢٥ . وقرر هذا المجمع أيضا رفع كنيسة بيزنطة الى المرتبة الثانية بعد كنيسة روما ، أى وضع كنيسة القسطنطينية قبل كنيسة الاسكندرية ، وبالتالي صار أسقف كنيسة القسطنطينية « يتمتع بالشرف الذى يتلو الشرف الذى يتمتع به أسقف روما ، لأن القسطنطينية هى روما الجديدة » . وهكذا أصبح الامبراطور ثيودوسيوس وكأنه المسؤل الأول عن شؤون الكنيسة (٦٨) .

واتخذ الامبراطور ثيودوسيوس الأول أيضا خطوات صارمة ضد الوثنيين ، فقد منعهم من تقديم القرابين لألهتهم ، وأمر باغلاق الكثير من معابدهم . وأصدر سنة ٣٩٢ قرارا منع بموجبه الوثنيين من تقديم القرابين واحراق البخور فى معابدهم وما الى ذلك . واعتبر كل من يقوم بهذه الأعمال قد ارتكب جرما ضد الامبراطور والدين وبالتالي يجب توقيع العقوبات الشديدة عليه . وألغى قرار الامبراطور وجود الوثنية كدين معترف به وأشار اليها على أنها (خرافة) (٦٩) .

ثم قام الامبراطور ثيودوسيوس الثانى بن آرКАДيوس (٤٠٨ — ٤٥٠) بتوجيه ضربة عنيفة ضد مدرسة أثينا الوثنية مثلما فعل جده ثيودوسيوس الأول من قبل . وفى سنة ٤٢٥ أصدر هذا الامبراطور قرارا بتأسيس معهد علمى مسيحى فى القسطنطينية ينافس بأساتذته وطلابه معهد أثينا الوثنى الذى كان لايزال تدرس فيه الفلسفة اليونانية . والحقيقة أن القسطنطينية منذ أصبحت عاصمة للامبراطورية

Daoud, 'Alexandria and the early church councils, (٦٨)
pp. 57 — 59 ;

. جوزيف نسيم ، مجتمع الاسكندرية فى العصر المسيحى ، ص ١١٠ ،
اسحق عبيد ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٨٥ .

Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 82 — 83. (٦٩)

في عصر قسطنطين وقد إليها كثير من علماء البلاغة والفلسفة من افريقية والشام وغيرها ، حتى أصبحت قبل عصر ثيودوسيوس الثاني أكبر مركز ثقافي في الامبراطورية . وفي سنة ٤٢٥ أصدر الامبراطور ثيودوسيوس الثاني قرارا بتنظيم مدرسة عالية كانت قد نشأت في القسطنطينية ، وتولى التدريس فيها واحد وثلاثون أستاذا قاموا بتدريس النحو والبلاغة والقانون والفلسفة . وعلى الرغم من أن اللغة اللاتينية كانت لاتزال اللغة الرسمية في الامبراطورية ، الا أن قرار ثيودوسيوس أمر بإنشاء كراسي للغة اليونانية التي أصبحت اللغة الشائعة في الجانب الشرقي للامبراطورية . وأدى ذلك الى زيادة الاهتمام بتدريس اللغة اليونانية في جامعة القسطنطينية أكثر من الاهتمام بتدريس اللاتينية . وأصبح ذلك المركز التعليمي في القسطنطينية منافسا خطرا لمدرسة أثينا الوثنية التي بدأت تتداعى وتضمحل بسبب انتشار المسيحية . وسرعان ما أصبحت جامعة ثيودوسيوس الثاني نواة للثقافة ومركزا هاما للحضارة البيزنطية (٧٠).

Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 100 — 101 : (٧٠)

اسد رستم ، الروم ٤ ج ١ ، ص ١١٩ ، العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ٤٠ — ٤١ ، أصدر ثيودوسيوس الثاني بعد ذلك سنة ٤٣٨ مجموعته القانونية Codex Theodosianus التي تعتبر حدثا هاما في تاريخ التشريع الروماني قبل جستنيان . وبرهن ثيودوسيوس الثاني في مجموعته القانونية على ما حققته المسيحية من تأثير في ميدان التشريع وتغيير في الحياة الاجتماعية وغيرها للامبراطورية . واشتملت هذه المجموعة على التشريعات القانونية التي صدرت منذ عهد قسطنطين الكبير الى منذ الاعتراف بالمسيحية حتى القوانين التي أصدرها ثيودوسيوس . وبالإضافة الى أهمية هذه المجموعة كمصدر هام لتشريعات جستنيان فيما بعد ، فقد صدرت خلال فترة الغزوات الجرمانية لغرب أوروبا تأثيرت بطريق مباشر أو غير مباشر على التشريعات الجرمانية ، مثل قوانين القوط وغيرهم ، وصيغتها بالصيغة المسيحية ، لتظهر :

Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 101 — 102 : Ostrogorsky, Byzantine state, p. 56.

وهذأت الأريوسية بالتدرج في الشرق ولكن ظهر جدل كنسى جديد أثر على مجريات الأمور في الدولة البيزنطية أكبر من الأثر الذى خلفته المشكلة الأريوسية . ونشأ هذا الجدل الكنسى نتيجة الاختلاف الكبير في تعاليم المدرستين الدينيتين في أنطاكية والاسكندرية . فإذا كان المذهب الأريوسى قد أنكر ألوهية المسيح فقد دار الجدل الجديد فى مسألة علاقة الطبيعة البشرية في المسيح بطبيعته الالهية . ورأت مدرسة أنطاكية الدينية في أواخر القرن الرابع الميلادى أن للمسيح طبيعتين منفصلتين طبيعة الهية وطبيعة بشرية تعيشان جنبا الى جنب ، فالمسيح — في رأى هذه المدرسة — هو الوعاء الذى اختاره الله ليضع فيه الطبيعة الالهية ، وهو في نفس الوقت ابن للسيدة مريم العذراء ، فالمسيح بشر فيه طبيعة الهية ، ومريم ليست أم آله ولكنها أم المسيح . وكانت مدرسة الاسكندرية بقيادة البطريك كيرلس الأول Cyril (٤٣٠ — ٤٦٣) تعارض هذا الرأى وتقول بأن الله خلق انسانا ووضع فيه طبيعتين الهية وبشرية ، فالتحدت الطبيعتان معا في شخصيته « وأصبح في المسيح اقنوما واحدا وطبيعة واحدة بعد الاتحاد بدون اختلاف ولا امتزاج ولا استحالة » (٧١) .

وفي سنة ٤٢٨ أصبح نسطوريوس Nestorius بطريكا لكنيسة القسطنطينية . وكان نسطوريوس سوري الموطن وأحد أتباع مدرسة انطاكية اللاهوتية ، فاستغل مركزه الدينى الكبير للدعوة لأفكار وآراء مدرسة أنطاكية التى تقول بوجود طبيعتين في المسيح بشرية والهية منفصلتين عن بعضهما البعض . هذا في الوقت الذى أيد فيه الرهبان في مصر أسقف الاسكندرية كيرلس الأول ، كما كان يؤيده رجال الدين في روما . وبالتالي أصبحت قضية طبيعة المسيح تلعب دورا هاما

(٧١) ميشيل جرجس ، الكنيسة المصرية ، ص ٧١ — ٧٢ ، انظر اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ١٢٣ ،
 Vryonis, Byzantium, pp. 38 — 39.

في تاريخ الدولة البيزنطية وفي علاقتها بكنيسة روما ، وفي علاقتها بالولايات الشرقية التي ازداد فيها مذهب الطبيعة الواحدة قوة وانتشارا . وفي سنة ٤٣١ انعقد في مدينة افيسوس Ephesus المجمع المسكوني الثالث لبحث هذا الخلاف الكبير حول طبيعة المسيح . وحكم المجمع على نسطوريوس أسقف القسطنطينية بالزندقة والالحاد لأنه أصر على انسانية المسيح ، واتهم بتقسيم شخصية المسيح الى الكلمة المقدسة والمسيح الانسان ، فأحرز كيرلس بذلك نصرا كبيرا فقد انتصر على بطريرك عاصمة الدولة البيزنطية نفسها . ووصلت كنيسة الاسكندرية بذلك الى درجة كبيرة وتطلعت الى زعامة الكنيسة الشرقية . وبعد موت كيرلس سنة ٤٤٤ سار خليفته ديوسقورس Dioscorus على خطاه ، وحافظ على ما وصلت اليه كنيسة الاسكندرية من مكانه ودرجة عالية . وساندته أوتيوخا (يوطيخا) Eutyches أحد رجال الكنيسة في القسطنطينية الذي كان مقربا للامبراطور (٧٢) .

وهكذا اغفل رجال كنيسة الاسكندرية من اتباع كيرلس الطبيعة البشرية في المسيح ، وأعلنوا أنه على الرغم من وجود طبيعتين للمسيح الا أن اللاهوت والناسوت اتحدا اتحادا تاما وكان هذا هو المذهب المونوفيزتي Monophysitism الذي جعل للمسيح طبيعة واحدة لها صفات وخصائص الطبيعتين « فاللاهوت والناسوت متحدان فيه اتحادا تاما في الجوهر وفي الأثنوم وفي الطبيعة ، ليس هناك انفصال

Daoud, 'Alexandria and the early church councils, (٧٢)
pp. 60 — 61 ; Ostrogorsky, Byzantine state, pp. 58 — 59 ;

جوزيف نسيم ، مجتمع الاسكندرية في العصر المسيحي ،
ص ١١١ — ١١٢ ، العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ٤٤ — ٤٥ ، بينز ،
الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠١ .

أو افتراق بين اللاهوت والناسوت في المسيح » • وعارضت كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية مذهب الطبيعة الواحدة • وعندما زاد الخلاف حث ديوسقورس الامبراطور ثيودوسيوس الثاني على عقد مجمع في افيسوس سنة ٤٤٩ • ورأس ديوسقورس هذا المجمع ، وقرر صحة مذهب يوطيخا المونوفيزتي الذي أفكر فيه ناسوت المسيح (الطبيعة البشرية) انكارا تاما « وأن للمسيح طبيعة واحدة ، وأن ناسوت المسيح قد تلاشى تماما في لاهوته ، اختلط به وانعدم فيه ، مثل نقطة اللؤلؤ عندما تختلط بالمحيط » • وسرعان ما انتشر الاضطراب في العالم المسيحي ، فقد شن البابا ليو حربا ضد هذا المجمع حتى أسقط من عداد المجامع المسكونية وعرف باسم مجمع اللصوص (٧٣) Latrocinium •

وفي السنة التالية لمجمع افيسوس أي في سنة ٤٥٠ مات الامبراطور ثيودوسيوس الثاني دون أن يترك وريثا ، فخلفه على عرش الامبراطورية مارقيان Marcian زوج أخته بولكيريا Pulcheria • وكان مارقيان قائدا عسكريا قديرا حكم الامبراطورية فيما بين سنتي ٤٥٠ — ٤٥٧ • وحاول هذا الامبراطور — ربما تحت تأثير زوجته بولكيريا — أن يقضى على الخلاف الديني الذي هدد وحدة الدولة البيزنطية ومكانتها • لهذا دعا مارقيان سنة ٤٥١ الى عقد مجمع مسكوني في خلقدونية لبحث شسئون العقيدة • وانهقد المجمع وهو المجمع المسكوني الرابع ، وحضره عدد كبير من ممثلي الكنائس المسيحية ، بما في ذلك ممثلون من قبل البابا ليو الأول العظيم • وأدان مجمع خلقدونية قرارات مجمع اللصوص في افيسوس ، وأدان أسقف

(٧٣) انظر وهيب عطا الله جرجس ، تعليم كنيسة الاسكندرية فيما يخص بطبيعة السيد المسيح ، ص ١٥ — ١٦ ، العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ٤٥ — ٤٦ ، بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٣ ، اسحق عبيد ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٨٨ •

الاسكندرية ديوسقورس ، وحكم المجمع بعزله ونفيه ، ووجه اللوم أيضا الى يوطيخا . وأنكر المجمع ورفض المذهب المونوفيزيتى أى مذهب الطبيعة الواحدة ، وقرر أن خلاص البشر يأتى عن طريق منقذ هو فى نفس الوقت آله له كل صفات اللاهوتية ، وإنسان له كل صفات الإنسان « طبيعتان بدون تغيير أو انقسام » . وأجاز المجمع الصيغة التى نقحها البابا ليو وأوردها فى رسالته العقيدية المسماة Tomos التى فند فيها آراء يوطيخا وديوسقورس والتى ورد فيها : « هناك طبيعتان فى المسيح يجب تمييز احدهما عن الأخرى حتى بعد تجسده ، وهما الطبيعة الألهية والطبيعة البشرية ، وقد ظل الاختلاف بينهما باقيا بالرغم من وحدة الشخصية » . وهذه الصيغة أصبحت قاعدة التعاليم الدينية للكنيسة الأرثوذكسية .

ويعلمنا هنا القول بأن مجمع خلقدونية رفع مرة أخرى من شأن كنيسة القسطنطينية ، وجعلها فى درجة أعلى من كنيسة الاسكندرية . ومنح أعضاء مجمع خلقدونية أساقفة الكنائس الخمس لقب بطريك وهى بالترتيب الخلقدونى : روما القسطنطينية الاسكندرية انطاكية بيت المقدس . وكانت النتيجة المباشرة لقرارات مجمع خلقدونية هى ازدياد شقة الخلاف بين القسطنطينية وبين الولايات الشرقية التابعة لها . وكان لذلك نتائج سياسية خطيرة لم يتوقعها المشتركون فى المجمع ، فمعظم سكان مصر والشام ، وهم من عناصر غير يونانية ، كانوا من اتباع مذهب الطبيعة الواحدة أى المذهب المونوفيزيتى ، وتمسكوا بمذهبهم حتى بعد مجمع خلقدونية ، ولم يميلوا حتى الى الوفاق لدرجة أن الكنيسة القبطية المصرية منعت اللغة اليونانية عند اجراء الطقوس الكنسية ، واستخدمت اللغة القبطية فى قداساتها ، وتسمت الكنيسة القبطية باسم الكنيسة الأرثوذكسية . وهكذا كان الخلاف بين مذهب الطبيعتين الذى تؤمن به القسطنطينية ومذهب الطبيعة الواحدة الذى تؤمن به الولايات الشرقية للدولة البيزنطية ، النقطة التى تركزت حولها

الخلافت الكنسية والتي انطلقت منها معارضة الأقباط والسوريين للحكم البيزنطي ورغبتهم في الخلاص منه أولا بالترحيب بالفرس ثم بالعرب المسلمين فيما بعد (٧٤) .

وتفاقت المشكلة الدينية في الدولة البيزنطية مع مرور الزمن ، اذ ازداد مذهب الطبيعة الواحدة قوة في الأقاليم الشرقية ، الأمر الذي أدى الى اتساع شقة الخلاف بين القسطنطينية والولايات الشرقية التابعة لها . وقد حاول الامبراطور زينون (٤٧٤ — ٤٩١) أن يوفق بين مسيحي الولايات الشرقية اتباع مذهب الطبيعة الواحدة وبين اتباع مذهب الطبيعتين ، أي اتباع مجمع خلقدونية وأن يجد حلا وسطا ففشر زينون في سنة ٤٨٣ وبموافقة بطريرك القسطنطينية قراره المشهور المسمى الهينوتيكون Henoticon أي قرار الوحدة . واعترف هذا القرار بقرارات المجامع المسكونية الثلاث الأول (نيقية ٣٢٥ ، القسطنطينية ٣٨١ ، أفيسوس ٤٣١) . وتجنب قرار الوحدة أية إشارة تشين تعاليم الطبيعة الواحدة أو تعاليم الطبيعتين ، وعدم ذكر كلمتي الطبيعة الواحدة والطبيعتين . ورفض القرار رفضا لبقا ما كان قد أقره المجمع الخلقدوني عن اتحاد الطبيعتين في المسيح . غير أن قرار الوحدة هذا لم يرض أيا من الطرفين ، فلم يرضى اتباع مذهب الطبيعتين بالتنازلات التي منحت للمونوفيزيتين ، ورأى اتباع المذهب المونوفيزتي

(٧٤) من مجمع خلقدونية انظر :

Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 104 — 106 ;

Vryonis, Byzantium, p. 39 ; Ostrogorsky, op. cit., pp. 59 — 60 ;

Daoud, op. cit., pp. 61 — 63 ;

اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ١٢٧ — ١٢٨ ، العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ٤٦ — ٤٧ ، اسحق عبيد ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٨٨ — ٩٠ ، بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٣ — ١٠٥ ، وعن موقف كنيسة الاسكندرية المعارض لقرارات مجمع خلقدونية ، انظر : وهيب عطا الله جرجس ، تعليم كنيسة الاسكندرية فيما يختص بطبيعة السيد المسيح ، ص ٢٤ — ٢٧ .

عدم وضوح القرار واحتوائه على تنازلات غير كافية • لهذا لم يوحد قرار الوحدة الذى أصدره الامبراطور زينون الصفوف بل زاد من شقة الخلاف والانقسام والتفرقة بين أتباع الطبيعة الواحدة وأتباع الطبيعتين • وتدخل بابا روما فى هذا النزاع الجديد ، فأعلن رفضه لقرار الوحدة ، وأصدر قرار الحرمان ضد بطريك القسطنطينية أكاكىوس Acacius فى مجمع دينى عقد فى مدينة روما • ورد البطريرك على هذا بأن امتنع عن ذكر اسم البابا أثناء تأدية الطقوس الدينية ، وبدأت صفحة جديدة من النزاع مع البابوية دامت أكثر من ثلاثين عاما (٧٥) •

واستفطلت المشكلة وزاد الخلاف الدينى مع مضى السنين • فعندما توفى زينون سنة ٤٩١ وقع الاختيار على انستاسيوس الأول Anastasius I لتولى عرش الامبراطورية • ووجد الامبراطور الجديد الخلاف على أشده بين أتباع المذاهب ، وأعلن فى بداية الأمر أنه من أنصار المذهب الأرثوذكسى (مذهب الطبيعتين) ارضاء لبطريرك القسطنطينية ، غير أنه تحول بعد قليل الى تأييد المذهب المونوفيزيتى (مذهب الطبيعة الواحدة) • وفرح الأقباط فى مصر والسوريون بهذا التحول فى موقف الامبراطور ، الا أن سياسته فى ممالأة المونوفيزيتيين أدت الى تذمر الناس وسخطهم والى اندلاع الاضطرابات والثفتن فى القسطنطينية لدرجة اشعال الحرائق فى المباني العامة وتحطيم تمثال الامبراطور ، والتظاهر ضده فى ميدان السباق ، وتعرضه للشتائم والقذف بالحجارة • وأدت سياسة انستاسيوس الدينية الى قيام القائد فيتاليان Vitalian بفتنة فى تراقيا • وقاد فيتاليان جيشا

Vasiliev, Byzantine empire, I. pp. 108 — 109 : (٧٥)
 اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ١٣٣ — ١٣٤ ، المرنى ، الدولة
 البيزنطية ، ص ٥٠ — ٥١ ، وعن قرار الحرمان انظر ما يلى الفصل
 الثالث .

مكونا من الهون والبلغار ، ومن المحتمل من الصقالبة أيضا ، وتقدم نحو القسطنطينية بمساعدة أسطول كبير . ولاشك أن غرضه كان سياسيا لعزل الامبراطور ، غير أنه أعلن أنه قام للدفاع عن الكنيسة الأرثوذكسية المغلوب على أمرها . ولم يستطع انستاسيوس القضاء على هذه الفتنة الا بعد صراع مرير ، غير أن هيتاليان كشف للبرابرة مواطن ضعف الامبراطورية وثرأ القسطنطينية(٧٦) .

وفي سنة ٥١٨ مات الامبراطور انستاسيوس الأول دون وريث ، وسادت الدولة البيزنطية فترة اضطراب انتهت بتولية جستين الأول Justin I عرش الامبراطورية في نفس السنة . وكان جستين يشغل وظيفة قائد الحرس الامبراطوري . ولم يكد يتولى الامبراطورية حتى حاول القضاء على الخلافت الحينية ، فأعلن تأييده ومساندته لقرارات مجمع خلقدونية ، واضطهد اتباع مذهب الطبيعة الواحدة اضطهادا شديدا ، وأعلن جستين استئناف العلاقات الودية مع كنيسة روما قاضيا بذلك على القطيعة التي كانت قائمة بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية منذ قرار الوحدة الذي أصدره زينون(٧٧) .

ورغم أن جستين الأول كان مؤيدا لمذهب الطبيعةتين مذهب مجمع خلقدونية ، وأخذ على عاتقه محاربة المذهب المونوفيزتي في داخل الامبراطورية ، الا أنه اتبع سياسة مساعدة المسيحية خارج الامبراطورية ضد أى خطر مهما كان مذهبها . والدليل على ذلك أن هذا الامبراطور ساند وساعد مملكة اكسوم الحبشية Axum في غزوها لليمن ، رغم أن مملكة الحبشة كانت تتبع مذهب الطبيعة الواحدة . وقد غزا الأحباش بلاد اليمن اثر حملة الاضطهاد التي قادها آخر ملوك حمير ذو نواس ضد المسيحيين في بلاده . فبعد أن تسربت المسيحية الى

Vasiliev, Byzantine empire, I. pp. 111 — 112.

Ibid., I. p. 130.

(٧٦)

(٧٧)

يلاد اليمى اشتنت المناقسة بين النصارى واليهود . ورأى ذو نواس فى انتشار المسيحية فى بلاده قوة للأحباش ، فأوقع بالنصارى سنة ٥٢٣ فى مذبحة نجران الشهيرة ، ثم جمع من نجا منهم وخيرهم بين القتل واعتناق اليهودية فاختاروا القتل ، فخذ لهم أخدود النار ذات الوقود الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم فى سورة البروج : « قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، اذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » . وكان لمساعدة جستين للأحباش أثر كبير على العلاقات بين مملكة الحبشة والدولة البيزنطية ، وقام بينهما تحالف قوى دام زمنا طويلا (٧٨) .

أما بالنسبة للمذهب المونوفيزتى أى مذهب الطبيعة الواحدة فقد تأصلت جذوره بتوالى السنين فى مصر والشام لدرجة أن أباطرة القرنين السادس والسابع اتبعوا سياسة الاضطهاد أحيانا ومحاولة الوفاق أحيانا أخرى فى محاولات فاشلة لجلب اتباع مذهب الطبيعة الواحدة الى حظيرة كنيسة القسطنطينية أى كنيسة الدولة البيزنطية . غير أن النتائج السياسية لهذا الخلاف الكنسى أدى الى اتساع الفجوة الثقافية داخل الدولة البيزنطية مما سهل فيما بعد للعرب الفاتحين من فتح الشام ومصر لما عرف عن المسلمين من تسامح فى أمور العقيدة .

(٧٨) القرآن الكريم ، سورة البروج ، آيات ٤ — ٩

انظر : Vasiliev, Byzantine empire, I, p. 132 ;

أبجد رستم ، الروم ، ج ١ ص ١٦٧ — ١٦٨ .

الفصل الثاني

المسلمون والبيزنطيون في عصر

أسرة هرقل

تعتبر سنة ٦٢٢ ميلادية من السنوات الحاسمة في تاريخ البشرية ، ففى تلك السنة هاجر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة ليقيم قواعد الدولة الاسلامية وأسس الوحدة الدينية والسياسية للمسلمين . فالاسلام الذى أخرج الانسانية من الظلمات الى النور ، ونسخ ما قبله من ديانات سماوية ، هو عقيدة وشريعة ، دين ودولة ، ايمان وعمل ، حضارة وثقافة . وظهر الاسلام بين العرب في جزيرتهم ، وكانوا يعيشون حياة قبلية رعية بين شقى أكبر امبراطوريتين في ذلك الوقت هما دولة الفرس ودولة الروم أو الدولة البيزنطية . غير أن الاسلام بعظمته استطاع في أقل من ربع قرن من الزمان أن يوحّد بين العرب ، ويجعل منهم قوة استطاعت أن تهزم دولتى الفرس والروم ، وأن ينشر الاسلام في أنحاء العالم المعروف وقتذاك في آسيا وأوروبا وأفريقية .

وخرج العرب المسلمون من جزيرتهم يحملون رسالة عالمية ، ولم يظلوا البدو الرحل أهل الوبر والمدر . وأحدث الاسلام أيضا ثورة فكرية حضارية في عالم العصور الوسطى ، وضرب مجتمع المدينة المنورة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم الأمثلة في التأخى والايمان والفضائل والتكافل والبر والرحمة بدلا من النزاع القبلى والفوضى التى عاش عليها العرب في جزيرتهم قرونا طويلة . وضرب المسلمون أروع الأمثلة في الايثار والقنوة الحسنة والفضائل ، وساز

المسلمون الأوائل على أساس دستور الهى محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القرآن الكريم •

واستطاع الاسلام بكل ما احتواه من ثراء روحى وفكرى واجتماعى أن يخلق حضارة عظيمة فكرية ومادية ، تمثلت فى ذلك التراث العظيم من علوم الدين والتفسير والتشريع والحديث واللغة والأدب ونظم الحكم والعلوم التجريبية • وقام بهذه الحضارة الاسلامية اجيال من العلماء والمفكرين ترجموا ونقلوا من الحضارات القديمة ثم شرحوها وأضافوا اليها ثم قدموها • وأعدوا صياغة المنهج العلمى الاستقرارى وحولوه من الاتجاه التأملى الذى وضعه فيه اليونانيون الى اتجاه أكثر التصاقا بالواقع مما جعل أوروبا تنهل من هذه الحضارة الرائدة •

ولكى نتضح لنا حقيقة العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين منذ ظهور الدعوة الاسلامية ، لابد أن نلقى نظرة سريعة على أحوال الدولة البيزنطية خلال العشرين سنة الأولى من حكم الامبراطور هرقل ، أى من سنة ٦١٠ ، وهى السنة التى تولى فيها عرش القسطنطينية حتى سنة ٦٢٩ حين التقى المسلمون بالبيزنطيين عند مؤتة •

ويبدو أن أسرة هرقل انحدرت من أصل أرمنى ، وتولى هرقل الكبير أبو الامبراطور هرقل الولاية البيزنطية فى شمال افريقية سنة ٦٠٧ م • واشترك هرقل الكبير فى مؤامرة ضد الامبراطور البيزنطى فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠) الذى كان عصره من عصور الانهيار العسكرى والاقتصادى ، وانتهت هذه المؤامرة باعتلاء ابنه هرقل عرش الدولة البيزنطية فى القسطنطينية فى ١٥ أكتوبر سنة ٦١٠ م (١) •

وكانت الدولة البيزنطية عندما تولى هرقل حكمها ، قد حل بها الخراب اذ ساءت أحوالها الاقتصادية ، وعمت بها الفوضى وفسدت

(١) عمر كمال توفيق ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ٦٥ ،
انتظر ايضا أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠١ — ١٠٢ •

الادارة الحكومية وقتل عدد الجيش • وتعرضت بعض أقاليم الدولة لاغارات الفرس من الشرق ، والآفار والصقالبة من الغرب بعد أن انتشروا في شبه جزيرة البلقان • وفي سنة ٦١١ عزم الفرس على غزو الشام ، وهزموا البيزنطيين سنة ٦١٣ عند أنطاكية أهم مدينة في الولايات البيزنطية الشرقية • ثم استولى الفرس على دمشق ومنها اتجهوا الى فلسطين ، واستولوا في السنة التالية ٦١٤ على بيت المقدس بعد حصاره عشرين يوما • وكان استيلاء الفرس على بيت المقدس لطمة قاسية للدولة البيزنطية إذ استولوا على ما به من دورا وكنائس ونقلوا الصليب المقدس الى عاصمتهم الدائن • وتقدم جانب من الجيش الفارسي في آسيا الصغرى حتى وصل سنة ٦١٥ في زحفه الى مدينة كريسو بوليس Chrysopolis المواجهة للقسطنطينية • وتقدم جيش فارسي آخر نحو مصر وسقطت الاسكندرية في سنة ٦١٨ أو ٦١٩ • وفضل المسيحيون المونوفيزتيون في مصر — مثل سكان الشام — الحكم الفارسي على السيادة البيزنطية ، لما عانوه من اضطهاد مذهبي • وكان فقد مصر ضربة عنيفة للدولة البيزنطية، لأن مصر كانت تمد القسطنطينية بالقمح • وأحدث عدم وصول القمح الى القسطنطينية ضائقة اقتصادية في العاصمة البيزنطية • كما انقطع عن هرقل مصادر القوة البشرية والمؤن من البلقان والشرق الأدنى(٢) •

وأصاب هرقل اليأس ، وفكر جديا في الانتقال الى قرطاجنة حيث كانت لأسرته بها السلطة ، ولكي يتخذها قاعدة له • وحدث أن السفينة التي كانت تحمل كنوز القصر غرقت في عاصفة بحرية وأخذ بطريك القسطنطينية سرجيوس Sergius قسما على الامبراطور بالآل يعادر العاصمة • وقدم له كنوز الكنيسة لتكون تحت تصرفه • وصبغت الحرب

(٢) Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 195 — 196 ; Vryonis.

Byzantium, pp. 58 — 59 ;

عمر كمال توفيق ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٦٦ — ٦٧ ، ابراهيم العلوي ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٢٤ .

ضد الفرس بصبغة دينية حماسية ، وشعور وعداء ديني ، وأخذت صفة حرب صليبية قبل الحروب الصليبية ضد المسلمين • وكانت أول حرب شنتها بيزنطة بحافز من الحماس الديني لانقاذ المسيحية من عباد النار ، واسترداد الأراضي المقدسة وإعادة الصليب (٣) •

ولكى يتفرغ هرقل لمحاربة الفرس عقد معاهدة مع الآفار ، وافق بمقتضاها على أن يدفع لهم اثابة كبيرة ، وذلك لكي يتمكن من نقل قواته من أوروبا الى آسيا • وفي ابريل سنة ٦٢٢ م غادر هرقل القسطنطينية لقتال الفرس • واستطاع أن يحرر آسيا الصغرى • غير أن خان الآفار انتهز فرصة غياب هرقل عن العاصمة ونقض الصلح وتقدم سنة ٦٢٦ من شبه جزيرة البلقان نحو القسطنطينية في جموع ضخمة من الآفار والصقالبة • وأرسل الملك الفارسي جيشا لمساعدة الآفار والصقالبة في محاصرة القسطنطينية برا وبحرا • وفشلت كل محاولات الفرس والآفار أمام المدافعين عن القسطنطينية ورفعوا الحصار عن العاصمة البيزنطية (٤) • وسجل البيزنطيون دفاعهم الناجح عن مدينتهم في سلسلة من الترانيم Akathistos تنسب الى البطريرك سرجيوس لا تزال تغنى في الكنائس الأرثوذكسية خلال أعياد الفصح (٥) •

وانتهى النزاع البيزنطي الفارسي في سنة ٦٢٧ م عندما حقق هرقل هزيمة ساحقة ضد قوات الفرس على مقربة من أطلال نينوى

Vryonis, Byzantium, pp. 59— 60 ; (٣)

اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٢٢٥ ، العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ١١٠ ، اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٥ .

Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 196 — 197 ; (٤)

Ostrogorsky, Byzantine state, pp. 87, 102 ;

اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٢٢٨ — ٢٣٠ ، العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ١١٢ .

Vryonis, Byzantium, p. 60. (٥)

(قرب مدينة الموصل الحالية) وتقدم داخل الولايات الفارسية • وتقرن في هذه المعركة مصير النزاع بين الفرس والبيزنطيين إذ اضطرب الفرس الى طلب الصلح واسترد الروم جميع أقاليمهم التي فقدوها في أرمنية والشام وفلسطين ومصر (٦) • وكان انتصار الروم على الفرس تأكيداً لما ورد في القرآن الكريم في سورة الروم « ألم ، غلبت الروم ، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون ، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » (٧) •

وعندما عاد هرقل الى القسطنطينية استقبل استقبالاً خافلاً من جانب سكان العاصمة ورجال الدين وأعضاء السناتو • ثم سار بعد ذلك الى بيت المقدس سنة ٦٣٠ م فنصب من جديد الصليب المقدس الذي استرده من الفرس • وتجدر الإشارة الى أن المؤرخ وليم الصوري William of Tyre (١١٣٠ — ١١٨٤ م) سجل في الفصل الأول من كتابه الشهير عودة هرقل منتصراً من فارس حاملاً معه الصليب المقدس وقيامه بزيارة بيت المقدس (٨) •

وبينما كانت الحرب قائمة بين الفرس والبيزنطيين كانت هناك أحداث ضخمة جرت في بلاد الحجاز لم يهتم بها الروم رغم أن العرب عرفوا الكثير عن دولتهم ، وذلك بغفل الطريق التجاري الى فلسطين والشام الذي سلكه القرشيون في رحلة الصيف ، كما أشار

(٦) Vasiliev, Byzantine empire, I. pp. 197 — 198 :
العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ١١٢ ، أومن ، الإمبراطورية
البيزنطية ، ص ١٠٥ — ١٠٦ .

(٧) سورة الروم ، آيات ١ — ٥ .

(٨) William of Tyre : History of Deeds done beyond
the Sea, New York, 1943, Vol. 1, p. 60.

الى ذلك القرآن الكريم في سورة قريش (٩) • وكان لانتصار الفرس على الروم واستيلائهم على بيت المقدس سنة ٦١٤ ما أضعف هيبة الروم أمام العرب • ومن الثابت أن الرسالة المحمدية لم يقصد بها العرب وحدهم ، لأن الله سبحانه وتعالى أرسل سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم شاهدا ومبشرا ونذيرا ، ليهدى الناس كافة الى دين الحق • ومن ثم غدت مهمة الرسول الكريم بعد أن تم نشر الاسلام في بلاد العرب أن يدعو الأمم المجاورة لاعتناق الاسلام والايمان بالرسالة • ففي شهر ذى الحجة سنة ست من الهجرة /ابريل ٦٢٨ م بعث الرسول صلى الله عليه وسلم رسلا من أصحابه الى ملوك وأمراء الدول المجاورة لجزيرة العرب ، وكتب معهم كتابا مؤداها الترويج في الاسلام ، فبعث الصحابي دحية بن خليفة الكلبي الى هرقل فلقبه في بصرى بالشام ، وقيل في بيت المقدس • ويقال ان هرقل رد على الرسالة ردا حسنا ، وقال لصاحب الرسالة : « عندما يسلم به أقرب الناس اليه نرى رأينا » • كذلك وجه الرسول صلى الله عليه وسلم كتابا الى المقوقس ، وهو قيس أو كيوس عظيم القبط وحاكم الاسكندرية ، مع الصحابي حاطب بن أبي بلتعة اللخمي • واستقبل المقوقس رسول النبي صلى الله عليه وسلم بالبشر والترحاب وناقشه في مضمون الرسالة ، وسأله عن النبي عليه الصلاة والسلام ودعوته • ثم صرف حاطبا بكتاب منه الى النبي وهدية عبارة عن جاريتين وبعض خيرات مصر • وقبل الرسول الكريم هذه الهدية وتزوج من إحدى الجاريتين وهي السيدة مارية القبطية المصرية ، وأنجب منها ابنه ابراهيم ووهب شقيقتهما سيرين للشاعر حسان بن ثابت (١٠) •

(٩) القرآن الكريم ، سورة قريش ، آيات ١ — ٢ •
 (١٠) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ٤٥ — ٥٢ ، ابن الفراء ، رسل الملوك ووصلح للرسالة والسفارة ، ص ٢٤ — ٢٦ ، وكانت رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم الى هرقل : « من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم • سلام على من اتبع الهدى • أما بعد : فإني ادعوك بدعاية =

والحقيقة أن البيزنطيين نظروا الى ظهور الاسلام نظيرة خاطئة (١١) . ويبدو أنهم نظروا الى الاسلام على أنه مذهب شبيه بمذهب آريوس ، واعتقدوا أنه مذهب من مذاهب المسيحية مثل المذهب المونوفيزتي المنتشر في مصر والشام . ولم يدرك البيزنطيون وقتذاك أن هناك عقيدة جديدة ظهرت في الجزيرة العربية ، وأن الاسلام لم يأت لطبقة من الطبقات أو جنس من الأجناس أو فئة من الفئات ، أو لجماعة أو لنوع من البشر ، وإنما الاسلام كان دعوة للانسان في كل زمان ومكان : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (١٢) . وعالية الاسلام تدعو الى وحدة بشرية لبنى الانسان ، وبالتالي لم يكن هدف الاسلام توسعيا أو استعماريا ، وإنما كان نشر الدعوة واسقاط البغاة ، والقضاء على نظم طالما استعبدت الانسان قرونا طويلة ، وفرض نظام جديد يقوم على تشريع سماوى محكم قائم على المساواة وتحرير الروح والبدن ، ولهذا كان الجهاد في الاسلام يهدف الى ازالة العوائق التي حالت دون نشر الدعوة بطريق سلمى . فالحماسة الدينية من أجل صدق العقيدة ، دفعت المسلمين الى أن يحملوا رسالة الاسلام معهم الى شحوب البلاد التي فتحوها ، لأنه كان عليهم تبليغ

= الاسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله اجره مرتين ، فان توليت فان عليك اثم الأريسيين ، يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، الا نعد الا اللولوا فنشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا باننا مسلمون » انظر القلتشندى ، صبيح الاعمش ، ج ٦ ، ص ٣٧٦ — ٣٧٧ ، انظر ايضا محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية وللمعهد النبوى والخلافة الراشدة ، ص ٨١ — ٨٦ . عبد الجبار السامرائى ، الرسائل التي بعث بها النبى صلى الله عليه وسلم الى ملوك الدول المجاورة ، مجلة الفيصل ، العدد ٥٥ محرم ١٤٠٢ هـ نوفمبر ١٩٨١ ص ٧١ — ٧٣ ، ٧٨ — ٧٩ ، وعن كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى القوقس وجوابه ، انظر محمد حميد الله ، نفس المرجع ، ص ١٠٥ — ١٠٨ ، والأريسيين كلمة ليست عربية ويبدو أن معناها الرعايا العاديين .

Vasiliev, Byzantine empire, I, p. 207.

(١١) انظر (١٢) القرآن الكريم ، سورة سبأ ، آية ٢٨ .

الدعوة ودوافعها وألوان نشاطها (١٣) . وهناك عوامل كثيرة ساعدت المسلمين الأوائل على تحقيق أهدافهم لنشر الاسلام فيما بين المحيط الهندي والمحيط الأطلسي في سنوات قليلة ، بل وتجاوزوا على مهاجمة إمبراطوريتي الفرس والبيزنطيين ، وهما أكبر إمبراطوريتين عرفهما العالم عند مسهل القرن السابع الميلادي . فقد استفاد العرب بما تم لهم من وحدة دينية وسياسية ، وما غلب عليهم من روح البذل والتضحية والجهاد في سبيل نشر هذا الدين الجديد الذي أخرج الإنسانية من الظلمات الى النور . واستفاد المسلمون من القتال والصراع الذي أضعف كلا من دولتي الفرس والروم ، وأدى الى انهيار سياسي وحربي واقتصادي لكل منهما . كما استفادوا أيضا مما علناه سكان مصر والشام أتباع مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزتيون) ، من اضطهاد مذهبي من قبل ولاية الدولة البيزنطية الملاكانيين (أنصار مذهب الطبيعتين مذهب الدولة) ، ومما سمعوه عن تسامح المسلمين في أمور العقيدة .

وفوجيء البيزنطيون سنة ٨ هـ / ٦٢٩ م بخبر قرب وصول جيش من المسلمين أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم بقيادة زيد بن حارثة الكلبي الى قرية مؤته على تخوم البلقاء جنوبى البحر الميت . وكان عدد المسلمين حوالى ثلاثة آلاف مجاهد ، بينما استعد البيزنطيون بأضعاف هذا العدد . ولما نزل المسلمون معان — وهى مدينة في طرف بادية الشام — للنظر في أمرهم ، أرادوا الكتابة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبروه بعدد العدو ، فاما أن يمدهم بالرجال أو أن يأمرهم بأمره . غير أن الصحابى الجليل عبد الله بن رواحة شجع الناس قائلا : « يا قوم ، والله ان الذين تكرهون للذى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فانما هى احدى الحصنين ،

(١٣) انظر توماس ارنولد ، الدعوة الى الاسلام ، ص ٢٥ — ٣٣ .

اما ظهور واما شهادة » • وفى معركة مؤتة تأكد للبيزنطيين أن هذه القوة الجديدة التي خرجت من شبه جزيرة العرب لم تكن غارة من غارات البدو التي تبغى السلب والنهب والتي اعتاد عليها الروم قبل الاسلام ، بل رأوا العرب المسلمين لأول مرة فى تاريخهم قد ظهروا مزودين بعقيدة سماوية أدت الى تماسكهم وتفانيهم فى سبيل عقيدتهم • ووجد البيزنطيون الدليل على ذلك أنه استشهد ثلاثة من القادة المسلمين وهم يقاتلون فى حماسة وإيمان واصرار وهم زيد بن حارثة رضى الله عنه وجعفر بن أبى طالب أو جعفر الطيار رضى الله عنه الذى ذكر ابن هشام وغيره أنه « أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعصديه حتى قتل رضى الله عنه فأتاه الله بذلك جناحين فى الجنة يضرهما حيث شاء » • وثالث القادة هو عبد الله بن رواحة رضى الله عنه • واستطاع خالد بن الوليد أن يأخذ اللواء ويدافع الروم وينحاز بالمسلمين حتى انتهى المعركة فى خربة عسكرية نادرة • وعاد بالجيش ودعا الرسول صلى الله عليه وسلم له قائلاً : « اللهم انه سيف من سيوفك فأنت تنصره » فسمى منذ ذلك الوقت سيف الله (١٤) •

وفى السنة التالية لغزوة مؤتة (٩ هـ / ٦٣٠ م) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لغزو البيزنطيين فى زمن عسرة من الناس ، وشدة من الحر ، وجذب فى البلاد ، ولذا سمي الجيش باسم جيش العسرة • وأنفق عثمان بن عفان رضى الله عنه فى تلك الغزوة نفقة عظيمة لم ينفق أحد أعظم من نفقته • وقاد الرسول صلى الله عليه وسلم حملة الى

(١٤) عن غزوة مؤتة انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٥ — ٣٠ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ، ص ٣٦ — ٤٢ ، ابو الربيع الكلاعى ، الاكتفاء فى مفازى رسول الله ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ — ٢٨٦ ، ابراهيم احمد العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٦ — ٣٧ ، شكرى فيصل ، حركة الفتح الاسلامى فى القرن الاول ، ص ٢٦ — ٢٧ •

تبوك ، وكانت أثبتة بمناورة حربية في المنطقة الواقعة بين أراضى الروم وشبه الجزيرة العربية • واكتفى الرسول صلى الله عليه وسلم بالعمل على تأمين حدود الحجاز الشمالية ، وبعث سرايا الى الجهات المجاورة لتبوك ، ثم عاد الجيش الى المدينة بعد أن أقام في تبوك بضع عشرة ليلة • وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستهدف التمهيد للدعوة الاسلامية في الشام ، وأن يبين للمسلمين أن الروم (بنى الأصفر) قد آذنت شمسهم أن تنحصر عن هذه البلاد أمام الجهاد الاسلامي (١٥) •

وانتقل الرسول صلوات الله عليه وسلامه الى الرفيق الأعلى سنة ١١ هـ / ٦٣٢ م بعد أن أعد حملة حربية بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ابن القائد الذى استشهد في مؤتة • وأمره الرسول « أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم ، من أرض فلسطين » (١٦) • وعمل الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه على تحقيق أهداف الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ بعث أسامة على رأس جيشه الى شمال بلاد العرب لحرب البيزنطيين • وخرج الخليفة أبو بكر ماشيا لتوديع أسامة والمسلمين ويوحيه • ويبدو أن غرض الخليفة — وقتذاك — كان هو معرفة قوة البيزنطيين في بلاد الشام وكانت تعليماته لأسامة ولقادة المسلمين ألا يتجاوزوا أراضى أطراف الدولة البيزنطية شمال بلاد العرب • وأوحى الخليفة أبو بكر الصديق المسلمين بالضعفاء خيرا ، وحثهم على أن يؤمنوا الناس على أموالهم وأرواحهم

(١٥) انظر : البلاغرى ، فتوح البلدان ، القسم الاول ، ص ٧١ — ٧٢ ، ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ١٥٩ — ١٧٣ ، تاريخ الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٠٠ — ١١١ ، الواقدي ، كتاب المغازى ، ج ٢ ، ص ٩٨٩ — ١٠٢٢ ، أبو الربيع الكلاعى ، الاكتفاء في مغازى رسول الله ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ — ٢٨٨ ، شكرى فيصل ، حركة الفتح الاسلامى في القرن الاول ، ص ٢٧ — ٢٩ •

(١٦) انظر ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ، ص ٢٩١ •

ولا يندروا » ولا يقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة » ولا يتعرضوا
لطقوسهم الدينية(١٧) •

١٧١

وبعد أن انتهى الخليفة أبو بكر الصديق من حروب الردة أعد
الجيوش الإسلامية للجهاد في سبيل الله في بلاد الشام في صفر
سنة ١٣ هـ / أبريل ٦٣٤ م • وعقد الخليفة الألوية لأشهر قادة المسلمين
وهم أبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان
وشر حبل بن حسنة • وكانت وجهة القائد أبي عبيدة بن الجراح حمص ،
وجهة يزيد بن أبي سفيان دمشق(١٨) ، ووجهة شر حبل بن حسنة
وادي الأردن ، ووجهة عمرو بن العاص فلسطين • ووجه الخليفة
القائد خالد بن الوليد إلى أرض فارس إلى حين تدعو الحاجة إليه •
وعندما أسرع الامبراطور البيزنطي هرقل في تنظيم جيوشه ، استدعى
الخليفة خالدا إلى الشام وبالتالي اتخذت حركات الجيوش الإسلامية
شكل المارك الكبرى • واجتاز خالدا بإحدى الشام في خمس ليال كما
يذكر الطبري بطريقة تدل على عبقرية عسكرية فذة • ونزل خالد على
بصرى وهي مدينة تجارية حصينة وعليها أبو عبيدة بن الجراح
وشر حبل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان ، فاجتمعوا عليها حتى فتحها
الله على المسلمين ، فكانت أول مدينة من مدائن الشام فتحت في خلافة
أبي بكر(١٩) •

واستطاع خالد بن الوليد أن يجمع شمل المسلمين ويوحد
القيادة وأمره ببيعة القادة • وكتب خالد رسالة قدمت من المدينة بوفاء
الخليفة أبي بكر الصديق وتأمير أبي عبيدة حتى لا ينتشر الخبر بين

(١٧) الواقدي ، كتاب المغازي ، ج ٣ ، ص ١١١٧ — ١١٢٧ ،
تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ، إبراهيم العدوي ، الامبراطورية
البيزنطية ، ص ٣٨ •
(١٨) تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ ، انظر أيضا البلاذري ،
فتوح البلدان ، القسم الأول ، ص ١٢٨ — ١٢٩ •
(١٩) تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٤١٥ — ٤١٨ •

الجند عشية مواجهة أكبر تجمع للروم عند اليرموك . وتجلت عبقرية خالد العسكرية مرة أخرى في معركة اليرموك ، اذ أنزل البيزنطيين هزيمة ساحقة في وادي نهر اليرموك (سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م) ، وهي معركة من المعارك الحاسمة في التاريخ ، اذ قتل فيها صناديد وفرسان البيزنطيين ، وقتل أخو الامبراطور هرقل ، وخرجت بلاد الشام من الكفر الى الاسلام (٢٠) .

ولما علم هرقل بانتصار المسلمين في اليرموك وكان في بيت المقدس أسرع بالرحيل الى حمص . وتتابع الفتوحات الاسلامية في بلاد الشام ، ففتح المسلمون دمشق عاصمة الشام ومحط رحال القوافل في رجب ١٤ هـ (٢١) . وفي السنة التالية ١٥ هـ / ٦٣٦ م تم فتح حمص بعد حصار طويل عانى منه المسلمون كثيرا (٢٢) .

وعلم عمرو بن العاص في نفس السنة (١٥ هـ / ٦٣٦ م) أن البيزنطيين قد حشدوا جيوشهم في بيت المقدس وغزة والرملة وعلو رأسها قائد فلسطين البيزنطي المسمى أرتابون (أريطيون) وعسكر بجنده بأجنادين . وعندما رأى عمرو كثرة عدد البيزنطيين كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب بالخبر . ولما وصل كتاب عمرو الى الخليفة قال عمر « قد رمينا أرتابون الروم بأرتابون العرب (يقصد عمرا) : فانظروا عم تنفرح » (٢٣) . واقتتل المسلمون والبيزنطيون قتالا شديدا

-
- (٢٠) من وقعة اليرموك انظر : الواقدي، فتوح الشام ، ج ١ ص ١٦٠ - ١٤٢ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، القسم الاول ، ص ١٦٠ - ١٦٣ ، تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ - ٤٠٣ .
 (٢١) تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٢٤ - ٤٤١ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، القسم الاول ، ص ١٤٤ - ١٥٤ .
 (٢٢) تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٥٩٩ - ٦٠١ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، القسم الاول ، ص ١٥٥ - ١٥٦ ، الواقدي ، فتوح الشام ، ج ١ ، ص ٦٣ - ٦٥ .
 (٢٣) تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٦٠٥ .

عند أجنادين (موضع قريب من الرملة) بعد أن عرف عمرو نقاط الضعف في مواضع البيزنطيين ، وكان قتالا شديدا كقتال اليرموك كما أشار الطبرى . وكتب الله النصر للمسلمين في هذه المعركة الهامة التي فتحت للمسلمين فلسطين . فقد فتح عمرو يافا ونابلس وعسقلان وغزة وغيرها (٢٤) . وتم فتح بيت المقدس أواخر سنة ٦١٥هـ / ٦٣٥م وحضر الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه بعد أن طلب أهلها من أبى عبيدة أن يصلحهم على صلح أهل مدن الشام ، وتوكيدا للأمان وتوثيقا للمهد أن يكون المتولى للصلح الخليفة عمر بن الخطاب (٢٥) .

وهكذا فقد البيزنطيون بلاد الشام ، أجمل أقاليمهم في الشرق ، وذكر الطبرى (٢٦) أن هرقل سأل رجلا من الروم كان أسيرا في أيدي المسلمين ثم هرب ، أن يخبره عن حقيقة هؤلاء القوم « فقال : احذرك كأنك تنظر إليهم ، فرسان بالنهار ، ورهبان بالليل ، ما يأكلون في ذمتهم إلا بشن ، ولا يدخلون إلا بسلام ، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه . فقال (هرقل) : لئن كنت صدقتني ليرثن ما تحت قدمي هاتين » . وعندما تمت الفتوحات الإسلامية في الشام التفت هرقل إليها مودعا وقائلا : « عليك السلام يا سورية ، سلاما لا اجتماع بعده ، ولا يعود إليك رومى أبدا الا خائفا » .

وأثنى دور مصر ، فقد أدرك المسلمون أهميتها ومركزها في الدولة البيزنطية . فكانت تعد سكان القسطنطينية بالقمح . وكان الاستيلاء عليها معناه حرمان البيزنطيين من هذا المورد الهام وكسر شوكة مقاومتهم . كما أدرك قادة المسلمين أهمية موقع مصر وموانئها في عالم البحر المتوسط وفي تأمين الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام ،

« (٢٤) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ، ص ٦٠٥ — ٦٠٧ .

(٢٥) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦٠٧ — ٦١٣ ، الواقدى ، فتوح الشام ، ج ١ ، ص ١٤٣ — ١٥٥ .

(٢٦) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ، ص ٦٠٢ — ٦٠٣ .

وفى نشر الاسلام فى شمال افريقية . وتجدر الاشارة الى أن اضطراب أحوال الدولة البيزنطية وبخاصة بعد فقدتهم لبلاد الشام كان من أهم أسباب ضياع ديار مصر ، وأن المسلمين جنوا ثمار سياسة الاضطهاد الدينى التى اتبعها البيزنطيون فى مصر ضد المونوفيزيتيين .

ولسنا فى مجال الحديث عن دوافع وأسباب فتح العرب لمصر وقصة الفتح (٢٧) ، فقد استولى عمرو بن العاص على الفرما (بلوزيوم) سنة ٢٠ هـ / ٦٤٠ م بعد حصار دون أن تصل المدينة أية امدادات بيزنطية . وكانت هذه المدينة مدخل مصر من الشرق . ثم استولى المسلمون على بلبيس وحصن بابليون ثم اتجهوا الى العاصمة الاسكندرية التى سقطت فى أيديهم صلحا . وهكذا شاهد الامبراطور البيزنطى هرقل فى أخريات أيامه وقسوع أهم وأعلى ولايات الدولة البيزنطية فى أيدي المسلمين .

وكان الامبراطور هرقل قد حاول انتقاذ الدولة البيزنطية مما حل بها نتيجة غارات الفرس والعرب . فقام بمحاولة لتحقيق الوحدة المذهبية وأنشأ نظاما عسكريا اداريا فى آسيا الصغرى . أما عن تحقيق الوحدة المذهبية فمن المعروف أن المسلمين استفادوا — كما سبق ذكره — من الخلاف الدينى المذهبى بين مذهب الطبيعتين وهو المذهب الملتكى مذهب خلقدونية وبين مذهب الطبيعة الواحدة وهو المذهب المونوفيزيتى الذى انتشر فى مصر والشام رغم أنف الدولة البيزنطية .

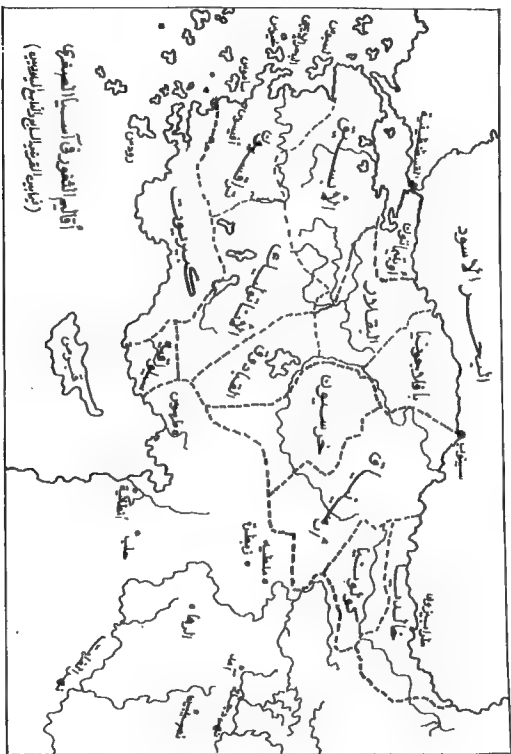
(٢٧) عن فتح العرب لمصر ، انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الاول ، ص ٢٤٩ — ٢٦٣ ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر واخبارها ، ص ٥٥ — ٨٤ ، الطبرى ، ج ٤ ، ص ١٠٤ — ١١٢ ، السيوطى : حسن الحضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، ج ١ ، ص ١٠٦ — ١٣٠ ، بئر : فتح العرب لمصر ، ص ١٤٤ — ٢٤٠ ، ابراهيم المسعودى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٤٤ — ٤٩ ، شكرى قبصل ، حركة الفتح الاسلامى فى القرن الاول ، ص ١١٨ — ١٢٦ .

وتجدر الإشارة الى أن انتشار المذهب المونوفيزيتى أدى الى تقدم وانتشار اللغة القبطية في مصر والسريانية في الشام حيث استخدمتا لأداء الطقوس الدينية وفي الآداب . وبالتالي يمكن القول بأنه منذ القرن السابع الميلادى ، أى بظهور الاسلام ، أصبح النزاع بين رجال الدين الخلقونيين اليونانيين والمونوفيزتيين المصريين والناطقة السوريين أصبح نزاعا جنسيا وعقائديا وثقافيا .

وقام هرقل بمحاولة للوفاق بين أتباع المذهبين في محاولة يائسة للحفاظ على الوحدة الداخلية في الولايات الشرقية . وتحمس بطريك القسطنطينية سرجيوس Sergius الى عقيدة الإرادة الواحدة في المسيح أى أن ما للمسيح من طبيعتين الهية وبشرية تتسمان بارادة واحدة ، وهو المذهب الذى عرف باسم المونوثيليتية Monothelism

أى مذهب الإرادة الواحدة . وتبنى الامبراطور هذه العقيدة ونشرها في مرسوم صدر سنة ٦٣٨ م باسم الايكتيسيز Ecthesis (تفسير الايمان) . ولم ينل هذا المذهب القبول من أى جانب فقد لقي معارضة من الأرثوذكس ومن المونوفيزتيين بل ومن البابا في روما . ولم يؤد المذهب الجديد الا الى ازدياد العداء بين أتباع المذهبين وازدياد النزعة الانفصالية في الأقاليم الشرقية ، في وقت فتح فيه المسلمون الشام وفلسطين وتطلعوا لفتح مصر وانتزاعها من قبضة الدولة البيزنطية . وهكذا لم يحقق مرسوم هرقل أية نتائج ايجابية ، وفشلت سياسة الوفاق المذهبي ، بل مهد هذا المرسوم للعداء بين الشرق والغرب والقطيعة بين كنيسة روما والقسطنطينية (٢٨) .

(٢٨): Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 222 — 3 ;
 Vryonis, Byzantium, p. 62 ; strogorsky, Byzantine state, pp. 107—100 ;
 العربى ، الدولة البيزنطية ، ص ١١٧ — ١١٩ ، عمر كمال توفيق ،
 الامبراطورية البيزنطية ، ص ٧٤ — ٧٥ ، اسحق عبيد ، الامبراطورية
 الرومانية ، ص ٩٣ .



أقاليم الثغور في آسيا الصغرى
(بما بين القريظة والساحل وأطامح أبله وبيد)

وتطلب الأمر بعض الاجراءات العسكرية ، كان لابد من اجتناب سياسة الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية . فعندما هدد اللومبارديون ايطاليا قام الامبراطور موريس Maurice (٥٨٢ - ٦٠٢) بتوحيد السلطتين المدنية والعسكرية في يد أرخون رافنا the exarch of Ravenna ، وعندما هدد البربر ولاية شمال افريقية قام موريس بوضع السلطات كلها في أيدي أرخون قرطاجنة . وهكذا بدأ اعضاء الصفة العسكرية على ادارة ولايات الامبراطورية ، وأدى هذا الى تغيير ادارى واجتماعى كبير ، وكلفت في هذه الأرخونيات أصول بواحد نظام الثغور (٣٠) .

وفي عصر هرقل تطور الأمر فائتاء غزوات الفرس في أوائل القرن السابع قرر هرقل منح السلطة العسكرية لمولاة أقاليم آسيا الصغرى في نظام شبيه بالأرخونيات ، ثم تلى هذا الفتوحات الاسلامية واضطرت الدولة البيزنطية الى اتخاذ لجراءات ادارية - عسكرية على أطرافها الشرقية ، وهو ما يسمى باسم الثغور Themes ، اذ تولى رئاسة كل ثغر Thema قائد عسكري Strategos استراتيجوس جمع في يديه السلطة العسكرية بالاضافة الى الادارة المدنية في اقليمه (٣١) .

ويرجع الى عصر هرقل نشأة أربعة أقاليم عسكرية كبيرة سميت فيما بعد باسم ثغور: وهى :

١ - الأرمنيقي (Armeniakoï) Armeniaci فى شمال شرق آسيا الصغرى على حدود أرمينية .

٢ - الاناتوليكي (Anatolikoi) Anatolici من الكلمة اليونانية Anatoli (الشرق) .

Vryonis, Byzantium, p. 71.

(٣٠-٨)

Ibid. p. 71 — 72 ; Vasiliev, Byzantine empire, I, p. 227. (٣١)

٣ - الأبسيق Opsikion في آسيا الصغرى قرب بحر مرمرة .

٤ - الثغر البحرى الذى سمى فيما بعد في القرن الثامن تقريبا كيبريوت Cibyrracot (Cibyraiot) في الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى والجزر المجاورة .

ويلاحظ أن الثغرين الأولين احتلا كل وسط آسيا الصغرى من حدود قيليقية في الشرق الى شواطئ البحر الأيغى في الغرب . وكان الغرض منهما حماية تلك الأقاليم من هجمات العرب المسلمين ، والثغر الثالث لحماية العاصمة من الأعداء . أما الثغر الرابع أى الثغر البحرى فكان ثغرا دفاعيا ضد الاسطول الاسلامى . غير أنه تجدر الاشارة - كما ذكر فازيليف - الى أن نشأة الثغور لم تكن نتيجة قرار واحد بل كان لكل ثغر تاريخه الخاص به ، وهذا هو السر في مشكلة بحث نشأة الثغور البيزنطية (٣٢) .

وعندما بدأ المسلمون يسيطرون على الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، واستقر الصقالبة في أقاليم هامة من شبه جزيرة البلقان وتوغلوا حتى البيلوبونيز ، ونشأت مملكة البلغار في النصف الثانى من

Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 227 — 228 ; (٣٢)

وللمصادر العربية أهمية كبيرة لدراسة الثغور أو البنود البيزنطية ، فقد نقل ابن خرداذبه (توفى حوالى ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) في كتابه المسالك والممالك عن مسلم بن أبى مسلم الجرمى معلومات هامة عن اعمال (ثغور) الروم . ولورد قدامه بن جعفر (توفى ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م) في كتابه الخراج وصناعة الكتابة قائمة بأعمال الروم . لها المسعودى (ت ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م) فقد ذكر في كتابه التنبية والاشراف معلومات هامة عن الثغور البيزنطية تحت عنوان (ذكر بنود الروم) ، انظر أيضا ، العرينى ، لجناد الروم ، ط ١ . القاهرة ١٩٥٦ ، فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج ١ ص ١٠٤ - ١١٣ Brooks, Arabic lists of the Byzantine Themes,

Journal of Hellenic Studies, Vol. XXI (1901), pp. 67 - - 77.

القرن السابع عند الأطراف الشمالية البيزنطية. ، كان على الدولة البيزنطية أن تنشأ ثغورا جديدة للوقوف فى وجه هذه الأخطار .

وبرهن نظام الثغور على أهميته وفاعليته للدفاع عن الدولة البيزنطية . ففى نظام الثغور منح الجند قطائع من الأرض لزراعتها مقابل الخدمة العسكرية لترغيبهم فى الاستقرار . ولا شك أن هذا النظام العسكرى — الإدارى كان ذا فائدة عظيمة للدولة لأنه خلق جيشا جديدا من الجند المزارعين . وكان تحت يد الجندى المزارع قطعة من الأرض الزراعية تمدّه بالموارد الاقتصادية التى يعيش عليها ويشتري بها ما يلزمه من آلات الحرب للقتال ، مما جعله على أهبة الاستعداد للخروج للقتال بسلاحه وحصانه . وبالتالي أمد نظام الثغور كل أقليم بجيش ثابت كان مستعدا دائما طول الوقت لمواجهة العدو . وحرر هذا النظام الدولة البيزنطية من الجند المرتقة الأجانب الذين كانوا عنصرا ظاهرا فى الجيش البيزنطى خلال القرون السابقة ، وأثقلوا كاهل الدولة . وكان ولاء الجند المرتقة مرتبطا برواتبهم فى حين كان الجندى المزارع يستمد ولاءه من حماسته ومن الموارد الاقتصادية التى يجنيها من قطيعة الأرض التى تحت يده . يضاف الى ذلك أن ارتفاع جانب من طبقة المزارعين الى الطبقة العسكرية ، ومساعدة الدولة للمزارع كمالك حر للأرض أدى الى تقوية طبقة المزارعين ، وساعد ذلك الى درجة كبيرة فى توطيد الهيكل الاجتماعى للإمبراطورية(٣٣) . وهكذا أصبح نظام الأجناد أو الثغور العمود الفقري للدولة البيزنطية ونم تأخذ الدولة فى الانهيار الا عندما انفاز هذا النظام(٣٤) .

Vryonis, Byzantium p. 72.

(٣٣)

Charles Diehl, Byzantium, p. 9.

(٣٤) انظر :

المسلمون والبيزنطيون بعد عصر هرقل :

أحدثت الفتوحات الإسلامية في الشام ومصر هزة عنيفة في كيان الدولة البيزنطية بدليل ماحدث من اضطرابات ومقتن ومؤامرات بعد وفاة هرقل في فبراير سنة ٦٤١ . وأخيرا قرر السكناو توليفة حفيد هرقل المسمى قنسطانز (٦٤١ — ٦٦٨) امبراطورا . وشاهدت السنوات الاولى من حكم قنسطانز الثاني Constans II امتداد حركة الفتوحات الإسلامية في شمال أفريقية . وكان الفتح الاسلامي لبرقة وطرابلس (المغرب) نتيجة حتمية اقتضتها طبيعة حركة الفتوحات الإسلامية . فقد كانت برقة امتدادا طبيعيا لمصر ، وكان لابد من تطويق الدولة البيزنطية من الغرب وحماية وتأمين الفتوحات الإسلامية في مصر والشام من خطر البيزنطيين (٣٥) . وبعد أن تم للعرب فتح مصر بمعاهدة الاسكندرية في شوال ١٢١ هـ / سبتمبر ٦٤٢م، اتجه القائد عمرو بن العاص على رأس جيش لمسح حركة الفتوحات الإسلامية غربا . واستولى عمرو على برقة أواخر سنة ٢٢ هـ / أوائل ٦٤٣م وجعلها قاعدة لجيش المسلمين في غرب مصر . وفي سنة ٢٣ هـ / أواخر ٦٤٣م قاد عمرو بن العاص حملة أخرى خرجت من القسطنطينية وفتح اقليم طرابلس ، واستولى على مدينة طرابلس بعد حرب مع البيزنطيين والبربر (٣٦) . وعندما توفي الخليفة عمر بن الخطاب في نوفمبر ٦٤٤م استدعى الخليفة عثمان بن عفان عمرا وشجع هذا البيزنطيين على القيام بهجوم مضاد . وأرسلت الدولة البيزنطية

(٣٥) انظر : السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ (العصر الاسلامي) ، ص ١٤١ — ١٤٢ ، احمد مختار السبعاوي ، في تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٣٧ .

(٣٦) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٠ — ١٧١ ، البلاقرى ، فتوح البلدان ، القسم الاول ، ص ٢٦٤ — ٢٦٦ ، ابن عذارى ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، ج ١ ، ص ٨ ، حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٢١ ، شكرى فيصل ، حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول ص ١٥٦ — ١٥٧ .

استولوا كبيرا الى مصر بقيادة مانويل Manuel • واستطاع هذا القائد أن يأخذ الحامية الاسلامية على غرة واسترد الاسكندرية • وأعاد الخليفة عثمان القائد عمرو بن العاص بسرعة واستطاع أن يعزم قوات مانويل عند نقيوس Nikiu ودخل الاسكندرية ثانية سنة ٦٤٦م ، واضطر مانويل الى الهرب الى القسطنطينية • واستقبل الأقباط من أهل الاسكندرية بقيادة البطريرك بنيامين Benjamin المسلمين بترحاب كبير وفقحت بيزنطة الى الابد أغنى ولاياتها في الشرق (٣٧) وبعد أن أمن المسلمون مركزهم في الشام وأعلى الجزيرة التفتوا الى أرمينية وآسيا الصغرى • غفى سنة ٦٤٧م غزا مطوية بن أبى سفيان والى الشام قبادوقيا واستولى على قيصرية في آسيا الصغرى وعاد الى دمشق بغنائم وكثير من الأسرى (٣٨) •

وتابع المسلمون فتوحاتهم غربا على حساب الدولة البيزنطية • فعندما تولى الخلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، سمح سنة ٢٧هـ / ٦٤٧م لأخيه من الرضاة عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر بغزو أفريقية على رأس حملة كبيرة اشترك فيها جماعة من الصحابة وأبناء الصحابة ، والكثيرون منهم يسمون عبد الله من أشهرهم عبد الله ابن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير ، ولهذا سعى هذا الجيش جيش العبادلة • والتقى المسلمون بالجيش البيزنطى سنة ٢٨هـ / ٦٤٩م فى مكان بالقرب من سبیطله جنوب غرب المكان الذى سوف تؤسس عليه القيروان فيما بعد • وكان الجيش

Ostrogorsky, Byzantine State, p. 115 ;

(٣٧)

بتر ، فتح العرب لمصر ، ص ٣٤٣ — ٣٥١ ، العربى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٢٤ — ١٢٥ •

(٣٨) تاريخ الطبرى ، ج ٥ ، ص ٤٦ ،

Ostrogorsky, Byzantine State, pp. 115 — 116.

البيزنطى بقيادة أرخون افريقية جريجورى ويسميه العرب جرجير ،
وانتصر المسلمون فى هذه المعركة انتصارا حاسما وقتل جرجير ،
ووقف المسلمون على حالة تلك البلاد ، ولم يعد للدولة البيزنطية قوة
عسكرية كبيرة فى افريقية (٣٩) .

وكانت انتصارات المسلمين فى شمال افريقية دليلا جديدا على
فشل الدولة البيزنطية فى حل خلافاتها المذهبية مع رعاياها . فقد
وقف سكان شمال افريقية موقف المناوىء من المذهب المونوثيليتى الذى
نادى به الامبراطور هرقل . وعاش فى شمال افريقية فى ذلك الوقت
عالم دينى ارثوذكسى اسمه ماكسيموس المعترف *Maximus Confessor*
الذى كان من أشهر المفكرين الدينيين فى عصره . وبتحريض من
ماكسيموس عقدت اجتماعات دينية فى كثير من مدن شمال افريقية فى
سنة ٦٤٦م قررت أن المذهب المونوثيليتى الذى تساندته الدولة هرطقة
دينية . وحاول الامبراطور قنسطانز الثانى — كما حاول هرقل من
قبل — إيجاد حل لهذه المشكلة الدينية التى هددت الوجود البيزنطى
فى شمال افريقية . وفى سنة ٦٤٨م أصدر الامبراطور قنسطانز
مرسوما جديدا عرف باسم *Typicon* (Typicon) أى « نموذج الايمان »
وبمقتضاه حرم النقاش فى مسألة الارادة الالهية ومسألة قدرة الله .
ويقضى المرسوم بالاعتراف بطبيعتين للمسيح وبارادة واحدة فى
أسلوب غامض . جاء « نموذج » قنسطانز ليزيد من تعقيد الأمور
فجما يخض العقيدة . وعارض ماكسيموس هذا المذهب ، وتدخلت
كنيسة روما فى هذا النزاع المذهبى اذ دعا البابا مارتن الاول (٦٤٩ —

(٣٩) انظر : الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٦ ، ابن عبد الحكم ،
ص ١٨٣ — ١٨٧ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الاول ، ص ٢٦٧ —
٢٦٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٨ — ١٢ ، السيد عبد العزيز سالم ، المغرب
الكبير ، ص ١٤٤ — ١٥٢ ، حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والاتلس ،
ص ٣١ — ٣٣ .

٦٥٥) الى عقد مجمع دينى فى روما سنة ٦٤٩ • وقرر هذا المجمع أن « نموذج الايمان » وبعض القرارات الدينية السابقة مثل مرسوم هرقل لا تصلح أن تكون أساسا للعقيدة الصحيحة • وأرسل البابا قرارات المجمع الى جميع الأساقفة ورجال الدين والى الامبراطور نفسه • وغضب الامبراطور قنسطانز الثانى لتصرفات البابا خاصة أنه دعا الى عقد هذا المجمع دون اذن من الامبراطور ، ولم يطلع الامبراطور مسبقا على القرارات ، وتم القبض على البابا مارتن الأول ، وأخرج من روما ليلا الى القسطنطينية • وحوكم البابا فى العاصمة البيزنطية محاكمة سياسية أكثر منها دينية ، واتهم بأنه أثار الشعب والفتن ضد الامبراطور فى الولايات الغربية • وحاول البابا إثارة القضية الدينية دون جدوى ، وحكم عليه بالموت ، وخفف الامبراطور الحكم نظرا لمرض البابا وضعف صحته وكبر سنه ، ونفاه الى خرسون Cherson بالقرم • وفى رسائله التى أرسلها مارتن من خرسون شكى من سوء أحواله المعيشية ، وسأل أصحابه أن يمدوه بالطعام خاصة الخبز • وأخيرا مات مارتن سنة ٦٥٦ م • أما العالم الدينى ماكسيموس فقد تم القبض عليه أيضا ونقل الى القسطنطينية ، واتهم بالخيانة وتعرض لتعذيب شديد ، ثم تقرر نفيه الى لازيقا على البحر الأسود حيث مات سنة ٦٦٢ م (٤٠) •

وهكذا زاد الخلاف العقائدى من مشكلات الدولة البيزنطية فى وقت تطلع فيه المسلمون الى تحقيق السيادة والسيطرة على البحر المتوسط وانتراعه من البيزنطيين ، ولتأمين فتوحاتهم فى الشام ومصر والمغرب • ووجد المسلمون أن هذا الأمر لن يتم لهم الا بركوب البحر •

Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 223 — 4 ; Ostrogorsky, (٤٠)
Byzantine state, pp. 119 — 120 ;

المرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٢٧ — ١٢٩ ، اسحق عبيد ،
الامبراطورية الرومانية ، ص ٩٣ — ٩٤ •

ويعتبر معاوية بن أبى سفيان أول سياسى عربى أدرك أن الحرب ضد البيزنطيين وتدعيم السيادة الإسلامية على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط فى حاجة الى أسطول قوى • وفكر معاوية أبى سفيان فى ركوب البحر منذ خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذ يقال أنه أثناء ولايته للشام ألح على الخليفة عمر أن يأذن له بغزو بلاد الروم بحرا لقربها منه وغزو قبرص • وأرسل الى الخليفة يقول : « ان قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم » • ويقال أن عمر بن الخطاب طلب الى والى مصر عمرو بن العاص أن يصف له البحر وراكبه ، على اعتبار أن مصر من الأمم التى مارست ركوب البحر وعرفت فنونه • فكتب عمرو الى الخليفة قائلا : « يا أمير المؤمنين ، انى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ليس الا السماء والماء ، ان ركن أحزن القلوب ، وان تحرك أزواج العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كئود على عود ، ان مال غرق ، وان نجا برق » • فلما قرأه الخليفة عمر كتب الى معاوية « لا والذي بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا » (٤١) •

ويبدو أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يمه عن ركوب البحر الا فى أحوال خاصة عندما رأى أن المسلمين قد يتعرضون فيها للخطر وخاصة فى البحار التى لم يسبق لهم خوضها • والبحر المتوسط • غير أن المسلمين اتجهوا نحو البحر لاعتبارات دينية وعسكرية واقتصادية ، اذ كان لابد لهم من الدفاع عن البلاد التى فتحوها ونشروا فيها الاسلام من خطر الروم خاصة أن البحر كان لا يزال فى قبضتهم ولا يمكن عزل مصر وساحل الشام عن البحر

(٤١) الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ ، انظر : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩٩ — ٢٠٠ ، سعد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية ص ٦٣ ،

المتوسط . كما أن هناك أهمية البحر المتوسط الاقتصادية باعتبارها طريقا هاما للتجارة العالمية . واستفاد المسلمون من الموانئ البحرية التي استولوا عليها في مصر والشام ، كما أنهم تعلموا من خبرات سكان هذه الموانئ في صناعة السفن وركوب البحر والقتال فيه . وفسر العلامة ابن خلدون ذلك في مقدمته بقوله : « فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم المعجم خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من الفوائت في حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافتهم ، استحدثوا بصراء بها ، فشرهوا الى الجهاد فيه وانتشئوا السفن فيه والشوانى ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأطوها العساكر والمقاتلة لن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وافريقية والمغرب والأندلس » (٤٢) .

وتجدر الإشارة الى أن رواية ابن خلدون لا تدل على جهل العرب بالبحر وركوبه فهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم ترشد الى فوائد ركوب البحر ومنافعه ، وهي تدل على معرفة العرب بالبحر (٤٣) . كما ورد ما يدل على مهارة العرب بعلم الملاحة وثقافة البحر والملاحين في شعر طرفة بن العبد وغيره (٤٤) .

(٤٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٠ .

(٤٣) منها على سبيل المثال قوله تعالى : « ريكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيم » (سورة الاسراء ، آية ٦٦) ، وقوله تعالى « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (سورة النحل ، آية ١٤) ، وقوله تعالى : « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى انلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (سورة الجاثية ، آية ١٢) .

(٤٤) من الخبرة الملاحية عند العرب قبل الاسلام ، انظر : انور

عبد النعيم ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، ص ٢١ - ٢٢ .
Fahmy, Muslim Sea -- Power, pp. 50 — 55.

واستطاع والى الشام معاوية بن أبى سفيان فى خلافة عثمان بن عفان الحصول على اذن الخليفة فى ركوب البحر بعد أن أوصاه « لا تنتخب الناس ولا تفرع بينهم ، خيرهم ، فمن اختار. الغزو طائعا فاحمله وأخه » (٤٥) واستمع معاوية لنصيحة الخليفة عثمان وغزا جزيرة قبرص سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م التى كانت من أهم القواعد الحربية لأسطول البيزنطيين فى شرق البحر المتوسط . وقد اتجه الاسطول الاسلامى من عكا بقيادة عبد الله بن قيس متجها نحو جزيرة قبرص ، كما سار اليها من مصر اسطول اسلامى آخر بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وصالحهم المبارصة على جزيرة يؤدونها لهم كل سنة (٤٦) .

ويرى Bréhier أن سنة ٦٤٩ ميلادية وهى السنة التى شيد فيها معاوية بن أبى سفيان أسطولا اسلاميا فى البحر المتوسط وبدأت فيها حملات البحرية الاسلامية فى البحر المتوسط من السنوات الهامة التى حددت مصير البحرية البيزنطية فى القرون التالية (٤٧) . ولاشك أن استيلاء المسلمين على قبرص فى تلك السنة كان فاتحة خير لسيادة المسلمين على مياه البحر المتوسط ، كما يستنتج من حملة قبرص أن المسلمين أصبح لهم أسطول كبير فى البحر (٤٨) .

(٤٥) تاريخ الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٦٠

(٤٦) الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الاول ، ص ١٨١ — ١٨٦ ، محمد جمال الدين سرور ، دراسات فى العلاقات السياسية بين دول الشرق الاسلامى والدولة البيزنطية ، ص ١ ، ابراهيم طرخسان ، المسلمون فى اوربا ، ص ٧٩ — ٨٤ ، محمد ياسين الحموى ، تاريخ الاسطول العربى ، ص ١٣ — ١٤ ، سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٦٧ — ٦٨ ،

Fahmy : Muslim Sea . - Power, pp. 80 — 82.

Bréhier, 'La Marine de Byzance du VIIIe au XIe siècle. (٤٧)

Byzantium, Vol. XIX (1949), pp. 1 — 2.

(٤٨) حسين مؤنس . « المسلمون فى حوض البحر الأبيض » المجلة

التاريخية المصرية ، مجلد ٤ ، الممد الاول (١٩٥١) ص ٧٦ — ٧٧

وتابع المسلمون انتصاراتهم فى البحر المتوسط ففى سنة ٦٥٤م أغار الاسطول الاسلامى على جزيرة رودس واستولى المسلمون على بعض جزر بحر الارخبيل ، وتعرضت كريت لحملةهم المتكررة (٤٩) .
ويلاحظ أن المسلمين قصدوا من هذه المحاولات فى البحر المتوسط تأمين طريق الوصول الى القسطنطينية تمهيدا للاستيلاء عليها .
والحقيقة أن المسلمين فى جهادهم لنشر الاسلام تطلعوا منذ عصر الفتوحات الأولى للاستيلاء على القسطنطينية التى كانت عاصمة الدنيا وقتذاك . وآمن المسلمون أنه كما كانت لهم المدائن عاصمة الدولة الفارسية الساسانية فلا بد أن تسقط فى أيديهم أيضا القسطنطينية عاصمة الروم ، وحاولوا تحقيق هذا الهدف أكثر من مرة .

وأدرك البيزنطيون هدف المسلمين وهو الاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية ، فخرج الامبراطور قنسطانز الثانى سنة ٣٤ هـ / ٦٥٥ م على رأس قوة بحرية لمواجهة الخطر الاسلامى فى البحر ، وذكر الطبرى « فخرجوا فى جمع لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الاسلام فخرجوا فى خمسمائة مركب » (٥٠) . وعند فوينكس Phoenix قرب شواطئ ليكيا بآسيا الصغرى حدثت معركة بحرية كبيرة ، انتصر المسلمون فيها بقيادة والى مصر عبدالله بن سعد بن أبى السرح على الاسطول البيزنطى . وأصيب الامبراطور قنسطانز بجراح كثيرة ونجا من الموت بأعجوبة ، وكاد أن يقع أسيرا . وهذه المعركة البحرية هى التى وردت فى المصادر العربية باسم « غزوة الصوارى » لكثرة صوارى السفن التى اشتبكت فى القتال . وجاء انتصار المسلمين فى تلك المعركة نتيجة لخطة حربية جديدة ، إذ ربطوا سفنهم بعضها الى بعض بسلاسل ثقيلة ، فاستعمل على أعدائهم اختراق صفوفهم .

(٤٩) انظر : Fahmy : Muslim Sea — Power, pp. 84 — 5.

(٥٠) الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ .

واستخدم المسلمون أيضا فى تلك المعركة البحرية خطاطيف يقذفون بها صواريخ سفن الروم ثم يجرونها الى جوار سفنهم فغدت المعركة وكأنها معركة برية (٥١) .

وترتب على هذه المعركة البحرية أن تداعت سيادة البيزنطيين على البحر (٥٢) . وقارن ثيوفانو Theophano بين هذه المعركة وبين معركة اليرموك التى كان لها أيضا نتائج كبيرة على تاريخ بيزنطة (٥٣) . وأدرك الامبراطور قسطنطين الثانى أن اعداد أية حملات برية أو بحرية لاسترداد مصر أو الشام مجهود فاشل ضائع . ورأى هذا الامبراطور ضرورة أن تستعد الدولة البيزنطية لصد هجوم المسلمين المتوقع على القسطنطينية . ومن ناحية أخرى لم يجرأ الروم بعد موقعة ذات الصواريخ على منازلة المسلمين فى مواقع بحرية ، بل اكتفوا بمهاجمة سواحل البلاد الاسلامية ، مما دفع المسلمين الى مضاعفة المهمة فى بناء السفن وانشاء دور صناعتها (٥٤) . غير أن المسلمين لم يستفيدوا الفائدة المتوقعة من نتائج النصر الذى أحرزوه فى موقعة ذات الصواريخ اذ قتل الخليفة عثمان رضى الله عنه سنة ٦٣٥/٦٥٦م ، وبدأ النزاع

(٥١) الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٨٨ — ٢٩٢ ، ابن عبد الحكم ، ص ١٨٩ .
 العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٣ ، العرنى ،
 الدولة البيزنطية ، ص ١٢٦ ، ارشيبالدويس ، القوى البحرية والتجارية
 فى جوض البحر المتوسط ، ص ٩١ — ٩٢ ، انور عبد العليم ، الملاحه وعلوم
 البحار عند العرب ، ص ٩٢ — ٩٣ ،

Vasiliev, Byzantine empire, I, p. 212 ; Fahmy, Muslim Sea Power, pp. 85 — 89.

Bréhier, 'la marine de Byzance', pp. 2— 3. (٥٢)

Canard, M., 'les Expéditions des Arabes contre Constantinople dans l'histoire et dans la légende', Journal Asiatique, (٥٣)

Vol. 208 (1926), pp. 63 — 65.

(٥٤) انظر حسين مؤنس ، المسلمون فى حوض البحر الأبيض ، ص ٩٠ — ٩١ .

حول الخلافة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله
عنهما . . .

وكيفما كان الأمر ، ففي حوالي منتصف القرن السابع الميلادي لم يكن في مقدور الدولة البيزنطية أن تقف في وجه حركة الفتوحات الإسلامية في ولاياتها الشرقية والجنوبية ، ونجاح الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط والبحر الأيحي . وتوالت الكوارث على البيزنطيين فقد قامت في منتصف القرن السابع مملكة البلغار في الأطراف الشمالية للدولة البيزنطية ، وتقدم الصقالبة من البلقان نحو العاصمة وشواطئ بحر ايجه . ولما أصبحت القسطنطينية في خطر أمام هجمات المسلمين وتقدم الصقالبة رأى قنسطانز الثاني أن يهاجر القسطنطينية وأن ينقل العاصمة الى روما أو أى مكان آخر في ايطاليا . ويرى فازيليف Vasiliev أن قنسطانز أدرك عدم الأمان في البقاء في القسطنطينية ، كما أنه توقع امتداد الفتوحات الإسلامية من شمال افريقية الى ايطاليا وصقلية ، ولذا رأى أن يقوى مركز الامبراطورية في الجزء الغربى من البحر المتوسط للقيام بالترتيبات اللازمة لمنع المسلمين من مد غزواتهم . ومن المحتمل أنه لم يفكر في هجر القسطنطينية الى الأبد ، ولكنه أراد تأسيس مركز ثان للامبراطورية في القرب كما كان الحال في القرن الرابع آملا في إيقاف تقدم المد الإسلامي والوقوف في وجه اللومبارديين في ايطاليا . وغادر قنسطانز القسطنطينية الى روما بايطاليا عن طريق أثينا ، ثم ذهب الى نابلى وجنوب ايطاليا واستقر أخيرا في مدينة سيراكوز في جزيرة صقلية . وفي سيراكوز قضى قنسطانز الثانى السنوات الخمس الأخيرة من حكمه دون أن يستطع تحقيق آماله . فقد فشل في صد هجمات اللومبارديين ، وهدد المسلمون صقلية ذاتها . وتعرض الامبراطور لخطر مؤامرة اشترك فيها جماعة من النبلاء والأرمن انتهت باغتياله . ونقلت جثته الى القسطنطينية سنة ٦٦٨ م ، وماتت معه فكرة نقل عاصمة

الامبراطورية الى الغرب(٥٥) • وترك قنسطانز ابنه قسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥ م) ليواجه — ما توقعه قنسطانز — هجوما اسلاميا ضد القسطنطينية ذاتها ، وليتم في عصره تصفية الوجود البيزنطى في شمال افريقية •

فقد انتهت الفتنة الكبرى التى أعقبت مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وأقام معاوية بن أبى سفيان الخلافة الأموية فى العاصمة دمشق • وبدأ المسلمون يتطلعون لتحقيق حلمهم القديم وهو الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الروم • وفى عام ٤٩ هـ / ٦٦٩ م — أى بعد سنة واحدة من اعتلاء قسطنطين الرابع Constantine IV عرش بيزنطة — جهز الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه جيشا كبيرا لفتح القسطنطينية بقيادة ابنه يزيد • واشترك فى هذه الغزوة بعض كبار الصحابة رضوان الله عليهم منهم عبد الله بن عباس المحدث المشهور ، وأبو أيوب الأنصارى الذى نزل الرسول صلى الله عليه وسلم فى داره عند هجرته الى المدينة المنورة • وتقدم الجيش الاسلامى حتى بلغ أسوار القسطنطينية ، وأخذ فى تضيق الحصار عليها دون أن يتمكن من فتحها • وتوفى أبو أيوب الأنصارى أثناء الحصار ، ومن المحتمل أنه دفن فى مكان وفاته غير أن الرواية التقليدية تذكر أنه طلب — قبل وفاته — أن ينقل رفاته الى أقصى مكان يبلغه المسلمون عند أسوار القسطنطينية • واضطر المسلمون الى رفع الحصار عن المدينة الحصينة القسطنطينية ، وعاد يزيد مع الجيش الاسلامى الى الشام • وظل المسلمون يحسون بهتاف أبى أيوب بهم ودعائهم بأن يعاودوا الكرة ، حتى لا يظل جثمانه فى أرض العدو(٥٦) •

(٥٥) Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 221 — 222.

(٥٦) انظر : الطبرى ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ ،

Canard, 'Les expeditions des Arabes', pp. 67 — 77.

ويقال ان العثمانيين اكتشفوا قبر أبى أيوب الأنصارى سنة ٨٦٣هـ / ١٤٥٨ م بعد فتحهم للقسطنطينية ، ويقال أيضا انه فى تلك =

وكان المسلمون قد أدركوا أهمية البحر كطريق موصل للاستيلاء على مدينة القسطنطينية • وانصرف مساوية بن أبى سفيان منذ أن كان واليا على الشام الى اعداد الخطط للاستيلاء على القسطنطينية • واستولى المسلمون على قبرص ورودرس وخيوس وبعض جزر الأرخبيل لتحقيق هذا الهدف (٥٧) • وفى سنة ٥٤ هـ / ٦٧٤ م ظهر الأسطول الاسلامى أمام أسوار القسطنطينية • وفى نفس السنة فتح جنادة بن أبى أمية جزيرة فى البحر قربية من القسطنطينية وهى جزيرة كيزيكوس *Cyzicus* (وهى جزيرة أرواد فى المصادر العربية) (٥٨) • وعلى مدى سبع سنوات (٥٤ - ٦٠ هـ / ٦٧٤ - ٦٨٠ م) اشتبكت قطع الأسطول الاسلامى فى عمليات حربية بحرية مع الأساطيل البيزنطية فى مياه القسطنطينية • وكانت البنود البحرية البيزنطية لا تزال فى دور التكوين عاجزة عن الصمود أمام سفن المسلمين الفتية (٥٩) • وكانت خطة المسلمين هى قضاء الشتاء فى جزيرة كيزيكوس (أرواد) ، وفى الربيع يحاصرون القسطنطينية برا وبحرا حتى يقبل الخريف فيمودون الى مقرهم الشتوى فى كيزيكوس • ورغم محاولات المسلمين المستميتة والمتكررة ، الا أنهم لم يتمكنوا من فتح القسطنطينية فى تلك السنوات • ويرجع سبب ذلك الى أن عاصمة البيزنطيين كانت تستطيع الصمود لأى هجوم برى وبحرى ، فقد كانت الامدادات تأتى إليها بحرا من المناطق المجاورة لها ، كما ظل اتصالها بالبحر الأسود باقيا ، وظلت الطرق البرية المؤدية إليها مفتوحة ، فحصلت القسطنطينية على جميع ما احتاجت اليه من المؤن والامدادات • ونجت القسطنطينية من الغزو الاسلامى بواسطة سلاح بيزنطى جديد هو النار الاغريقية *Greek Fire* .

= السنة شيد السلطان محمد الثانى مسجد ايوب وتربته فى ضاحية ايوب عند نهاية القرن الذهبى ، انظر : الفونس ماريا شنيدر ، قبور الصحابة فى القسطنطينية ، ترجمة صلاح الدين المنجد ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .
 (٥٧) انظر *Vryonis. Byzantium, p. 63.*

(٥٨) الطبرى ، ج ٥ ، ص ٢٦٣ .

(٥٩) انظر : فتحي عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج ٢ ، ص ١٩ .

وهذه النيران عبارة عن مخلوط كيميائي قابل للانفجار يقذف بأنابيب خلصية فإذا احتك هذا المخلوط بسفينة أو حتى على الماء اشتعل واحترق . ومن المحتمل أن هذا التركيب الكيميائي استخدم قبل ذلك منذ سنة ٥١٦ م ، ثم اكتشفه من جديد أو أدخل عليه بعض التعديلات مهندس سوري يوناني يدعى كاللينيكوس Calinicus فر من بعلبك بعد فتح المسلمين لبلاد الشام . واستخدم هذا التركيب في صورته الجديدة أثناء حصار المسلمين للقسطنطينية . واشتعلت النيران في السفن الإسلامية ، ووقع الاضطراب بينها ، وانطلقت السفن التي نجت في فوضى نحو بحر إيجه ، ثم هبت عاصفة طمرت معظم السفن الإسلامية . وأخيرا تم عقد معاهدة بين المسلمين والروم تعهد فيها الخليفة معاوية بأن يدفع كل سنة اتاوة للبيزنطيين (٦٠) .

واستفادت بيزنطة من فشل استيلاء المسلمين على القسطنطينية ، فعندما وصلت هذه الأخبار إلى خاقان الآفار وغيره من حكام الغرب ، أرسلوا الرسل والهدايا إلى الامبراطور البيزنطي وسألوه أن يقيم علاقات سلمية ودية معهم (٦١) .

غير أن الدولة البيزنطية في عصر قسطنطين الرابع استمرت تواجه صعوبات عنيفة من جانب المسلمين الفاتحين . ففي سنة

(٦٠) الطبرى ، ج ٥ ص ٢٩٢ - ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٨ - ٣٠٩ ، ٣١٥ ، ابراهيم العدوي ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٦ - ٥٧ ، العربى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٢ - ١٣ .
Canard, 'les expéditions des Arabes', pp. 77 - 80.
Vasiliev, Byzantine empire, I., pp. 214 - 215 ;
Fahmy, Muslim Sea - Power, pp. 92 - 93.

وعن النار الاغريقية انظر :
Bréhier, 'La marine de Byzance', pp. 9 - 11 ;
Vasiliev, Byzantine empire, I., p. 214 ; Charles Diehl, Byzantium, pp. 51 - 52 ; Fahmy, op. cit., pp. 153 - 160.
Vasiliev, Byzantine empire, I, p. 215 ;

٤٥ هـ / ٦٦٥ م — أى أواخر عصر قنسطانز الثانى — أرسل الخليفة معاوية بن أبى سفيان جيشا بقيادة معاوية بن حديج الكندى لتصفية مراكز وحصون البيزنطيين فى افريقية • واتخذ ابن حديج موضع القيروان معسكرا وجه منه سرايا التى استولت على قابس وبزرت وسوسة وحصن جلولا • وفى سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م ، أى فى عصر قسطنطين الرابع ، عزل الخليفة معاوية قائده ابن حديج وولى مكانه القائد عقبة بن نافع الفهري ، وهى ولايته الأولى التى استمرت خمس سنوات • وكان عقبة قائدا خيرا بشئون افريقية ، فقد دخل برقة سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م وهو ابن أربع عشرة سنة مع ابن خالته عمر وبن العاص ، وظل رابطا حوالى ربع قرن يغزو مع المسلمين فى افريقية • وفكر عقبة بن نافع فى تشييد مدينة عربية اسلامية لتكون بمثابة قاعدة عسكرية ، فاخطت مدينة القيروان فى مكان يقع الى الشمال قليلا من سببطله التى وقعت عندها الحركة المشهورة • وجعل عقبة مدينة القيروان بعيدة عن ساحل البحر خوفا من غارات أساطيل الروم وبعيدة عن جوف الصحراء خوفا من غارات البربر • وعندما عاد عقبة بن نافع الى افريقية فى ولايته الثانية التى استمرت عامين (٦٢ — ٦٤ هـ / ٦٨١ — ٦٨٣ م) قام بحملته الكبيرة عندما غزا المغرب من أدناه الى أقصاه حتى بلغ المحيط الأطلسى • واقتحم البحر حتى بلغ نهره — كما يقول ابن عبد الحكم — ويشهد الله على أنه وصل براية الاسلام الى آخر المعمورة وقتذاك قائلا : « اللهم انى اشهدك أن لا مجاز ، ولو وجدت مجازا لجزت » (٦٢) •

وانعكست نتائج النزاع بين المسلمين والبيزنطيين فى الشرق

(٦٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٢ — ١٩٩ ، الطبرى ، ج ٥ ص ٢٤٠ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٦ — ٢٨ ، عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، (العصر الإسلامى) ص ١٧٤ — ٢٢٩ ، أحمد مختار العبدلى ، فى تاريخ المغرب والانحلال ، ص ٤٠ — ٤٣ ، محمود شيت خطاب ، عقبة بن نافع الفهري ، ص ١١٥ — ١٣١ •

والغرب على قوة ونفوذ الدولة البيزنطية في البلقان • فقد واجه الامبراطور قسطنطين الرابع صعوبات جديدة في البلقان بسبب قيام مملكة بلغارية على الأطراف الشمالية للدولة على طول ضفاف الدانوب الأدنى ، وهذه المملكة سوف تصبح ذات تأثير كبير في مصير الدولة البيزنطية • والبلغار من الشعوب الرعوية التركية الأصل على صلة قرابة بقبيلة الأونجور Onogurs • وفي عهد قنسطانز الثاني اضطرت قبيلة كبيرة من البلغار بقيادة اسباروخ Asparuch ، نتيجة ضغط من الخزر ، للتحرك غربا من مناطق الاستبس المجاورة لبحر آزوف Azov شمال البحر الأسود ، واستقرت تلك القبيلة عند مصب الدانوب ثم تحركت جنوبا • وهنا أدرك قسطنطين الرابع خطر وجود البلغار على أطراف دولته • وفي سنة ٦٧٩ سار الامبراطور على رأس أسطول كبير اجتاز البحر الأسود الى شمال مصب نهر الدانوب • وسارت فرق من الخيالة البيزنطية من آسيا الصغرى حتى وصلت الى الضفة الشمالية من النهر • وحالت المستنقعات في تلك الجهات دون قيام البيزنطيين بعمليات حربية ناجحة ، كما تجنب البلغار الالتقاء بهم • وعندما أراد الجيش البيزنطي الانسحاب سنة ٦٨٠ تعرض أثناء عبوره لنهر الدانوب لهجوم من البلغار ، وهزم البيزنطيون وتكبدوا خسائر كبيرة • واضطر الامبراطور قسطنطين الرابع الى التفاوض مع البلغار ، وعقد معهم معاهدة تعهد فيها أن يدفع للبلغار ائتاة سنوية وأن يترك لهم الأقاليم الواقعة بين الدانوب والبلقان • وظل مصب الدانوب وجزء من شاطئ البحر الأسود في أيدي البلغار • وهكذا أصبحت المملكة البلغارية خطرا على الدولة البيزنطية ، وبخاصة بعد أن قام البلغار بتوسيع مملكتهم واصطدموا بالصقالبة • ولما كان البلغار أقل عددا من الصقالبة فسرعان ما تأثروا بالآثرات السلافية وتزاوجوا منهم ، وفقدوا بالتدريج أصولهم التركية وأصبحوا من الشعوب السلافية عند منتصف القرن التاسع

الميلادى برغم احتفاظهم باسم البلغار ، وأصبح للبلغار دولة قوية
هددت بيزنطة (٦٣) .

ووجهت انتصارات المسلمين المتتالية السياسة الدينية للدولة
البيزنطية وجهة جديدة . فقد وجد قسطنطين الرابع أن المونوفيزيتية
لم تعد مشكلة دينية تثقل الدولة البيزنطية . فالأقاليم التى كانت تدين
بالمذهب المونوفيزيتى أى مصر والشام وفلسطين قد سقطت فى أيدي
المسلمين سقوطا نهائيا . ولم تعد بيزنطة تفكر أو تتوقع فى استردادها
بأى شكل من الأشكال . فلم تمض سوى سنوات قليلة حتى اضطغت
تلك البلاد بالصيغة العربية الاسلامية . فلم تكن الفتوحات
الاسلامية — كما سبق القول — حركة استعمارية استعلائية بل كانت
اندماجا حضاريا ثقافيا ، فقد هاجرت القبائل العربية الى البلاد
الفتوحة ، واندمج العرب مع سكان البلاد عن طريق التزاوج وانتشر
الاسلام والثقافة العربية فيها .

ويهمنا هنا القول بأنه لم يعد الأمر ضروريا بالنسبة للبيزنطيين
فى ارضاء المونوفيزيتيين فى تلك الأقاليم الاسلامية ، كما أن التمسك
بمذهب الارادة الواحدة الذى نادى به هرقل أصبح عديم الجدوى ،
لهذا فكر قسطنطين الرابع فى الدعوة الى مجمع مسكونى للنظر فى
أمر العقيدة . واستشار البابا فى روما ثم دعا سنة ٦٨٠ الى مجمع
دينى فى القسطنطينية وهو المجمع المسكونى السادس الذى تقرر فيه
بطلان المونوثيليتية وانكار المونوفيزيتية ، وتليت شهادة أقرها المجمع
المسكونى « بمسيح وابن ورب ووحيد واحد هو نفسه بطبعيتين وأقنوم
وشخص واحد ، وبمسيحتين وطبعيتين وفعلين طبيعيين ، بلا انقسام
ولا تغيير ولا تجزؤ ولا اختلاط » . ومن الملاحظ أن بطاركة الاسكندرية

Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 219 — 220 ;
Ostrogorsky, Byzantine state, pp. 125 — 6

وبيت المقدس وانطاكية لم يشتركوا في هذا المجمع المسكوني السادس ،
وأرسلوا ممثلهم فقط . وعاد السلام مع كنيسة روما واستمر ذلك
فترة طويلة (٦٤) .

وفي سنة ٦٨٥ خلف جستنيان الثاني أباه قسطنطين الرابع . وحكم
جستنيان الثاني فترتين الأولى بين سنتي ٦٨٥ — ٦٩٥ م والثانية
بين سنتي ٧٠٥ — ٧١١ . ومن المعروف أن عبد الملك بن مروان تولى
الخلافة الأموية في نفس السنة التي اعتلى فيها جستنيان الثاني عرش
القسطنطينية أي سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥ م . ولعبد الملك بن مروان الفضل في
قيامه بعملين جليلين هما تعريب النقود بسكها بالسكة العربية الإسلامية
وتعريب الدواوين الإسلامية . ففي سنة ٧٠ هـ عقد الخليفة عبد الملك بن
مروان معاهدة جديدة مع امبراطور الروم جستنيان الثاني فقد ذكر
الطبري في حوادث سنة سبعين هجرية أن الروم « استجاشوا على من
بالشام من ذلك من المسلمين ، فصالح عبد الملك ملك الروم ، على أن
يؤدى إليه في كل جمعة ألف دينار خوفا منه على المسلمين » . ويفهم
من هذا النص أن الخليفة الأموي عبد الملك هادن الدولة البيزنطية
نظير دفعه اتاوة كبيرة للروم تدفع بدنانير ذهبية (٦٥) .

ووجد الخليفة عبد الملك أن الدنانير الذهبية المتكولة في الدولة
الإسلامية والتي تدفع بها الاتاوة تضرب بصورة امبراطور الروم
وعليها الشارات المسيحية مع بعض الكتابات العربية . لذلك قام الخليفة
عبد الملك بالتدريج بتطوير النقود الإسلامية حتى تم استقلالها عن
التأثيرات البيزنطية تماما . وأدى هذا إلى النزاع الحاد بين الامبراطور

Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 224 — 5 ;

(٦٤)

Vryonis, Byzantium, p. 62 ;

اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٢٥٨ — ٢٦٠ ، العربي ، الدولة
البيزنطية ، ص ١٣٦ — ١٣٧ .
(٦٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٦ ، ص ١٥٠ .

البيزنطى وبين الخليفة الأموى لأنه كان خروجاً على نظام النقد البيزنطى العالمى ، ولم يكن من المسموح به أن تضرب السكة الذهبية على غير طراز امبراطور الروم . وفسخ الخليفة عبد الملك المعاهدة المبرمة مع البيزنطيين سنة ٧٣ هـ / ٦٩١ — ٦٩٢ بدليل ما ذكره الطبرى فى حوادث سنة ٧٣ هـ بأن محمد بن مروان غزا الصائفة وهزم الروم ، وكذلك هزمهم فى نفس السنة عثمان بن الوليد فى ناحية أرمينية (٦٦) . وبدأ الخليفة عبد الملك منذ سنة ٧٣ هـ فى تعريب النقود وتم ذلك تماماً فى سنة ٧٧ هـ حين احتلت الكتابات العربية وجبى الدينار العربى . وهكذا تم لعبد الملك صبغ دولته بالصبغة العربية . وكان قيامه بتعريب الدواوين فى فارس والشام ومصر مظهراً من مظاهر استكمال الدولة العربية لقوماتها الأساسية . ولاشك أن ضرب النقود بالسكة العربية وتعريب الدواوين حثمتها ضرورة الاستقرار الاقتصادى والسياسى للدولة العربية الإسلامية (٦٧) .

(٦٦) تاريخ الطبرى ، ج ٦ ، ص ١٩٤ .
(٦٧) لتفصيل موضوع تعريب النقود بالسكة العربية الإسلامية زمن الخليفة عبد الملك بن مروان ، انظر عبد الرحمن فهمى ، موسوعة النقود العربية وعلم النميات ، ج ١ فجر السكة العربية ، ص ٢٨ — ٥٣ ، عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ص ٣٦ — ٥٨ ، غير أن الأستاذ الدكتور عبد الرحمن فهمى (موسوعة النقود ، ص ٤٢) ، النقود العربية ، ص ٢٨) يرى أن المعاهدة بين الدولة العربية والدولة البيزنطية قد تم توقيعها سنة ٦٧ هـ ، انظر أيضاً ،

Grierson, P. "The monetary reforms of 'Abd al-Malik"
Journal of the Economic and Social History of the Orient,
Vol. 3 (1960), pp. 241 — 264.

وهناك رواية أن الخليفة عبد الملك بن مروان أحدث كتابات تشهد بالوحدانية فى القرامطيس (البردى) التى كانت ترسل الى الدولة البيزنطية من مصر ، وأن الامبراطور البيزنطى هدد بأن يفكر فى البنائى للزعيمية ما يكرهه المسلمون ، فقام الخليفة الأموى بإصلاحه النقدى . انظر البلازى ، فنوح البلدان ، القسم الاول ، ص ٢٨٢ — ٢٨٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة : ج ١ ، ص ١٧٦ — ١٧٧ .

ويبدو أن الأتاتوة التي تمهد الخليفة عبد الملك بن مروان بدفعها للبيزنطيين طبقا لمعاهدة سنة ٧٠هـ كانت أيضا في مقابل أن تقوم الدولة البيزنطية بارغام الجراجمة أو المردة Mardaites على الانتقال والاستقرار في الأقاليم الداخلية للدولة البيزنطية • والحقيقة أن الجراجمة لعبوا دورا هاما في قصة الحروب التي دارت بين المسلمين والبيزنطيين في أعالي الشام • وكان الجراجمة — واطلق عليهم المسلمون اسم المردة لكثرة عصيانهم — يدينون بالمسيحية وينسبون الى بلحتهم جرجومة على جبل اللكام أى على سلسلة جبال طوروس المواجهة للحدود الاسلامية أعالي الشام (٦٨) • وبعد أن فتح أبو عبيدة بن الجراح انطلاقية صالحه الجراجمة على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وغيونا ومسالح في جبال اللكام والا يدفعوا الجزية • غير أنهم اعتادوا على اثاره الاضطراب وقطع الطرق ، وألقوا الدولة الاسلامية لانضمامهم أحيانا الى البيزنطيين في حروبهم مع المسلمين ثم تحولهم الى جانب المسلمين ثم عودتهم الى البيزنطيين وهكذا (٦٩) • ولحق فريق من الجراجمة بالبيزنطيين فأنزلوهم على حدود آسيا الصغرى الجنوبية ليكونوا درعا يتقون به غارات المسلمين • وهكذا كون الجراجمة أو المردة حائطا نحاسيا قام بحماية آسيا الصغرى من غارات المسلمين • وبموجب معاهدة جستنيان الثاني وعبد الملك بن مروان وافق امبراطور بيزنطة على ارغام المردة على الانتقال والاستقرار في الأقاليم الداخلية للامبراطورية ، وعملوا كبحارة في سواحل آسيا الصغرى والبالوبونيز • وهكذا هدم الامبراطور جستنيان الثاني الحائط النحاسي مما قوى مركز المسلمين في أعالي الشام ، وسهل للمسلمين اجتياح آسيا الصغرى وتوسيع رقعة

(٦٨) انظر تحتى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج ١ ص ٣٦٢ — ٣٦٣ ، ج ٢ ، ص ٦٧ — ٧٠ ، من جبل اللكام ودرويه (ممراته الجبلية) انظر مواد الأعظمي ، الامر بمسامة بن عبد الملك بن مروان ، ص ٢١١ — ٢١٢ • (٦٩) انظر امر الجراجمة في البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الاول ص ١٨٩ — ١٩٣

عملياتهم الحربية لتمتد شمالا الى أعلى الجزيرة وأرمينية وتصل الى قلب آسيا الصغرى (٧٠) •

ووجه جستنيان الثانى اهتمامه نحو البلقان خاصة فى المناطق التى أقام بها الصقالبة • وفى سنة ٦٨٨/٦٨٩ قاد الامبراطور نفسه جيشا وألحق بالصقالبة هزائم متتالية ودخل مدينة سالونيك • وأرغم جستنيان الثانى الصقالبة المهزومين على الانتقال الى آسيا الصغرى والاستيطان كجند مزارعين خاصة فى ثغر الأوبسقي Opsikion . واتبع جستنيان الثانى سياسته الاستيطانية بأن نقل جماعات من سكان جزيرة قبرص الى اقليم كيزيكوس Cyzicus ، وهو الاقليم الذى لحق به أضرار شديدة نتيجة حصار المسلمين للقسطنطينية وكان فى حاجة الى ملاعين مهرة • وتعارضت سياسة نقل القبارصة مع مصالح الخلافة الأموية • وعندما أهمل جستنيان الثانى احتجاجات الخليفة عبد الملك بن مروان نشبت الحرب بين المسلمين والروم فى سنة ٦٧٣/٦٩٢ م • وأثناء القتال انضم الصقالبة الى جانب المسلمين ضد البيزنطيين ، وهاق بجيوش بيزنطة هزيمة ساحقة عند سباستوبوليس Sebastopolis فى أرمينية (سولوسيراى الحالية) وعادت أرمينية البيزنطية مرة أخرى الى سيادة الخلافة الأموية • وشجع المسلمون الصقالبة الأبقين على الاستيطان فى الشام ، واستخدموا الصقالبة كجند فى حروبهم المتكررة ضد البيزنطيين (٧١) • وهكذا فشلت سياسة الاستيطان التى اتبعتها

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 215;

(٧٠)

Ostrogorsky, Byzantine State, p. 131.

فتحن عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية ، ج ١ ، ص ٣٦٢ — ٣٦٣ ،
المرنى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٣٩ — ١٤٠ ، وسام عبد العزيز فرج ،
العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية ، ص ٤٣ — ٤٥ .
(٧١) ذكر الطبرى هذا الخبر مختصرا فى حوادث سنة ٧٣هـ « وقيل :
انه كان فى هذه السنة وقعة عثمان بن الوليد بالروم فى ناحية أرمينية وهو
فى أربعة آلاف والروم فى ستين ألفا ، فهزمهم وأكثر القتل فيهم » انظر

الامبراطور جستنيان الثانى عندما أرغم الجراجمة والصقالبة وغيرهم على هجر مواطنهم التى عاشوا وتربوا فيها والنزول فى أقاليم لم يألوهما .

وواجه الامبراطور جستنيان الثانى خيبة أمل وصداما مع البابوية بخصوص تنفيذ قرارات مجمع دينى انعقد فى سنة ٦٩١ . وهذا المجمع الكنسى هو المعروف بالخامس — السادس ، عقد فى القسطنطينية وسمى باسم مجمع ترولان Trullan نسبة الى القاعة التى انعقد بها المجمع ، كما سمي أيضا باسم Quinisextum الخامس — السادس لأن ما أصدره من قرارات اثنا تكمل ما صدر عن المجمعين الخامس والسادس من قرارات خاصة بالعقيدة . وأصدر هذا المجمع تنظيما كنسيا يتعلق بالطقوس الدينية . وتقرر فيه ابطال بعض العادات والتقاليد التى منها ما يرجع الى اصول وثنية ومنها ما يخالف الأخلاق والآداب العامة . ومن أهم قرارات هذا المجمع السماح للقسس بالزواج . ورفض البابا سرجيوس Sergius التوقيع على قرارات المجمع . وأرسل الامبراطور جستنيان الثانى مندوبا لقبض على البابا وارساله الى القسطنطينية مثلما حدث مع البابا مارتن الأول فى عهد الامبراطور قنسطانز الثانى . ولم يتم تنفيذ ذلك لان مركز البابوية كان قد ازداد قوة ، كما أن القوات الحربية فى ايطاليا حالت دون القبض على البابا سرجيوس (٧٢) .

وتوالت النكبات على الامبراطور جستنيان الثانى عندما لم تلق سياسته الداخلية والخارجية قبولا لدى العامة والخاصة فى القسطنطينية لما اشتهر به عصره من كثرة الضرائب والأعباء المالية . وفى نهاية ٦٩٥م

• تاريخ الطبرى ، ج ٦ ، ص ١٩٤ ، انظر ايضا العرنى ، الدولة البيزنطية ، ص ١١٠ — ١٤١ ،

Ostrogorsky, Byzantine State, p. 131.

Vasiliev, Byzantine empire, I, p. 225;

(٧٢)

العرنى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٤٦ .

نشبت فتنة ضد جستنيان الثانى ، ونادى النافرون بقائد ثغر هيلاس
Hellas فى بلاد اليونان امبراطورا ، وجعدوا أنف الامبراطور
جستنيان الثانى ونفوه الى خرسون Cherson فى شبه جزيرة القرم ،
وهى المدينة التى نفى اليها قبل ذلك البابا مارتى الاول (٧٣) .

وعندما نفى جستنيان الثانى سنة ٦٩٥ كانت الدولة البيزنطية تواجه
مشكلات خطيرة وخسائر متلاحقة فى المغرب . فقد ارسل الخليفة الأموى
عبد الملك بن مروان جيشا كبيرا بقيادة حسان بن النعمان وزوده بأسطول
بحرى . ووصل القائد المسلم حسان الى القيروان واتخذها قاعدة لعملياته
الحربية ، واستولى على كثير من الحصون والمعقل البيزنطية . وفى
سنة ٦٩٥/٨٧٥م سقطت قرطاجنة — عاصمة أرخونية افريقية — فى أيدي
المسلمين . غير أن البربر استطاعوا بقيادة امرأة تلقب بالكاهنة الحاق
الهزيمة بجيش حسان ، فاضطر الى الانسحاب الى برقة ، واسترد
البيزنطيون قرطاجنة . وقامت الكاهنة بتخريب مدن شمال افريقية
اعتقادا منها أن ذلك لن يشجع المسلمين على فتح هذه البلاد الخربة .
وملكت الكاهنة المغرب خمس سنين — كما يذكر ابن عذارى — حتى سنة
٦٩٩/٨٠م عندما خرج حسان بن النعمان مرة أخرى فى حملة كبيرة
الى افريقية والتقى بجيوش الكاهنة عند مدينة قابس . وهزم البربر
وقتل الكاهنة سنة ٧٠١/٨٠٢م واسترد حسان مدينة قرطاجنة من
البيزنطيين . وانتهى الحكم البيزنطى تماما من شمال افريقية ، وبسط
المسلمون سيادتهم على غرب البحر المتوسط كما بسطوها فى شرقه ،
وهاجموا حقلي وسردينيا وجزر البليار . وعبر المسلمون بقيادة طارق بن
زياد البحر من افريقية الى اسبانيا ، وتمكنوا من النفاذ الى أوروبا من

(٧٣) انظر ، العريضى ، اندولة البيزنطية ، ص ١٢٧ ، وانظر ما سبق

جهة الطرف الغربى للبحر المتوسط بعد أن فشلوا عند الطرف الشرقى ،
ويبدأ المسلمون يهددون سيادة بيزنطة من الغرب والشرق على السواء (٧٤) .

جرت هذه الحوادث فى الوقت الذى فقدت فيه الدولة البيزنطية
سلطانها ونفوذها فى الغرب الأوروبى . وقصر الاستاذ فريونىς Vryonis
ذلك بقوله بان ظهور القوة الاسلامية فى الشرق استأثر بالجهود الحربية
البيزنطية ، وكان هذا هو السبب الرئيسى فى أن فقدت بيزنطة الغرب
الأوروبى . ومعنى هذا أن الفتوحات الاسلامية أدت الى تمزق الوحدة
القديمة لعالم البحر المتوسط عندما كان بحيرة رومانية . يضاف الى ذلك
أن العرب عندما استولوا على الولايات البيزنطية تبنا حضارة المدن فى
دمشق وانطاكية وبيت المقدس والاسكندرية ، وبالتالي استمرت لفقرة
من الزمن النظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية البيزنطية فى الولايات
عقب حركة الفتوحات الاسلامية . أما من الناحية السياسية فقد حدث
انقسام واضح بين الولايات الاسلامية والولايات المسيحية فى البحر
المتوسط ، كما أن الفتوحات الاسلامية أدت الى أن تدبر البابوية ظهرها
للقسطنطينية واتجهت نحو شمال غرب أوروبا . وتطورت الامور الى أن
أخذ كل من الشرق والغرب طريقا مخالفا عن الآخر . واصطبغ الشرق
بالصبغة العربية الاسلامية . بينما اتجه الغرب الأوروبى اتجاها مسيحيا
مخالفا ، وكان فى هذا انقسام كبير للإسلام والمسلمين (٧٥) .

وساعد على انتصارات المسلمين داخل بالدولة البيزنطية من حوادث
خلال السنوات القليلة الباقية من عهد أسرة هرقل . فقد استطاع
جستينيان الثانى بعد نفيه الى خرمسون الاتجاأ الى خان الخزر حيث

(٧٤) انظر ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٤ — ٣٦ ،
مد مخار الشبادى ، فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٤٥ — ٤٨ ،
العزیز سلام ، المغرب الديبر (العصر الإسلامى) ، ص ٢٤٣ — ٢٤٨ ،
— ٢٥٨ - العربى - الدولة البيزنطية ، ص ١٤٨ ،

Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 215 216

Vryonis, Byzantium, pp. 65 6

٢ انظر :

رحب به وزوجه أخته بعد اعتقالها المسيحية • وأرسل امبراطور القسطنطينية تييريوس الثالث (٦٩٨ — ٧٠٥) سفارة الى خان الخزر لابعاد الامبراطور المعزول ، فهرب جستنيان الثانى الى الشواطىء الغربية من البحر الأسود ، حيث اتحل بخان البلغار ومساعدته على تكوين جيش من الحقالبة والبلغار تقدم به نحو القسطنطينية سنة ٧٠٥م • وهرب الامبراطور تييريوس الثالث ، وعاد جستنيان الثانى الى عرش الامبراطورية التى حكمها من سنة ٧٠٥ الى سنة ٧١١ قضاها فى الانتقام من أعدائه ، وارسل حملات تأديبية الى خرسون ورافنا • وانتهت تلك السنوات بمقتله فى خضم فتنة عارمة • وسقطت بموته أسرة هرقل (٧١) •

وبدأت فترة من الفوضى والاضطراب فى تاريخ الدولة البيزنطية امتدت حوالى ست سنوات (٧١١—٧١٧) حكم بيزنطة خلالها ثلاثة أباطرة • وانتشرت الفوضى والفتن فى أنحاء الدولة ، وتوالى الكوارث الخارجية عليها ، فقد تقدم البلغار جنوبا حتى القسطنطينية مدفوعين برغبتهم للانتقام لقتل حليفهم جستنيان الثانى • وتقدم المسلمون برا فى آسيا الصغرى وبحرا فى البحر الايجى وهددوا العاصمة القسطنطينية • فقد قام الخليفة الاموى سليمان بن عبد الملك سنة ٧١٧ بمحاولة لتحقيق حلم وأمل المسلمين فى الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الروم • وكانت الدولة البيزنطية فى حاجة ماسة الى شخصية قوية تنقذ الامبراطورية من الانهيار والعاصمة من السقوط فى أيدي المسلمين • وظهرت هذه الشخصية متمثلة فى ابو لى قائد ثغر الاناتوليك الذى دخل القسطنطينية سنة ٧١٧ ، وتوج امبراطورا على أيدي البطريرك فى كنيسة القديسة صوفيه ، وبدأت مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الدولة البيزنطية (٧٧) •

(٧١) Ostrogorsky, Byzantine State, pp. 141 -- 4 ; Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 193 4 ;

المرضى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٥٠ — ١٥١ • (٧٧) انظر : Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 229 30.

الفصل الثالث

عصر مناهضة عبادة الأيقونات (٧١٧ - ٨٦٧ م)

إذا كانت حركة الفتوحات الإسلامية وما حققته من انتصارات في الشام ومصر والمغرب والبحر المتوسط ، وإغارات الصقلية والبلغار في البلقان الى درجة مهاجمة القسطنطينية ذاتها ، تمثل مشكلة حددت كيان الدولة البيزنطية ذاتها الا أن مناهضة عبادة الأيقونات (١) كانت مشكلة كبيرة حددت روح الامبراطورية وعقيدتها وثقافتها وحضارتها . يضاف الى ذلك أن النزاع بين محطمي الأيقونات والمدافعين عنها كان نزاعا وحسرا رهيبا شغل المجتمع البيزنطي مدة تزيد على قرن من الزمان ، وترك آثارا عقائدية وثقافية وحضارية في تاريخ الدولة البيزنطية . وهذا ما جعل السنوات الممتدة من ٧١٧ الى ٨٦٧م في تاريخ الدولة البيزنطية يمكن وصفها باسم عصر مناهضة عبادة الأيقونات . حقيقة انه خلال تلك السنوات انتصرت سياسة عبادة الأيقونات حوالى ربع قرن من الزمان فقط (٧٨٧ - ٨١٣) الا أنه كان انتصارا مؤقتا . وخلاف تلك السنوات كانت مناهضة عبادة الأيقونات هي العامل المسيطر في مجريات الحوادث في الدولة البيزنطية الداخلية والخارجية خلال تلك الفترة التاريخية . وتجدر الإشارة الى أن هناك عوامل أخرى لعبت أدوارا هامة في تاريخ بيزنطة ، وأهم هذه العوامل استمرار حركة

(١) كلمة أيقونات Icons مشتقة من الفعل اليوناني القديم (Eiko) بمعنى « أنا اشر به » أو « امانل » والاسم (Bikon) ومعناه صورة أو صورة مقدسة . ومحطم الصور أو اللايقوني يسمى Iconoclast ومناهضة عبادة الأيقونات أو الحور الدينية تسمى Iconoclasm أما الشخص الذى يعبئ الأيقونة (الأيقونى) فيسمى Iconodule
انظر : ابراهيم على حارخان ، الحركة اللايقونية ، ص٦٠ ، وانظر أيضا :
Vasiliev, Byz, empire, I, p. 251 note 63.

الفتوحات الاسلامية وانتقالها من شرق البحر المتوسط الى غربه ، وازدياد
أخطار البلغار والصقالبة واللومباردين ، وقيام امبراطورية شارلمان .

وتنسب حركة مناهضة عبادة الايقونات الى الامبراطور ليو الثالث
Leo III الذى اعتلى عرش بيزنطة فى مارس سنة ٧١٧ ، وأسس
أسرة جديدة حكمت الدولة البيزنطية حتى سنة ٨٠٢ م ، وأنهى بذلك فترة
الاضطرابات التى عانت منها الدولة البيزنطية منذ سنة ٦٨٥م (٢) .

وكان ليو قبل توليه عرش الدولة البيزنطية قائدا لشعر الاناتوليك
Anatolicon أكبر ثغور آسيا الصغرى ، واستفاد من ذلك فى
الوثوب الى العرش . ويلقب كثير من الباحثين هذا الامبراطور بلقب
الأيسورى (الايزورى) Isourian كما يلقبون أسرته بلقب الأسرة
الأيسورية (الايزورية) باعتبار أنه أتى من إقليم أيسوريا (ايزوريا)
Isouria فى جنوب شرقى آسيا الصغرى . غير أنه فى نهاية القرن
التاسع عشر الميلادى ، أى فى سنة ١٨٩٦ م بالتحديد ، ظهر رأى جديد
هو أن ليو الثالث لم يكن أيسوريا من حيث المولد ولكنه سوريا Syrian
من أبناء جرمانيكيا Germanicca (مرعش) . وتردد الباحثون فى
قبول هذا الرأى ورفضه ، غير أنه من المحتمل كما يرى فازيليف Vasiliev
— بعد مقارنته بعض الروايات التاريخية — أن ليو الثالث كان سورى
الاصل (٣) .

وقد حدث فى سنة ٧٩٨م / ٧١٧م ، وهى السنة التى اعتلى فيها
ليو الثالث عرش الدولة البيزنطية ، أن أرسل الخليفة الاموى سليمان بن
عبد الملك جيشا كبيرا يساعده أسطول للاستيلاء على القسطنطينية .

Anastos : Iconoclasm and imperial rule 717 — 842, (٢)

in Cambridge Med. Hist., Vol. 4, Part 1, p. 62.

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 234 ;

(٣)

Hussey, Byzantine World, p. 27; Vryonis, Byzantium, p. 75;

اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٢٨٦ — ٢٩١

وتحمس الخليفة سليمان لشروع هذه الحملة لدرجة الاعتقاد أنه سليمان الذى قالت عنه الروايات أنه فاتح القسطنطينية ، وطمعا فى بشرى الرسول عليه الصلاة والسلام «لنفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش» (٤) . وأعطى الخليفة سليمان القيادة العليا لأخيه مسلمه بن عبد الملك « وأمره أن يقيم عليها (أى القسطنطينية) حتى يفتحها أو يأتيه » كما يذكر الطبرى . وفى ١٥ أغسطس سنة ٧١٧ وقفت الجيوش البرية تحت قيادة مسلمة أمام أسوار القسطنطينية ، ووصل الأسطول الإسلامى الى مياه القسطنطينية فى أول سبتمبر ٧١٧ م . وبلغ عدد الأسطول الإسلامى فى إحدى الروايات البيزنطية ١٨٠٠ سفينة من مختلف الأنواع وهو عدد مبالغ فيه . وكانت خطة المسلمين هى احكام الحصار حول القسطنطينية وقطع المواصلات البحرية بينها وبين البحر الأسود شمالا ، وبينها وبين بحر مرمرة وبحر ايجه جنوبا . ونجح الأسطول الإسلامى فى قطع المواصلات من الجنوب، وفشل فى احكام الحصار من ناحية البحر الأسود بسبب انحدار تيار مائى من البحر الأسود عبر البوسفور الى بحر مرمرة لم تستطع السفن الاسلامية للتغلب عليه لاعتمادها على الرياح . واستطاع ليو الثالث بما له من مهارة حربية ممتازة أن يحول دون احكام الحصار على المدينة . وتلقت القسطنطينية الامدادات والمؤن من اقليم البحر الأسود . وعاقبت المتأخر (السلاسل الضخمة) الطريق أمام سفن المسلمين الى القرن الذهبى . وأحدثت النيران الاغريقية اضطرابا وذعرا فى السفن الاسلامية . وكان شتاء سنة ٧١٧ - ٧١٨ قارصا على غير العادة . ولم تضعف هذه المشقات عزيمة القائد المسلم مسلمه ، وظل محاصرا لمدينة القسطنطينية اثنى عشر شهرا مصمما على فتحها حتى جاعته الأخبار بوفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وأمره الخليفة الأموى الجديد عمر

(١) انظر احاديث فتح القسطنطينية فى صحيح الامام مسلم ، ج ٨ ، ص

ابن عبد العزيز — عندما تولى الخلافة في سنة ٩٩ هـ / ٧١٨ م — برقع الحصار والعودة بمن معه من المسلمين الى الشام ، وأرسل اليه خيلا وطعاما كثيرا وحث الناس على معونتهم (٥) .

ويرى فازيليف أن المؤرخين أبدوا اهتماما كبيرا لفشل المسلمين في الاستيلاء على القسطنطينية ، وأن لبو الثالث استطاع بمقاومته المناجحة أن ينقذ ليس فقط الدولة البيزنطية والعالم المسيحي الشرقي بل أنقذ أيضا حضارة غرب أوروبا (٦) . ولا شك أن المسلمين لم يحاولوا بعد ذلك — لسنوات طويلة — القيام بهجوم على القسطنطينية . ولو فتح المسلمون القسطنطينية في تلك السنة ٧١٧ — ٧١٨ لانتشر الاسلام وانتشرت الحضارة الاسلامية بين الافار والصقالبة والبلغار ، وحلت المساجد مكان الكنائس في اقاليم أوروبا الشرقية . ويلاحظ أنه بعد حصار القسطنطينية بأربع عشرة سنة أى في سنة ١١٤ هـ / ٧٣٣ م توقف المد الاسلامي من الأندلس الى غرب أوروبا عندما هزم رئيس البلاط في دولة الفرتجة شارل مارنل جيشا اسلاميا بقيادة عبد الرحمن الغافقي في معركة بلاط الشهداء ، وهي المعركة التي استمرت ثمانية أيام ودارت في المسهل الذي يقع الى الشمال الشرقي من

(٥) عن هذه الحملة انظر : الطبرى ، ج ٦ ، ص ٥٢٣ ، ٥٣٠ — ٥٣١ ، ٥٥٣

Canard, Les expéditions des Arabes, pp. 80 — 102;

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 236 ; Gaudesfroy — Demombynes, Le Monde Musulman et Byzantin Paris, 1931, pp. 168 — 169 ; Camb. Med. Hist., Vol. 4, Part 1, p. 63 ; Fahmy, Muslim Sea — Power, pp. 96 — 101 ; العدوى ، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ٥٩ — ٦٢ ، وسلم عبد العزيز فرج ، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الاموية ، ص ١٢١ — ١٧٥ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٦٥ — ٦٦ ، جمال الدين سرور ، دراسات ، ص ٨ — ١٠ ، عن الماصر انظر ميخائيل عواد ، الماصر في بلاد الروم والاسلام ، ط . بغداد ١٩٤٨ ، وعن مسلمة بن عبد الملك وجهاده حتى حصار القسطنطينية انظر عواد مجيد الاعظمى ، الامير مسلمة ابن عبد الملك بن مروان ، ط . بغداد ١٩٨٠ م .

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 236.

(٦)

مدينة بركاتيه في بلاد الغال(٧) • ويبدو أن المسلمين قهصوا من غزوهم لهذه البلاد الوصول الى القسطنطينية من الغرب بعد أن فشلوا في اتيانها من الشرق • وهما يدل على ذلك ما ذكره الطبرى في حوادث سنة ٢٧ هـ أن الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه كتب الى من انتدب من أهل الاندلس : « أما بعد ، فان القسطنطينية انما تفتح من قبل الاندلس ، وانكم ان افتمتموها كنتم شركاء من يفتحها في الأجر والسلام »(٨) •

وتجدر الاشارة الى أن غارات المسلمين لم تنقطع ضد الدولة البيزنطية ، فقد تابع المسلمون حروبهم في آسيا الصغرى ابتداء من سنة ٧٣٦ م فدمروا قيصرية ووصلوا الى نيقية وشواطئ بحر مرمرة • وفي سنة ١٢٢٢هـ / ٧٤٠م نجح الامبراطور البيزنطى ليو الثالث فى الحاق الهزيمة بالمسلمين فى معركة جرت عند اكرويون Acroion (قره حصار) بالقرب من عسورية • وأدت هذه الهزيمة الى انسحاب المسلمين من غربى آسيا الصغرى والارتداد شرقا فجنوبا ، وفى هذه المعركة التى تسميها المصادر العربية رضى أقرن استشهد عبد الله البطال، الذى أبدى من ضروب الشجاعة والأقدام ما أكسبه لقب بطل الاسلام • وكان هذا المحارب من أبطال حملة مسلمة بن عبد الملك • واعتبره الأتراك فيما بعد بطلا من أبطالهم • وأصبح مدار أسطورة البطل التركى القومى السيد البطال الغازى Saiyid Battal Ghazi . ولا يزال قبره حتى

(٧) انظر لحمد السيد دراج ، عبد الرحمن الغافقى ، بطل بلاط الشهداء ، رسالة المسجد ، المعداد الرابع (١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م)
ص ٨٠ — ٨٥ ، سعيد عشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ،
ص ١٧٩ — ١٨٠ .
(٨) تاريخ الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ .

اليوم قائما فى قرية جنوب اسكى شهر (دوريليوم) بآسيا الصغرى (٩)
ولم تمنع هجمات المسلمين المتتالية الامبراطور ليو الثالث من قيامه
ببعض الاصلاحات الداخلية ، فقد أدخل هذا الامبراطور كثيرا من
التعديلات الادارية ، ونظم الشؤون المالية ، وحد من نفوذ كبار ملاك
الأراضي . ولعل ما قام به فى مجال التشريع جعله يأخذ مكانه خاصة
بين أباطرة الدولة البيزنطية . فقد أصدر سنة ٧٢٦ م باسمه واسم ابنه
قسطنطين مرجعا قانونيا عرف باسم الأكلوجا *Ectoga* (المختار) .
واشتمل هذا المرجع القانونى على مختارات من أهم قواعد القانون المدنى
والجنائى ، وجرى الاهتمام بصفة خاصة بقانون الأسرة والوراثة ، بينما
احتل القانون الخاص بالملكات المرتبة الثانية . وكان الغرض من اصدار
الأكلوجا هو تزويد القاضى بمذكرة قانونية تسليح الحاجات العملية ،
وتغنيه عن بقية القوانين المطولة والمنسوبة الى جستنيان الأول .
واعتمدت الأكلوجا على القانون الرومانى فى مجموعة جستنيان الأول
التي ظلت أساس القضاء البيزنطى . ورغم ذلك لم تكن الأكلوجا مجرد
مختارات من القوانين القديمة بل حاولت الاهتمام بالنواحي الانسانية .
واختلفت الأكلوجا عن قانون جستنيان الأول بتأثرها بالتعاليم الكنسية
والعرف والعادات الشرقية مثل اهتمامها بحقوق الزوجات والاولاد
وحماية الزواج ، اذ زالت الفكرة القائلة بأن الزواج عقد مدنى يمكن
فسخه بالتراضى المتبادل بين الزوجين ، وحل محلها ما قرره المجلس
الكنسى من أن الزواج يعتبر من الاسرار المقدسة ، فتعذر بذلك الحصول
على الطلاق . واستحدثت الأكلوجا عقوبات لم تكن معروفة فى قوانين

(٩) ورد فى تاريخ الطبرى ، ج ٧ ، ص ١٩١ حوادث سنة ١٢٢ هـ «وניהا
قتل عبد الله البطال فى جماعة من المسلمين بارض الروم » انظر أيضا
محمد فتى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ — ٢٨٤ ،
اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٢٩٣ ، العربى ، الدولة البيزنطية ،
ص ١٦٧ .

Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 237 — 8.

جستينيان الأول ، مثل جدد الأنف وشق اللسان وقطع الأيدي وسمل العيون وحلق الرأس وحرق الشعر وغير ذلك من العقوبات الجسدية القاسية التي قررت بدلا من عقوبة الاعدام ومن الغرامات الواردة في قانون جستينيان الأول . وفي مقدمة الأكلوجا أعلن ليو الثالث العزم على أن يضع حدا للرشوة والفساد عند تولي الوظائف القضائية ، وأن يوفر لرجال القضاء مرتباتهم من قبل الدولة . وفي السنوات التالية احتلت الأكلوجا سمعة سيئة في التاريخ البيزنطي ، لأنها من صنع ليو وقسطنطين مناهضى عبادة الأيقونات ، رغم أنها كانت ذات أهمية كبيرة في تاريخ التشريع البيزنطي ، وكان لها أثر كبير في تطور القوانين في بلاد الصقالبة خارج حدود الدولة البيزنطية (١٠) .

أما حركة مناهضة عبادة الأيقونات أى الصور والتماثيل الدينية وهى المشكلة الدينية الكبرى التى شغلت الدولة والمجتمع البيزنطى لدة تزيد على قرن من الزمان ، فقد ظهرت فى عصر ليو الثالث . ويتقسم تاريخ هذه الحركة الى فترتين : الفترة الأولى امتدت من سنة ٧٢٦م الى سنة ٧٨٧ م وانتهت بقرارات المجمع المسكونى السابع . واستمرت الفترة الثانية من سنة ٨١٣ م الى سنة ٨٤٣ م أى بما يسمى بالحياء الأرثوذكسية . وأشار فازيليف الى أن دراسة تاريخ هذه الحركة تواجهها صعوبات كثيرة لقلة المصادر التاريخية الخاصة بها . فقد تم التخلص من مؤلفات اللايقونيين ، وكذلك مراسيم الأباطرة وقرارات المجمع اللايقونية التى عقدت فى سنوات ٧٥٣-٧٥٤ ، ٨١٥ ، وكذلك

(١٠) لمزيد من التفاصيل انظر :

Ostrogorsky, Byz. state, pp. 159 — 160 ;
Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 240 — 244 ; Camb. Mod. Hist., Vol. 4, Part 1, p. 65 ; Hussey, Op. cit., pp. 28 — 9 ;
اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٢٩٨ — ٣٠٠ ، العربى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٧٠ — ١٧٣ ، نبه عقل ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٥ — ١٤٦ ، سانت موسى ، ميلاد العصور الوسطى ، ص ٣٠١ .

الرسائل اللاهوتية لنهاضى عبادة الأيقونات ، وتخلص من هذا كله مؤيدو عبادة الأيقونات بعد أن احرزوا انتصارهم . ويلاحظ أنه لم يصلنا الا بعض ما كتب عن اللاأيقونية ، وصلت اليها في مؤلفات الأيقونيين عباد الصور المقدسة الذين أوردوها في كتبهم لدحضها ولإقامة الدليل على بطلانها (١١) .

ولم تكن عبادة الأيقونات جديدة في عصر ليو الثالث اذ ترجع بدايتها الى القرن الرابع الميلادي عندما تم الاعتراف بالمسيحية ، وبدأ المسيحيون يزينون الكنائس بصور المسيح والعذراء والقديسين والتماثيل الدينية . ومما يدل على كثرة ترين الكنائس بالصور والتماثيل الدينية أن المجلس الذي عقد في الفيرا Elvira بأسبانيا. في بداية القرن الرابع حرم إقامة الصور في الكنائس .

كما أشار مؤرخ الكنيسة يوسيبوس Eusebius في القرن الرابع الميلادي الى تقديس صور المسيح والقديس بطرس والقديس بولس ، الى انها « عادة وثنية » . وفي القرن الخامس أشار ابيفانيوس القبرصي Epiphanius of Cyprus في خطاب له الى أنه مزق ستارة احدى الكنائس لأنها احتوت على صورة المسيح أو أحد القديسين وأنها تدنس الكنيسة . كما قامت حركة خطيرة في أنطاكية في القرن السادس الميلادي ضد عبادة الصور ، وألقى الجند الناثرون في محينة الرها الحجارة على صور المسيح ، كما أن هناك بعض حوادث الهجيم على الصور وتحطيم الأيقونات في القرن السابع (١٢) .

وبالتدريج احتلت الأيقونات أو الصور والتماثيل المقدسة مكانة خاصة في قلوب كثير من أتباع الكنيسة . وجاءت عبادة الأيقونات

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 251.

(١١)

Ibid., I, pp. 254 — 255 ;

(١٢)

انظر ايضا ، اسد رسنم ، الروم ، ج ١ ، ص ٣٠٤ .

مصحوبة بكثير من البدع والخرافات عندما أصبح البيزنطيون يسجدون لها ويلتمسون بركتها . وامتلات الكنائس والأديرة بهذه الصور المقدسة ، وعلفت بالدور والحوانيت ، وطرزت على الملابس ، وطلب للناس منها الشفاء وقضاء المصالح ، لاعتقادهم أنها احتوت على معجزة تحمى بيوتهم وحوانيتهم من كل أذى ، وتعطيهم ثقة وشعورا بالأطمئنان، لهذا استنكر المتفقون في بيزنطة هذا كله ونادوا بتحريم عبادة الصور والتماثيل (١٣) .

وقد أرجع خصوم ليو الثالث عداءه للأيقونات الى مؤثرات يهودية وإسلامية ، وأنه تأثر بالديانة اليهودية التي تحرم عبادة الصور المقدسة . أما بالنسبة للمؤثرات الإسلامية ففي سنة ٧٢١ م أو ٧٢٣ م أمر الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤ م) بإزالة الأيقونات من جميع الكنائس المسيحية الموجودة في الدولة الإسلامية (١٤) . وروى ثيوفانو Theophanes المتوفى سنة ٨١٨ م أن يهوديا من اللاذقية Iakia أتى الى الخليفة يزيد وأخبره بأنه سوف يحكم أربعين عاما لو أنه حطم الأيقونات الموجودة في كنائس

(١٣) إبراهيم على طرخسان ، الحركة اللايقونية ، ص ٥ ، انظر

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 256.

أيضا ؟

(١٤) اختلفت المصادر في تحديد السنة التي صدر فيها مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك ، فبعضها أرجعه الى سنة ٧٢١ م وبعضها الى سنة ١٠٤ هـ / ٧٢٣ م . وقد وصل الأستاذ غزليف الى أن تاريخ صدور هذا المرسوم هو شهر يوليو ٧٢١ م اعتيادا على التقرير الذي قرأه راهب من بيت المقدس في مجمع نيقية الذي عقد في سنة ٧٨٧ م ، وكذلك على ما ذكره البطريرك نقفور وساويرس بن المنفع وما ورد في إحدى الحوليات السريقتية . واورد الأستاذ غزليف معلومات قيمة خاصة بمرسوم الخليفة يزيد كما ورد في المصادر اليونانية واللاتينية والسريانية والعربية والأرمينية ، لتفصيل ذلك انظر :

Vasiliev, A.A., 'The Iconoclastic edict of the Caliph Yazid II, A.D. 721 in *Dumbarton Oaks Papers*, No. 9 - 10 (1956), pp. 24 - 47.

المسيحيين في دولته ، وقام الخليفة على الفور بإزالة الأيقونات التي كانت تزين كنائس مصر (١٥) •

ومن السهل تفنيد رواية ثيوفانو لأنه من المقطوع به أن الاسلام حرم التماثيل والصور تحريما قاطعا جازما ، وذلك لحكمة بالغة هي البعد عن مظاهر الوثنية وحماية العقيدة من الشرك وعبادة الأصنام • ونعى القرآن الكريم على التماثيل وشنع على من كان يعكف عليها ، ويندد بمن يتخذ الأصنام والأوثان آلهة • وجاءت السنة النبوية المطهرة بالنهي عن اتخاذ الصور والتفنير منها • ووردت أحاديث نبوية كثيرة تدل على التحريم حتى كانت تبلغ حد القواتر (١٦) • ولاشك أن الدافع الديني كان من وراء قرار الخليفة يزيد في سنة ١٠٤هـ / ٧٢٣ م — حسب رواية المقرئى — وبالتالي « محيت التماثيل وكسرت الأصنام بأجمعها » (١٧) • ولا يستبعد أن تكون لتعاليم الاسلام أثرها الإيحائي

Theophanes, *Theophanis Chronographia*, ed. G. de Boor (١٥)
(Leipzig, 1883 — 85), p. 401 in Creswell, *The Lawfulness of painting in Early Islam*, *Ars Islamica* XI-XII (1946), p. 163.

(١٦) منها قوله تعالى : « قال اتعبدون ما تنحتون » ، والله خلقكم وما تعملون (سورة الصافات آية ٩٥ — ٩٦) ، (يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) « سورة المائدة آية ٩٠ » ومن الأحاديث النبوية ما رواه البخارى ومسلم عن أم المؤمنين عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » وما رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : احيوا ما خلقتم » • انظر : محمد على الصابوني ، روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ — ٤٢٢ ، ويرى الدكتور زكي محمد حسن في تعليقه على كتاب التصوير عند العرب لأحمد تيمور ، ص ١٢٨ — ١٢٩ ، أن التصوير بأنواعه كان مكروها في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وفي فجر الاسلام ، ويألف الفقهاء في التعبير عن هذه الكراهية بالأحاديث المنسوبة للنبي والتي تفيد التحريم الصريح المطلق •

(١٧) المقرئى : المواعظ والاعتبار (الخطط) ، ج ٢ ، ص ٤٩٣ •

في الدولة البيزنطية نتيجة الاحتكاك الثقافي بين المسلمين والبيزنطيين ، فلم يحمل المسلمون معهم الى آسيا الصغرى فكرة الجهاد والغزو فقط ، بل نقلوا معهم أفكارهم وحضارتهم وثقافتهم خاصة الكراهية لتصوير الجسد البشري بصور وتمائيل وما شابه ذلك . ومعنى هذا أن المتحدى العربى الاسلامى لبيزنطة لم يكن تحديا عسكريا فحسب ، بل كان تحديا فكريا وحضاريا أثر في العقيدة نفسها ، وأثار أزمة حول تزيين الكنائس بالأيقونات وقدمية هذه الأيقونات (١٨) . وقد أشارت إحدى الحوليات الى الامبراطور ليو الثالث الى أنه « ذو عقلية اسلامية » رغم أن هناك شواهد قليلة جدا تدل على أنه قد تأثر تأثرا مباشرا بالاسلام (١٩) .

وكيفما كان الأمر فقد بدأ الامبراطور ليو الثالث حملة ضد الأيقونات وعبادتها في السنة العاشرة من حكمه سنة ٧٢٦ م . ووجد تشجيعا وتأييدا من بعض كبار موظفى الدولة المدنيين والعسكريين فضلا عن المثقفين من رجال الدين . وأصدر الامبراطور مرسوما في سنة ٧٢٦ م (وربما في سنة ٧٢٥ م لأن نص المرسوم غير معروف) قضى بإزالة جميع التماثيل والصور الدينية التي تزين الكنائس والأديرة . وأزال بعض المؤيدين للامبراطور تماثالا للمسيح كان مقاما فوق أحد أبواب القصر الامبراطورى في القسطنطينية ، فأثار ذلك عامة سكان العاصمة وبخاصة النساء نتيجة الجهل وانتشار البدع . وقتل القائد الامبراطورى الذى كان مكلفا بتدمير التمثال ، وانتقم الامبراطور من قاتليه من المدافعين عن تمثال المسيح وكان هؤلاء أول ضحايا عبادة

(١٨) انظر لتفاصيل ذلك : ابراهيم على طرخان ، الحرية اللايقونية في الدولة البيزنطية ص ١٠ - ١١ ، اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٣٠٤ - ٣٠٥ ، العربى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٧٧ .
Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 255 — 256. (١٩)

الأيقونات (٢٠) . ولما كان الرهبان من أشد المتعصبين لعبادة الأيقونات ، فقد وقفوا في وجه الامبراطور ليو الثالث معارضين سياسته الدينية في تحريم الأيقونات . وأيدهم كبار النبلاء الذين أرادوا معارضة الامبراطور ، كما أن صناع الأيقونات من أهل القيسوس عارضوا الامبراطور أيضا عندما وجدوا أن الخطر يهدد مورد رزقهم لاحترافهم رسم الصور وصناعة التماثيل وبيعها (٢١) .

وهكذا وجد الامبراطور ليو الثالث معارضة عنيفة وعنيفة تجاه سياسته اللاأيقونية . ووقف بطريرك القسطنطينية جرمانوس Germanus وبابا روما جريجورى الثانى ثم جريجورى الثالث موقفا شديدا من اللاأيقونية . ومن أشهر المعارضين لسيااسة الامبراطور ليو الثالث اللاأيقونية حنا الدمشقى John of Damascus الذى كان من أكبر علماء الدين ومفكرهم في عصره . ويقال أنه كان يونانى الأصل من أهالى الشام يجيد اللغتين اليونانية والعربية ، وعاش في دمشق عاصمة الخلافة الأموية . وكتب حنا الدمشقى ثلاث رسائل في الدفاع عن الأيقونات وهى أهم مؤلفاته وأكثرها ابتكارا ، وظلت المنبع الذى استمد منه المفكرون من أتباع عبادة الأيقونات آراءهم . وقد شرح حنا في هذه الرسائل الثلاث الأدلة اللاهوتية لاستخدام الأيقونات ، وفند الاتهام الذى جعل عبادة الصور احياء لعبادة الأصنام في الوثنية ، كما أوضح في رسائله أن الأيقونة ليست الا رمزا أو وسيلة يقف بواسطتها عامة الناس على ما ينبغي أن يقدسوه ويجلوه . ويرر استخدام صور المسيح بقوله ان هذه الصورة ما هى الا تجسيد

(٢٠) العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٧٩ — ١٨٠ ، أوملن ،
الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٥٢ ، انظر ايضا سقنت موسى ، ميلاد
العصور الوسطى ، ص ٣٠٤ .

Vasiliev, Byz, empire, I, p. 258 :

(٢١) بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١٥ — ١١٦ .

لفكرة المسيح لا المسيح نفسه • وهكذا ربط قضية الأيقونات بفكرة الخلاص في المسيحية • وقضى حنا الدمشقي السنوات الأخيرة من حياته في دير القديس سابا St Saba على مقربة من بيت المقدس وبالتالي كان بعيدا عن متناول بطش الامبراطور ليو الثالث (٢٢) •

وأخيرا لجأ الامبراطور ليو الثالث الى القوة لتحقيق سياسته اللاأيقونية • فقد أصدر مرسوما يقضى بتدمير كل الأيقونات • وفي يناير سنة ٧٣٠ م عقد اجتماعا حضره كبار الموظفين المدنيين والكسبيين، وطلب الامبراطور ضرورة اصدار قرار لناهضة عبادة الصور • وعندما رفض البطريك جرمانوس ذلك ، أمر الامبراطور بعزله وتعيين انستاسيوس Anastasius كبطريك لكنيسة القسطنطينية بعد أن أبدى استعداده لتنفيذ رغبة الامبراطور • وصدر مرسوم يقضى بتحريم عبادة الصور ، ويشير فازيليف الى أن هذا المرسوم من المحتمل أن يكون تكرارا لمرسوم سنة ٧٢٥ م أو سنة ٧٢٦ سابق الذكر • وترتب على ذلك تدمير الأيقونات وتعرض عبادها للاضطهاد (٢٣) •

وساءت العلاقة مع البابوية لدرجة أن أصدر البابا جريجورى الثالث سنة ٧٣١ م قرار الحرمان ضد جميع اللاأيقونيين بما فيهم الامبراطور ليو الثالث • وينص هذا القرار الذي أصدره البابا في مجمع ديني ووقمه الحاضرون من رجال الدين على أن « يقطع من دم وجسد كنيسة المسيح كل من يستنكر أو يعارض احترام وتوقير الصور المقدسة ، وكذلك من يزيل أو يدمر أو يدنس أو يسب الصور المقدسة

Hussey, Byz. World, p. 30 ; Vasiliev, Byz. empire (٢٢)
I, pp. 251 — 259. Vryonis, Byzantium, pp. 75 — 6;

العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ١٨١ ، نبه عاقل ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٥٠ ، بينز ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١١٧ •

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 258 : (٢٣)

انتظر العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ١٨١ •

للمسيح ، أو أمه السيدة مريم العذراء أو الحواريين أو أحد من
القديسين « (٢٤) •

وهكذا اتسعت الهوة بين القسطنطينية وروما ، وأمر الامبراطور
ليو الثالث باعتقال وسجن الممثل البابوي في القسطنطينية ، وأخذت
مكانة بيزنطة تنهار في ايطاليا • وحرّم الامبراطور البابوية من حقوقها
وأملكها في صقلية وجنوب ايطاليا ، وفصل الكراسى الأسقفية في هذه
الجهات عن سلطان البابا • وهكذا ترتب على مشكلة مناهضة الصور
المقدسة أن أخذ البابا يعمل على الخروج من دائرة النفوذ والسلطان
الامبراطوري أى من الشرق اليوناني وبدأت بيزنطة تخرج من الغرب
اللاتيني (٢٥) •

وتوفى ليو الثالث سنة ٧٤١ واعلى عرش بيزنطة ابنه قسطنطين

(٢٤) انظر النص في :

Ashour and Rabie, Fifty documents in Medieval
History, p. 27.

وقرار الحرمان Excommunication كان يصدره البابا كلوع
من العقاب ، يحرر به جميع رعيا واتباع من مسدّد ضده هذا القرار
من ايمان الطاعة والتبعية التي اقساموها له • وتطورت قرارات الحرمان
في العصور الوسطى حتى أصبحت من درجتين : قرارات حرمان صغرى
تحرّم الفرد من أداء الشعائر والطقوس الكنسية ، وقرارات حرمان كبرى
تبعد الفرد تماما عن الايمان وتحرّمه من جميع المزايا التي يتمتع بها
المسيحيون • ولا يستطيع الفرد في هذه الحالة أداء الطقوس الدينية الكنسية،
ويلقد جميع الهبات التي منحها له الكنيسة ، ولا يخفى في مدافن المسيحيين •
وفي كلتا الحالتين يكون الجحيم — في زعمهم — مصير الفرد المحروم من
الكنيسة ، ويعيش محروما من صحبة المسيحيين وأى شخص يتماون معه
يكون هو الآخر معرضا للمعتاب بتوقيع قرار الحرمان ضده ، انظر :

Thompson and Johnson, An introduction to medieval
Europe, New York, 1937, p. 656 :

سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى (ط . الخامسة ، ١٩٧٢) ،
ج ١ ، ص ٣٥٤ ، ٣٩٦ ، ج ٢ ، ص ٣ •
(٢٥) انظر العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٨٢ — ١٨٣ •

الخامس كوبرونيوموس Constantine V Copronymus • وبعد سنة من تنويجه قام صهره أرتاباسدوس Artabasdus قائد ثغر الأبيسيق بثورة ضد قسطنطين • وكان أرتاباسدوس قد ساعد ليو على الوصول الى عرش بيزنطة فزوجه ابنته وأصبح قائدا لهذا الثغر الهام • وانتصر أرتاباسدوس فمرة عبور الامبراطور قسطنطين الخامس وجيشه ثغر الأبيسيق سنة ٧٤٢ لقتال المسلمين ، وهاجم الامبراطور وهزمه ثم دخل القسطنطينية امبراطورا • وحكم أرتاباسدوس الامبراطورية مدة ستة عشر شهرا أعاد فيها عبادة الأيقونات • أما قسطنطين الخامس فقد هرب الى ثغور آسيا الصغرى ، واستطاع بكفائه الحربية والمساعدات التي تلقاها من تلك الثغور استرداد عرشه سنة ٧٤٣ وأنزل بخصومه أشد أنواع العقاب ، وقضى على تلك الفتنة التي أوضحت لقسطنطين أن عبادة الأيقونات قد تعود مرة أخرى بدون صعوبات كثيرة • وبدأ يتخذ خطوات حاسمة لتقوية الحركة اللايقونية في أذهان العامة ، وقرر عقد مجمع ديني ليضع أسس السياسة اللايقونية ولاقرار شرعيتها (٢٦) •

وفي سنة ٧٥٤ م عقد مجمع ديني في القسطنطينية لتحقيق هذا الهدف • وحضر هذا المجمع أكثر من ٣٠٠ أسقف في قصر هيريا Hicria على الشاطئ الآسيوي للبوسفور المواجه للقسطنطينية • ولم يرسل البابا ممثلين عنه لحضور جلسات هذا المجمع ، بل أنزل اللعنة على كل من يحضره ، كما لم يحضره أى من البطارقة لأن كرسي كنيسة القسطنطينية كان شاغرا بعد موت البطريرك انستاسيوس في نهاية عام ٧٥٣ م : ورفض بطارقة الاسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس

Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 259 — 60 :

(٢٦)

Ostrogorsky, Byz. state, pp. 165 -- 6 :

العربى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٨٢ — ١٨٥ .

حضور المجمع أو ارسال ممثلهم • وأعطى هذا العمل لمارضى مجمع سنة ٧٥٤ م دليلا كافيا على عدم شرعية قراراته (٢٧) •

ولعب الامبراطور قسطنطين الخامس نفسه دورا هاما في النشاط الأدبي الذي صاحب هذا المجمع ، فقد كتب ما لا يقل عن ثلاثة عشر بحثا دينيا أهمها بحثان لم يبق منهما سوى بضعة شذرات • وقصد قسطنطين الخامس في كتاباته توجيه الرأي في جلسات المجمع الكنسي الى اصدار قرارات معينة • وساهمت هذه البحوث في زيادة شرح آراء اللاأيقونيين • وبرهن قسطنطين على عدم امكانية تمثيل المسيح تمثيلا حقيقيا نظرا للطبيعة الالهية للمسيح ، بينما بنى مؤيدو الأيقونات — مثل البطريك جرمانوس وحنا الدمشقي — تهبيذهم لفكرة تمثيل المسيح في صور على أساس التجسيد ، فاعتبروا المسيح في صورة انسان تأكيدا لحقيقة تجسده (٢٨) •

وأخيرا قرر هذا المجمع الكنسي الذي عقد في المدة من ١٠ فبراير الى ٨ أغسطس سنة ٧٥٤ م ورأس جلساته الأسقف ثيودوسيوس أسقف أفيسوس تحريم تصوير المسيح في أى شكل من الأشكال ، لأن هذه الصور والتماثيل تعبر عن طبيعة المسيح الانسانية والالهية في طابع بشرى مجسد ، وبذلك تطمس صفته الالهية • وكذلك حرم المجمع صور القديسين باعتبارها ضربا من ضروب الوثنية • وتبع إعلان قرارات هذا المجمع الأمر بتدمير جميع الأيقونات وبطرد زعماء الأيقونيين بما فيهم البطريك جرمانوس وحنا الدمشقي من الجماعة المسيحية • وأعقب قرارات المجمع حركة تدمير للصور وحرقتها ونزعها • واضطهد أتباع عبادة الصور المقدسة الى درجة أن قتل الكثيرون منهم وعذبوا

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 260.

(٢٧)

Ostrogorsky, Byz. state, pp. 171— 2 ;

(٢٨)

العربى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٨٦ — ١٩٠ •

وسجنوا وفقدوا ممتلكاتهم • وأمر الامبراطور قسطنطين الخامس بتحطيم الصور المقدسة ووضع صور عادية مكانها • وحلت صور الأتسجار والطبوم والحيوانات ومناظر الصيد وسباق العربات محل الصور المقدسة في الكنائس وغير ذلك من الأماكن العامة • ودمروا تحفا رائعة لها قيمة كبيرة في تاريخ الفن ، كما أحرقت مخطوطات مصورة رائعة • وبدأ يزدهر في بيزنطة فن دنيوى الى جانب الفن الدينى (٢٩) •

وتحولت الحركة اللايقونية في عصر قسطنطين الخامس ضد الأديرة والرهبان بطريقة لم تشهدا الدولة البيزنطية من قبل • فقد أرغم الرهبان على ارتداء الملابس العلمانية ، وأرغم بعضهم على الزواج بالتهديد واللقوة • وفي يوم من الأيام أرغم بعض الرهبان على السير في ميدان السباق hippodrome وسط هتافات واهانات المتفرجين ، وكل منهم يسك بيد امرأة • ويقص ثيوفانو Theophanes أن حاكم افيسوس في آسيا الصغرى جمع الرهبان والراهبات في أقليمه وهددهم بالطاعة وأمر الامبراطور وارتداء الملابس البيضاء والزواج في الحال ، وهدد من رفض ذلك بسمل عينيه ونفيه الى جزيرة قبرص • وعندما سمع الامبراطور قسطنطين الخامس بالخبر أرسل الى حاكم افيسوس مهتأ له على ذلك وشاكرا له صنيعه • وتم اخلاء الأديرة من الرهبان وحولت الى معسكرات ومخازن أسلحة ، كما صودرت ممتلكات الأديرة • وحاول الرهبان العرب خارج الدولة البيزنطية بكل الطرق ، فيقال ان

Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 260 — 1 ; (٢٩)
Ostrogorsky, Byz. state, pp. 172—3 ; Runciman, Byz. civilization,
pp. 269—70 ;

العربى ، للدولة البيزنطية ، ص ١٨٩ — ١٩١ ، نبه عاقل
الامبراطورية البيزنطية ص ١٦٠ — ١٦٢ ، وعن قرارات مجمع سنة ٧٥٤ م
المسماه Horos وهى الوثيقة التى نجت من ايدي الايقونيين بعد
انتصارهم ، انظر :

Cam. Med. Hist., Vol. IV, Part 1, pp. 78 — 80.

خمسـة من الرهبان تمكنوا من الهرب ووصلوا الى بغداد في حمـاية الخلافة العباسية . ويقال ان ايطاليا استقبلت في عصر ليو الثالث وقسطنطين الخامس ما يقرب من خمسين ألفا من الرهبان الهاربين ، مما كان له أثره في ثقافة جنوب ايطاليا نتيجة هجرة هذا العدد الكبير من اليونانيين التابعين للكنيسة الأرثوذكسية ، اذ أنشأوا أديرة ومدارس أصبحت مراكز للثقافة اليونانية(٣٠) .

وتركزت المقاومة الأيقونية حول الأب ستيفن رئيس دير أوكسمتيوس Auxementius في آسيا الصغرى . ولقيت دعوة ستيفن تأييدا من عدد كبير من السكان على اختلاف طبقاتهم . وفشل الامبراطور قسطنطين الخامس في أن يثنى الأب ستيفن عن آرائه ، وفي نوفمبر سنة ٧٦٥ م هاجمت جماعة من الرعايا الأب ستيفن ومزقت جسده اربا في شوارع القسطنطينية . واشتد السخط على حكم الامبراطور قسطنطين الخامس مما اضطر الى أن يصدر سنة ٧٦٦ م الأوامر بقتل جماعة من كبار موظفي الدولة وقادتها العسكريين . واقترن حكم قسطنطين الخامس في أذهان البيزنطيين لسنوات طويلة قادمة بالارهاب والقتل والحرق والهدم(٣١) .

غير أن ذكرى هذا الامبراطور ظلت رغم ذلك باقية في أذهان البيزنطيين لقرون تالية بسبب ما حققه لبيزنطة من أمجاد عسكرية ، ولا سيما ضد البلغار . فقد أسس البلغار لأنفسهم مراكز قوية في حوض نهر الدانوب الأدنى ، ودافعوا عن وجودهم ضد محاولات بيزنطة المتتالية لتدمير ما حققه الخان أسباروخ Asparuch (٣٢) غير أن

Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 262 — 263.

(٣٠)

Ibid., I, p. 263 ;

(٣١)

العربى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٩٢ ، نبیه غاقل ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٦٢ — ١٦٣ .
(٣٢) انظر ما سبق ص ٩٢ — ٩٣ .

المملكة البلغارية وقعت في نزاع وفتن بين رؤساء البلغار لتنافسهم للوصول الى منصب الخان Khan في وقت كان على البلغار أن يقاوموا السلاف (الصقالبة) الذين غزوا شبه جزيرة البلقان (٣٣) • وكان البلغار قد ساعدوا جستينيان الثاني في استرداد عرشه كما عاونوا ليو الثالث لدفع المسلمين عن القسطنطينية • ونجحت المملكة البلغارية في حفظ السلام مع الدولة البيزنطية في عهد ليو الثالث • واستمرت فترة الهدوء وحسن الجوار مع بيزنطة حوالى ٣٠ عاما بدليل أن الكتاب البيزنطيين لم يشيروا الى أية اعتداءات من البلغار •

أما في عهد قسطنطين الخامس فقد بدأت العلاقات تتوتر مع البلغار • وشيد الامبراطور البيزنطى عددا من القلاع على طول الحدود البلغارية لمساعدة الأرمن وغيرهم الذين نقلهم من الأقاليم الشرقية للاستقرار في تراقيا • وعندما عامل قسطنطين الخامس المنسوب 'البلغارى' في القسطنطينية بازدراء بدأت غارات البلغار الحربية • وقام قسطنطين الخامس فيما بين سنتى ٧٥٩ — ٧٧٥ م بثمان أو تسع حملات برية وبحرية ضد البلغار بغرض القضاء على المملكة البلغارية • ورغم أن قسطنطين لم يستطع تحقيق أمه الا أن حروبه أضعفت بلغاريا وهددت قوتها الحربية لدرجة أن سماه بعض المؤرخين Bulgaroctonus أى سفاح البلغار الأول (٣٤) •

ولكن النجاح الذى حققه قسطنطين الخامس في معاركه مع البلغار كان على حساب الجزء الغربى من الامبراطورية الرومانية القديمة •

(٣٣) انظر الفصل الهام الذى كتبه رنسيان عن بيزنطة والسلاف

(الصقالبة) في :

Baynes and Moss, ed. Byzantium, pp. 338 — 368.

(٣٤) العرنى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٨٦ — ١٨٧ ،

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 239.

فقد وصلت مملكة اللومبارديين في عهد ملكهم استولف (٧٤٩ — ٧٥٦)
أقصى اتساعها • ففي سنة ٧٥١ م ، أي في السنة العاشرة من حكم
قسطنطين الخامس ، سقطت رافنا في أيدي اللومبارديين وبالتالي
سقطت أرخونية رافنا البيزنطية ، وانتهى حكم الدولة البيزنطية في شمال
ووسط إيطاليا • وسبق أن ذكرنا ازدياد شقة الخلاف بين البابوية
في روما والامبراطورية في القسطنطينية ، بسبب السياسة اللايقونية
التي اتبعها كل من ليو الثالث وقسطنطين الخامس (٣٥) • وعندما سقطت
رافنا البيزنطية في أيدي اللومبارديين ، وحاول ملكهم استولف اخضاع
الممتلكات البابوية بل والبابوية نفسها ، تأكد للبابا عدم جدوى الاستماعة
بالدولة البيزنطية لمواجهة الخطر اللومباردي ، في الوقت الذي بدأت فيه
قوة الفرنجة في الازدياد • لهذا رأى البابا ستيفن الثاني Stephen II
ضرورة الاعتماد على الفرنجة — وليس على البيزنطيين اللايقونيين
المرطقة — لحماية البابوية من اللومبارديين • واجتاز البابا ستيفن
الثاني جبال الألب ، وفي ٦ يناير ٧٥٤ م التقى في بونثيون Ponthion
بالمك بينين القصير ملك الفرنجة • ولهذا اللقاء أهمية كبيرة في تاريخ
العصور الوسطى إذ انتصرت البابوية عن الدولة البيزنطية وتحالفت مع
مملكة الفرنجة ، وهو التحالف الذي سوف يتوج — بعد أقل من نصف
قرن — بتقوية شارلمان وقيام الامبراطورية الغربية (٣٦) •

وبعد وفاة قسطنطين الخامس سنة ٧٧٥ م لم تستمر أسرة
ليو الثالث في حكم الدولة البيزنطية سوى ٢٧ عاما فقط • فقد خلف
قسطنطين الخامس في حكم الدولة أكبر أبنائه ليو الرابع الشهير باسم

(٣٥) انظر ما سبق من ١١٤ — ١١٦ •

(٣٦) Ostrogorsky, Byz. state, p. 170 ; Vryonis, Byzantium, p. 66 ;

العربي ، الدولة البيزنطية من ١٨٨ ، سعيد عشور ، أوروبا
العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١٥٥ — ١٥٧ •

ليو الرابع الخزرى Leo IV the Khazar لأن أمه كانت ابنة ملك
 الخزر . ويمكن اعتبار السنوات التي حكمها هذا الامبراطور
 (٧٧٥ - ٧٨٠ م) فترة انتقال بين ذروة العداء ضد الأيقونيين في عهد
 قسطنطين الخامس وبين اعادة عبادة الصور المقدسة زمن الامبراطورة
 ايرين . وتناهى ليو الرابع عن محاربة الرهبنة والديرية ، كما أنه لم
 يشهر بعداء تجاه الرهبان الذين استردوا بعض نفوذهم . ومن
 المحتمل أن ما حدث من تحول زمن هذا الامبراطور انما يرجع الى رد
 فعل لما حدث زمن قسطنطين الخامس من اضطهاد عنيف لعبادة
 الأيقونات ، كما يرجع أيضا - كما ذكر الأستاذ فازيليف - الى أن
 ليو الخزرى كان متأثرا الى حد ما بزوجته الشابة ايرين Irene
 التي جاءت من مدينة أثينا المشهورة باحترام الأيقونات وتقديسها ،
 كما كانت الامبراطورة مفرمة بعبادة الصور ومن أنصار الأيقونات
 المتحمسين (٣٧) .

وعندما توفي ليو الرابع في سنة ٧٨٠ م وهو في ريعان شبابه أصبح
 العرش من نصيب ابنه قسطنطين السادس (٧٨٠ - ٧٩٧ م) الذي
 لم يكن عمره وقتذاك يزيد على عشر سنوات ، مما أدى الى أن تولت
 الوصاية عليه أمه الامبراطورة ايرين وأصبحت مقاليد الحكم في يديها .
 ويلاحظ أنه في السنوات الثلاث الأولى لحكمها ، لم تقم الامبراطورة
 ايرين بإجراءات لإعادة عبادة الصور المقدسة . ويرجع هذا التأجيل
 قو للحقيقة الى ما حدث من اخماد فتن داخلية أثارها بعض أدعياء العرش
 من بعض أفراد الأسرة الحاكمة ، وكذلك الى توجيه قوات الدولة
 البيزنطية لمحاربة المصقلية (السلاف) الذين عاثوا فسادا في اليونان ،
 وكان لابد لاعادة الأيقونات أن يصابها الكثير من الحذر ، لأن حركة

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 263 :

٢٢٧
 : نبه عاقل : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٦٤ : وعن ايرين ، انظر
 عليه الخنزورى ، الامبراطورة ايرين ، ط . القاهرة ١٩٨١ .

مناهضة الأيقونات كانت راسخة الجذور في المجتمع البيزنطى ولا يمكن اقتلاعها بسهولة بعد مضى حوالى نصف قرن من الزمان • يضاف الى ذلك أن معظم رجال الجيش كانوا من مناهضى عبادة الصور المقدسة وكانت قرارات مجمع سنة ٧٥٤ م زمن قسطنطين الخامس لا تزال سائدة ولها نفوذها الكبير على الناس فى الدولة البيزنطية • وفى سنة ٧٨٤م عينت ايرين تاراسيوس Tarasius بطريركا جديدا على كنيسة القسطنطينية بعد أن أقنعت سلفه بالاستقالة • وأعلن البطريرك الجديد أن هناك حاجة لمجمع مسكونى لاعادة عبادة للصور • وتم توجيه الدعوة لحضور المجمع الى البابا هادريان الأول Hadrian I لكى يرسل وفدا • وعقد المجمع فى ٣١ يوليو سنة ٧٨٦ م فى كنيسة الرسل فى القسطنطينية • ولكن جماعة من جنود الحرس هاجموا الكنيسة شاهرين سيوفهم ، وأجبروا رجال الدين المجتمعين على التفرق والانصراف وعطلوا جلسات المجمع • وقامت ايرين — بمهارة — باستبدال الجند العصاة بجند جدد يدينون بالولاء لأرائها ومعتقداتها • وفى السنة التالية أى فى مايو سنة ٧٨٧ م دعت ايرين الى عقد مجمع جديد فى مدينة نيقية فى نفس المكان والحدية التى انعقد فيها المجمع المسكونى الأول فى عصر الامبراطور قسطنطين الكبير • وحضر المجمع حوالى ٣٥٠ أسقفا وعدد كبير من الرهبان وترأس جلساته البطريرك تاراسيوس • وعقدت سبع جلسات فى نيقية لم يحضرها الامبراطور قسطنطين السادس أو الامبراطوره ايرين ولكن الجلسة الثامنة والأخيرة عقدت فى القصر الامبراطورى فى القسطنطينية • وقرر المجمع — وهو المجمع المسكونى السابع والأخير — اعادة تبجيل الأيقونات كما كان عليه الحال من قبل • واعتمد المجمع على عدد من آيات الانجيل والكتابات الدينية المختلفة التى تؤيد تبجيل الأيقونات • وتقرر بطلان قرارات المجمع اللايقونى الذى انعقد فى سنة ٧٥٤ م • وربط المجمع — كما فعل حنا الدمشقى من قبل — قضية تبجيل الأيقونات بفكرة

الخلاص التي يمثلها المسيح . وأكد أن تبجيل الأيقونات ليس المقصود منه احترام الأيقونات ذاتها بل احترام وتبجيل الذين صورت لهم ، وليست عبادة لهم ، لأن العبادة تجب لله وحده دون غيره (٣٨) .

١. وبلاحظ أن قرارات هذا المجمع لم تقضى على العناصر المعادية للأيقونات بل على العكس أدت الى قيام هذه العناصر بالدفاع عن نفسها والى وقوفها موقف المناوئ في الأزمه التي قامت بين الامبراطورة ايزين . ولجئنا الى الامبراطور قسطنطين السادس . وعارضت سياسة ايرين القوات المرابطة في آسيا الصغرى التي لا تميل الى عبادة الأيقونات ، وانتشرت حركة المقاومة ضد ايرين في سائر ثغور آسيا الصغرى . ورغم انفراط قسطنطين السادس بالحكم سنة ٧٩٠ م الا أنه رشح لأنصار ايرين وسمح لأمه بالبقاء في القصر ، وأن تكون قسيمة له في الحكم ، وذلك لما عرّف عنه من ضعف وجبن . وكره الناس قسطنطين السادس لعدم شهامته وجبنه عند هزيمته في حرب البلغار سنة ٧٩٢ م ، وقيامه بسمّل عيني عمه نقفورا ، وقطع السنة أعماله الأربعة الآخرين ، كما أنه أمر بسمّل عيني قائد ثغر الأرمنيّاق مما أدى الى تمرد جنود ذلك الثغر . وأغضب الامبراطور قسطنطين السادس الكنيسة لقيامه بطلاق زوجته وزواجه من إحدى وصيفات القصر فاتهمه الرهبان بالزنا ومخالفتهم لقوانين الكنيسة . وانتهزت ايرين فرصة النقمة على ابنها قسطنطين السادس فأمرت في ١٥ أغسطس ٧٩٧ م بسمّل عينيّه في نفس الحجرة التي ولد فيها قبل سبع وعشرين سنة مضت . وما ان أصبح

(٢٨) من مجمع سنة ٧٨٧ م وقراراته انظر :

Vasiliev, Byz. empire, I. pp. 263 — 4 ; Ostrogorsky .

Byz. state, pp. 178 — 9 ;

العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ١٦٦ — ١٦٧ ، اسحق عبيد ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٩٤ — ٩٦ ، عليه الجنزوري ، الامبراطورة ايرين ، ص ٢٣ — ٢٧ .

قسطنطين غير مؤهل لمنصب الامبراطورية حتى انفردت ايرين بحكم الدولة البيزنطية ، وبدأت مرحلة من مراحل الاضطراب والفتن والمؤامرات داخل البلاد . وخيم التآمر في البلاط البيزنطي وبخاصة بين المستشارين الكبارين لايرين ، وهما الطواشي أيتيوس Stauriacus والطواشي أيتيوس Actius (٢٩) .

وكان من الطبيعي في مثل تلك الظروف التي عانت منها الدولة البيزنطية أن تتلقى بيزنطة صفعات قاسية من أعدائها التقليديين وبخاصة من المسلمين والبلغار ، وأن تفقد هيبتها في الحرب .

ففي سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م آلت الخلافة الاسلامية الى العباسيين . وفي سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م أسس الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور مدينة بغداد (٤٠) ، وتحول اليها من مدينة ابن هبيرة في السنة التالية (٤١) . وبالتالي نقل العباسيون مقر الخلافة من دمشق الى بغداد على نهر دجلة بعيدا عن حدود بيزنطة . غير أن المسلمين أنتهزوا فرصة ما جرى في الدولة البيزنطية من ضعف وفتن في عصر ايرين ، وقاموا بحملات ناجحة في آسيا الصغرى ووجهوا ضربات القاصمة لبيزنطة ، واعتادوا الاغارة على أراضي الدولة البيزنطية في أوقات معينة . وكانت بعض الاغارات تحدث في فصل الربيع والصيف وتسمى الصوائف عندما تكون الخيول قد قويت من رعيها في كلا الربيع ومراعيه ، واغارات أخرى

Ostrogorsky, Byz. state, pp. 180 — 2 :

(٢٩)

العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ١٦٨ — ١٦٩ ، عليه الجنزوري : الامبراطورة ايرين ، ص ٤١ — ٤٩ .
(٤٠) ابن الفقيه الهمداني ، بغداد مدينة السلام ، ص ٢٨ .
(٤١) تاريخ الطبري ، ج ٧ ، ص ٦٥٠ .

في الشتاء تسمى الشواتى التى لم يقدم المسلمون عليها الا في حالات
الضرورة القصوى ولا يتوغلون داخل اراضى البيزنطيين(٤٢) .

ويذكر الطبرى أن الخليفة المهدى أرسل سنة ١٦٥ هـ / ٧٨١ م ابنه
هارون الرشيد غازيا الى بلاد الروم . وتوغل هارون الرشيد بجيشه
في آسيا الصغرى ، وحقق انتصارات رائعة ضد البيزنطيين « حتى بلغ
خليج البحر الذى على القسطنطينية »(٤٣) . ويؤكد ثيوفانو رواية
الطبرى اذ ذكر، أن هارون الرشيد وصل الى مدينة كريسوبوليس
Chrysopolis على البوسفور(٤٤) . واضطرت الامبراطورة ايرين
وابنها قسطنطين السادس الى الصلح والموادعة . وعقدت هدنة مدتها
ثلاث سنوات ، وكانت هدنة مهينة لبيزنطة ، اذ اضطرت الى دفع اكلوة
تقدرها ٩٠ أو ٧٠ ألف دينار في كل سنة تدفعها على مرحلتين . وعاد
هارون الرشيد بفنائم كثيرة(٤٥) .

وشجع سوء الأحوال الداخلية في الدولة البيزنطية هارون الرشيد
— عندما تولى الخلافة سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م على توجيه الحملات
الاسلامية المتتالية ضد بيزنطة في الصوائف والشواتى(٤٦) . وإلى هذه
المرحلة من مراحل الجهاد الاسلامى ضد البيزنطيين ترجع ملحمة

(٤٢) عن الصوائف والشواتى انظر : ابراهيم العدوى ، الامبراطورية
البيزنطية والنزلة الاسلامية ص ٧٧ — ٧٨ ، عليه الجنزورى ، الثغور
البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية ، ص ٢٣ — ٢٧ .

(٤٣) تاريخ الطبرى ، ج ٨ ، ص ١٥٢ .

(٤٤) انظر Canard, 'les expéditions des Arabes', pp. 102 — 4.

(٤٥) تاريخ الطبرى ، ج ٨ ، ص ١٥٢ — ١٥٣ .

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 238 ; Cam. Med. Hist.,

Vol. 4, Part 1, p. 83.

(٤٦) انظر الطبرى ، ج ٨ ، صفحات ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ،
٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ .

ديجينيس اكريتاس Digenis Akritas بطل حرب الفلور ، وهى
 ملحمة شعبية تمثل شجاعة الفرسان وبطولة الجند وحياة المحاربين
 الآسيويين المدافعين عن بيزنطة . وتصور هذه الملحمة - وهى من
 ملأح أمال الأبطال - كثيرا من الوقائع والحوادث التى جرت على
 الحدود الإسلامية - البيزنطية التى اشترك فيها بطل هذه الملحمة .
 وأخيرا لقي ديجينيس اكريتاس حتفه فى إحدى معارك البيزنطيين مع
 المسلمين فى آسيا الصغرى سنة ٧٨٨ م ودفن فى قبر بالقرب من مدينة
 سميساط (٤٧) .

وفى سنة ١٨١ هـ / ٧٩٨ م قام الخليفة هارون الرشيد بنفسه
 بغزو أرض الروم واستولى عنوة على حصن الصفصاف (٤٨) . وتم عقد
 هدنة جديدة ، وتمهدت بيزنطة بحقق اتاوة سنوية مثلما كان الضال
 فى عهد الخليفة المهدى (٤٩) . وبدا كأن المسلمين قد قاربوا تحقيق أملهم
 القديم فى الاستيلاء على القسطنطينية .

وفى الجبهة البلغارية واجهت الدولة البيزنطية ازدياد قوة البلغار
 وبخاصة بعد أن قل العداء الشديد بين البلغار والصقالبة . وكون البلغار
 مملكة قوية قامت بحملات هجومية ضد بيزنطة . وفى صيف عام ٧٩٢ م
 حلت بالبيزنطيين بقيادة الامبراطور قسطنطين السادس هزيمة شنيعة
 عند حصن ماركيلاى Marcellae على الحدود البلغارية خاصة
 عندما هرب الامبراطور نفسه وأسر كبار قادة الجيش البيزنطى . وكان
 على الدولة البيزنطية أن تدفع الجزية مرة أخرى للبلغار . وكان سلاما

(٤٧) Charles Diehl, Byzantium, p. 50 ;
 العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٨ — ١٤٩ ، محمد فتحى
 عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .
 (٤٨) تاريخ الطبرى ، ج ٨ ، ص ٢٦٨ .
 (٤٩) Vasiliev, Byz. empire, I, p. 239.

تصير الأجل اذ طالب البلغار زيادة الاتاوة ، وكان على الدولة البيزنطية أن تدفع صاغرة ما طلبه البلغار بعد مكانتها المرموقة في عصر قسطنطين الخامس (٥٠) .

أما في الغرب فقد فحخت بيزنطة هيبتها . فقد انتصر ملك الفرنجة شارل الكبير (شارلمان) على اللومبارديين ، وأحرز من الانتصارات ما لم يحرزه البيزنطيون . ووثقت كنيسة روما تحالفها مع مملكة الفرنجة وانصرفت نهائيا عن بيزنطة . وعندما شرعت الامبراطورة ايرين في تغيير السياسة اللايقونية التي انتهجها الأباطرة منذ عهد ليو الثالث ، فكرت في أن تجرى مع الفرنجة علاقات ودية . وعرضت سنة ٧٨١ م أن يتزوج ابنها قسطنطين السادس الذي كان يبلغ من العمر — وقتذاك — حوالي ١٢ سنة من روترود Rotrud ابنة شارل . ولقى رسلا ترحيبا كبيرا ، وتقرر اتخاذ التدابير اللازمة لتطعيم الأميرة الصغيرة ما اشتهر به البلاط البيزنطي من لغة وآداب وتقاليد . ويقال أن مشروع الزواج قد فشل اما لأن شارل — على حد قول الفرنجة — لم يطق فراق ابنته ، واما لأن ايرين — بحسب الرواية اليونانية — لم تكن تقصد الا الافادة من الهدنة التي تحققت بفضل اقتراحها أو لأسباب أخرى . والمهم أن شارل فسخ خطوبة روترود لابن ايرين (٥١) .

وعندما تم سمل عيني الامبراطور قسطنطين السادس وخلمه سنة ٧٩٧ م رأى البابا ليو الثالث ضرورة اعادة الحق الى مدينة روما في انتخاب الامبراطور . واعتبر — فيما يبدو — أن سلطة ايرين غير

Ostrogorsky, Byz. state, p. 182 ; Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 239 — 40;

(٥٠)

المريني ، الدولة البيزنطية ، ص ٢٠١ .
(٥١) ديفز : شارلمان ، ترجمة د. المريني ، ص ١١٩ — ١٢٠ ، ١٢٢ ،
Vasiliev, Byz. empire., I, p. 267
٢٩٩ ، انظر ايضا

قانونية ، لأنها امرأة ، ولم يسبق في تاريخ الامبراطورية الرومانية ان حكمت امرأة الامبراطورية ويدها كل السلطات • وأصبح عرش الامبراطورية التي تضم جميع الشعوب المسيحية — من وجهة نظر شارل والبابا ليو الثالث — شاغرا بعد خلع قسطنطين السادس ، وأن البيزنطيين قد فقدوا ما كان لهم من حق قهيم في انتخاب الامبراطور (٥٢) •

واتخذ البابا ليو الثالث خطوة خطيرة عند ما توج شارلمان كإمبراطور روماني في كنيسة القديس بطرس في روما في ٢٥ ديسمبر سنة ٨٠٠ م • واعتبرت الدولة البيزنطية تتويج شارلمان إمبراطورا خرقا لكل التقاليد والأعراف ، وضربة للنفوذ البيزنطي ، لأن بيزنطة كانت تعتبر نفسها الامبراطورية الوحيدة التي ورثت الامبراطورية الرومانية القديمة • وبالتالي رأت أن ارتقاء شارلمان عرش الامبراطورية محاولة صيانية لاحداث الانشقاق ، وخرقا للتقليد ، واغتصابا لحق من حقوقها • ونظرت بيزنطة أيضا لما حدث سنة ٨٠٠ م كمحاولة من محاولات الثورة ضد الحاكم الشرعي (الامبراطور البيزنطي) • وخافت أن ذلك الامبراطور المدعى الجديد (أي شارلمان) يتقدم — كسابقه من الطغاة — نحو القسطنطينية لعزل إمبريق واغتصاب العرش : الامبراطوري بالقوة ، وأن الأمر لا يتعدى خروج بعض الولايات الغربية عن سلطان الحاكم الشرعي للامبراطورية (٥٣) •

أما من وجهة نظر شارلمان والبابا ليو الثالث فقد رأيا أن العرش الامبراطوري أصبح شاغرا بخلع قسطنطين السادس ، وأن شارلمان

(٥٢) اسد رستم ، الروم ، ج ١ ص ٢١٢ — ٢١٣ ، ديفز ، شارلمان ،
Vasiliev, Byz. empire, I, p. 267. ، ١٨٥ — ١٨٤ ، ١٧٤ — ١٧٢
(٥٣) ديفز ، شارلمان ، ص ١٨٤ — ١٨٥ .
Vasiliev, Byz. empire, I, p. 267 :

عندما تلقى التاج من البابا كان معناه أن يشغل عرش الامبراطورية الرومانية الواحدة ، ويصبح الموارث الشرعى للباطرة ليو الرابع وهرقل وجستينيان الأول وثيودوسيوس وقسطنطين الكبير ، أباطرة الفرع الشرقى للامبراطورية . ومما يؤكد هذا القول أن كتب التواريخ الغربية عندما تشير الى سنة ٨٠٠ م والسنوات التالية — حيث جرت العادة بتسجيل الحوادث تبعا لسنوات حكم الأباطرة البيزنطيين — تضع اسم شارلمان بعد اسم قسطنطين السادس مباشرة . ومعنى هذا أنه لم يكن قصد شارلمان والبابا ليو الثالث أن توجد امبراطوريتان في وقت واحد ، أو امبراطورية جديدة أسسها شارلمان في مواجهة الامبراطورية الشرقية . فشارلمان عندما توج فى سنة ٨٠٠ م أصبح هو حاكما وحيدا للامبراطورية الرومانية . وكان حادث التتويج معناه أن روما استردت من القسطنطينية الحق في انتخاب الامبراطور ، لأن عقلية ذلك العصر لا يمكن أن تتحمل وجود امبراطوريتين في وقت واحد (٥٤) .

والحقيقة أن شارلمان كان قلقا من موقف بيزنطة من نتيجته ، ورأى أن هذا التتويج لم يثبت حكمه في الأجزاء الشرقية من الامبراطورية ، وأنه بعد ايرين سوف ينتخب البيزنطيون امبراطورا جديدا يعترف بلقبه الامبراطورى في الشرق . وفى سنة ٨٠٢ م جاء الى القسطنطينية السفراء من قبل شارلمان وأعلنوا أنهم جاءوا ليعرضوا على الامبراطورة ايرين الزواج من شارلمان . وقصد شارلمان من ذلك أن يوحد بين شقى الامبراطورية الشرقى والغربى . ولم يكد الوفد يصل الى القسطنطينية ورحبت ايرين بهذا الزواج المنتظر ، حتى نشب البلاط البيزنطى ثورة أطاحت بإيرين . وفشل مشروع الزواج وتم نفيها الى احدى الجزر حيث توفيت بعد ذلك بقليل . ويهنا هنا القول بأنه رغم المحادثات التى استمرت بين شارلمان

ونقفوي Nicephorus خليفة ايرين — التي يبدو أنها كانت تدور حول الاعتراف بلقب شارلمان — فانه لم يحدث الا في سنة ٨١٢ م عندما اعترف الامبراطور البيزنطي ميخائيل الأول بشارلمان امبراطورا في اكس لاشابل Aix-la-Chapelle (Aachen) • ومنذ سنة ٨١٢ م بدأ لقب (امبراطور الرومان) يستخدم رسميا في بيزنطة للدلالة على السلطة الشرعية للقسطنطينية • ومنذ تلك السنة فصاعدا كان هناك اثنان من الأباطرة الرومان رغم أنه كان من الناحية النظرية توجد امبراطورية رومانية واحدة (٥٥) •

ويلاحظ أن بيزنطة لم تعترف بلقب شارلمان الامبراطوري سنة ٨١٢ م الا بسبب ما عانت من هزيمة دامية على أيدي البلغار • ووجد البيزنطيون ضرورة تركيز جهودهم ضد الخطر البلغاري • فبعث ميخائيل الأول في تلك السنة السفراء الى مدينة اكس لاشابل للوصول الى تسوية مع شارلمان العظيم ، وخاطبه بوصفه « امبراطورا وملكا » (٥٦) •

وأصبح منذ سنة ٨١٢ م توجد امبراطورية في الشرق وأخرى في الغرب ، وأدى ظهور امبراطورية غربية الى ظهور مجتمع جديد في غرب أوروبا • فإذا كانت عبقرية جستنيان الأول حددت ظهور الحضارة البيزنطية في القرن السادس ، فقد ساعدت شخصية شارلمان على تشكيل حضارة غرب أوروبا التي بدأت تأخذ طابعا مميزا في عصره • وبمرور القرون ابتعد مجتمع شرق أوروبا عن مجتمع غرب أوروبا في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والروحية ، وكان

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 268.

(٥٥)

(٥٦) هارتيمان وباركلاف ، الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى من ١٨٧ — ١٨٨ •

هذا الانفصال هو أساس الاختلاف بين غرب وشرق أوروبا في العصور الحديثة (٥٧) •

خلفاء الأيسوريين والأسرة العمورية (٨٠٢ — ٨٦٧) :

ولم يكن مجمع نيقية سنة ٧٨٧ م وعودة عبادة الأيقونات نهاية الخلاف لتلك الحركة التي أرهقت الدولة البيزنطية واستنزفت قواها لعشرات السنين • فلم يمض سوى إحدى عشرة سنة على نهاية عصر إيرين حتى عادت السياسة اللايقونية سيرتها المعودة ، وبدأ العصر اللايقوني الثاني الذي امتد فترة ثلاثين سنة من ٨١٣ الى ٨٤٣ م • حقيقة كان النصر في النهاية الى جانب تبجيل الأيقونات الا أن هذا التذبذب في سياسة بيزنطة تجاه تبجيل الأيقونات والصور المقدسة ، كان له اثره ونتائجه السلبية بالنسبة للمشكلات الداخلية والخارجية للدولة البيزنطية •

وتنقسم السنوات الممتدة من سنة ٨٠٢ — ٨٦٧ م الى فترتين ، تمتد الأولى من سنة ٨٠٢ — ٨٢٠ م وحكم فيها الدولة البيزنطية بباطرة من أصول مختلفة ، أما الفترة الثانية فتتمتد من سنة ٨٢٠ الى ٨٦٧ م وحكمت فيها الأسرة العمورية •

وقد أدت ثورة سنة ٨٠٢ الى عزل الامبراطورة إيرين وتولية نقفور الأول Nicephorus I العرش البيزنطي (٨٠٢ — ٨١١ م) • واعتمادا على تاريخ الطبرى يرجع نقفور الى أصل عربي هاجر أخذ أسلحته الى إحدى ولايات آسيا الصغرى ، حيث ولد نقفور فيما بعد (٥٨) •

(٥٧) عن هذه القضية انظر :

Vryonis, Byzantium, pp. 67 — 68.

(٥٨) ذكر الطبرى (تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ ، ص ٢٠٧) أن

نقفور « من اولاد جفنه من غسلان » انظر ايضا :

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 271.

ويلاحظ أن طبيعة ثورة ٨٠٢ م التي أطاحت ببايزين كانت نادرة في التاريخ البيزنطي . فمعظم الثورات السياسية في الدولة البيزنطية نظمها وقادها قادة عسكريون ، أما في حالة نقفور فهو لم يكن عسكريا بل موفلا ماليا كبيرا (٥٩) . وقامت سياسته الدينية على أساس التسامح الديني المرتبط بفكرة السيطرة على الكنيسة مع اعترافه بقرارات مجمع نيقية الأيقوني سنة ٧٨٧ م . غير أن التدبيرة مرت بفتوة حرجة في عصر نقفور ، وذلك عندما عزل البطريرك تاراسيوس Tarasius الذي أحبه الناس وشغل كرسى البطريركية منذ سنة ٧٨٤ م . وحل محله البطريرك نقفور Nicephorus الذي كان من العلمانيين وارتقى الى هذا المنصب برغبة الامبراطور . وعارض هذا الاجراء الراهب تيودور Theodore رئيس ديرستوديون Studion في القسطنطينية وأتباعه من رهبان ذلك الدير مما أدى الى نفيهم (٦٠) .

وسقط الامبراطور نقفور قتيلا أمام البلغار سنة ٨١١ م وخلفه ابنه ستوراكيوس Stauracius الذي كان قد أصيب إصابة بالغة في تلك المعركة . ومات في نفس السنة وانتقل عرش الامبراطورية الى ميخائيل الأول Michael I زوج ابنة نقفور الأول ، وهو من أسرة يونانية تسمى أسرة رانجابي Rangabe (٦١) . وخلال الفترة القصيرة التي حكمها ميخائيل الأول (٨١١ — ٨١٣ م) زاد نفوذ الرهبان ، وفي عهده تم استدعاء تيودور ورهبان ديرستوديون من النفي (٦٢) .

Vasiliev, Byz. cmp., I, P. 271.

(٥٩)

Ibid., I, p. 283.

(٦٠)

(٦١) العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ٢١٤ — ٢١٥ .

Vasiliev, Byz. cmp. I, p. 271.

Ibid., I, p. 283.

(٦٢)

وكان قد مضى ربع قرن من الزمان منذ أعادت ايورين عبادة الصور المقدسة ، غير أن حركة مناهضة عبادة الصور كانت لا تزال حية في الولايات الشرقية لآسيا الصغرى ، كما أن غالبية الجيش البيزنطى كانت من أنصار اللايقونية . وفى سنة ٨١٣ م أصبح أحد القادة العسكريين واسمه ليو *Leo* امبراطورا بعد عزل ميخائيل الأول بسبب فشل حملته ضد البلغار . وعرف ليو باسم ليو الخامس الأرمنى لأنه كان أرمنى المولد ، وحاز فى عهد أسلافه نفوذا كبيرا كقائد حرمى ، وأخفى آراءه المناهضة لعبادة الصور . وما أن أصبح امبراطورا بعد عزل ميخائيل الأول — وقوى مركزه فى عرش بيزنطة — حتى أعلن من سياسته اللايقونية . وعندما واجه الامبراطور ليو الخامس معارضة من جانب البطريرك نقفور ، قام بعزله عن منصبه وعين مكانه ثيودوتوس *Theodotus* الذى كان على اتفاق كامل مع سياسة ليو الدينية . وفى سنة ٨١٥ م عقد الامبراطور ليو الخامس الأرمنى مجمعا دينيا فى كنيسة القديسة صوفيه فى القسطنطينية . وتكرر فى هذا المجمع تطبيق كافة القرارات التى أصدرها مجمع سنة ٧٥٤ م ضد الأيقونات . وبرغم أن قرارات مجمع سنة ٨١٥ م قد تم التخلص منها بعد عودة عبادة الأيقونات فيما بعد (سنة ٨٤٣ م) إلا أن هذه القرارات حفظت فى إحدى مؤلفات البطريرك نقفور . وأقر هذا المجمع منع تبجيل صور « الموتى » والأيقونات « التى لا حياة فيها » وإشعال الشموع وإحراق البخور لها . وهذه القرارات — كما سبق ذكره — تكرر فى لقرارات مجمع سنة ٧٥٤ م (٦٣) .

وتعتبر سنة ٨١٥ م وهى السنة التى انعقد فيها ذلك المجمع اللايقونى بداية فترة تاريخية استمرت حوالى ثلاثين سنة (٨١٥ — ٨٤٣ م) اتبع أباطرتها السياسة اللايقونية ، وهى فترة أقصر من

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 283 - 284 ;

عن قرارات مجمع سنة ٧٥٤ انظر ما سبق ص ١١٦ — ١١٨

المناجية الزمنية عن العصر اللايقوني الأول الذى استمر أكثر من ستين عاما (٧٢٦ — ٧٨٧ م) • وفى عهد ليو الخامس الأرمنى تركت المقاومة ضد حركة تحطيم الصور المقدسة حول الراهب تيودور رئيس دير ستوديون Studion • فقد دافع هذا الراهب وأتباعه من رهبان الدير عن عبادة الصور وأصبحوا من أقوى أنصار الأيقونات • وكان للراهب تيودور تأثير كبير على الناس • وتحدث وكتب تيودور علانية عن حرية العقيدة واستقلال الكنيسة ورجال الدين ، وعن تدخل الامبراطور فى شؤون الكنيسة • وأدى هذا الى غضب الامبراطور ليو الخامس الذى اضطر الى نفي تيودور بعيدا عن العاصمة واضطهاد أتباعه (٦٤) •

وفى سنة ٨٢٠ م قتل الامبراطور ليو الخامس الأرمنى وآل العرش الى أحد قادة الحرس الامبراطورى وأسمه ميخائيل الثانى ويسمى بالتحتم Stammerer • وأتى ميخائيل هذا من اقليم عمورية من فريجيا فى آسيا الصغرى حيث مسقط رأسه ، وأسس أسرة تسمى باسم الأسرة العمورية أو الفريجية Phrygian حكم أباطرتها الثلاثة الدولة البيزنطية الفترة من ٨٢٠ — ٨٦٧ م • ورغم أن ميخائيل الثانى كان لايقونيا الا أنه أراد أن يخفف من هذه الحركة عندما منع الجدل حول تبجيل الأيقونات • ولم يبدأ هذا الامبراطور فترة جديدة من الاضطهاد ضد مؤيدى عبادة الصور المقدسة ، مما جعل بعض المعاصرين له يستخدمون تعبيرات معينة عند مقارنة عهده بعهد سلفه ليو الخامس مثل قولهم : « خدمت النار ولكن الدخان لايزال » « انتهى الشتاء ولكن الربيع لميات بعد ٠٠ » (٦٥) •

أما الامبراطور ثيوفيل Theophilus (٨٢٩ — ٨٤٢ م) خليفة ميخائيل الثانى فكان آخر الأباطرة اللايقونيين فى الدولة البيزنطية •

Vasiliev. Byz. empire. I. pp. 285.

(٦٤)

Ibid. I. pp. 272, 286.

(٦٥)

وبلغت سياسة محاربة عبادة الصور المقدسة في عصره قمة الاضطهاد في الحركة اللايقونية الثانية • ومن المعروف أن ثيوفيل كان مثقفا ثقافة عالية ، وكان مستشاره الخاص ، وبخاصة في شئون السياسة اللايقونية حنا النحوى John the Grammarian الذى أصبح بعد ذلك بطريركا لكنيسة القسطنطينية • وكان حنا النحوى أكثر علماء عصره ثقافة وعلمًا ، وانهم — كغيره من المثقفين في العصور الوسطى — بممارسة الشعوذة والسحر • وشاهد عصر ثيوفيل حركة اضطهاد ضد الرهبان من قتل وغرب بالسياط (٦٦) •

غير أن الحركة اللايقونية الثانية انتهت في الحقيقة بموت الامبراطور ثيوفيل ٨٤٢ م ، اذ ترك ثيوفيل ابنا قاصرا هو ميخائيل الثالث Michael III (٨٤٢ — ٨٦٧ م) المعروف بالسكير Dtunkard من زوجته ثيودورا Theodora • وتنتمي ثيودورا الى اقليم بافلاجونيا في آسيا الصغرى ، وكانت من أتباع ومحبى تبجيل الصور المقدسة ، وكانت اتجاهاتها الدينية معروفة لدى زوجها ثيوفيل • وما أن أصبحت وصية على ابنها ميخائيل الثالث حتى أخذت على عاتقها إعادة عبادة الصور المقدسة (٦٧) • ولم تجد ثيودورا سنة ٨٤٢ م معارضة قوية لاتجاهاتها الدينية مثلما وجدت الامبراطورة

Vasiliev, Byz. empire I, pp. 286—7.

(٦٦)

(٦٧) كانت ثيودورا هي الحاكمة الفعلية للدولة البيزنطية مدة أربع عشرة سنة عندما كان ابنها ميخائيل الثالث قاصرا • وعهدت بإدارة جميع أمور الدولة الى عشيقها ثيوكتستوس Theoctistus • وحاز القصر يارداس Bardas خال الامبراطور وشقيق ثيودورا درجة كبيرة من النفوذ في تصريف شئون الامبراطورية • وقد ترك أحد السفراء العرب صورة شيقة توضح أن يارداس كان هو مدبر الدولة ، اذ ذكر الطبرى عند روايته خبر الفداء بين الروم والمسلمين سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م نقلا عن نصر بن الاضرع الشيعى رسول الخليفة المتوكل الى ملك الروم في أمر الفداء : « ولم اسمعه (اى ميخائيل) يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم الى ان خرجت منها ، انها =

ايرين ، اذ لم يأخذ من ثيودورا سوى سنة واحدة للاعذار لعقد مجمع ديني لاعادة عبادة الصور المقدسة ، في حين أخذ ذلك الاجراء سبع سنوات من الامبراطورة ايرين . وطردت ثيودورا حنا النحوى من كرسي بطريكية القسطنطينية ليعترك مكانه للبطريك ميثوديوس Methodius الذى قاسى الكثير من الاضطهاد في عصر ميخائيل اللانى . وفي سنة ٨٤٣ م عقدت ثيودورا مجمعا دينيا في نيقية ، وهي المدينة التى شاهدت المجمع المسكونى الأول في عهد قسطنطين الكبير . وأسفرت قرارات مجمع سنة ٨٤٣ م عن عودة الأيقونات الى الكنائس والأديرة . وعندما انتهى المجمع من أعماله أقيم قداس في كنيسة القديسة صوفيه يوم الأحد ١١ مارس ٨٤٣ م . وأصبح ذلك اليوم عيدا في الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية منذ ذلك الحين (٦٨) .

وقد أدى النزاع حول عبادة الأيقونات والصور المقدسة الى قلق كبير وتزعزع الأوضاع في الدولة البيزنطية لمدة تزيد على مائة وعشرين عاما من سنة ٧٢٦ حتى ٨٤٢ م . وأدت هذه الأوضاع — كما يقول شارل ديل — الى أن تتجه الدولة البيزنطية اتجاها كليا ونهائيا تجاه الشرق وتتحلى ظهرها للغرب الأوروبى (٦٩) . وأدت الخلافات حول عبادة وتبجيل الصور المقدسة الى اضعاف مركز البيزنطيين فيما تبقى لهم من ممتلكات في جنوب ايطاليا ، وكذلك الى تكدير العلاقات بين الكنيستين الشرقية والغربية . وظهرت كنيسة روما بمظهر الكنيسة المحافظة على نقاوة العقيدة المسيحية والمذهب الصحيح ، مما زاد في تمسك بابوات روما بنظرتهم في التفوق الروحي على سائر الكنائس

= يقول الترجمان وهو يسمع ، فيقول براسه نم أولا ، وليس يتكلم وخاله بطرناس الجبر امره « انظر ، تاريخ الطبرى ، ج ٩ ، ص ٢٢٠ .

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 287.

(٦٨)

Charles Diehl, Byzantium, p. 11.

(٦٩)

بما في ذلك كنيسة القسطنطينية • يضاف الى ذلك أن الحركة الملائقونية من ناحية أخرى أسفرت عن فشل الدولة البيزنطية في مطاولتها للسيطرة التامة على الكنيسة • وأدى تدمير المتاعيل والصور الى ائتلاف كثير من الكنوز الفنية الدينية مما ألحق الضرر بتطور تاريخ الفن البيزنطي (٧٠) •

وكان للتذبذب في سياسة الدولة البيزنطية تجاه عبادة الأيقونات والصور الدينية أثره ونتائجه بالنسبة للسياسة الخارجية للدولة خاصة تجاه المسلمين والبلغار • وفي القرن التاسع يلاحظ أن البيزنطيين خاضوا غمار الحرب ضد المسلمين في جبهتين شرقية ضد العباسيين في آسيا الصغرى وأعلى الشام والعراق ، وأخرى غربية ضد الأغلبية في البحر المتوسط أدت الى استيلاء المسلمين على كريت وصقلية وأجزاء مهمة في جنوب إيطاليا • ويلاحظ أنه خلال ذلك القرن كانت العلاقات العدائية ضد المسلمين مستمرة بدون انقطاع • وواكب ذلك الغارات السنوية التي كان يصلحها فداء الأسرى (٧١) من حين الى آخر • وأقام المسلمون الثغور والعواصم (٧٢) على جانب تحصيناتهم الحربية كوسائل دفاع ضد هجمات الجيش البيزنطي على طول الأطراف من الشام الى تخوم أرمينية • ووجدت تحصينات مشابهة أيضا على الجانب

(٧٠) انظر عبد القادر اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١٥ - ١١٦ .

(٧١) عن فداء الأسرى ، انظر محمد فتحي عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج ٢ ، ص ٤١٥ - ٤٢٤ .

(٧٢) الثغر هو كل موقع قريب من ارض العدو يخلف منه هجوم الأعداء وكانت الثغور هي خط الحصون الخارجى • اما العواصم فهي حصون موانع تلى خط الثغور وتعصمها وتمدها في اوقات التنفير ، ويعتصم بها المسلمون وينتقمون من العدو اذا انصرفوا عن غزوهم وخرجوا من الثغر ، انقلس عليه للجنزورى ، الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية ، ص ٧ - ١٠ .

البيزنطى فى آسيا الصغرى • وأحدثت هذه الاغارات المستمرة أضرارا كثيرة بثروات الأقاليم الواقعة على الحدود ، مما أدى الى قلة عدد السكان لكثرة القتلى وعدم القدرة على دفع الضرائب (٧٣) •

ففى الجبهة الشرقية ، حاول الإمبراطور نقفور الأول الذى خلف ايرين سنة ٨٠٢ م الفاء الهدنة التى عقدتها ايرين مع الخليفة المهدى واسترجاع الاتاوات التى دفعتمها للخلافة الاسلامية • فكتب نقفور الى هارون الرشيد يقول : « من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب ، أما بعد : فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيذق ، فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحملها أمثالها اليها ، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابى ، فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافند نفسك بما يقع به المصادرة لك ، والا فالسيف بيننا وبينك » • وغضب هارون الرشيد وأجابته : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين الى نقفور ملك الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والنجواب ما تراه دون أن تسمعه ، والسلام » (٧٤) •

وأغار هارون الرشيد بنفسه على أقاليم التحولة البيزنطية ، ولبس

Vasiliev, Byz. Empire, I, pp. 273 - 4.

(٧٣)

(٧٤) الطبرى ، ج ٨ ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ ، انظر ايضا ابن الفراء رسل الملوك ، ص ٧٨ — ٨٠ ، الفلقشندي ، صبح الأهرى ، ج ٦ ، ص ٥٧ ، اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٢١٤ — ٢١٥ ، العدوى : الامبراطورية ص ٧٩ ، جمال الدين سرور ، دراسات ، ص ١٦ — ١٧ ، والبيذق (بالنقل) كلمة فارسية معربة جمعها بيلانق وبيلانقة ، أى الرجالة فى الحرب من غير الفرسان ، ومعنى النص انها أصبحت تعدو بين يديه (انظر الجواليتي ، العرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم ، ص ١٣٠ — ١٣١) ، وهناك قراءة أخرى للكلمة البيذق (بالبدال) وهو لفظ معرب دخيل معناه من أدوات الشطرنج الصغار ، والرخ من أدوات الشطرنج الكبار ، انظر ابن الفراء ، رسل الملوك ، ص ٧٨ حاشية ٣ ، ص ٧٩ حاشية ١ •

قلنسوة كتب عليها (غاز حاج) واستولى على عدة معاقل منها هرقة
التي فتحها في شوال سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م والطواقة الواقعة شمال
تلحمة اللؤاؤه . واضطر الامبراطور نقفور الى طلب الصلح ودفع
خمسين ألف دينار منها عن رأسه أربعة دنائير . وعقد معاهدة مع
الخليفة هارون الرشيد غرذت فيها الجزية على الامبراطور نفسه وعلى
أفراد أسرته وتعيد باستمراره في دفع الاتوة (٧٥) .

وبعد أن استتب الأمر في الخلافة العباسية للخليفة المأمون ، بعد
قتل الأمين سنة ٨١٣ م ، لجأ الخليفة الى محاربة البيزنطيين
بفلسطين ، الأولى اشغال الفتنة في داخل الدولة البيزنطية ، والثانية
بمهاجمتها عسكريا . ففي سنة ٨٢١ م وفي عهد الامبراطور ميخائيل
الثاني ، من الخليفة المأمون يد المساعدة والحن الى الخائر توماس
Thomas في آسيا الصغرى . وتوماس كان صقلبيا من حيث الأصل
والولاد ، قاد حربا أهلية استمرت أكثر من سنتين ، وكان لها انطباعات
سياسية ودينية واجتماعية . فقد استطاع توماس أن يضم الى جانبه
معظم قوات آسيا الصغرى . والتفت حوله عناصر متعددة من سكان
آسيا الصغرى وأطراف القوقاز المستضعفين من الأقباط والعبيد خاصة
من عناصر الصقالبة (السلاف) الذين وجدوا في توماس محررا لهم .
وهناك اشارات كثيرة الى اشتراك الصقالبة في فتنة توماس الذي يقال

(٧٥) الطبري ، ج ٨ ، ص ٣٢٠ — ٣٢٢ وللشاعر أبي العتاهية شعر
حين خرب هارون الرشيد مدينة هرقة جاء فيه :
انتابت هرقة بالخراب من الك الموق بالصواب
عدا هارون يرعد بالحقا ويرق بالذكرة القضاب
ورابت بحل النصر فيها تمر كأنها قطع المسحاب
لم المؤمنين تلفت فاسلم وابشر بالغبية والاياب
انتلر ديوان أبي العتاهية ، ص ٦٥ ، تاريخ الطبري ، ج ٨ ، ص ٣١٠ .

— كما سبق القول — انه انحدر من أصول صقلبية (٧٦) • وبالإضافة الى الصقلالية اشتمل جيش توماس على جماعات من الفرس والأرمن وأعداد من قبائل قوقازية كثيرة • واستفاد توماس من الأحوال الدينية التي سادت بيزنطة زمن ميخائيل الثانى ، وجعل نفسه نصيرا للأيقونات، واجتذب اليه أنصارا عديدين من مؤيدى عبادة الصور المقدسة ، واستمال اليه أيضا جامعى الضرائب فى آسيا الصغرى • وأدت فتنته الى حرب أهلية ، وانحازت قطع من الأسطول البيزنطى الى جانبه ، وتحالف معه الخليفة العباسى المأمون للقضاء على ميخائيل الثانى ، بعد أن وعد توماس المسلمين ببعض أقاليم الحدود الاسلامية — البيزنطية (٧٧) •

ويؤكد الأستاذ فازيليف فى كتابه (العرب والروم) وجود تحالف، حقيقى كامل بين توماس والعرب بدليل وجود الفرق العربية فى جيش توماس • ولم يكن دخول المسلمين فى هذا التحالف رغبة فى السلب والغنيمة ، وإنما عقد توماس حلفا مع المأمون قضت شروطه على أن يمد المأمون توماس بجيش قوى ، وكان الخليفة المسلم ينوى مهاجمة القسطنطينية ذاتها ، وأصبح هذا الحلف شرعا بتتويج توماس امبراطورا على يد بطريك انطاكية بمساعدة ورضاء الخليفة المأمون (٧٨) •

وارتكب توماس خطأ استراتيجيا خطيرا عندما قصد القسطنطينية متناسيا أنه ترك خلفه فى آسيا الصغرى أنصارا أقوياء مخلصين للامبراطور ميخائيل الثانى وبخاصة جند ثمرى الأرمنياق والأبسيق •

Charanis, "The slavie element in Byzantine Asia Minor (٧٦) in the thirteenth century" in *Byzantion*, Vol. XVIII (1948), pp. 79-80.

Vasiliev, *Byz. empire*, I, pp. 274 — 275 ; (٧٧)

انظر أيضا اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٣٢٠ — ٣٢٢ .

(٧٨) فازيليف : العرب والروم ، ص ٢٨ — ٥١ .

وبلغ توماس على رأس جيشه مدينة القسطنطينية وحاصرها برا وبحرا في ديسمبر سنة ٨٢١ م . وكان يتوقع أن تفتح العاصمة له أبوابها بمجرد اقترابه منها ، بحسب ظنه ، لشدة كراهية سكانها للإمبراطور ميخائيل . ولم يتحقق ما توقعه توماس إذ اصطدم بمقاومة عنيفة اضطر أثرها للفتنة نتيجة ما حدث من هزيمة أسطوله أمام أسطول الإمبراطور ميخائيل الثاني والمساعدات التي قدمها خان البلغار الى ميخائيل الثاني . وهرب توماس ولكنه وقع أسيرا في قبضة إمبراطور القسطنطينية في أكتوبر سنة ٨٢٣ م الذي أمر بقتله (٧٩) .

وهكذا انتهت فتنة توماس (٨٢١ — ٨٢٣ م) التي تعتبر من أهم حوادث تاريخ القرن التاسع الميلادي ، وفشل توماس في تحقيق أمله ، وانهزم الخليفة المأمون في مشروعاته الحربية ضد بيزنطة . ولعل أهم نتائج هذه الفتنة بالنسبة للدولة البيزنطية ، هو ما نتج عنها من ضعف القوة البحرية للدولة البيزنطية ، إذ تشتت تشمل أساطيل بيزنطة في حوض البحر المتوسط ، في الوقت الذي تجمعت فيه أساطيل الدولة الإسلامية من جديد ، لكي تحقق سيادة بحرية على هذا البحر تمخضت عن عقد بيزنطة لجزيرتي كريت وصقلية (٨٠) . يضاف الى ذلك أن فشل فتنة توماس كان معناه فشل محاولة عودة عبادة الأيقونات والصور الدينية . وأحدثت هذه الفتنة تغيرات اجتماعية كبيرة في آسيا الصغرى . فقد أدت فتنة توماس الى اختفاء طبقة صغار ملاك الأراضي الزراعية في آسيا الصغرى الذين عجزوا عن أداء الأعباء الضريبية الكثير للدولة ، واضطروا الى تحويل ممتلكاتهم الى جيرانهم الأغنياء ، مما أدى الى عودة طبقة أصحاب الضياع الكبيرة في القرن العاشر الميلادي وبخاصة في آسيا الصغرى . ولاشك أن ظهور الاقطاعات

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 275.

(٧٩)

(٨٠) انظر ارشيبيلد لويس ، القوى البحرية ، ص ١٦٨ — ١٦٩ .

الكبيرة في القرن العاشر كان سببا من أسباب ضعف قوة الامبراطورية

ويخاصة في آسيا الصغرى مما كان له نتائجها الخطيرة في تاريخ
الامبراطورية في القرن الحادى عشر (٨١) .

وكيفما كان الأمر ، فبعد انتهاء فتنة توماس ، حاول الامبراطور
ميخائيل الثانى اصلاح ما سببته هذه الفتنة من خسائر مادية وغيرها
لسكان الدولة البيزنطية ، فأوفد سنة ٨٢٥ م وفدا الى الخليفة العباسى
يطلب منه هدية فرفض المأمون وأغار على أراضي البيزنطيين . ففى
سنة ٨٣٠ م — على سبيل المثال — تمكن الخليفة المأمون من احراز
انتصارات في آسيا الصغرى على جيوش الامبراطور ثيوفيل بن ميخائيل
الثانى في ثلاث حملات ، استولى خلالها الخليفة على ممرات بجبال
طوروس . وأرسلت بيزنطة سنة ٨٣٣ م وفدا الى بغداد لأجل الصلح ،
ولم ينجح الوفد في مهمته نظرا لوفاة الخليفة المأمون في تلك
السنة (٨٢) .

وحاول الامبراطور ثيوفيل انتهاز فرصة وفاة الخليفة المأمون
للقيام بحركة توسع على حساب الأقاليم الاسلامية في آسيا الصغرى .
ففى سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ م حقق ثيوفيل بعض الانتصارات على
المسلمين . فقد استولى في تلك السنة على قلعة حصن زبطرة Zapetra
وفي رواية المطبرى أنه أوقع بأهلها وأسره وخرب بلادهم ، ثم مضى الى
ملطية وأغار عليها وعلى ماجاورها من الحصون (٨٣) . واضطر الخليفة
المعتصم في السنة التالية ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م الى القيام بحملة حربية
تأديبية ، فخرج على رأس جيش كبير وتوغل في آسيا الصغرى واستولى
بعد حصار طويل على مدينة عمورية Amorion . وكانت تلك المدينة

Vasilev, Byz. emp., I, pp. 275 — 6.

(٨١)

Ibid., P. 276.

(٨٢)

(٨٣) المطبرى ، ج ٩ ، ص ٥٥ — ٥٧ .

مدينة حصينة وأهم مدينة في فريجييا ، حيث كانت موطن الأسرة الحاكمة . وسجل الشاعر أبو تمام الطائي (المتوفى سنة ٢٢٨ هـ) ذلك النصر العظيم في قصيدة من روائع الشعر العربي (٨٤) . وقصيدة أبي تمام لا تقل في الحقيقة أهمية وقيمة عن « أنشودة رولان » التي يعتز بها الأدب الأوروبي ، ويفسح لها مجالا في صفحات تاريخه الأكبر . وإذا كان بطل « أنشودة رولان » هو شارلمان فبطل قصيدة أبي تمام هو « المعتمم » . وإذا كان جهاد شارلمان كما تصوره الأنشودة هو جهاد شارلمان ضد المسلمين في الأندلس ، فإن جهاد المعتمم كما تصوره قصيدة أبي تمام كان جهادا ضد الروم في أرض بيزنطة .

وعقد الخليفة المعتمم المعزم على التقدم نحو القسطنطينية ، وتحقيق حلم المسلمين القديم في الاستيلاء عليها ، ولكنه اضطر الى العودة الى بلاد الشام عندما وردت اليه اخبار الفتن . وانشغل العباسيون في أمورهم الداخلية . أما الامبراطور ثيوفيل فقد فقد بعد استيلاء المسلمين على عمورية كل أمل في مقاومة الخطر الاسلامي ، فاتجه نحو الغرب طالبا المساعدة . فظهر سفراؤه في بلاط مدينة البندقية وفي بلاط لويس التقي ملك الفرنجة وفي بلاط الأمير الأموي في الأندلس . وقابل حكام الغرب سفراء بيزنطة بكل ود وترحاب ،

(٨٤) انظر الخبر عن فتح عمورية في الطبري ، ج ٩ ، ص ٥٧ - ٧١ ، وجاء في قصيدة أبي تمام التي مدح فيها امير المؤمنين المعتمم بالله وذكر فتح

عمورية :

السيف اصبح انبياء من الكتب	في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصفائح في	متونهن جلاء الشك والريب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت	عنك المنى حفلا معسولة الطاب
ابقيت جد بني الاسلام في سعد	والشركين ودار الشرك في صعب
وختم ابو تمام قصيدته بقوله :	
ابقت بني الاصفر المصفر كلهم	صفر الوجوه وجلت لوجه العرب
انظر ديوان أبي تمام (ط - بيروت ١٨٨٩ م) ، ص ١٥ - ١٦ .	

ولكنهم لم يقدموا للامبراطور ثيوفيل أية مساعدة فعلية • وفي السنوات الأخيرة من حكم ثيوفيل وخلال حكم الامبراطور ميخائيل الثالث حال تدهور الأحوال الداخلية في الخلافة العباسية دون قيام المسلمين بعمليات عسكرية كبيرة ضد الدولة البيزنطية • كما لم يحاول البيزنطيون غزو البلاد الإسلامية نظرا لارتباك أوضاع الدولة البيزنطية بعد وفاة ثيوفيل (٨٥) •

وانتهز المسلمون في شمال افريقية والأندلس مشاكل بيزنطة الداخلية وهددوا جميع الممتلكات البيزنطية في البحر المتوسط • ففي أوائل القرن التاسع الميلادي وفي عهد نقفور الأول (٨٠٢ — ٨١١ م) ساعد المسلمون في شمال افريقية الصقالبة في البيلبونيز في ثورتهم ضد الدولة البيزنطية ، وساعدوهم في حصار مدينة بتراس Patras مما يدل على حرص المسلمين على إعادة سياحتهم البحرية (٨٦) •

وفي عهد ميخائيل الثاني فقد البيزنطيون جزيرة كريت ذات الأهمية الاستراتيجية والتجارية للدولة البيزنطية • وغزوات المسلمين لجزيرة اكريطس (كريت) ترجع الى القرن الأول الهجري / السابع الميلادي • فقد جرت المحاولة الإسلامية الأولى للاستيلاء على هذه الجزيرة في عام ٥٤ هـ / ٦٧٤ م في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، وقام بها القائد جنادة بن أبي أمية الأزدي ، غير أن هذه المحاولة فشلت • وحدثت المحاولة الإسلامية الثانية في عصر الخليفة الأموي الوليد ابن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ / ٧٠٥ — ٧١٥ م) • وتمكن المسلمون في هذه المحاولة من فتح بعض أجزاء الجزيرة ثم انصرفوا عنها • وتمت المحاولة الثالثة في خلافة هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ / ٧٨٦ — ٨٠٩ م) الذي أرسل أسطولا تمكن من فتح بعض أقاليم الجزيرة ، غير أن

Vasiliev, Byz. empire., I, pp. 276 — 277.

(٨٥)

Ibid. , I, p. 278.

(٨٦)

البيزنطيين استعادوا هذه الأماكن من جديد (٨٧) . ولم تخضع كريت
للسيادة الإسلامية الا في القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى
عندما فتحها الربضيون سكان حى الريض (ضاحية قرطبة الجنوبية
ببلاد الأندلس) . فقد وثب الربضيون سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٨ م على الأمير
الأموى الحكم بن هشام . وأجج من أوار تلك الثورة زعماء الفقهاء الذين
حنقوا على الخليفة الحكم اغراقه فى تناول الخمر وحبه للصيد ، واتخاذ
حرسا له ممن لا يعرفون اللغة العربية . وما ان تم للأمير الأموى قمع
هذه الفتنة ، حتى امر بطرد سكان الريض من الأندلس . فتوجه فريق
منهم الى مدينة الاسكندرية ووصلوها فى الوقت الذى اشتدت فيه فتنة
الأمين والمأمون فناهضوا سلطان الخلافة العباسية . ولما آل الأمن
للمأمون أرسل عبد الله بن طاهر واليا على مصر فدخلها فى
سنة ٢١١ هـ / ٨٢٦ م ، ثم اتجه الى الاسكندرية التى اعتصم بها
الربضيون فحاصرهم فى السنة التالية (٢١٢ هـ / ٨٢٧ م) لمدة أسبوعين
ثم أجابهم الى الصالح بشرط خروجهم من الاسكندرية الى حيث أرادوا ،
وأن لا يزاوا بلدا تابعا للخلافة العباسية . فتوجه الأندلسيون الى
جزيرة كريت فى نفس السنة (٢١٢ هـ / ٨٢٧ م) تحت قيادة زعيمهم
أبو حفص عمر بن عيسى المبلوطى الذى عرف بالأقريطشى فيما بعد ،
وأشارت اليه المصادر البيزنطية باسم أبو كابسو Apucapso . ونزل
المسلمون على الشاطئ الشمالى للجزيرة ولم يلقوا مقاومة تذكر . ويرجع
ذلك الى بغض سكان كريت للحكم البيزنطى خصوصا لاستعماله القسوة
والبطش ، فى الحركة الملائقونية وما أدت اليه فتنة توماس الصقلبى من
خراب ولايات الدولة البيزنطية وتدهور أحوال البحرية البيزنطية .
واستقر المسلمون أولا غرب خليج سودا Suda حيث شيدوا لهم

(٨٧) اسمت محمود غنيم ، العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية
وجزيرة كريت الإسلامية (٨٢٧ — ٩٦١ م / ٢١٢ — ٣٥٠ هـ) ، رسالة
تكمروا لم ننشر ، كلية الاداب جامعة الاسكندرية ١٩٧٣ م ص ١٢ — ٢٨ .

حصنا أحاطوه بخندق يحميهم شر هجوم بيزنطى مفاجئ . غير أن أحد
رهبان جزيرة كوبيت دلهم على مكان آخر أكثر ملاءمة وصلاحية في الجهة
الشرقية من الجزيرة ، فأسسوا هناك عاصمة أقاموا بها حصنا وأحاطوها
بخندق كذلك . ومن هذا الخندق أخذت العاصمة اسمها الذى تعرف به
حتى اليوم وهو (Chandia) Candia (٨٨) .

وكان استيلاء المسلمين على كريت من الأسباب التى دفعت
الامبراطور ثيوفيل الى ارسال سفارة بيزنطية الى الأمير عبد الرحمن
الأوسط فى الأندلس عام ٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م . ولخص المقرئ فى (نفع
الطيب من غصن الأندلس الرطيب) هدف وأسباب هذه السفارة ،
اذ طلب الامبراطور البيزنطى من الأمير الأندلسى « مواصلته ويرغبه فى
ملك سلفه بالشرق ، من أجل ما ضيق به المأمون والمعتمصم ، حتى انه
ذكرهما له فى كتابه له ، وعبر عنهما بأبنى مراتل وماردة » وهما أمتان
للمرشيد الأولى مراتل فارسية أم المأمون والثانية ماردة تركية وهى أم
المعتمصم . وشكى ثيوفيل من فعال المأمون والمعتمصم وعبثهما فى
أراضيه ، وطلب اليه عقد أواصر المودة والصداقة بينهما ، وتنبأ له بقرب
انهيار الدولة العباسية وزوال سلطانها . وطلب ثيوفيل مساعدة

(٨٨) لتظر ابراهيم احمد العدوى ، اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين
فى القرن التاسع الميلادى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد
الثانى (١٩٥٠ م) ، ص ٥٣ — ٦٨ ، اسمت غنيم ، العلاقات السياسية بين
الدولة البيزنطية وجزيرة كريت الإسلامية ، ص ١٢ — ٢٨ ، حسين مؤنس ،
المسلمون فى حوض البحر المتوسط ، ص ١٣٧ — ١٣٨ ، ، ابراهيم على
طرخان ، المسلمون فى أوروبا ، ص ٨٤ — ٨٦ ، ارشيبالد لويس ، القوى
البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ص ١٦٤ — ١٦٩ ، مازيليف ،
العرب والروم ، ص ٥٢ — ٦١ ، صابر دياب ، سياسة الدولة الإسلامية ،
ص ٥٩ — ٦٧ ،

Fahmy, Muslim Sea-Power, pp. 128 — 38 ; Vasiliev, Byz.
empire, I, pp. 278 — 279.

عبد الرحمن الأوسط في استخلاص جزيرة كريت التي استولى عليها
البرصيون الأندلسيون وأن يردها إلى الروم . وقد استقبل الأمير
عبد الرحمن الأوسط سفير ثيوفيل مرحبا ، وأرسل إلى القسطنطينية
رسولين يحملان هدية ورسالة مطولة وهما المنجم يحيى بن الحكم الملقب
بالغزال (١٥٤ — ٢٥٠ هـ / ٧٧٠ — ٨٦٤ م) الذي كان مشهورا بالشعر
والحكمة ، والثاني يحيى بن حبيب الملقب بصاحب المنقولة ، ولعله اخترع
نوعا من الساعات . ولم يتورط عبد الرحمن الأوسط في محالفة الدولة
البيزنطية أو مساعدتها على استرداد كريت ، وأثر التقاهم والود على
التحالف الرسمي . وقد ترك الغزال وصفا شيقا لما رآه في القسطنطينية
في قصيدة من قصائده الثمسمية (٨٩) . وأصبحت كريت قاعدة هامة

(٨٩) انظر الحري ، فتح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٤٦ — ٣٤٧ ، وقد نشر
ليفى بروفنسال Levi Provensal قصة هذه السفارة باللغة الفرنسية
ومعها نص الخلاب باللغة العربية :

Echange d'ambassades entre Cordove et Byzance
au IXe. Siècle, Byzantion, Vol. 12 (1937), pp. 1 - 24.

وانظر أيضا بروفنسال : الاسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة
السيد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، ص ٩١ — ١٨٨ ، وكذلك
ابراهيم على طرخان ، المسلمون في أوروبا ، ص ٢٧٥ — ٢٧٨ ، محمد
عبد الله عتق ، دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الأول — القسم الأول ،
ص ٢٨٢ — ٢٨٣ ، عبد الحميد ملحد ، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور
الوسطى ، ص ٧٨ — ٧٩ . وتجدر الإشارة إلى أن الغزال قام بسفارة أخرى
من قبل عبد الرحمن الثاني إلى الفيكنج (المجوس عبدة النار) ، ولتصليح
هذه السفارة الثانية انظر :

El-Hajji (Abdurrahman), Andalusian Diplomatic Relations
with Western Europe during the Umayyad period,
Beirut, 1970, pp. 166 — 203.

هذا ويرى بعض الباحثين أن سفارة الغزال إلى المجوس من ضرب
الخيال وأن هناك اضطرابا وخطأ بين سفارة الغزال إلى البيزنطيين وسفارته
إلى المجوس ، انظر : بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، الترجمة
العربية ص ١١٢ — ١١٤ ، عبد الحميد ملحد ، العلاقات بين الشرق والغرب ،
ص ٧٩ — ٨٠ .

للمعاملات الحربية الاسلامية في بحر ايجيه وشواطئه لحدّة تزيد على مائة وثلاثين عاما حتى استردها القائد البيزنطي نفقور فوقاس سنة ٩٦١ م (٩٠) .

وفي المغرب أيضا أخذت دولة الأغلبية تشكل خطرا على الدولة البيزنطية . ودولة بنى الأغلب من أهم الدويلات الاسلامية المستقلة التي قامت في المغرب الأدنى ، أسسها ابراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي الذي ثبته الخليفة العباسي هارون الرشيد في ولاية افريقية في سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م . واتخذ الأمير ابراهيم بن الأغلب مدينة

(١٠٧) عن استرداد الدولة البيزنطية لجزيرة كريت في القرن العاشر الميلادي ، انظر اسمت محمود غنيم ، العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية وجزيرة كريت الاسلامية ، ص ٢٠٢ — ٢٤٨ ، العريضي ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٧٧ — ٣٨٤ ، ويلاحظ أن الدولة البيزنطية مهتة للاستيلاء على جزيرة كريت بان حاولت التقرب الى الفاطميين في شمال افريقية ، ففي سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ — ٩٥٨ م أي في عهد الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيرجنتيوس ، وصل سفير بيزنطي الى بلاط الخليفة الفاطمي المعز لدين الله في مدينة المنصورة يسأل الهدنة من الخليفة . وحمل الرسول معه هدايا والجزية التي اتفق الإمبراطور البيزنطي أن يدفعها سنويا عن أرض طورية (كالابريا Calabria الطرف الجنوبي لجنوب إيطاليا) . وطلب الإمبراطور على لسان رسوله أن يكف الخليفة الفاطمي « عن حربه ويسال الجوأدة (الهدنة) وبعث بعدد كثير من اسارى أهل المشرق » ، انظر تفاصيل هذه السفارة في

Stern : "An embassy of the Byzantine Emperor to the Fatimid Caliph al - Mu 'izz" *Byzantion*, Vol. XX (1950), p. 209 — 258.

ويلاحظ ان تلك السفارة لم تمنع الخليفة الفاطمي من التحرك والعمل أثناء محاولة البيزنطيين الاستيلاء على كريت ، فهناك خطاب مؤرخ في ربيع الثاني ٣٥٠ هـ / مايو ٩٦١ م أرسله المعز لدين الله الفاطمي الى ابي الحسن على الأخشيدي في مصر بخصوص طلب مساعدات المسلمين في كريت ، وهناك خطاب تهديد آخر أرسله المعز للإمبراطور البيزنطي رومانوس الثاني بخصوص استيلائهم على كريت ، لتفاصيل ذلك انظر :

Canard, M., 'les sources arabes de l'histoire Byzantine aux confins des Xe et XIe siècles, in *Revue des études Byzantines*, Vol. 19 (1961), pp. 285 — 292.

القيروان عاصمة لدولته ، وكون قوة بحرية كبيرة ساعدت خلفاءه في غزو جزيرة صقلية ، وفي تحقيق سيادة بحرية اسلامية في غرب البحر المتوسط (٩١) .

أما عن جزيرة صقلية (٩٢) فقد أصبحت هذه الجزيرة منذ القرنين السابع والثامن الميلاديين موضع اغارات المسلمين . وكان أول من غزاها معاوية بن حديج الكندي الذي غزا جزيرة صقلية أيام معاوية بن أبي سفيان (٩٣) . وفي سنة ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م غزا عبد الله بن حبيب جزيرة صقلية وغنم غنائم كثيرة . واضطر البيزنطيون الى تعمير صقلية من جميع الجهات وشيدوا الحصون والمعاقل ، وصاروا يخرجون في كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها ، وربما حادفوا تجارها من المسلمين فيأخذونهم (٩٤) . ووافقت الفرصة للأغالبة في عهد زيادة الله الأول (٢١٠ - ٢٣٣ هـ / ٨١٧ - ٨٣٨ م) أعظم أمراء بني الأغلب لبيط نفوذهم على جزيرة صقلية . ففي نهاية حكم الامبراطور ميخائيل الثاني ثار شخص يسمى يوفيميوس Iuphemius (فيهي) ضد الامبراطور واستولى على سرقوسة وأعلن نفسه ملكا على صقلية . وعندما تأكد يوفيميوس من أن قواته عاجزة عن مواجهة قوات الدولة البيزنطية طلب مساعدة الأغالبة المسلمين . وانتهر زيادة الله الأول تلك الفرصة لعدة عوامل . فقد قصد المسلمون من فتح جزيرة صقلية القضاء على غارات الروم على الساحل الافريقي واستئناس حركة الفتوحات الاسلامية في أراضي البيزنطيين . وقصد الأغالبة أيضا بعث

(٩١) انظر محمود اسماعيل عبد الرزاق ، الأغالبة (١٨٤ - ٢٩٦ هـ) سياستهم الخارجية ، ص ١٩ - ٢٩ .
(٩٢) عن جزيرة صقلية في كتابات الجغرافيين والرحالة العرب ، انظر أمري ، المكتبة العربية الصقلية ، ص ١ - ١٦٠ .
(٩٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، القسم الاول ، ص ٢٧٨ ، أمري ، المكتبة العربية الصقلية ، ص ١٦١ .
(٩٤) انظر أمري ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٠ .

حركة الجهاد في سبيل الله بعد أن تفقه أهل افريقية في الدين الاسلامي وأصبح منهم العلماء والفقهاء ، وكان الخروج لمداخلة البيزنطيين في صقلية أقصى ما يتمناه العابدون والصالحون . ومما يدل على ذلك أن زيادة الله اختار القاضي الفقيه أسد بن الفرات مصنف الأسدية في الفقه على مذهب مالك قائدا للحملة ، مما يعبر عن روح الجهاد التي سيطرت على قلوب الفاتحين المسلمين (٩٥) .

وفي ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ / يونية ٨٢٧ م احتفل زيادة الله بخروج المسلمين تحت قيادة أسد بن الفرات لغزو صقلية احتفالا عظيما . وأقلع أسطول الأغلبية في حوالى مائة مركب . ووصل المسلمون الى صقلية عند بلدة مازر Mazara وهزموا البيزنطيين هزيمة نكراء . وفر بلاطه Plato منافس فيمى بصقلية الى قلورية حيث قتل بها ، كما قتل مناصرو الامبراطور البيزنطى . وزحف المسلمون الى مدينة بالرمه Palermo فحاصروها محكما وافتتحوها بالأمان في رجب سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م . وكان فتحها خطوة كبيرة أدت الى استيلاء المسلمين على معظم مدن الجزيرة بما في ذلك مسينه Messina سنة ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م وقصرانه سنة ٢٢٢ / ٨٣٦ . وأصبح الاتصال بين المسلمين الفاتحين في صقلية وافريقية أمرا ميسورا ، كما أصبح من الامكان نقل المؤن والامدادات الى سائر أنحاء الجزيرة بعيدا عن الأسطول البيزنطى . ولم يحاول الامبراطور البيزنطى ثيوفيل استرداد بالرمه اذ يبدو أنه كان مشغولا بمواجهة حملات الخليفة الأمون على أرمينية ، مما سهل للأغلبية مواصلة نشاطهم وفتوحاتهم في صقلية . وفي نهاية عصر الأسرة العنصرية ،

(٩٥) انظر السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ (العصر الاسلامى) ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ ، احمد توفيق الحنى ، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، ص ٥٦ .

سقطت كل مدن صقلية ما عدا سيراكوز (٩٦) . وأنشأ المسلمون في صقلية حضارة اسلامية رائعة لا تزال آثارها باقية حتى اليوم في هيئة قصور وبقايا مساجد وحصون . وأصبحت بالرمه وغيرها من المدن مراكز هامة للحضارة الاسلامية ومعبرا من معابر الحضارة الاسلامية الى أوروبا (٩٧) .

ومن صقلية تقدم المسلمون الى الممتلكات البيزنطية في جنوب إيطاليا . وظهر المسلمون في إيطاليا لأول مرة سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ م عندما استعان بهم أهل نابلى ضد دوق بنفينتو Benevento . ونجح المسلمون في عقد معاهدة صداقة وتجارة مع نابلى (٩٨) . ثم أغار المسلمون على نهاية الطرف الجنوبي لجنوب إيطاليا كالبريا — كالابريا Calabria التي أطلق عليها المسلمون اسم قلورية ، وهي التي اشتملت على الممتلكات البيزنطية في جنوب إيطاليا حول خليج تارنتوم

(٩٦) عن فتح الأغلبية لجزيرة صقلية ، انظر ، الجباغ ، معالم الايمان في معرفة أهل القرون ، ج ٢ ، ص ٢١ — ٢٦ (ترجمة أسد بن الفرات) ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٠٢ — ١٠٦ ، أحمد توفيق الحنّى ، المسلمون في جزيرة صقلية ، ص ٥٦ — ٧١ ، أمارى — المكتبة العربية الصقلية ، ص ٢٢١ — ٢٣٤ ، السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ العصر الاسلامى ، ص ٣٨٦ — ٣٩٢ ، طرخان ، المسلمون في أوروبا ، ص ٩١ — ٩٢ ، حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٨٧ — ٩١ ، احسان عباس ، العرب في صقلية ، ص ٣٢ — ٣٩ ، محمود اسماعيل ، الأغلبية ، ص ١٨٦ — ١٩٧ ، فزليف ، العرب والروم ، ص ٦٢ — ٨٤ ، أرشيبالد لوليس ، القوى البحرية والتجارية ، ص ١٧٠ .

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 279 .

Setton, A history of the Crusades, I, p. 43.

(٩٧) عن بعض مظاهر الفنون الاسلامية في صقلية انظر ، عبد النعم رسلان ، الحضارة الاسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا ، ط . جدة . ١٩٨٠ ، وعن صقلية كمعبر من معابر الحضارة الاسلامية الى أوروبا انظر سعيد عاشور ، الحنية الاسلامية واثرها في الحضارة الأوروبية ، ص ٥٣ — ٥٥ . (٩٨) أحمد توفيق الحنّى ، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ، ص ٧١ — ٧٢ ، Setton, op. Cit., Vol. I, P. 45.

Tarentum . وخرّبوا مدينة كابوا سنة ٢٢٥ هـ / ٨٣٩ م . وتلى ذلك استيلاء المسلمين على تارنتوم في عهد الامبراطور ثيوفيل مما شكل تهديدا خطيرا ومباشرا للأقاليم البيزنطية في جنوب إيطاليا . وخشى البنادقة على تجارتهم فأسرع أسطولهم لمساعدة الامبراطور البيزنطي ، ولقى أسطولهم هزيمة كبيرة في خليج تارنتوم . واستولى المسلمون على بارى Bari ، وهو ميناء هام حصين على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة الإيطالية عند مدخل بحر الأدرياتيک . ومن بارى توسع المسلمون في فتوحاتهم الى أقاليم إيطاليا الداخلية . وظهر المسلمون عند مصب نهر التيرير وهددوا مدينة روما ، وأغاروا عليها سنة ٢٣٩ هـ محاولين فتحها ثم غادروها . وهكذا فشلت سياسة بيزنطة في الغرب في عصر الأسرة الممورية ، وفقدت كريت وصقلية . حقيقة لقد استرد البيزنطيون كريت سنة ٩٦١ م الا أن البيزنطيين فقدوا صقلية الى الأبد ، واستولى المسلمون على مواقع هامة في جنوب إيطاليا (٩٩) .

أما بالنسبة للعلاقات البيزنطية البلغارية خلال تلك الفترة من القرن التاسع الميلادي ، فقد أصبحت بلغاريا في بداية ذلك القرن دولة قوية عندما شغل عرش البلغار الملك كروم Krum وهو محارب شجاع واداري حكيم . وظهر عداؤه للدولة البيزنطية عندما حاول أن يضم الى جانبه الصقالبة في مقدونيا و تساليا Thessaly . وعندما تبين للامبراطور البيزنطي نقفور خطورة تلك المحاولة نقل كثيرا من المستوطنين من أنحاء الامبراطورية الى كل من الاقليمين . وكان هدف الامبراطور منع خطر التحالف المنتظر بين البلغار والصقالبة في مقدونيا و تساليا . وفي سنة ٨١١ م قاد نقفور الأول حملة كبيرة ضد كروم ، واستطاع البلغار الايقاع به في كمين . وهزم نقفور الأول وجيشه وقتل في المعركة وجرح ابنه وتشتت جيشه . ومنذ تلك المعركة التي جرت

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 279 — 280

(٩٩)

انظر ايضا ابراهيم طرخان ، المسلمون في أوروبا ، ص ٢١٢ — ٢١٧ .

قرب أدرنه سنة ٣٧٨ م وقتل فيها الامبراطور فالنس أمام القوط ، لم يحدث أن قتل أحد من الأباطرة البيزنطيين في معركة ضد البرابرة سوى نقفور الأول . ويقال ان الملك البلغارى كروم صنع من جمجمة الامبراطور نقفور كأسا وأرغم نبلاء البلغار على الشرب منها . وبعد سنتين أى في سنة ٨١٣ م هزم كروم أيضا الامبراطور ميخائيل الأول الذى تقدم على رأس جيش كبير لمحاربة البلغار ، وفر الجيش البيزنطى بعد هزيمته هاربا الى أسوار القسطنطينية . وفي نفس السنة (٨١٣م) عندما أصبح ليو الخامس الأرمنى امبراطورا قام ملك البلغار كروم بهجوم على القسطنطينية ، وحاصر العاصمة التى تخلفت من خطره بموته المفاجيء أثناء الحصار ، وبالتالى أراح الدولة البيزنطية — الى حين — من خطر البلغار (١٠٠) .

وخلف كروم على عرش البلغار الملك أمورتاج (أمورتاك) Omurtag الذى يعتبر من أشهر رجال بلغاريا في تاريخها ، ووصلت بلغاريا في عهده الى قمة مجدها . وعقد أمورتاج مع الامبراطور ليو الخامس معاهدة سلام لمدة ثلاثين عاما انتهت مشكلة الدفاع عن الحدود بين الدولتين في اقليم تراقيا . واتاحت هذه المعاهدة للامبراطور ليو الخامس الفرصة للقيام بتعمير بعض المدن التى أصابها الخراب في تراقيا ومقدونية ، ولقامة سور جديد قوى حول القسطنطينية للدفاع عنها خوفا من خطر بلغارى في المستقبل . وفي أوائل الخمسينات من القرن التاسع انتقل عرش البلغار الى بوريس Boris الذى حكم بلغاريا من سنة ٨٥٢ م الى سنة ٨٨٩ م وارتبط اسمه باعتناق البلغار المسيحية . والحقيقة أن المسيحية دخلت بلغاريا قبل عصر بوريس عن طريق الأسرى البيزنطيين أثناء المعارك التى جرت بين البلغار والبيزنطيين . وارتبط اعتناق بوريس للمسيحية بالوضع السياسى في

بلغاريا الذى دفع بوريس للبحث عن علاقات أكثر المتصافا ببيزنطة .
وقدم رجال الدين البيزنطيون اليونانيون الى بلغاريا ، وعملوا على نشر
المسيحية بين البلغار . وحوالى سنة ٨٦٤ م تم تخفيض بوريس واتخذ
اسم ميخائيل وانتشرت المسيحية بين البلغار ، وأدى ذلك الى زيادة
نفوذ وهيبة الدولة البيزنطية في البلقان . وأدرك بوريس عدم
استعداد بيزنطة لمنح بلغاريا كنيسة مستقلة ، وخاف أن تصبح مملكة
البلغار تابعة من الناحية السياسية للدولة البيزنطية . لهذا قرر إقامة
تحالف دينى مع روما ، وأرسل وفدا الى البابا نيقولا الأول
Nicholas I يسأله أن يرسل رجال الدين اللاتين الى بلغاريا .
وفرح البابا لهذا الطلب ، وقدم الأساقفة والقسس اللاتين الى بلغاريا
وتم طرد رجال الدين من اليونانيين . وكان انتصار البابا وكنيسة روما
قصير العمر لأن بلغاريا ارتدت بعد ذلك الى الكنيسة اليونانية ، وحدث
هذا في زمن الأسرة المقدونية ، وهى مرحلة جديدة من مراحل تاريخ
الدولة البيزنطية (١٠١) .

الفصل الرابع

بداية النهاية للدولة البيزنطية

(١٠٥٧ - ١٢٠٤ م)

لقرون طويلة قاومت الدولة البيزنطية الأخطار التي واجهتها سواء من أمم وشعوب وقبائل متنوعة مثل الفرس والمسلمون والبلغار والصقالبة (السلاف) وغيرهم ، أو نتيجة حركات دينية مناوئة مثل مذهب الطبيعة أو الحركة اللايقونية • غير أن الدولة البيزنطية كانت تمتلك في كيانها وتنظيماتها ومواردها قوة التغلب على هذه الأخطار أحيانا أو مهادنتها أحيانا أخرى ، وحقق لها ذلك الاستمرار ، ومنعها من السقوط والانحيار • واعتمدت الدولة البيزنطية على ما تمتعت به من امكانيات وموارد ضخمة ، وموقع استراتيجي هام جعلها ذات أهمية تجارية كبيرة ، وأباطرة وقادة أكفاء استطاعوا بأنفسهم وجيوشهم مواجهة الأخطار ، وعلماء ومثقفين وكتاب قدموا روائع الفكر والثقافة اليونانية •

وإذا كانت الدولة البيزنطية سقطت باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ، إلا أن انهيار وسقوط بيزنطة لم يتم في يوم وليلة ، فالحقيقة أن هناك فترة امتدت حوالي قرن ونصف من الزمان (١٠٥٧ - ١٢٠٤ م) كانت فترة حرجية في تاريخ الدولة البيزنطية ، بدأ فيها موكب الغروب ليسجل بداية النهاية للدولة البيزنطية •

والغريب أن الدولة البيزنطية عاشت قبل بداية هذه الفترة الحرجية من تاريخها عصرا ذهبيا • اذ اتفق المؤرخون على أن الفترة الواقعة فيما بين سنتي ٨٦٧ و ١٠٢٥ م تعتبر أزهى فترة في التاريخ

السياسي والحضاري البيزنطي حتى أطلقوا عليها العصر الذهبي للدولة البيزنطية . وباختصار كان القرن العاشر الميلادي أزهى قرون الدولة البيزنطية إذ كتب أباطرة ذلك القرن مثل باسيل الأول ونقفور فوقاس وحنا تريمسكس فصلا رائعا في صفحات الحوادث العسكرية البيزنطية . وأعاد أباطرة وقادة ذلك القرن نفوذ وسيطرة بيزنطة على الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، ومدوا حدود الدولة البيزنطية شرقا إلى إقليم الجزيرة في شمال العراق وأرمينية ، وأرسلوا حملات متتالية إلى أطراف آسيا الصغرى . فالفقائد الكفاء حنا كوركواس John Curcuas الذي تولى شؤون آسيا الصغرى في سنة ٩٢٣ م ، دفع المسلمين لمدة العشرين سنة التالية إلى ما وراء أطراف بيزنطة ، واسترد مدينة ملطية وحاصر الرها . وفي سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م استرد القائد نقفور فوقاس Nicephorus Phocas جزيرة كريت من المسلمين . وعندما أصبح فوقاس امبراطورا سنة ٩٦٣ م استولى في حملاته الحربية على المصيصة وطرسوس ، واستولت قواته على جزيرة قبرص سنة ٩٦٥ م . وقضى البيزنطيون باستردادهم كريت وقبرص على اغارات العرب البحرية على شواطئ بحر ايجه والاناضول . وظهرت قوة البيزنطيين مرة أخرى كقوة بحرية كبيرة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وتوج الامبراطور نقفور الثاني فوقاس انتصاراته بالاستيلاء على أنطاكية سنة ٩٦٩ م فأعاد ذلك الكرسي البطريركي والمركز التجاري الهام إلى الدولة البيزنطية بعد خضوعها للمسلمين لعدة قرون . وفرض البيزنطيون سيادتهم على امارة حلب طبقا لاتفاقية صفر ٣٥٩ هـ / ديسمبر ٩٦٩ — يناير ٩٧٠ م . ويقال أن نقفور فوقاس كان عازما على التوغل في بلاد الشام وفتح بيت المقدس حتى اعتبر بعض الباحثين هذه المحاولات ارمصاصا للحروب الصليبية . وحقق القائد حنا تريمسكس John Tzimisce — عندما أصبح امبراطورا — انتصارات كبيرة في

سنة ٩٧٥ م ، وخضعت له مدن دمشق وصيدا وبيروت ، هذا فضلا عن انتصارات بيزنطة في شماله شرق آسيا الصغرى (١) .

أما بالنسبة لخروب الدولة البيزنطية ضد البلغار ، فقد رجعت أولا كفة البلغار في عهد الخان البلغاري سيمون Symeon المتوفى سنة ٩٢٧ م . فقد أرغم سيمون الدولة البيزنطية على دفع ائونة سنوية ، وعندما تأخرت بيزنطة عن أدائها تقدم الخان البلغاري على رأس جيشه الى أسوار القسطنطينية ذاتها . ثم اضطرت العلاقات البيزنطية — البلغارية من حين لآخر نظرا لانشغال البيزنطيين بحروبهم في الشرق ضد المسلمين . وفي سنة ٩٧١ م أرغمت الحوادث الامبراطور حنا تريمسكس على القيام بحملة حربية كبيرة استولت على عاصمة البلغار برسلاف Preslav . وعندما ثار البلغار وأسسوا مملكة قصيرة العمر برئاسة صمويل Samuel حاربهم الامبراطور باسيل الثاني وحقق انتصارات رائدة ضدهم في سنة ١٠١٤ م . وفي خلال بضع سنوات كانت شبه جزيرة البلقان اما في أيدي البيزنطيين أو يدين سكانها بالولاء لهم (٢) .

وأدت الانتصارات الحربية للدولة البيزنطية في القرن العاشر الى رخاء اقتصادي شمل أنحاء الامبراطورية . فقد اتسعت حدود الدولة البيزنطية اتساعا لم تشاهده بيزنطة منذ أيام الامبراطور جستنيان الأول في القرن السادس . وامتدت حدود الدولة من الشام الى الدانوب ،

(١) من التوسيع البيزنطي في الشرق في القرن العاشر ، انظر ،
Vryonis, Byzantium, pp. 86 — 88 ; Hussey, Byzantine
world, pp. 34 — 6 ; Walker, P., "The Crusade of John Tzimiskes in
the light of New Arabic evidence", Byzantium, Tome XLVII (1977),
pp. 301 - 27 ;

عمر كمال توفيق ، مقتدمات العدوان الصليبي ، الامبراطور يوحنا
تريمسكس وسياسته الشرقية ، ص ٦ — ٢٠ ، تقديم رافت عبد الحميد
لترجمة كمال هسي ، العالم البيزنطي ، ص ٤٧ — ٤٨ .
Vryonis, Byzantium, pp. 90 - 91 .

ومن أرمينية الى جنوب إيطاليا ، ودانت الأمم والشعوب المحيطة بالولاء
 لبيزنطة (٣) . وكان من نتائج الانتصارات العسكرية التي حققتها جيوش
 للدولة البيزنطية وعدم تعرض أقاليمها الشرقية لاغارات المسلمين خلال
 ذلك القرن ، قيام سكان الأقاليم بزراعة أراضيهم في سلام مما أدى
 الى زيادة الحاصلات الزراعية . وتم احياء المدن اليونانية -
 الرومانية . ونظرا لأن الدولة البيزنطية كانت تمتلك رصيذا من الخبرات
 الحرفية بالإضافة الى موارد الولايات ، فقد أضفى هذا على الصناعات
 البيزنطية الاتقان والجودة . وأشرفت الدولة عن طريق موظفيها
 المدنيين على الحرفيين وتنظيماتهم بواسطة هيئات حرفية . ونشأت
 النقابات الحرفية Guilds التي انتظم في كل منها عدد معين من
 الأعضاء . واستطاع كثير من أعضائها تكوين ثروات طائلة ، واحتلوا
 درجة اجتماعية عالية . وأشرفت هذه النقابات على انتاج المنتجات
 البيزنطية الفخمة مثل المنسوجات والمجوهرات الرائعة (٤) . ويشرح
 كتاب والى المدينة وهو المعروف في اليونانية باسم Eparchikon Biblion
 - الذي صنفه الامبراطور البيزنطي ليو السادس بين سنتي ٩١١ ، ٩١٢م
 واعتمد في تصنيفه على ما كان معروفا قبل عهده من قوانين وعرف
 وتقاليد - كيف نظمت الحكومة البيزنطية العلاقات بين عامة الناس
 وأرباب الحرف ، وسيطرت على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في
 البلاد ، فالزمت الابن بممارسة مهنة أبيه ، وجعلت أرباب الحرف
 والصناعات ينتظمون في نقابات خاضعة لسلطان الدولة . وكان والى
 المدينة Prefect of the city من هيئة كبار الموظفين ، وهو مسئول
 عن الاشراف على الأسواق وتعيين السكان بالقمع ، ومراقبة النقابات
 الكبيرة التي كانت تشمل تجار وغزالي الحرير وصناع

Charles Diehl, Byzantium, pp. 14 - 15.

(٣)

Vryonia, Byzantium, pp. 92 - 8

(٤) لتفاصيل ذلك انظر :

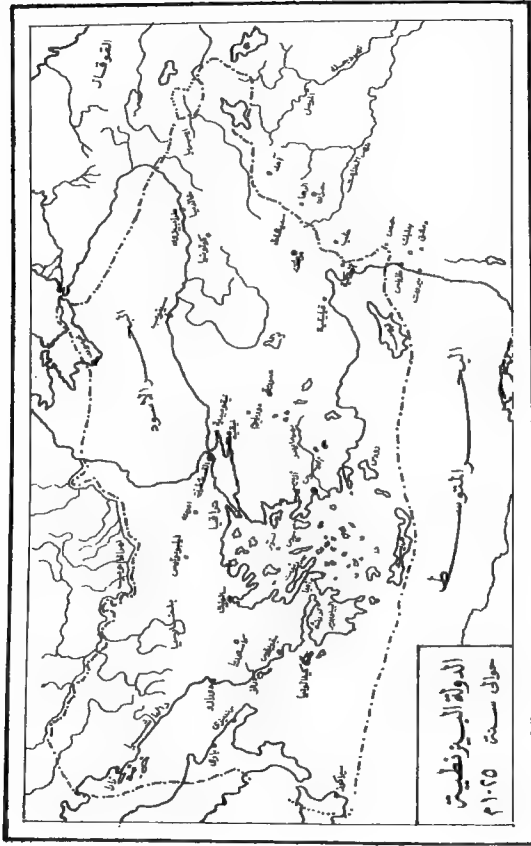
الأقمشة الحريرية والصباغين وتجار الجواهر والمشتغلين بالمرف
وتجار العطور والتوابل وصناع الشمع والصابون والجلود والأجرايين
والخبازين وغير ذلك (٥) . وساعد على ذلك أيضا وفرة المواد الخام
في أقاليم متعددة في الدولة البيزنطية . واستغلت المناجم المنتشرة في
أجزاء شتى من أنحاء الدولة في استخراج المعادن الأساسية وخاصة
الذهب الذي كان ذا أهمية كبيرة في صناعة النسيج والصباغة وبنج
الجلود وغير ذلك (٦) .

وأصبحت القسطنطينية في القرن العاشر أعظم مركز تجارى في
العالم المسيحي . وجذبت إليها التجار والمتاجر من أوروبا ومن بلاد
المسلمين والهند والصين . وازدهرت التجارة الداخلية في الدولة
البيزنطية ، إذ أصبحت كل مدينة مركزا تجاريا للمنطقة المجاورة لها ،
حيث باع المزارعون منتجاتهم الزراعية ، واشتروا منتجات الحرفيين
المحليين . وجذبت الأسواق المحلية التي كانت تقام عادة عند ضريح
أحد القديسين المحليين ، انتباه التجار البيزنطيين وغير البيزنطيين .
وفي الأسواق الكبرى كان تجار الشرق يبيعون العطور والتوابل ويشتررون
السجاد والأقمشة البيزنطية . ولما كن هؤلاء التجار قد سلكوا طرق

(٥) لمزيد من التفاصيل انظر الترجمة العربية لكتاب والى المدينة
للدكتور السيد الباز العرينى في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد ١٩ ،
الجزء الأول ، مايو ١٩٥٧ ، ص ١٢٥ — ١٨٧ .

(٦) عن استخراج الذهب في آسيا الصغرى وأهميته انظر :
Cahen, C. , "L'alun avant phocce" in *Revue d'histoire économique et
sociale*, Vol. Xii. (1963), pp. 433 ff.; Cahen, Pre - Ottoman Turkey, pp.
160 - 1 , 318 - 19;

وعن تأثير ذلك على استخراج الذهب في مصر العصور الوسطى انظر ،
Rabie, H., *The Financial System of Egypt*. A. H. 564 - 741 / A. D.
1169 - 1341, London, 1972, P. 84.



الدولة البيزنطية

حوالي سنة ١٠٢٥ م

آسيا الصغرى على طول الطريق الى القسطنطينية ، فقد استفادت المدن البيزنطية التى مروا بها من هذه التجارة الدولية والمحلية (٧) .

اما من الناحية الدينية فقد حققت كنيسة القسطنطينية فى القرن العاشر اعظم انتصار لها باعتراف الروس فى كيف Kiev المسيحية فى عهد الامبراطور باسيل الثانى . فقد تلقى الامبراطور البيزنطى مساعدات حربية هامة من الأمير الروسى فلاديمير Vladimir للقضاء على ثورة بارداس فوقاس فى آسيا الصغرى . وود باسيل الثانى الأمير الروسى بأن يزوجه أخته حنه sury آملان أن يعتنق فلاديمير وشعبه الديانة المسيحية . وتردد الامبراطور البيزنطى — رغم مساعدة الروس له حتى انتصر على ثورات آسيا الصغرى — فى أن تصبح ابنته زوجة لحاكم بربرى . لذلك أغار فلاديمير على الممتلكات البيزنطية فى كرميا Crimea ، غير أن ذلك أدى من ناحية أخرى الى خضوع الروس لتأثير بيزنطى قوى . وكان اعتناق الروس للمسيحية نتيجة نشاط الدعاة البيزنطيين ، وحمل الروس بدورهم المسيحية عبر سيبيريا الى آلاسكا وغيرها (٨) .

وصاحب هذا التقدم فى الزراعة والصناعة والتجارة ونشر المسيحية تقدما فى الحياة الفكرية فى الدولة البيزنطية . فبعد أن انتشرت الأيقونات فى القرن التاسع الميلادى أعيد تأسيس جامعة القسطنطينية التى سبق وأن قامت فى القرن الخامس (٩) . وقد قام بهذه المهمة القيصر بارداس Bardas خال الامبراطور ميخائيل الثالث ومدير

Vryonis, Byzantium, p. ٩8:

(٧)

Ibid. , p. ٩٩ ;

(٨)

وانظر عن اعتناق الروس للمسيحية كما ورد فى المصادر العربية :
Bye, "Remarks on some new Islamic sources of the Rus," Byzantion,
Vol. XVIII (١٩٤٨) , p. ١٢٠.

(٩) انظر ما سبق ص ٤٩ — ٥٠ .

دولته (١٠) • وقد عين بارداس الفيلسوف ليو 1٥٥ رئيسا لهذه الجامعة • وواجب حركه احياء التراث الثقافى فى البلاط البيزنطى حركه الترجمة الكبرى للمؤلفات اليونانية الى اللغة العربية فى بلاط الخليفة العباسى المأمون فى بغداد • وتشير احدى الروايات التاريخية الى ان ترقية ليو الى وظيفة رئيس اساقفة سالونيك ثم بعد ذلك رئيسا لجامعة القسطنطينية كان مرجعه عرضا مغريا من جانب الخليفة المسلم مقابل خدمات ذلك العالم الكبير • وأشار أحد المعاصرين الى أن الامبراطور ثيوفيل اعتبر العلم « سرا يجب أن يحافظ عليه ، مثل صناعة النار الاغريقية ، ظنا أنه من سوء السياسة تثقيف البرابرة » (١١) •

غير أنه منذ سنة ١٠٢٥ م أى بموت الامبراطور باسيل الثانى دخلت الدولة البيزنطية فترة حرجة من تاريخها كانت بداية النهاية لتاريخ هذه الدولة • والحقيقة أن القرن الحادى عشر الميلادى كان نقطة تحول كبير فى تاريخ العصور الوسطى اذ بدأت فى هذا القرن تيارات جديدة تحل محل التيارات القديمة التى بدأت تتلاشى • ففى هذا القرن أقام النورمان دولة لهم فى جنوب ايطاليا ، وقدم البابا جريجورى السابع Gregory VII. روحا جديدة الى الكنيسة الغربية ، وفى هذا القرن أيضا بدأت الحركة الصليبية • وشاهد القرن الحادى عشر تغييرات كثيرة فى الدولة البيزنطية أثرت فيها وأدت الى انهيارها وعزل العالم البيزنطى عن ممالك أوروبا الغربية ، وانتقل النشاط التجارى من البيزنطيين اليونانيين الى المدن التجارية الايطالية (١٢) •

أما فى الدولة البيزنطية فقد تدهورت بها الأوضاع السياسية

(١٠) انظر ما سبق ص ١٣٦ حاشية ٦٧ •

Vryonis, Byzantium, p. 110.

(١١)

Bury, J. B. ' Roman Emperors from Basil II to Isaac (١٢)

Komnenos' . English Historical Review, Volume IV (1889) p. 41.

منذ وفاة الامبراطور باسيل الثانى سنة ١٠٢٥ • ودخلت بيزنطة في فترة من الفوضى والاضطراب كانت بداية لانحيار عام للدولة في تنظيماتها العسكرية ونظمها الاجتماعية والاقتصادية • فبعد وفاة باسيل الثانى خلفه أخوه قسطنطين الثامن (١٠٢٥ - ١٠٢٨ م) • وكان عمره سبعون سنة وشغله الشاغل انفاق الأموال الكثيرة التي جمعها باسيل الثانى • ولم يهتم هذا الامبراطور المعجوز الا ببساق الخيل والصيد والشرابة في الأطعمة والأشربة بال... الى ما عرف به من غباء ، اذ ترك تصريف أمور الدولة في أيدي جماعة من الطواشية ، واشترى السلام من البرابرة الذين هددوا الدولة البيزنطية (١٣) • ونجحت الامبراطورة زوى Zoe ابنة قسطنطين الثامن — بعد موت أبيها — في مساعدة أزواجها الثلاث للوصول الى عرش الامبراطورية وهم على التوالي رومانوس الثالث Romanus III (١٠٢٨ - ١٠٣٤ م) وميخائيل الرابع Michael, IV (١٠٣٤ - ١٠٤١ م) وقسطنطين التاسع مونوماخوس Constantine IX Monomachus (١٠٤٢ - ١٠٤٥ م) (١٤) •

وفي عهد قسطنطين مونوماخوس حدثت القطيعة بين كنيستى روما والقسطنطينية سنة ١٠٥٤ م • فمن المعروف أن حركة الاصلاح الكلونية — وهى حركة اصلاح دينية نسبة الى دير كلونى Cluny (تأسس سنة ١٩١٠ م) نادت بالعودة الى تعاليم السلف وتطبيق نظم القديس بندكت على الحياة الديرية — كن لها تأثيرها في تجديد شباب البابوية • وكان هدف هذه الحركة اصلاح الكنيسة وتنظيماتها المتداعية ، والقضاء على أمراض الكنيسة مثل شراء الوظائف الدينية (السيمونية)

Bury, "Roman Emperors", p. 52.
Vasiliev, Byzantine Empire, I. p. 351.

(١٣)

(١٤)

وزواج رجال الدين والتقليد العلماني وهو ان يقوم الحكام العلمانيون من اباطره وملوك وامراء ببطييد رجال الدين مهام مناصبهم الدينيه(١٥) .

وفي منتصف القرن الحادى عشر الميلادى تولى حرسى البابويه فى روما البابا ليو التاسع الذى لم يخف بالمدخل فى السجون الختسيه بل وفى مجال الامور السياسيه . وافتنع البابا ليو بخروره امتتار النفوذ البابوى فى شئون الأقاليم البيزنطيه فى جنوب ايطاليا وتأييد السمو الروحى للبابويه . وكان من الطبعى ان نفاوم الختسيه اليونانيه البيزنطيه مثل هذا التدخل مما ساعد على حدوث التسراة التى فجرت الاختلافات القديمه العميقه بين الكنيسه الناثوليكيه والختسيه الأرثوذكسيه . وفى صيف سنة ١٠٥٤ م ارسل البابا ليو التاسع وفدا الى القسطنطينيه برئاسة الكاردينال المتعجرف المتكبر، همبرت Cardinal Humbert لكى يشرح رأى البابويه الى البطريرك البيزنطى كيولاريوس Cerularius الذى كان من اقوى الرجال الذين تولوا كرسى كنيسه القسطنطينيه . ويبدو أن مسلك الوفد البابوى كان مشوبا بالتمالى والكبرياء وعدم الاحترام ، وأبدى البطريرك البيزنطى شعورا مماثلا مما جعل الاختلافات بين الحرفين تصل الى ذروتها . وامتدت الاختلافات فى وجهات النظر الى التفاصيل الجزئية مثل المذهب والطقوس وعدم زواج رجال الدين واستخدام الخبز غير المخمر والصيام وما الى ذلك . وعندما رفض البطريرك تقديم أية تنازلات لكنيسه روما وضع همبرت قرار الحرمان على مذبح كنيسه القديسه صوفيه بالقسطنطينيه معلنا اللعنة على انبطريك ميخائيل كيولاريوس واتباعه الهراطقة الذين وصفهم بأثباع الشيطان . وعقد البطريرك ميخائيل اجتماعا دينيا أصدر فى نهايته قرار الحرمان ضد الوفد البابوى

(١٥) عن حركة الإصلاح الكونيه انظر سعيد عاشور ، اوروبا المصور الوسطى ، (الطبعة السابعة) ، ج ١ ، ص ٣٣٩ - ٣٤٣ .

ومن يسامعهم وكل المتصلين بهم الذين وفدوا « الى المدينة التي يحرسها
الله مثل الرعد ... » (١٦) •

وهكذا حدثت القطيعة الكبرى التي كانت نتيجة لملاقات سلبية
ممتدة عبر قرون عديدة ماضية تمثلت في الفروق الثقافية والسياسية
والاقتصادية بين العالمين الغربى والشرقى ، وانعكست في الاختلاف بين
الكنيستين حول الزعامة الروحية العالمية وقضايا جزئية أخرى • ومن
الملاحظ أن كنائس أنطاكية وبيت المقدس والاسكندرية وقفت الى جانب
بطريرك القسطنطينية • ورغم أن هذه القطيعة جعلت بطريرك
القسطنطينية مستقلا تماما عن الادعاءات البابوية في الغرب ، وأصبحت
سلطته أكثر قوة في العالم السلافى وفي الكنائس الشرقية ، الا أن هذه
القطيعة كانت ذات نتائج خطيرة لأنها قضت على كل احتمالات حدوث
أى تفاهم سياسى فى المستقبل بين الدولة البيزنطية والغرب اللاتينى
الذى ظل تحت تأثير قوى من البابوية • كما كانت هذه القطيعة
الدينية ممتدة ومشؤمة لأن الدولة البيزنطية كانت في هذه الفترة في
أشد الحاجة لمساعدة الغرب الأوروبى خاصة في الوقت الذى اقترب
فيه خطر الأتراك السلاجقة من الدولة البيزنطية(١٧)•

وفي سنة ١٠٥٦ م عندما ماتت الامبراطورة ثيودورا Thsodora

Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 337 - 339;

(١٦).

Vryonis, Byzantium, p. 139;

عبد القادر اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٢٨ — ١٢٩ ،

عمر كمال توفيق ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٣٠ — ١٣١ ،
انظر ايضا : .

Grumel, V., ' Les préliminaires du Schisme de Michel Cérulaire ou la
Question Romaine Avant 1054. *Revue des Etudes Byzantines*, Vol. X
(1953), pp. 1 - 23.

Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 338 - 339.

(١٧)

أخت زوى انتهت الأسرة المقدونية وبدأت فترة من الفوضى والاضطراب استمرت لمدة خمس وعشرين سنة انتهت بتولية الكسيوس كومنين عرش الامبراطورية (١٨) •

وأهم ملامح تلك الفترة من الفوضى والاضطراب التي شاهدها الدولة البيزنطية فيما بين سنتي ١٠٥٦ و ١٠٨١ م ما حدث من زيادة النزاع بين الفئات العسكرية في المناطق الثغرية من أرباب السيوف وأفراد السلطات البيروقراطية في العاصمة القسطنطينية من أصحاب الأقالام ، وما حدث من تغييرات اجتماعية واقتصادية هزت المجتمع البيزنطي ، وما تعرضت له بيزنطة من أخطار خارجية من النورمان والبارتيك Palzina (البشناق ، البجناك) والسلاجقة وغيرهم •

أما عن قصة ذلك النزاع بين أرباب السيوف وأصحاب الأقالام في بيزنطة فمن المعروف أن ما قام به الامبراطور دقلديانوس من فصل بين السلطتين العسكرية والمدنية قصد به اصحاف الطبقة العسكرية ، ولكن بتطور نظام الثغور Themes بدأت تلك الفئات العسكرية في المناطق الثغرية تزداد قوة • وأدت انتصارات الجيوش البيزنطية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين الى غطسة هذه الطبقة العسكرية وتحمصها في القضاء على سيادة الطبقة البيروقراطية من أصحاب الأقالام في العاصمة • ورغم أن باسيل الثاني استطاع القضاء على بوادر ذلك النزاع وتلك التطلعات من جانب الفئات العسكرية الا أن خلفاءه كانوا من الضعف ما جعلهم يعجزون عن كبح جماح الطبقة العسكرية التي أدى تنافسها ونزاعها مع الطبقة البيروقراطية

الى الكارثة (١٩) •

أما عن الطبقة البيروقراطية في القسطنطينية فقد تكونت من أساتذة الجامعات والطواشي والعائلات العريقة في العاصمة والموظفين الإداريين • وتحكمت هذه الطبقة في دوائر الحكومة المختلفة ، ونجحت في احباط تحمس القادة العسكريين • وظن الاختلاف في طبيعة الطبقتين في اثاره القادة العسكريين للفتن والمثورات وقيام الموظفين المدنيين بالاضطرابات للرد عليهم • وبدأ التنافس بين المدنيين والعسكريين حول اختيار زوج للامبراطورة زوى Zoo بعد موت أبيها قسطنطين الثامن ولم تكن قد تزوجت بعد • وقدم كل فريق مرشحه ، وكان النجاح عادة في جانب الطبقة المدنية • وحتى سنة ١٠٥٧ م كانت الهزيمة في جانب القادة العسكريين دائما رغم قيامهم خلال تلك الثلاثين سنة تقريبا (١٠٢٨ - ١٠٥٧ م) بثورة عارمة كل عام • غير أن أفراد الطبقة البيروقراطية نجحوا في الحفاظ على سيادتهم اعتمادا على وجود أباطرة على قيد الحياة ينتمون الى الأسرة المقدونية ، نظرا لما كان يحمله سكان القسطنطينية من عاطفة قوية تجاه تلك الأسرة الحاكمة التي حققت للدولة أزهى انتصاراتها • ومما يدل على تلك القوة التي منحتها العاصمة القسطنطينية للموظفين الإداريين تلك النصيحة التي نصحها القائد العسكري كيكاويمينوس Cecaumenus لابنه عندما نصحه بأن لا يحاول أبدا الثورة ضد الامبراطور « لأن الذى يمتلك القسطنطينية سسوف يحقق النصر دائما » (٢٠) •

(١٩)

Vryonis, Byzantium, pp. 121 - 22; Vryonis, The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from Eleventh through the Fifteenth century, Berkeley Los Angeles, 1971, pp. 71 - 73.

Vryonis, Byzantium, pp. 122 - 3.

(٢٠)

وفي سنة ١٠٥٧ م حدث أول نجاح لطبقة القادة العسكريين عندما أصبح اسحاق كومنين Isaac Comnenus امبراطورا . وقصة وصوله الى عرش الامبراطورية يوضح مدى حدة النزاع بين ارباب السيوف واصحاب الأقلام . ففي سنة ١٠٥٦ م أرغم بعض رجال البلاط الامبراطورة العجوز ثيودورا Theodora أخت زوى على ان تختار ديفائيل السادس خلفا لها . وماتت ثيودورا بعد أن تم تحقيق رغبة رجال البلاط . غير أن ميخائيل السادس لم يجلس على عرش بيزنطة سوى عام واحد (١٠٥٦ — ١٠٥٧ م) . فقد واجه مقاومة من الجيش البيزنطي في آسيا الصغرى ، وأعلن قادة ذلك الجيش اسحاق كومنين امبراطورا . وكان اسحاق قائدا عسكريا وممثلا للعائلات الشهيرة من كبار أصحاب الأراضي في آسيا الصغرى . ومن الجدير بالذكر أن أفراد الطبقة الأرستقراطية في آسيا الصغرى انضموا الى ثورة القادة بها . وسرعان ما انضم اليهم قسطنطين دوقاس Constantine Ducas الذى كان رئيس الأرستقراطية المدنية في القسطنطينية ومن رجال الأعمال والتجارة بها . فقد عارض قسطنطين دوقاس الوصاية التى مارسها طوائسية البلاط والموظفين على الامبراطور ميخائيل السادس ، ونظرا لزوجاه من ابنة أخ البطريك كيولاريوس Cerularius فقد نجح في اجتذاب البطريك الى جانب الثائرين في آسيا الصغرى . حتى أن رئيس مجلس السناتوفى القسطنطينية ورئيس المثقفين في الطبقة البيروقراطية العالم والمفكر بسيللوس Psellus (٢١) ،

(٢١) يعتبر ميخائيل بسيللوس Michael Psellus من اشهر رجال الدولة البيزنطية في القرن الحادى عشر . ولد في سنة ١٠١٨ م من أسرة تنوى بعض أفرادها وظائف عالية في بيزنطة ، ودرس البلاغة والفلسفة التى اعتبرها سيدة المعرفة . وكان مثقفا الى أبعد الحدود ، وكتيبا قديرا ، وخطيبا بليغا ، رعى حركة احياء الآداب التى شاهدها القرن الحادى عشر . كان بسللوس في نفس الوقت سياسيا وانثا بنفسه طموحا فخورا ، وصاينه . وشغل منصب الوزارة لمدة عشرين سنة لاربعة من الإباطرة =

الذى كان على اتصال وثيق بدوقاس ، عذر بالامبراطور ميخائيل السادس عندما اقتربت جيوش الثائرين من القسطنطينية . وعندما اقترب اسحاق كومنين من القسطنطينية دبر رجال النقابات فنة نجحت في عزل ميخائيل السادس وتولية القائد اسحاق كومنين عرش الدولة البيزنطية . ويحق لاسحاق الأول أن يتباهى بأنه أخذ الامبراطورية بحد السيف ، وعندما ضرب عملة ذهبية جديدة سك عليها صورته ممسكا بالسيف في يده (٢٢) .

غير أن انتصار الطبقة العسكرية كان قصير الأجل لأن الامبراطور المعوز: اسحاق كومنين لم يحكم سوى عامين من سنة ١٠٥٧ م الى سنة ١٠٥٩ م عندما هجر العرش وسلك طريق الرهبان . ولا تعرف الأسباب الحقيقية التي أدت الى انسحابه وربما يرجع الى أنه كان ضحية مؤامرة ناجحة قام بها أولئك الذين لم يقتنعوا بمحاولاته لمعالجة الأوضاع الاقتصادية . كما أنه استولى بطرق غير قانونية على أراض امتلكها كبار أصحاب الأراضي من المحدثين ورجال الدين ، وخفض

ولعب دورا هاما في الحياة السياسية . وكان مستعدا للقيام باية مهمة تطلب منه وعلى استعداد أن يبيع قلمه الذي اعتبره سلاحه . وكتب كتابا في التاريخ *The Chronographia* احتوى على أخبار حوادث حوالي قرن من الزمان (٩٧٦ - ١٠٧٧ م) . وأورد أخبارا مختصرة عن عصور باسيل الثاني وقسطنطين الثامن ورومانوس الثالث معتمدا على حوادث لم يشاهدها بنفسه رغم أنه سمع عنها من مصادرها الأصلية . أما عن الحوادث من سنة ١٠٢٤ م حتى نهاية تاريخه فقد ذكر تفاصيل كثيرة لأنه كان شاهدا عيان ، انظر :

Charles Diehl, *Byzantium*, pp. 147 - 8; Bury, *Roman Emperors*, in ' *English Historical Review*, IV' (1889), pp. 42 - 44; Vryonis, *Byzantium*, pp. 114 - 115.

Vryonis, *Byzantium*. p. 123; Vasiliev, *Byz. empire*, I, p.352. (٢٢)

رواتب كبار الموظفين • ومن المحتمل كذلك أن العالم الشهير ميخائيل
بسيلوس اشترك في المؤامرة التي اطاحت باسحاق كومنين(٢٣) •

وتولى قسطنطين العاشر دوقاس عرش الامبراطورية
(١٠٥٩ — ١٠٦٧ م) وأبدى اهتماما كبيرا بشئون الادارة المسلية
للدولة ، ولم تشغله أمور الجيش والشئون العسكرية الا قليلا • ونظرا
لأنه كان اداريا من الطراز الأول ، فلم تغير من طبيعته الادارية
التحديات التي تعرضت لها الامبراطورية من جانب البشناق والغز من
الشمال والسلاجقة الأتراك من الشرق • وكانت الدولة البيزنطية في
حاجة الى قائد عسكري قدير لا الى ادارى خبير لمواجهة الأعداء
المحيطين بها فتكونت جبهة معارضة قوية ضده(٢٤) •

والحقيقة أن النزاع الطويل بين القادة العسكريين والموظفين
الاداريين في الدولة البيزنطية قد هز الامبراطورية في فترة حربية
من تاريخها • فالقادة العسكريون — بعد أن أغضبهم الموظفون الاداريون
في العاصمة — طلبوا المساعدة من الجيوش التي يقودونها ، وجرّدوا
أطراف الامبراطورية من القوات العسكرية لكي يتمكنوا من الاغارة على
« أعدائهم » في العاصمة ذاتها • وللأسف انهم قاموا بذلك في وقت
ازداد فيه خطر السلاجقة والبشناق والنورمان على الدولة • ولم يقلل
اشتراك الجيش البيزنطى في الصراع السياسى من أعداد الجند
وقدراتهم العسكرية فقط ، بل أدى أيضا الى تسريح المجندين الوطنيين
المنتقلين الى الطبقة البيروقراطية • وتبدلت الخدمة العسكرية للمواطنين
في أقباليم الحدود الى مبالغ نقدية يدفعونها • وفى عهد قسطنطين
العاشر دوقاس دمرت الطبقة البيروقراطية الجيوش الوطنية عندما
أحلت مكانها جندا مرتزقة من النورمان والبشناق والأرمن وغيرهم •

Vasiliev, Byz empire, I. p. 352.

(٢٣)

Ibid., I. p. 352.

(٢٤)

ويلاحظ أن العودة الى نظام الجند المرتقة أضعف الدولة البيزنطية ضعفا خطيرا ، ولعب دورا هاما في انهيارها . فمن المعروف أن ولاء الجند المرتقة لا يتعدى روايتهم النقدية ، وعندما عجزت الدولة — في بعض الأوقات المعصية — عن دفع تلك الرواتب ، نهبت الفرق الأجنبية المرتقة سكان الإقليم ، وحاولت أحيانا تجريد مقاطعات كاملة من أصحابها . وهكذا فشلت الطبقة البيروقراطية المدنية في تحقيق آمالها . وعبر عن ذلك كيكلاومينوس Cecaumenus ، وهو قائد عسكري فظ ، عندما كتب في لغة دارجة يحذر ابنه قائلا : « لا تحاول أن تكون بيروقراطيا ، لأنه من المستحيل أن تكون قائدا عسكريا وممثلا كوميديا في آن واحد » . ويلاحظ أن عدم الوفاق بين أرباب السيوف وأصحاب الأقلام كان من أهم الأسباب التي أدت الى انهيار وسقوط الدولة البيزنطية (٢٥) .

أما عن التغييرات الاجتماعية والاقتصادية التي مرت بالدولة البيزنطية خلال تلك السنوات المعصية من تاريخها ، فالى جانب ظهور طبقة القادة العسكريين ، فقد وصلت المشكلة الاقطاعية الى ذروتها عند منتصف القرن الحادى عشر الميلادى عندما أصبح القادة العسكريون في نفس الوقت أصحاب اقطاعيات كبيرة من الأرضى ولهم أتباع مسلحون . وقد شهد القرن العاشر اتساعا متزايدا في مساحات الأرضى التي يمتلكها كبار الاقطاعيين . ولاشك أن ثقل الضرائب وعدم استقرار الأمن كانا من العوامل التي أدت الى زيادة نفوذ أصحاب الاقطاعيات في ذلك القرن . ذلك أن القسم الأكبر من صغار الملاك والمزارعين الأحرار طلبوا حماية السادة الاقطاعيين مقابل تنازلهم عما يمتلكونه والدخول في خدمتهم (٢٦) .

Vryonis, Byzantium, pp. 124 — 126.

(٢٥)

(٢٦) عبد القادر اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٢٧ .

وعلى الرغم من أن اقتصاد الدولة البيزنطية كان في ذلك الوقت قائما على أساس النقد السائل ، وأثرى الرجال غالبا من بناء السفن والصناعة ، إلا أن شراء الأراضي أصبح الشكل الرئيسي لاستثمار الأموال في الدولة البيزنطية . وبدأت رغبة قوية عند أفراد الطبقة الأرستقراطية لامتلاك الأراضي ، وهددت هذه الطبقة طبقة المزارعين الأحرار ، مما أدى إلى قيام بعض الأباطرة بإصدار سلسلة من القرارات والمراسيم الرادعة للحد من نفوذ هذه الطبقة الاقطاعية الأرستقراطية . فقد أصدر الامبراطور رومانوس الأول ليكابينوس Romanus I Lecapenus عدة مراسيم متتالية أكد فيها أن اختفاء طبقة المزارعين الأحرار سوف يلحق الضرر بكل القواعد والأسس المالية والعسكرية والاجتماعية للدولة (٢٧) . ففي سنة ٩٢٢ م أصدر رومانوس الأول مرسوما منع فيه أصحاب الضياع الكبيرة من وضع أيديهم على أراضي المزارعين . وأصدر مانويل الأول سنة ٩٣٤ م مرسوما آخر حتم فيه على الاقطاعيين ارجاع ما استحوذوا عليه من أراضي بطرق غير قانونية . ولم تنجح هذه السياسة فقد اضطر الامبراطور نقفور الثاني فوقاس (٩٦٣ - ٩٦٩ م) إلى إلغاء كافة التشريعات الموجهة ضد أرباب الاقطاعات . غير أن زيادة نفوذ هذه الطبقة الاقطاعية أصبح يهدد كيان الدولة البيزنطية في عهد باسيل الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) وتمثل سياسة هذا الامبراطور تجاه السادة الاقطاعيين آخر محاولة رسمية للحد من اتجاهاتهم اللامركزية ، إذ أصدر باسيل الثاني عدة مراسيم سنة ٩٩٦ م نائده فيها الاقطاعيين بالرجاع الأراضي التي حصلوا عليها بعد سنة ٩٣٤ م ، وأن تظل في أيديهم الأراضي التي آلت اليهم قبل ذلك التاريخ . وأجبر باسيل

الاقطاعيين ايضا على دفع انصرايب المفروضة على المزارعين • وحاول هذا الامبراطور التقليل من شأن الطبقة الارستقراطية غير أن هذه السياسة لم تستمر بعد موته (٢٨) •

فيموت الامبراطور باسيل الثانى سنة ١٠٢٥ م اختفت آخر المحاولات لقمع نفوذ وسلطان اصحاب الضياع الكبيرة من الطبقة الارستقراطية *Magnates* ، وخلال القرن الحادى عشر الميلادى استطاعوا — الى حد ما — القضاء على طبقة المزارعين الأحرار • وفى منتصف القرن الحادى عشر بدأ الأباطرة البيزنطيون يمنحون حق المنفعة لضياع ومقاطعات تابعة للدولة لأولئك الذين يقومون بخدمات مامة لها ، وكانت عادة خدمة حربية • وأصبحت هذه المنح تسمى البرونويا *Pronoia* وصارت قاعدة الخدمة العسكرية فيما بعد زمن الامبراطور النسيوس كومنين • ويلاحظ أن التطور الذى حدث لنظام البرونويا وجعله نظاما يمكن مقارنته بالاقطاع الأوروبي الغربى ، خلق فى بيزنطة مجتمعا من كبار ملاك الاراضى العسكريين • ولم يختلف هذا المجتمع الاقطاعى عن المجتمع الاقطاعى اللاتينى فى الغرب الا فى خلوه من عامل الولاء وقلة الالتزامات المالية المفروضة • وقد تحكم الأباطرة البيزنطيون فى نظام البرونويا لوقت طويل ، ولكن حدث أن أصبح هذا النظام لامركزيا • وسوف نرى — فيما بعد — أنه عندما غزا اللاتين الدولة البيزنطية سنة ١٢٠٤ م اعترفت الارستقراطية اليونانية (البيزنطية) فى أقاليم كثيرة بالبارونات اللاتين والاقطاعات ذات النمط اللاتينى الغربى كبدائل للأرغونيات البيزنطية *Archonates* والبرونويات *Pronoia* (٢٩) •

(٢٨) انظر ، عبد القادر الدوسف ، الامبراطورية البيزنطية ،

ص ١٢٧ •

Vryonis, Byzantium, p. 127.

(٢٩)

==

وهما يوضح لنا كثرة ممتلكات أصحاب الضياع الكبيرة من الطبقة الأرستقراطية البيزنطية تلك الوصية التي نشرها الأستاذ سبيرو فيريونيس Speros Vryonis وتوضح مدى ما امتلكه أحد كبار أصحاب الضياع واسمه ايوستاتيوس بويلاس Eustathius Boilas دُرِّخَة في سنة ١٠٥٩ م . وتعطى هذه الوصية صورة واضحة عن أفراد هذه الطبقة الأرستقراطية في المجتمع البيزنطي . وتحدث بويلاس في هذه الوثيقة عن سيرة حياته منذ هاجر من إقليم قبادوقيا الى أرض بعيدة على مسافة « أسبوع ونصف » . وتدل المعلومات الواردة في الوصية ان ممتلكات بويلاس كانت تقع في شرق آسيا الصغرى . وذكرت الوصية أسماء إحدى عشرة قرية وممتلكات أخرى كانت في حوزته ، وأن بويلاس عندما وصل الى أيبيريا وجد أرضا غير معدة للزراعة فبذل جهدا كبيرا ومالا وفيرا لاستصلاحها وزراعتها . وأضاف بويلاس أيضا أنه فقد ابنه الوحيد وكذلك زوجته ، وأنه أرغم على التنازل عن أربع قرى من ممتلكاته لأحد حكام الأقاليم وابنه . وأوصى بويلاس في وصيته بأن تظل نصف ممتلكاته تقريبا في أيدي أفراد من أسرته ، كما أوصى لبعض الغرباء عن أسرته بسبع من إحدى عشرة قرية التي يمتلكها . وحسدد في الوصية الممتلكات التي سوف تؤول الى ابنته إيرين Irene وماريا Maria وزوج كل منهما . وأوضحت الوثيقة الممتلكات التي وهبها — بعد موته — لبعض الكنائس . وورد بها قائمة بعنوانين كتب مكتبته الخاصة (حوالي ٩٠ كتابا) وهبها للكنيسة . كما أقر في الوصية بأن يحرر عبيده بعد موته مع منحهم بعض ممتلكاته .

== لا يزال موضوع (الانقطاع) في الدولة البيزنطية موضع جدل بين الباحثين ومن الموضوعات المعقدة ، انظر :

Hassancin Rabie, The Financial System of Egypt, p. 32 note 1 ;
Ostrogorsky, Pour l'histoire de la Féodalité Byzantine, (Bruxelles 1954).

والحقيقة ان وصية بويلاس وثيقة نادرة من القرن الحادى عشر الميلادى ، لأنها اول وثيقة يعثر عليها الباحثون تحتوى على بيان بما امتلكه أحد أفراد الطبقة الارستقراطية من كبار أصحاب الضياع في اقليم من اقاليم الدولة البيزنطية (٣٠) •

ومن الناحية الاجتماعية جلب التوسع المقدونى أيضا جماعات من أجناس كثيرة داخل أطراف الدولة البيزنطية لم تستطع الدولة ادماجهم ثقافيا • فغزو الامبراطور باسيل الثانى لبلغاريا أدى الى حدوث فتن من جانب البلغار خلال القرن الحادى عشر • وفي شرق آسيا الصغرى كانت هناك مشكلات خطيرة لتعدد الأجناس البشرية ، اذ أن أعدادا كبيرة من الأرمن والسوريان أصبحوا من رعايا الدولة البيزنطية ، وكانوا يقطنون في المدن والأقاليم التي تركها المسلمون للبيزنطيين مثل ملطية وقيليقية • وفي القرن الحادى عشر دفعت اغارات الأتراك بأعداد كبيرة من الأرمن الى الأراضي البيزنطية ، واستقر الكثيرون منهم في قبادوقيا بجانب اليونانيين • وأحدثت هذه الأجناس الجديدة مشاكل للدولة البيزنطية ، ليس فقط لأن الأرمن احتفظوا بتنظيماتهم السياسية والحربية مكونين دولة داخل دولة ، ولكن أيضا لأن كلا من الأرمن والسوريان كانوا من المونوفيزيتيين من ناحية المذهب الدينى • وحاولت الدولة البيزنطية مزج هذه العناصر في وحدة كنسية ، وهي سياسة قديمة فاشلة اتبعتها بيزنطة في توحيد العناصر غير اليونانية في الشرق في القرنين السادس والسابع ، وفشلت هذه السياسة مرة أخرى في القرن الحادى عشر الميلادى وأدت الى نتائج رهيبية • وحاول قسطنطين العاشر دوقاس (١٠٥٩ - ١٠٦٧ م) — دون جدوى — تحقيق هذه الوحدة الكنسية مع السريان والأرمن •

Speros Vryonis, The will of a provincial Magnate, Eustathius (٣٠).
Boilas (1059) , in *Dumbarton Oaks Papers*, No. 11 (1957), pp. 263—277.

وظهرت مرة أخرى المشكلة المونوفيزتية لى تهديد امن الدولة البيزنطية،
نما كان الحال عليه فى القرن السابع الميلادى (٣١) •

وزادت المشكلات الاقتصادية من مشاكل الامبراطورية الى حد
كبير • فقد أدت زيادة ممتلكات الأديرة والاقطاعات الخاصة الى نقص
الموارد المالية للدولة فى القرن الحادى عشر • وبعد موت باسيل
النسانى حدث سوء ادارة لمالية الدولة نتيجة تبذير الأباطرة
وزوجاتهم ، وزيادة وحدات الجند المرتقة وذلك على حساب خزائنة
الدولة • وحدث أخطر انهيار فى موارد الدولة نتيجة اغارات البشناق
والسلاجقة فى الولايات • ولعل أبلى دليل على ذلك الانهيار الاقتصادى
الذى عانت منه الدولة البيزنطية فى القرن الحادى عشر ما حدث
بالنسبة لنقاوة العملة الذهبية البيزنطية • فمنذ بدء ضرب العملة
الذهبية البيزنطية Solidus زمن الامبراطور قسطنطين الأول حتى
القرن الحادى عشر مرت العملات الذهبية البيزنطية بتغيرات طليئة
لا تذكر ، وظلت العملة الذهبية البيزنطية ثابتة من حيث الوزن والنقاوة
أدة سبعة قرون • وفى النصف الأول من القرن الصادى عشر عانت
العملة الذهبية البيزنطية من غش مطرد للعملة ، وما ان أتت سنة ١٠٨٠ م
حتى احتوت تلك العملة على نسبة بسيطة من الذهب • وفى دولة مركزية
تعتمد على العملات النقدية فى تمويل جيوشها ونظمها الادارية ، أدى
غش العملة الى انهيار مالى خطير (٣٢) •

وتضررت الدولة البيزنطية لأخطار خارجية عندما ظهرت شعوب
جديدة على أطراف الدولة توغلت فى وقت ضعفت فيه بيزنطة • ففى

Vryonis, Byzantium, pp. 127 — 130;

(٣١).

Id. , "Byzantium: The social basis of decline in the eleventh century,
in Greek, Roman and Byzantine Studies, Vol. 11 (1959), pp. 159 —175.

Vryonis, Byzantium, p. 130; Id. The Decline of Medieval (٣٢)
Hellenism in Asia Minor, p. 78.

سنة ١٠٥٩ م أقام المخطيون النورمان بقيادة روبرت جويسكارد
 Konek Guseard دولة جديدة مستقلة في الممتلكات البيزنطية في
 جنوب إيطاليا ، وهددوا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر
 الدولة البيزنطية من الداخل والخارج (٣٣) .

ويرجع تاريخ النورمان الى حوالي سنة ١٠١٩ م عندما من أربعون
 حاكما نورمانيا بجنوب إيطاليا في طريق عودتهم من الأبراضي المقدسة
 بفلسطين الى وطنهم في فرنسا . وشاهد هؤلاء النورمان ما حل بـإيطاليا
 في القرن الحادي عشر من فوضى واضطراب ، مما اضرب كثيرين من
 النورمان الطموحين على الهجرة من نورمندا الى جنوب إيطاليا ليعملوا
 جندا متزقة . وكان منهم روبرت جويسكارد الذي لم يلبث أن أصبح
 زعيما للنورمان في إيطاليا سنة ١٠٥٧ م ، ووجه كل جهوده لتقويض
 نفوذ الدولة البيزنطية في جنوب إيطاليا (٣٤) .

وفي شمال الدولة البيزنطية بدأت أخطار الشعوب الآسيوية تهدد
 ولايات البلقان . ففي سنة ١٠٤٨ م عبرت جموع من الشعوب التركية
 تسمى الباتريناك — (أو البشناق Pechenages) كما تسميهم الحوليات
 الروسية — الدانوب وأغاروا على أقاليم بيزنطة حتى أصبح لهم أثر
 كبير في مصرها . وقد عرف البيزنطيون البشناق قبل ذلك ، فقد استقرت
 جموعهم بعض الوقت في القرن التاسع الميلادي في الدانوب الأدنى
 وفي سهول جنوب روسيا الحالية ، وبالتالي امتدت أراضيهم من الدانوب
 الأدنى حتى ضفاف نهر الدنيبر Dnieper وأحيانا الى ما وراء ذلك
 النهر . وكانت حدود بيزنطة قد استقرت من ناحية الغرب مع مملكة
 البلغار ، أما من ناحية الشرق فلم يكن لبيزنطة حدود فاصلة ، إذ أن
 البشناق كانوا دائما يضطرون الى الاتجاه غربا نتيجة ضغط قبائل رعية
 أخرى من الغز Uzes الكومان Caman . ومن المعروف أن البشناق

Vryonis, Byzantium, p. 131.

(٣٣)

(٣٤) سعيد عاكسور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ،

ص ٢١٥ — ٢١٦ .

والنغز والكومان قبائل تركية الأصل ، وبالتالي كانت هناك صلات تربطهم بالقبائل التركية السلجوقية التي بدأت الاغارة على أقاليم آسيا الصغرى في القرن الحادى عشر . وفى كتاب ادارة الامبراطورية الذى كتبه

On the Administration of the Empire

الامبراطور قسطنطين بورغيو جنيوتوس Constantine Porphyrogenitus في القرن العاشر ، وهو الكتاب الذى كتبه لابنه وولى عهده رومانوس ، نصح قسطنطين ابنه بان يحرص على العلاقات السلمية والودية مع البشناق ، لأنه طالما حافظوا على علاقاتهم الودية مع الامبراطورية ، لم يكن فى مقدور الروس أو المجرىين أو البلغار الاغارة على الأقاليم البيزنطية . ويفهم كذلك من كتاب قسطنطين أن البشناق كانوا وسطاء فى العلاقات التجارية بين الأقاليم البيزنطية فى كريما Crimea (ثغر خرسون Cherson) ومع الروس والخزر وسكان البلاد المجاورة . ومعنى هذا أن البشناق كان لهم أهمية كبيرة للدولة البيزنطية سياسيا واقتصاديا(٣٥) .

وفى النصف الثانى من القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر تغيرت الأحوال ، فقد غزا حنا تريمسكس وباسيل الثانى البلغار حتى أصبحت المملكة البلغارية تحت سلطان بيزنطة . وكان البلغار قبل ذلك يفصلون بين البشناق والبيزنطيين ، أما بعد خضوع البلغار لسيادة بيزنطة فقد أصبح البشناق جيرانا لها فى الوقت الذى أصبحت فيه تلك القبائل البربرية أكثر عددا وقوة وعداء للدولة البيزنطية . وظهرت خطورة البشناق فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى عندما عبروا نهر الدانوب . ويشبه نتائج ذلك الحادث عبور القوط الغربيين لنهر الدانوب . وعبر البشناق الى الشاطئ الجنوبى للدانوب وكان عددهم حوالى ٨٠٠ ألف ، وتقدموا حتى وصلوا الى مدينة أدرنه بل وصلت

Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 324 — 325:

(٣٥)

Vryonis, Byzantium, p. 131.

جماعات منهم الى القسطنطينية ذاتها • وكان في استطاعة قوات قسطنطين مونوماخوس Monomachus مقاومة تقدم هذه الجماعات وتوجيه ضربات متلاحقة لها • ولكن في نهاية عصره كان من الصعب المحرّف أمام تقدم البشناق بل واجه جيش هذا الامبراطور هزيمة ساحقة أمامهم • واضطر مونوماخوس الى عقد معاهدة سلام مع البشناق ولكنه دفع الثمن غاليا ، فقد منحهم مونوماخوس أراضي في البلقان فعاشوا في امان في اقاليم شمال البلقان ، وحصل أمرؤهم على ألقاب بيزنطية رفيعة • وفي السنوات الأخيرة من عصر الأسرة المقدونية أصبح البشناق أكثر أعداء الدولة البيزنطية خطورة في الشمال ، وذلك لأنهم لم يستطيعوا التعود على حياة الاستقرار ، ووصلت اليهم دائما من وراء نهر الدانوب قبائل جديدة من البشناق وأقربائهم من الغز بقصد الاغارة على الأراضي البيزنطية (٣٣) •

وزادت الأخطار ضد الدولة البيزنطية عندما غزا البلقان شعب تركي آخر هو الغز Uzes • وقد ظهر الغز على ضفاف الدانوب في زمن الامبراطور قسطنطين العاشر دوقاس (١٠٥٩ — ١٠٦٧ م) ، وكانوا جماعات بلغت عددها حوالي ٦٠٠ ألف نفس بقطعانهم وحاجياتهم • وفشلت الدولة البيزنطية في ايقافهم ، بل وخربت هذه القبائل الرعوية ولايات سالونيك ومقدونية وثرقييا وغيرها • ودخلت جماعات من الغز في خدمة الدولة البيزنطية مثلما حدث مع البشناق • ولعب الغز والبشناق الذين خدموا في الجيش البيزنطي دورا هاما في معركة منازكرد (مانزيكرت) كما سوف نرى • وعندما استمع ميخائيل السابع دوقاس (١٠٧١ — ١٠٧٨ م) لتصيحة وزيره بتخفيض المنح النقدية التي ترسل عادة الى مدن الدانوب ، أثارت تلك

Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 325 — 326, 358; Vryonis, The Dec- line of Medieval Hellenism, p. 87.

السياسة ثائرة البشناق والغز وغيرهم من المرابطين عند نهر الدانوب والذين قاموا بمهمة جيوش الحدود ، وكونوا تحالفا مع القبائل الرعوية الرابضة على الجانب الآخر من ذلك النهر . وتحالف الجميع مع أحد القادة البيزنطيين الذى تار ضد الامبراطور ، وتحركوا جنوبا مع القبائل الأخرى — التى ربما كان من بينها الصقالبة — ونهبوا ادرنه وحاصروا القسطنطينية . وفى تلك اللحظة الحرجة ، وتحت ضغط هجمات السلاجقة الأتراك ، والبشناق وحلفائهم أرسل ميخائيل السابع الى البابا جريجورى السابع طالبا المساعدة والعون . وأخيرا نجحت الدبلوماسية البيزنطية فى إثارة الخلاف بين القوات المتحالفة المحاصرة للقسطنطينية ، وأنهوا الحصار وعادوا الى ضفاف الدانوب محملين بغنائم كثيرة . ولكن كان على بيزنطة فى السنوات التالية أن تقدر مدى خطورة قبائل البشناق(٣٧) .

واتكرر هذه الشعوب الرعوية خطورة وأهمية للدولة البيزنطية فى تلك الفترة التاريخية كان السلاجقة الأتراك الذين أغاروا على آسيا الصغرى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر للسلب والنهب . والسلاجقة مجموعة من قبائل الأتراك الذين عرفوا باسم الغز ولا يستطيع الباحث تحديد الفترة الزمنية التى بدأت فيها قبائل السلاجقة الاتجاه غربا من أقصى المتركستان الى إقليمى ما وراء النهر (أى نهر جيحون Oxus) وخراسان . ومن المحتمل أن هذه الهجرات بدأت خلال الفترة الواقعة فيما بين القرنين الثانى والرابع الهجريين تحت وطأة سوء الأحوال الاقتصادية نتيجة حدوث قحط وغلبة قبائل أكثر قوة ، حتى اضطرت القبائل المغلوبة الى البحث عن مواطن جديدة . وأطلق على هذه القبائل من الترك الرحل اسم السلاجقة نسبة الى زعيم جماعة من الأتراك هو سلجوق بن دقاق

الذى تولى رئاستها وجمع شملها ونظم صفوفها • واعتنق السلاجقة الاسلام على المذهب السنى لمجاورتهم السامانيين والمغزنبيين وتعصبوا لهذا المذهب • ومنذ أواخر القرن الرابع الهجرى جنح السلاجقة الى الاستقرار فى بلاد ما وراء النهر خاصة بعد انهيار الدولة السامانية فى الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى/نهاية القرن العاشر الميلادى • وكانت الحياة القبلية راسخة فى أعماقهم مما أثر فى تمسكهم الشديد بالاسلام وتعصبهم للمذهب السنى (٣٨) •

وعبر السلاجقة الى اقليم خراسان سنة ١٠٣٤ م ، وكانت هذه خطوة كبيرة فى تاريخ الشرق الاسلامى • وقرر زعيم السلاجقة طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق القضاء على الدولة الغزنوية فى خراسان وما وراء النهر ، واستطاع طغرل بك بمساعدة أخيه جبرى بسط نفوذ السلاجقة على مناطق كثيرة فى خراسان وما وراء النهر • وهزم السلاجقة جيش مسعود الغزنوى فى معركة دانداناقان Dandanaqan سنة ٤٣١ هـ / ١٠٤٠ م • ولهذه السنة التى جرت فيها تلك الحركة أهمية خاصة فى تاريخ الدولة البيزنطية ففيمها أصبح السلاجقة أصحاب دولة أقاموها بقوة السلاح • واعترفت الخلافة العباسية بقيام دولة السلاجقة سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م • وواصل طغرل بك بسط نفوذه وسلطانه فاستولى على خوارزم وقزوین وكرمان وبلاد الديلم ، وتوج انتصاراته بالاستيلاء على أفريجيان وبخولة

(٣٨) عن ظهور السلاجقة وتأسيس دولتهم ، انظر :

ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٧٢ — ٤٨٤ ، العماد الإفصهاتى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٧ ، عبد النعيم حسنين ، دولة السلاجقة ص ١٧ — ٢٢ ،

Setton: A Hist. of the Crusades, Vol. I, pp. 135 ff.

تبريز سنة ٤٤٦ هـ (٣٩) •

ولم تتعرض الدولة البيزنطية لغارات خطيرة من جانب السلاجقة الا منذ عهد الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس (١٠٤٢ — ١٠٥٥ م) • ففي سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م أغار ابراهيم ينال أخو طغرل بك من أمه على أقاليم الدولة البيزنطية وخاصة أيبريا (الأبخاز) وطرابزون وأرزن الروم ، وحقق السلاجقة المسلمون انتصارات باهرة (٤٠) • وفي السنة التالية (٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م) دارت المفاوضات بين الامبراطور البيزنطي ورعييم السلاجقة طغرل بك الذي أطلق سراح ملك الأبخاز في مقابل تعمير البيزنطيين لجامع في القسطنطينية ، أقيمت فيه الصلاة والخطبة لطغرل بك (٤١) •

وفي سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م أرسل طغرل بك الى الامبراطور قسطنطين التاسع رسولا يستأذنه في السير الى مصر عن طريق بلاد الشام • واعتذر الامبراطور البيزنطي عن الاستجابة لطلب طغرل بك موضحا له مدى المودة التي بينه وبين الخليفة الفاطمي المستنصر بالله : « وانه لا يرخص في أذنيته » (٤٢) • والحقيقة أن علاقة الدولة البيزنطية بالخلافة الفاطمية في ذلك الوقت كانت علاقة وثيقة وطيدة • ومن الأدلة على ذلك أنه عندما حدثت الشدة المستحصرية بمصر ، أرسل الخليفة الفاطمي المستنصر بالله سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م طالبا من الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس تزويد مصر بأربعمائة ألف أردب قمح لمواجهة للمحيط الذي أصاب بلادها • وعزم الامبراطور البيزنطي على

(٣٩) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٧٣ — ٤٨٤ ، ٥٠٤ — ٥١٠ ، ٥١٨ — ٥١٩ ، عبد النعيم حسنين ، دولة السلاجقة ، ص ٢٤ — ٢٩ ، ٣٢ — ٣٦ ، وعن اهمية معركة داندقيلن في التاريخ البيزنطي انظر ، Vryonis, The Decline of Medieval Hellenism, p. 83.

(٤٠) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ٥٤٦ ، العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ٧٢٨ — ٧٣٩ •

(٤١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٥٥٦ — ٥٥٧ •

(٤٢) (القزويني ، اتعاظ الخنفا ، ج ٢ ، ص ٢١٤ •

ارسل شحنة القمح الى مصر لولا أنه مات قبل اتصافها • وعندما آل عرش الدولة البيزنطية الى تيودورا آخر أباطرة الأسرة المقدونية سنة ١٠٥٥ م اشترطت على الخليفة المستنصر بالله لده بالقمح أن يساعدها ويمدها بعساكر مصر اذا ثار عليها أحد • وجرت بينها وبين الخليفة اتصالات يبدو أن الغرض منها عقد معاهدة بينهما يتعهد فيها الخليفة الفاطمي بتقديم العون والمساعدة ضد أى عدوان تتعرض له الدولة البيزنطية • ومن الواضح أن مشروع المعاهدة كان موجها ضد السلاجقة الذين ازداد خطرهم على بيزنطة • ورفض المستنصر بالله التورط في النزاع البيزنطي — السلجوقي ، وأوقفت الامبراطورة تيودورا بالتالى ارسال شحنة القمح الى مصر ، ونشب الخلاف بين الدولتين • وجهر الخليفة المستنصر بالله حملة أسند قيادتها الى الحسن بن ملهم ، فسار الى الشام واستولى على اللاذقية وحاصر أنطاكية ، غير أنه تعرض للهزيمة أمام حملة بحرية أرسلها البيزنطيون سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م (٤٣)

ويبدو أن أخبار هذه الاتصالات البيزنطية — الفاطمية وصلت الى السلاجقة بدليل أنه في سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٥ م قاد طغرل بك بنفسه حملة حربية الى الاراضى البيزنطية • ونهبت عساكره الاقاليم الواقعة بين بحيرة وان وأرزن الروم ، وحاصر منازكرد وهى للبيزنطيين « مضيق على أهلها ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها » دون أن يستطيع الاستيلاء عليها لحصانتها (٤٤) •

وكان الخليفة العباسى القائم بأمر الله قد أرسل رسولاً من قبله الى طغرل بك يدعوه للحضور اليه في بغداد • وكانت الخلافة العباسية وقتذاك في حالة برش لها من الضعف والانهار لتسلط البويعيين الشيعة في الوقت الذى زادت فيه قوة قائد الجند الاثراك البساسيزى ، واختلفت

(٤٣) القرئزى اتعاط الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ ، القرئزى ، المواعظ والاعتبار (الخطط) ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .
(٤٤) ابن الأثير ، الكابل ، ج ٩ ص ٥٩٩ ، العرنى ، الدولة البيزنطية

الأمور في بغداد كما يقول ابن العبراني « وصار كل جندي فيها رأسا بنفسه ، وانقطعت موارد المال » • ولبي طغرل بك دعوة الخليفة ، وقال لبعوث الخليفة وهو الوزير رئيس الرؤساء ، أبي القاسم علي بن الحسين ، وهو يستعد لدخول بغداد في ٢٥ رمضان سنة ٤٤٧هـ / ١٨ ديسمبر سنة ١٠٥٥ م « انما قصدت هذا الجانب لثلاثة أمور ، أحدها لأقبل العتبة الشريفة النبوية وانتمى الى خدمتها ، والثاني لأحج الى بيت الله تعالى وأفتح طويق الحج من صوب العراق ، والثالث لأقصد مصر وانتزعها من يد الخارج (الخليفة الفاطمي الشيعي) الذي بها ، وأقيم الدعوة على منابرها لمبنى العباس » (٤٥) •

واستقبل طغرل بك في بغداد استقبالا رائعا ، وأمر الخليفة العباسي القائم بأمر الله بإسقاط اسم الملك الرحيم فانتهدت دولة بني بويه ، وهرب البساسيري وتم احياء الخلافة العباسية ، وقام الخليفة العباسي باطلاق يد طغرل بك « في الحل والعقد ، والحبس والاطلاق ، وعول عليه وفرض اليه النظر في العراق » (٤٦) •

وأدركت الدولة البيزنطية قوة وخطر السلاجقة وبخاصة بعد دخولهم بغداد • وفي سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥ م استقبلت الامبراطورة ثيودورا مبعوث السلطان السلجوقي طغرل بك • وسمحت بإقامة الخطبة للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي في جامع القسطنطينية (٤٧) • ولم تستطع الخلافة الفاطمية القيام بأى عمل عسكري بعد أن ساءت علاقاتها مع الدولة البيزنطية بسبب انشغالها بالرحف السلجوقي على العراق والشام ، وقتل حركة البساسيري ، فضلا عن ظروفها الاقتصادية الفاسية ، وما صاحب ذلك من انحصار نفوذها عن أجزاء كبيرة من بلاد الشام •

(٤٥) ابن العبراني ، الاتباء في تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٨ — ١٨٩ •

(٤٦) عماد الدين الاصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٢

(٤٧) القريني ، اتعاط الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ ، القريني ،

الخطوط ، ج ١ ص ٣٣٥ •

وتوفي طغرل بك سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، وبدأ نزاع قصير المدى بين السلاجقة انتهى بدخول الأبارسلان ابن أخ طغرل بك مدينة الري سنة ٤٥٦ هـ / وأواخر سنة ١٠٦٣ م . وبعد أن استتب الأمر للسلاجقة في الأقاليم الشرقية والجنوبية اتجهوا بأبصارهم إلى الغرب إلى بلاد الشام حيث النفوذ الفاطمي وإلى بلاد الدولة البيزنطية . ففي سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م قام الب أرسلان بحملة كبيرة في بلاد القوقاز (أذربيجان) ووطد عزمه على قتال البيزنطيين وغزوهم . ثم سار إلى بلاد الكرج فهاجم عدة حصون بيزنطية ، وتوج انتصاراته بفتح مدينة أني حاضرة إقليم أرمينية ، وهي مدينة معصنة ذات موقع استراتيجي هام . وباستيلاء السلاجقة على هذه المدينة سيطروا على هضبة أرمينية التي كانت تعتبر بمثابة الدرع الواقى للدولة البيزنطية من الشرق لوقعها وصعوبة مسالكها (٤٨) .

وفي سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م سار الب أرسلان قاصدا بلاد الشام وكان وصوله إلى بلاد الشام ذا مغزى كبير ، إذ لم يسبق لأية دولة من دول الأتراك التي قامت في المشرق الإسلامي أو وصلت نفوذها إلى حدود الشام . وقد عبر عن هذا أصدق تعبير الفقيه أبو جعفر بن محمد البخاري قاضي حلب ، عندما خاطب السلطان الب أرسلان عند عبوره نهر الفرات قاصدا حلب سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م قائلا : « يامولانا — أحمد الله تعالى على هذه النعمة ، وهي أن هذا النهر لم يقطع قط تركي إلا مملوك ، وأنت قطعتة ملكا » . فأعجب السلطان هذا القول (٤٩) .

وخضعت حلب لسلطان السلاجقة عندما وصلها الب أرسلان سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م . وكتب الب أرسلان توقيعا بولاية حلب لحاكمها

(٤٨) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٦ — ٢٨ ، ٣٦ — ٤١ ، العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ٧٤٠ — ٧٤١ ، انظر أيضا : Vasiliev, Byz. empire, I, p. 355.

(٤٩) ابن المعدي ، زبدة الطب من تاريخ حلب ، ج ٢ ، ص ٢٠ ، ولزيد من التفاصيل عن الغزو السلجوقي لبلاد الشام ، انظر شلكر مصطفى ، دخول الترك الغز إلى الشام ، ص ٢٥٢ — ٣٦١ .

محمود بن نصر المرداسي الذي قرر معه السلطان أن يخرج بعسكره الى بلاد دمشق والأعمال المصرية لفتحها (٥٠) . والحقيقة أن الب أرسلان فكر جدياً في فتح مصر والقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية بعد أن طحنها الشدة المستنصرية ، واشتعلت الفتنة بين الأتراك والسودان . واستمرت الحروب بين القوى المتنافسة من أجل التسلط على الخليفة المستنصر بالله . غير أن تطور مجريات الحوادث بين السلطان الب أرسلان والبيزنطيين عاق تحقيق مشروع فتح مصر ، فعندما أراد الب أرسلان المسير من حلب الى دمشق ليهر منها الى مصر بلغته الأخبار بأن امبراطور الدولة البيزنطية « قد قطع بلاد أرمينية يريد أخذ خراسان ، فيسخره ذلك عن الشام ومصر ورجع الى بلاده » (٥١) .

وقد سبقت الإشارة الى أن السلطان طغرل بك والسلطان الب أرسلان أغاراً على أرمينية وبلاد الكرج ، وأن السلطان الب أرسلان استولى على مدينة أني حاضرة أرمينية (٥٢) . وعندما اشتدت غارات السلاجقة على أقاليم الدولة البيزنطية حاول الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينيس Romanus Diogenes (١٠٦٨-١٠٧١م) وقف الزحف السلجوقي وسد المنافذ أمامه . وكان السلاجقة ينفذون الى داخل الدولة البيزنطية ويخرجون منها من ثلاث مناطق هي : ثغور شمالي بلاد الشام ، وثغور أعالي الجزيرة ، وبلاد أرمينية ، لهذا وضع رومانوس الرابع خطة تستهدف اغلاق هذه المنافذ على ثلاث مراحل . وقام بنفسه بقيادة ثلاث حملات على بلاد الشام وأعالي الجزيرة وحدود أرمينية ، وذلك في السنوات ٤٦١-٤٦٣هـ / ١٠٦٨-١٠٧١م . وقام الامبراطور رومانوس الرابع بحملته الاولى سنة ٤٦١هـ / ١٠٦٨م ضد أراضي إمارة حلب في الشام والجزيرة . وانتصر رومانوس في حملته الاولى على محمود بن نصر المرداسي أمير حلب ومن معه من

(٥٠) ابن العديم ، زبدة الطب ، ج ٢ ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٥١) انظر القرطبي ، اتعاض الحنفا ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ .

(٥٢) انظر ما سبق ص ١٨٣ ، ١٨٥ .

التركماني والعرب • وبعد أن استولى الامبراطور البيزنطي رومانوس على بعض الحصون ، ترجع عائدا الى بلاده عندما وردت اليه أخبار اغارات أحد قادة التركمان ويدعى اغشين الذي أوغل في عمق الاراضي البيزنطية (٥٣) • وفي العام التالي ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م عاد الامبراطور رومانوس الرابع على رأس حملة ثانية الى بلاد الشام وصل فيها الى بلدة منبج من أعمال حلب ، فأسر كثيرا من أهلها ، ثم سار الى بلدة اعزاز شمالي حلب • وبعد ان خرب القرى الواقعة بين أراضي بيزنطة ومنبج انسحب لقلعة المؤمن وانتشار القحط والوباء (٥٤) •

وأما الحملة الثالثة فقد انتهت بهزيمة ساحقة للامبراطور البيزنطي • فائثناء عودة السلطان الب أرسلان من حلب الى خراسان ، وعند اجتيازه نهرا الفرات علم بخروج الامبراطور رومانوس في جموع كثيرة « من الروم والروس والخزرو اللان والغزو القفجق والكرج والفرنجة والأرمن » • ووجد السلطان السلجوقي أن المصلحة في لقاءه ومواجهته • وحقق صفدق التركي نصرا على مقدمة الجيش البيزنطي عند مدينة خلاط (٥٥) • وأرسل الب أرسلان الى رومانوس الرابع ديوجينيس يرغبه في الهدنة واستكبر الامبراطور البيزنطي — كما يذكر ابن العديم — قائلا بأنه سوف يجيب على هذا الرأي بالرأى ، أى في قلب دولة السلاجقة في خراسان ، وغضب السلطان المسلم (٥٦) • ولم يعد هناك مفر من القتال في الوقت الذي صمم فيه الامبراطور البيزنطي على وضع نهاية لمشكلة الاثراك واغاراتهم على أراضي الدولة البيزنطية (٥٧) •

(٥٣) انظر سهيل زكار ، مدخل لتاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٣٨
(٥٤) الاصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٣٧ ، ابن العديم ، زبدة الطب ، ج ٢ ، ص ١٢ — ١٤ (حوادث سنة ٤٦١ هـ) ، سهيل زكار ، مدخل لتاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٣٨ •
(٥٥) ابن العديم ، زبدة الطب ، ج ٢ ، ص ٢٣ — ٢٥ ، انظر ايضا الاصفهاني ، تاريخ آل سلجوق ، ص ٤٠
(٥٦) ابن العديم ، زبدة الطب ، ج ٢ ، ص ٢٧ •
(٥٧) Vryonis, Byzantium, p. 133.

وكان اللقاء الحاسم بين خلاط ومنازكرد أو مانزيكرت (٥٨) في موضع يعرف بالزهرة شمال بحيرة وان في أرمينية ، وذلك يوم الجمعة ٧ من ذى القعدة ٥٤٦٣ هـ / ٦ أغسطس ١٠٧١ م . وقبل المعركة استثار السلطان المسلم الب أرسلان حماس جنوده عندما خاطبهم قائلا : « أنا احتسب نفسي عند الله وهى اما السعادة بالشهادة واما النصر (ولينصرن الله من ينصره) (٥٩) » . وتقدم اليه امامه وفقهيه أبوجعفر محمد البخارى قائلا : « انك تقاتل عن دين وعد الله بنصره واظهاره على سائر الاديان ، وارجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح ، فآلتهم يوم الجمعة بعد الزوال ، في الساعة التى يكون الخطباء على المنابر ، فانهم يدعون للمجاهدين بالنصر ، والدعاء مقرون بالاجابة » (٦٠) .

وكانت قوات الب أرسلان من الفرسان الرماة ، والقوات البيزنطية من الفرسان الثقال مع المشاة ، ووصف ابن العديم أن الامبراطور البيزنطى حمل بجيشه ، فاندفع المسلمون بين أيديهم « واستجروا الروم الى أن صار الكمين من ورائهم ، ثم خرج الكمين من خلفهم ، وربى المسلمون في وجوههم ، فأنزل الله نصره ، وكسرت الروم وأسر الملك ، واستولى المسلمون على عساكرهم وغنموا ما لا يعد كثرة ولا يخصى عددا وعدة » (٦١) . وهكذا انتصر المسلمون انتصارا رائعا حاسما ، وحل الدمار

(٥٨) مناكرد وتكتب ايضا ملازكرد وملازكرت ومنازكرت ومنازكرد بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم في أرمينية شمال بحيرة وان ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .
 (٥٩) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٥ ، الاصفهاني ، تاريخ آل سلجوق ، ص ٤٠ — ٤١ ، والآية الكريمة (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز) سورة الحج آية ٤٠ .
 (٦٠) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٦٥ — ٦٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٧ ، الاصفهاني ، تاريخ آل سلجوق ص ٤٢ .
 (٦١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

بالجيش البيزنطي بقيادة الامبراطور رومانوس الرابع الذي وقع أسيرا في أيدي السلطان السلجوقي (٦٢) •

ولاشك أن الجيش البيزنطي الذي واجه الجيش السلجوقي كان مفتقرا الى التجانس وحسن التنظيم ، فقد كان مؤلفا من جنود مرتزقة من الصقلية (السلاف) والبلغار والغز والمشناق وغيرهم • وكان يعوزهم التدريب الجيد والتنظيم القوي ، ولم يستطيعوا مقاومة الحركة السريعة للفرسان الاتراك وهجماتهم السريعة المفاجئة • ولما وقعت المعركة استجاب الفرسان من الغز والمشناق لنداء رابطة الدم التي تربطهم بالسلاجقة والولاء القبلي لهم وانضبوا اليهم (٦٣) • وبخرجت جموع الجند الأرمن من أرض المعركة مدفوعين بدافع الحقد للبيزنطيين نتيجة الخلاف المذهبي • وكان من أهم عوامل الهزيمة هروب القائد اندرونيقوس دوقاس Andronicus Ducas من أرض المعركة • وكان هذا القائد ابن أخ الامبراطور قسطنطين العاشر دوقاس ، وكان رئيسا بارزا بين الطبقة البيروقراطية من أرباب الأقلام • وأراد اندرونيقوس أن يضمن مستقبل أسرته بعد أن أبعد الامبراطور رومانوس الرابع أباه عن وظائفه ، لهذا نشر الاشاعة الكاذبة بأن

(٦٢) عن تفاصيل معركة منازكرد ، انظر : ابن الفلاني ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٩ ، ابن المديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٢ - ٢٠ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٦٦ - ٦٧ ، العماد الاصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٤٠ - ٤٤ ، سهيل زكار ، مخمل لتاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٤٦ - ١٤٩ ، اسفروسم ، الروم ، ج ٢ ، ص ١١٠ - ١١١ ، شاكرا مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ Psellus, The Chronographia, in Ashour and Rabie, Fifty documents, pp. 58 - 60; Ostrogorsky, Byz. State, pp 344 - 46 ; Vryonis, The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor, pp. 96 - 103 ;

وعن اخبار هذه المعركة كما وردت في المصادر العربية انظر : C. Cahen, "La Campagne de Mantzikert d'après les sources musulmanes" in Byzantium, Vol. IX (1934) , pp. 613 - 42. Vasiliev, Byz. empire, I, p. 356.

الامبراطور قد هزم ، وانسحب من المعركة بقواته وكان قائداً مؤثرة الجيش ، مما أدى الى حدوث فوضى واضطراب في الجيش البيزنطي كنه (٦٤) . يضاف الى ذلك أيضا بقاء حركة الجيش البيزنطي وخفة حركة جيش السلاجقة خاصة — كما ذكر ابن العديم — ان السلطان الب أرسلان وضع خطة محكمة عندما قسم بعض فرق جيشه الى مجموعات من الكمان اختفت خلف التلال المحيطة بساحة المعركة ، وانقضت على الجيش البيزنطي في الوقت المناسب ولعبت دورا هاما في تمزيقه (٦٥) .

وعقد الامبراطور الاسير رومانوس الرابع ديوجينيس معاهدة مع السلطان السلجوقي الب أرسلان تقضى باطلاق سراحه بشرط أن يدفع فدية كبيرة وجزية سنوية ، وأن يعيد انطاكية والرها ومنبج الى المسلمين . وتمهد أيضا بأن يطلق سراح أسرى الأتراك ، وأن يقدم مساعدة عسكرية للسلاجقة عند طلبها . وأعطاه السلطان السلجوقي عشرة آلاف دينار ليتجهز بها في عودته الى بلاده ، وأرسل معه فرقة لحراسته (٦٦) .

وتعتبر هزيمة البيزنطيين على مقربة من منازكرد نقطة تحول فظيمة في التاريخ الاسلامي والتاريخ البيزنطي . فلأول مرة يقع الامبراطور البيزنطي نفسه أسيرا في أيدي المسلمين الفاتحين . ولاتقل أهمية هذه المعركة ونتائجها عن معركة اليرموك ، فإذا كانت معركة اليرموك قررت مصير بلاد الشام ، فإن معركة منازكرد قررت أيضا مصير آسيا الصغرى . اذ نجح الاتراك السلاجقة في فتحها والتوغل

Vryonis, Byzantium, pp. 133 4.

(٦٦)

٦٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٨ .
(٦٦) انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٩ — ٣٠ ،
سهيل زكار ، مدخل لتاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٤٩ — ١٥١
Vasiliev, Byz. empire, I, p. 356.

فيها ، ومن ثم مهوا إسقوط الدولة البيزنطية • ولم تستطع بيزنطة الوقوف في وجه توسع السلاجقة في آسيا الصغرى ، وكانت هذه الأقاليم الشرقية - وبخاصة أرمنية وقبادوقيا - على جانب كبير من الأهمية للدولة البيزنطية ، لأنها أمدت الإمبراطورية دائماً بكثير من الأسرات الحاكمة وعدد لا حصر له من أمهر الرجال في شئون الحرب والسياسة • وكانت خسارة الدولة البيزنطية لملايات شرق آسيا الصغرى وأرمنية وقبادوقيا ، وهي التي استقر فيها الأتراك السلاجقة ، دليلاً وبرهاناً على قرب موت الدولة البيزنطية أو بداية النهاية لحياتها • وكما يقول الأستاذ فريونيس Vryonis عندما فقدت الدولة البيزنطية ولاياتها الغنية في آسيا الصغرى ، أصبحت القسطنطينية رأساً حرم من الجسد الذي يسنده (٦٧) •

وعندما توغل السلاجقة في آسيا الصغرى بعد منازكد ، انتقلت هذه البلاد من الحضارة اليونانية والديانة والآداب المسيحية إلى العقيدة والحضارة الإسلامية وما تحمله من نظم وآداب • ففي منتصف القرن الحادى عشر الميلادى كان عامة سكان آسيا الصغرى يدينون بالمسيحية ويتكلمون اليونانية ، ويتصفون بالاستقرار • وبعد معركة منازكد توغلت القبائل السلجوقية في آسيا الصغرى ، وكان أفراد هذه القبائل يدينون بالإسلام ويتكلمون التركية ويمارسون حرفة الرعى • وكان لابد من حدوث اندماج بين السكان الأصليين والمهاجرين • وخلال السنوات العشر التالية لموقعة منازكد غمرت القبائل السلجوقية معظم آسيا الصغرى ، ولم يجد السلاجقة سوى مقاومة ضعيفة فعاثوا واندمجوا مع السكان الأصليين • وكان لابد من حدوث تزاوج ، وعلى الأقل كما تقول الأسطورة أن البطل التركي سيدى غازى Seidi Ghazi تزوج أميرة مسيحية يونانية • ولعل منشأ تلك الأسطورة هو إعطاء

الصفة الشرعية لما حدث في آسيا الصغرى • وأشار المؤرخ نيقيتاس خونيكتس Nicetas Choniates إلى أن سكان آسيا الصغرى المسيحيين أثروا حكم الأتراك السلاجقة على حكم الإمبراطور البيزنطي. ويدل هذا على وجود أتباع نحل كثيرة مثل البوليكيين Poulicians وغيرهم تعرضوا لاضطهاد من الدولة البيزنطية ، كما أن اختلاف السلالات البشرية والاختلافات اللغوية في آسيا الصغرى كان لها تأثير في إضعاف المقاومة أمام الأتراك السلاجقة • وعلى الرغم من أن اللغة اليونانية كانت لغة أغلبية سكان المدن في بداية فترة انتشار المسيحية ، إلا أنها كانت بطيئة الانتشار في الأقاليم الزراعية حيث تمسك المزارعون — إلى حد ما — بلهجاتهم الآسيوية حتى الغزو السلجوقي (٦٨) •

يضاف إلى ذلك أن الدولة البيزنطية اتبعت — بعد أربعة قرون من غارات العرب المسلمين عبر جبال طرسوس — استراتيجية قادرة على الدفاع عن حدودها • واستطاعت بيزنطة أن توقف الغارات في داخل حدودها ، وكانت هذه الغارات تأخذ طابعاً سنوياً (المصوائف والشواتى) في معظم الأحوال • أما الغزو التركي السلجوقي فاتخذ شكلاً جديداً ، فالغارات الإسلامية الأولى كانت تخرج من قواعد متقدمة في قيليقية وشمال الشام ، قامت بها فرق من الفرسان الخفيفة كانت على استعداد للاستحباب بعد كل غارة من الغارات • أما الأتراك السلاجقة فقد أتوا إلى آسيا الصغرى لكي يستقروا ، وأحضروا مع جيوشهم كل قبائلهم وأسرهم ومواشيهم بحثاً عن مراعي وبيوت جديدة (٦٩) •

Brice, W. C. , "The Turkish colonization of Anatolia" (٦٨)
Bulletin of the John Rylands Library, Vol. 38, (1955—1956), pp. 18—19
 وعن الغزو السلجوقي لآسيا الصغرى فيما بين سنتي ١٠٧١ — ١٠٨١ ،
 انظر :
 Vryonis, *The decline of medieval Hellenism in Asia Minor*, pp. 103—113.

Brice, *The Turkish colonization*, p. 20.

(٦٩)

ويشير الاستاذ كلود كاهن في دراسة له عن المراحل الهامة للغزو السلجوقي في آسيا الصغرى ، أن حادث منازكرد كان مرحلة هامة ضمن مراحل طويلة للتوغل التركي في آسيا الصغرى . فقبل سنة ١٠٧١ كانت القبائل التركية تتحرك من فارس غربا ، وكان الأتراك يستخدمون كجند مرتزقة أحيانا . أما بعد سنة ١٠٧١ وفيما بين سنتي ١٠٧١ و ١٠٨٧ فقد انتهت مقاومة بيزنطة ، وأقيمت دويلات تركمانية مستقلة تحت زعامة زعماء من الأتراك في جهات كثيرة من آسيا الصغرى والشام . وضعفت هذه الدويلات التركمانية نتيجة لمحدث بينها من نزاع وتنافس وأخيرا تم توحيد الأتراك في آسيا الصغرى تحت ظل دولة سلجوقية عاصمتها قونية . أيضا فإلى ذلك أن التوغل التركي لم يأخذ شكلا هجوميا بواسطة جيش قوى قادر ، ولكنه كان توغلا ساكنا بواسطة قبائل في البداية لحقتها قوة عسكرية ضاربة . ومنذ أوائل القرن الثالث عشر كان الفارق واضحا أمام المؤرخين البيزنطيين بين الأتراك المستقرين والأتراك الرحل الذين أطلقت عليهم حنة كومنين Anna Comnena اسم تركمان Turcomans تمييزا لهم عن الأتراك المستقرين (٧٠) .

أما في القسطنطينية فعندما وردت إلى سكانها أخبار هزيمة منازكرد وأسر الامبراطور رومانوس ديوجينيس ، تم تعيين ميخائيل دوقاس ابن الامبراطورة ايدوكيا Eudocia من زوجها الاول قسطنطين دوقاس امبراطورا . وميخائيل السابع دوقاس (١٠٧١ — ١٠٧٨) كان تلميذا لبسيللوس ، وبالتالي كان مغرما بالآداب والجدل العلمى وكتابة النثر دون الاهتمام بالنشاط العسكرى فى وقت كانت الامبراطورية فيه

C. Cahen, "Les grandes lignes de l'histoire de la pénétration (V.) turque en Anatolie et en syrie pendant la second moitié du XIe siècle", in *Actes du XXe Congrès International des Orientalistes* (Brussels, 1938), p. 336.

في أشد الحاجة الى قوائد عسكري للوقوف في وجه السلاجقة والبشناق (٧١) . ولما عاد رومانوس من الأسر واجهه في القسطنطينية مقاومة عنيفة ، وجرى سمل عينيه ، ولم يلبث أن مات متأثرا بجراحه سنة ١٠٧٢م .

وكان لدى الامبراطور ميخائيل السابع ومستشاريه الأمل في العودة لقتال الأتراك السلاجقة ولإعادة مكانة بيزنطة في آسيا الصغرى . غير أن تلك المهمة كانت صعبة ، وكان لديهم إيمان قوى في إمكانية تحقيق ذلك بمساعدة الأوربيين اللاتين في الغرب . والتفتوا طالبين المساعدة من روبرت جويسكارد Robert Guiscard زعيم النورمان . وفي السنة التي حدثت فيها كارثة منازكر (١٠٧١) كان روبرت جويسكارد قد انتهى من الاستيلاء على الممتلكات البيزنطية في جنوب إيطاليا باستيلائه على مدينة بارى Bari ، وهو العمل الذي جعله سيد جنوب إيطاليا . وكان سقوط بارى دليلا على نهاية السيادة البيزنطية في جنوب إيطاليا . ومن هذا المركز في أبوليا Apulia استطاع روبرت جويسكارد تحقيق انتصارات سريعة بغزوه ما تبقى من أقاليم صغيرة للدولة البيزنطية في داخل إيطاليا ، وسهلت انتصاراته في جنوب إيطاليا استرداد صقلية من المسلمين . وأصبح جويسكارد دوقا لأبوليا ، واعتبر نفسه خليفة شرعيا للأباطرة البيزنطيين ، غير أنه أبقى التنظيم الإداري البيزنطي في الأقاليم المفتوحة ، وظلت اللغة اليونانية تستخدم عند أداء الصلوات في كالبريا ، وكذلك استخدمت هذه اللغة على أنها اللغة الرسمية في بعض الأقاليم التي خضعت للنورمان . وذهبت آمال روبرت جويسكارد الى أبعد من أراضي جنوب إيطاليا ، فقد انتهر فرصة ضعف الدولة البيزنطية من الداخل ومشاكلها الخطيرة في الخارج ، وتطلع روبرت ليحقق حلمه في الاستيلاء على التساج الامبراطورية البيزنطية . وهكذا فسقوط بارى سنة ١٠٧١ ومعركة منازكر ونتائجها الخطيرة التي حدثت في أغسطس من العام نفسه ، جعل من سنة ١٠٧١

أهم السنوات في التاريخ البيزنطي كله ، فقد فقدت بيزنطة في تلك السنة جنوب إيطاليا في الغرب ، وفقدت السيادة على آسيا الصغرى في الشرق ، وانحسرت أراضيها ، وانهارت الامبراطورية . وبدأت محاولات لاجهاض أهداف روبرت جويسكارد بمشاريع الزواج بين البيتين الحاكمين البيزنطي والنورمانى (٧٢) .

وتجدر الاشارة الى أن محاولة الدولة البيزنطية التقرب الى روبرت جويسكارد بدأت منذ عهد رومانوس ديوجينيس . والمصادر المتداولة لا تستطيع أن تحدد التاريخ الذى اقترح فيه رومانوس زواج أحد أبنائه باحدى بنات روبرت جويسكارد . ويبدو أن هذا التقارب حدث في ضوء الخطر الذى هدد سيادة الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى من جانب الانراك السلاجقة ، ويدل من ناحية ثانية على أن الدولة البيزنطية كانت على استعداد لتقديم نوعا من الاعتراف بسيادة روبرت جويسكارد في ايطاليا ، غير أن هذا الاقتراح رفضه القائد النورمانى . وما أن تولى ميخائيل السابع عرش بيزنطة حتى استأنف سياسة سلفه في التقرب من روبرت جويسكارد ، فامتنع عن الادعاء بحق بيزنطة في ممتلكاتها في جنوب ايطاليا حرصا منه على كسب صداقة القائد النورمانى ليحقق هدفين ، الأول أن يأمن من أى هجوم من جانب جويسكارد ضد الدولة البيزنطية ، والثانى أن يبحث النورمان على مساعدته فى دفع الأتراك السلاجقة من آسيا الصغرى ، لهذا استأنف ميخائيل السابع مع جويسكارد مشروع الزواج وما يتبعه من تحالف . ورفض جويسكارد هذا الاقتراح مرة ثانية ، غير أن البلاط البيزنطي حاول مرة أخرى فى سنة ١٠٧٤ احياء هذه الفكرة وأن يتزوج أحد أولاد ميخائيل السابع بابنة جويسكارد . ووافق جويسكارد هذه المرة ، وتم ذلك الزواج والتحالف مع البيزنطيين . وكان غرض الدولة البيزنطية

وأملها من هذا الزواج هو الحصول على مساعدة النورمان حتى يتمكن البيزنطيون من طرد السلاجقة من آسيا الصغرى • غير أن الدولة البيزنطية لم تكن شيئاً من تحالفها مع روبرت جويسكارد (٧٣) •

• وحاول الامبراطور ميخائيل السابع دوقاس بعد ذلك الاستنجاد بالبابوية ، فاتصل بالبابا جريجورى السابع ، ووعده في مقابل مساعدته بالعمل على ازالة القطيعة بين كنيسة روما والقسطنطينية • وأجاب البابا جريجورى السابع لجابة طيبة ، وأرسل عددا من الرسائل الى ملوك وحكام أوروبا يشرح لهم فيها حقيقة موقف المسيحية في الشرق ، وما تعانيه الدولة البيزنطية نتيجة توسع « الوثنيين » ويقصد الأتراك السلاجقة الذين وصلوا الى اسوار القسطنطينية(٧٤) • ويفهم من الرسائل التى أرسلها البابا جريجورى السابع الى دوق برجنديا وهنرى الرابع امبراطور المانيا وغيرهما ، أن البابا لم يقصد الدعوة الى حملة صليبية للاستيلاء على الاراضى المقدسة فى فلسطين من المسلمين ، بل كانت خطة البابا هى اعداد حملة حربية الى القسطنطينية لانقاذ الدولة البيزنطية ، وهى الدولة التى تقوم بدور المدافع الرئيسى ضد المسلمين فى الشرق • ورأى جريجورى السابع أن تقديم مثل هذه المساعدة سوف يتبعه وحدة الكنائس وعودة الكنيسة الشرقية (النضالة) الى حضن الكنيسة الكاثوليكية(٧٥) • ولم تأت استغاثة البابا جريجورى السابع بنتائج ايجابية ، اذ لم تصل أية مساعدات حربية أو غيرها من الغرب اللاتينى • وسرعان ما انشغلت البابوية بالنزاع بينها وبين الامبراطورية ، أى بين البابا جريجورى السابع والامبراطور هنرى الرابع حول مشكلة التقليد العلمانى ، أى قيام الحكام العلمانيين من

Charanis, "Byzantium, the west and the origin of the (٧٣)

First Crusade", *Byzantium*, Vol. XIX (1949), pp. 17 — 20.

Ibid., pp. 20 ff. Vasiliev, *Byz. empire*, I, p. 358. (٧٤)

Vasiliev, *Byz. empire*, II, pp. 395 - 6. (٧٥)

أباطرة وملوك وأمراء بتقليد رجال الدين مهام مناصبهم الدينية (٧٦) .
وأخيرا لم يجد الامبراطور ميخائيل السابع أمامه سوى عقد
اتفاقية مع القائد السلجوقي سليمان بن قطلмыш الذى آلت اليه القيادة
العسكرية للسلاجقة فى آسيا الصغرى ، وكان والده ابن عم طغرل بك .
وأقر الامبراطور البيزنطى فى هذه الاتفاقية بحق السلاجقة فى حكم
الاقاليم التى استولوا عليها من بيزنطة فى آسيا الصغرى . واستولى
سليمان على الجزء الأوسط من آسيا الصغرى ، وأسس سلطنة الروم ،
وأصبحت عاصمتها أنغنى وأجمل مدينة بيزنطية فى آسيا الصغرى وهى
مدينة Iconium (قونية الحالية) . ومن هذا الموقع المهم فى آسيا
الصغرى اتسعت سلطنة سلاجقة الروم أو سلطنة قونية حتى وصلت
الى شواطئ البحر الاسود فى الشمال وساحل البحر المتوسط فى
الجنوب ، وأصبحت هذه السلطنة منافسة خطيرة للدولة البيزنطية .
واستمر السلاجقة فى التحرك والتوسع ناحية الغرب ، ولم يكن فى مقدرة
القوات البيزنطية مقاومة التوسع السلجوقي فى آسيا الصغرى (٧٧) .

وهكذا فشل الامبراطور ميخائيل السابع فى حل مشكلات الدولة
البيزنطية فى الوقت الذى اندلعت فيه الفتن والثورات الداخلية . وأخيرا
عزل ميخائيل السابع سنة ١٠٧٨ وأرغم على دخول الدير ، وتولى عرش
الامبراطورية نفقور الثالث بوتانياتس Nicephorus Botaniates
قائد أحد ثغور آسيا الصغرى حيث أعلن نفسه امبراطورا هناك ، ودخل
العاصمة ليتوجه للبطريك . وحكم نفقور الثالث الامبراطورية ثلاث
سنوات من ١٠٧٨ حتى ١٠٨١م . غير أنه نظرا لكبر سنه وضعف بنيته
لم يستطع ادارة الدولة أو أن يحل مشكلاتها الداخلية والخارجية .

(٧٦) عن القليسد الطماني والدور الأول من ادوار النزاع بين
البلوية والامبراطورية ، انظر : سعيد عشور ، لوريا العصور الوسطى ،
ج ١ ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ ، ٢٤١ - ٣٤٨ .
(٧٧) Vasiliev, Byz. empire I, pp. 357 — 8 .

ولم يعترف به كإمبراطور، على العرش عدد كبير من أصحاب الضياع
الكبيرة في ولايات الامبراطورية • وظهر عدد من المدعين بأحقيتهم في
العرش البيزنطي في أقاليم مختلفة من الدولة • وأخيرا في سنة ١٠٨١
نجح واحد منهم هو الكسيوس كومنين في الفوز بالامبراطورية ، وهو
ابن أخ الامبراطور السابق اسحاق كومنين وكان ينتمي بصلة قرابة
لأسرة دوقاس الحاكمة • ونظرا لأن الكسيوس كان أكفأ وأقدر القادة
العسكريين فكان وصوله للعرش انتصارا آخر للطبقة العسكرية من أصحاب
السيوف وكذلك لكبار أصحاب الضياع • وكان على الكسيوس أن يواجه
انهيارا داخليا نتيجة كثرة عدد الأباطرة المتعاقبين ومشكلات اقتصادية
 واجتماعية لا حصر لها • وكذلك كان عليه أن يواجه أعداء للامبراطورية
يحيطون بها من كل جانب ، وينتھزون الفرصة للانتفاض والقضاء
عليها ، الأتراك السلاجقة في الشرق والبشناق والغز في الشمال
والنورمان في الغرب (٧٨) •

حركة احياء الامبراطورية في عصر الكسيوس كومنين :

انتمتصرت الارستقراطية العسكرية في الدولة البيزنطية عندما تولى
الكسيوس كومنين ، أقدر القادة العسكريين ، عرش الامبراطورية في
سنة ١٠٨١ م • وكان الكسيوس جنديا خبيرا وسياسيا بارعا ، وجد
الدولة البيزنطية عندما تولى العرش قد انكشفت الى أقاليم صغيرة
وأصبحت أيامها معدودة • وإذا كانت الدولة البيزنطية قد تم انقاذها
وطال عمرها لمدة ثلاثة قرون ونصف من الزمان فالفضل يرجع الى هذا
الامبراطور الجندى الكسيوس كومنين(٧٩) • وتظهر المشكلات الخطيرة
التي واجهت الكسيوس كومنين في كتاب احتوى على حوادث حكمه وكتبته
ابنته الاميرة حنه كومنين وعنوانه The Alexiad ، وتتحدث حنه في

Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 353 — 354; Ostrogorsky, (٧٨)

Byz. state, pp. 348 — 50.

Vryonis, Byzantium, p. 134.

(٧٩)

المفصل السادس من كتابها على لسان أبيها الكسيوس « لقد وجدت الامبراطورية محاطة بالبرابرة من كل جانب ، وتعالى تماما من نقص موارد الثروة حتى يمكنها الوقوف في وجه هؤلاء الأعداء الذين يغيرون عليها بقسوة . وأنتم تعلمون المخاطر التي اقتحمتها ، وكيف هربت بصعوبة من الذبح بسيف البرابرة . وكان هؤلاء الأعداء الذين هاجمونا من كل جانب في مرات عديدة أكثر منا عددا . وكلكم تعلمون الكثير عن الحملات العسكرية التي قام بها الفرس (الأتراك السلاجقة) واغارات الباتريناك (البشناق) Scythians ، كما أنكم لم تكتسوا الرماح الموجهة ضدنا من ايطاليا (النورمان) ، وكذلك قد اختفت الاموال والأسلحة ... » (٨٠) .

وللوقوف في وجه الأخطار التي واجهت بيزنطة من جانب النورمان والبشناق والسلاجقة ، استولى الكسيوس مدفوعا بحاجة ملحة الى المال على بعض الممتلكات الكنسية التي لم تستغل استغلالا طيبا وأحاطها بالاهمال . وقد أدى ذلك الاجراء الى علاقات متوترة مع الكنيسة أحيانا ، غير أن الكسيوس سرعان ما غير سياسته وقام في بعض الأحيان بتسليم ممتلكات كنسية الى رجال علمانيين بقصد استثمارها (٨١) .

ولم يعد عماد الجيش البيزنطي في عصر الكسيوس كومنين ذلك الجندي الفلاح ، اذ أصبح المرتقة في الجيش سواء من الاجانب أو الوطنيين عنصرا له أهمية كبيرة . وشاع أيضا نظام البرونويا Pronoia . وكانت هذه المنح توهب منذ منتصف القرن الحادي عشر

The Alexiad of the princess Anna Comnena, Translated (٨٠) by Elizabeth A. S. Dawes, (London, 1967), pp. 141 — 2; Ashour and Rabie, Fifty documents, p. 75; Hussey, Byzantine World, p. 52; Cam. Med. Hist. , Vol. 4, Part 1 , p. 212.

Hussey, Byzantine World, p. 55.

دون اداء الالتزامات الحربية التى يبدو أنها ظهرت لأول مرة فى عهد الكيسوس كومنن فى وقت ما قبل سنة ١١١٩م • وكان صاحب البرونويا يقوم بتحصيل الموارد المالية فى اقليمه بما فى ذلك الضرائب والرسوم من مؤجرى المزارعين • ويخدم فى الجيش محبوا بفرقة العسكرية بعد تجهيزها تجهيزا حريا عندما يطلب منه ذلك • ويتوقف عدد عساكره كثرة وقلة تبعا لمساحة وقيمة البرونويا ، التى اتصفت بصفة هامة عندما أصبحت تمنح لى الحياة ، وغير قابلة للانتقال من شخص لآخر ، كما لم تكن وراثية (٨٢) •

واهتم الكيسوس بالدرجة الاولى بالسياسة الخارجية والدفاع عن الامبراطورية سواء عن طريق الدبلوماسية أو الحرب • ففى أبريل سنة ١٠٨١م بدأ الامبراطور الكيسوس مفاوضات مع الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى • واعترف الكيسوس بما استولوا عليه فى آسيا الصغرى ، وكان الامبراطور يأمل فى ايقاف تقدمهم حتى يتفرغ للانزلة النورمان (٨٣) •

فقد سبقت الانسار (٨٤) الى أن روبرت جويسكارد تمنى أن يصبح امبراطورا رومانيا • ولم تستفد بيزنطة من مشروعات الزواج بين البيت البيزنطى والبيت النورمانى ، اذ صمم روبرت جويسكارد على غزو القسطنطينية واعطاء بيزنطة ضربة قوية ، ونقل الاغارات الى الساحل الادرياتيكي للبلقان • وترك روبرت جويسكارد حكم ابوليا الى

Hussey, Byzantine World, p. 56, Ostrogorsky, G., "Sur (٨٢) la promia, A propos de L'article de M. Lascaris", in *Byzantion*, tom XXII (1952), pp. 161 — 163 ;

السيد الباز العربى ، الدولة البيزنطية ، ص ٧٣٢ — ٧٣٣ ، انظر ما سبق ، ص ١٧٣ •

Hussey, Byzantine World, p. 52. (٨٣)

(٨٤) انظر ما سبق ص ١٩٤

ابنه الأصغر روجر Roger مع أخيه الأكبر بوهمند Bohemond وأبحر هو في اسطول قاصدا الاستيلاء على ميناء ديراخيوم Dyrrachium وهي دورازو الحالية Durazzo في ايليريا . وعندما تحقق للامبراطور الكسيوس كومنين عدم قدرته على مواجهة الخطر النورمانى اتجه الى الغرب اللاتينى طالبا المساعدة وخاصة من الامبراطور الالماني هنرى الرابع . غير أن هنرى لم يكن وقتذاك قد انتهى من نزاعه مع البابا جريجورى السابع وبالتالي لم يقدم أية مساعدة لبيزنطة (٨٥) .

وتجدر الإشارة الى أن ظهور النورمان في ايطاليا ومحاولة روبرت جويسكارد السيطرة على كلا الجانبين لمخل البحر الادرياتيكي سبب رعبا لمدينة البندقية التى وجدت أن نموها البحرى والتجارى مهدداً بالخطر . لهذا فرح البنادقة ووافقوا على اقتراح الامبراطور الكسيوس كومنين بعقد تحالف ضد النورمان . ونظرا لحاجة الدولة البيزنطية الملحة لمساعدات بحرية نظرا لقصورها البحرى ، وعد الامبراطور الكسيوس البندقية بامتيازات تجارية كبيرة مقابل مساعدة بيزنطة باسطول . وهذه الامتيازات هى التى أدت الى تأسيس قواعد امبراطورية البندقية التجارية (٨٦) .

وأدرك البنادقة أنه في حالة تحقيق النورمان لانتصار عسكري فسوف يسيطرون على الطرق للتجارة الموصلة الى بيزنطة والى الشرق ، ويستولى النورمان أيضا على كل ما يأمل البنادقة في الاستيلاء عليه في مستقبل الأيام . يضاف الى ذلك أن هناك خطراً آخر كان يهدد البندقية وهو أن استيلاء النورمان على الجزر الأيونية وبخاصة كورفو Corfu

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 380; Cam. Med. Hist., Vol. (٨٥)
4, Part I, p. 213.

وانظر ما سبق ص ١١٦ — ١١٧
Vryonis, Byzantium, p. 136. (٨٦)

وكيفالونيا Cephalonia والساحل الغربى لشبه جزيرة البلقان سوف يمنع وجيول سفن البنادقة التى تجر فى البحر المتوسط الى البحر الادرياتيكي . وبعد استيلاء روبرت جويسكارد على جزيرة كورفو حاصر ميناء دورازو برا وبحرا واستولى عليه فى بداية سنة ١٠٨٢ بعد أن هزم جيشا بريا بقيادة الكسيوس . وحدثت فتنة فى جنوب ايطاليا أرغمت جويسكارد على العودة الى ايطاليا . ثم قام باعداد حملة أخرى ضد الدولة البيزنطية ، ولم يمنع دون تحقيق مزيد من انتصارات جويسكارد سوى انتشار الوباء بين قوات النورمان ، ووقوع روبرت فريسة هذا الوباء وموته سنة ١٠٨٥ شمال جزيرة كيفالونيا . فأعطى موت روبرت جويسكارد الامبراطور الكسيوس فترة من الراحة كان فى حاجة ماسة اليها (٨٧) .

وتلقى البنادقة فى مقابل المساعدة البحرية التى قدموها للدولة البيزنطية امتيازات تجارية كبيرة مما جعل للبندقية مركزا خاصا فى الدولة البيزنطية . ففى مايو سنة ١٠٨٢ أصدر الامبراطور الكسيوس مرسوما امبراطوريا يسمى Chrysobull (أى براءة موثقة بخاتم الإمبراطور الذهبى) منح بموجبه التجار البنادقة الحق فى البيع والشراء فى جميع أنحاء بيزنطة ، وأعفاهم من كل الضرائب والرسوم الجمركية ورسوم الموانئ والضرائب التجارية الأخرى . وقرر الامبراطور أن موظفى الجمارك البيزنطيين لم يعد من حقهم تفتيش متاجر البنادقة . كما منح الامبراطور للبنادقة أحد أحياء القسطنطينية . واحتوى ذلك الجب الكبير على جوانيت ومغازن وثلاثة مرافئ للسفن، حيث تتمكن سفن البنادقة من تفريغ حمولتها وحمل البضائع منها . ووعد البنادقة من ناحيتهم أن يظلوا الرعايا المخلصين للدولة البيزنطية .

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 380 — 381 ; Vryonis, (٨٧)
Byzantium, p. 136.

وهكذا عمل التجار البنادقة معاملة أفضل من تلك التي كان يتلقاها التجار البيزنطيون أنفسهم . وهكذا وضع البنادقة بواسطة ذلك الموسوم أساسا متينا لقوتهم الاستيطانية في الشرق ، وحصلوا على امتيازات اقتصادية في بيزنطة لا تنافس لمدة طويلة من الزمان . غير أن هذه الامتيازات الاقتصادية الاستثنائية التي حصلت عليها البندقية ، أصبحت في ظل ظروف متغيرة ، مع مضي الزمن ، أحد أسباب النزاع السياسي بين الدولة البيزنطية وجمهورية البندقية ، وأحد العوامل الاقتصادية التي ساهمت في تدهور أحوال الدولة البيزنطية (٨٨) .

أما بالنسبة لموقف الامبراطور الكيسوس من السلاجقة والبشناق ، فقد أغاروا على حدود الدولة البيزنطية لدرجة جعلت حنه كومنين تقتصر على أن حدود بيزنطة أصبحت « البوسفور القريب من الشرق ومدينة ادرنه في الغرب » ، وأضافت أن أياها الكيسوس أخذ يضرب ببيده البرابرة المحدثين بالامبراطورية من كلا الجانبين (٨٩) .

ولاشك أن حنه كومنين كانت تقصد السلاجقة الأتراك في الشرق والبشناق في الشمال . ويذكر المؤرخ المسلم ابن العديم في حوادث سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م أن سليمان بن قطلмыш انتهر فرصة ضعف الروم أي البيزنطيين واستولى على أنطاكية ومواقع عدة من ضياعها وأعمالها وصار لسليمان من نيقية إلى طرابلس وملك الثغور الشامية (٩٠) . ولم يكن في إمكان الكيسوس الوقوف أمام السلاجقة نظرا لشدة غزوات

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 381 — 2; Charanis, "Economic Factors in the decline of the Byz. Empire". *Journal of the Economic History*, Vol. 13 (1953), p. 422; Cam Med. Hist. Vol, 4, I, p. 213. (٨٨)

ارشييلاد لويس ، القوى البحرية والتجارية ، ص ٣٧٨ — ٣٧٩ ، عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ٦٥ . (٨٩)

The Alexiad, p. 159.

(٩٠) ابن العديم ، زبدة الحطب ، ج ٢ ص ٨٦ — ٨٩ .

البشناق. من الشمال • ففي نهاية العقد التاسع من القرن الحادى عشر الميلادى لقي الكيسوس هزيمة منكرة من البشناق عند دريسترا (Dristra (Silistria) فى الدانوب الأدنى ، وكاد أن يقع أسيرا • ولم يستطع البشناق الاسفاده الكاملة من انتصارهم بسبب ما حدث من نزاع بينهم وبين الكومان حول تقسيم الغنائم • وتعدت الدولة البيزنطية بدفع اناوة للبشناق (٩١) • وفى سنة ١٠٩٠ - ١٠٩١ م تحالف البشناق مع الامير التركى حاكم آزير Smyrna ، وهاجموا القسطنطينية برا وبحرا ، وكان هذا الهجوم على العاصمة البيزنطية حادثا خطيرا • وأخيرا استخدم الكيسوس الدبلوماسية البيزنطية المعتادة بأن أثار طائفة من البرابرة ضد طائفة أخرى • واستطاع بمساعدة الكومان والروس الحاق الهزيمة بالبشناق فى هزيمة ساحقة فى ٢٩ أبريل ١٠٩١ م عند جبل ليفونيون Mt. Levonion • وتحدثت عنه كومتين حديثا مطولا عن هذه المعركة لأهميتها • وهكذا استطاع الكيسوس بذلك القضاء على أخطار تلك الجماعات الرعوية (٩٢) • ولعل الامبراطور الكيسوس فكر بعد هذه المعركة فى محاولة استرداد النفوذ البيزنطى فى آسيا الصغرى وذلك بعد أن سمع بالنزاع والشقاق الذى نشب بين سلاجقة الروم بعد موت مؤسس سلطنتهم سليمان بن قتلмыш سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م • غير أن خطط الكيسوس انقلبت رأسا على عقب عندما اقتربت الحملة الصليبية الأولى من القسطنطينية • ولعبت بيزنطة دورا هاما فى حوادث تلك الفترة الزمنية حتى أن دراسة تاريخها من الأمور الهامة لفهم جذور وتطور الحركة الصليبية • ويلاحظ أن معظم الذين درسوا تاريخ الحروب الصليبية درسوها من وجهة نظر غربية على أساس أن جعلوا الدولة البيزنطية الشجب

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 383 -- 384. (٩١)

The Alexiad, pp. 202 - 205; Vasiliev Byz. empire, II, (٩٢)

pp. 384 - 5 ; Vryonis, Byzantium, pp. 136 -- 8.

الذى علقوا عليه كل أنخطاء المصلبيين(٩٣) •

وقد رأينا فيما سبق كيف حاول الامبراطور البيزنطى ميخائيل السابع دوقاس الاستنجد بالبابا جريجورى السابع بعد هزيمة بيزنطة فى منازكرد وادراك البيزنطيين بعجزهم عن مواجهة الأتراك المسلمين بمفردهم ، وكيف حاول البابا جريجورى السابع حث بعض ملوك أوروبا لمساعدة البيزنطيين فى صراعهم ضد السلاجقة المسلمين(٩٤) • ويلاحظ أن الامبراطور الكسيوس كومنين فعل مثلما فعل ميخائيل السابع عندما طلب ، تحت ضغط ما حدث فى سنة ١٠٩١ ، قسوات مساعدة من الغرب الاوروبى • وهناك رسالة *Epistula* ذكر بعض الباحثين أنها مزيفة قيل أن الامبراطور الكسيوس كومنين أرسلها الى صديقه روبرت الاول ، كونت فلاندرز Robert of Flanders المسمى بالفريزى Frisian (١٠٧١ — ١٠٩٣) • وفى هذه الرسالة التى وجهها الكسيوس الى روبرت والى جميع الامراء فى أنحاء العالم تحدث الامبراطور البيزنطى عما تتعرض له الدولة البيزنطية من أخطار البشناق والأتراك السلاجقة • وادعى الامبراطور أن الأتراك يقتلون المسيحيين ويرتكبون المحرمات كلها ، وحث صديقه روبرت على أن يسرع فى تقديم المساعدة لنجدته قبل أن تسقط القسطنطينية فى أيدي الأتراك ، وأن يحاربهم بكل قوته حتى ينال الجزاء الآلهى ، وأنه يفضل أن يأخذ هو القسطنطينية بدلا أن يستولى عليها الوثنيون(الأتراك)(٩٥) • ولاشك أن هذه الرسالة — كما ذهب الأستاذ فازيليف Vasiliev

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 390. (٩٣) انظر :

(٩٤) انظر ما سبق ص ١٩٦

Joranson (Einar) : "The problem of the Spurious letter of Emperor Alexius to the count of Flanders", in *American Historical Review*, Vol. 55 (1950) , pp. 318 — 815. (٩٥)

ومن هذه الرسالة بالتصميم انظر ايضا :

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 386 — 388.

ودهب العالم ريلان Riant ان هذه الوثيقة زورتنى الفترمابين =

تدل على أن الامبراطور الكسيوس أرسل رسائل الى الغرب طالبا المساعدة والعون ، كما يرى فازيليف أنه من المحتمل جدا أن تكون هذه الرسالة قد أرسلت في سنة ١٠٩١ م ، وهي السنة الحرجة في تاريخ الدولة البيزنطية (٩٦) .

غير أن هذه القوات الأوروبية المساعدة التي طلبها الكسيوس أصبحت لاقيمة كبيرة لها. في سنة ١٠٩٢ بعد أن هزم الكسيوس البشنق ، ولكن الدعوة لاعداد حملة حربية الى الشرق كانت قد انتشرت بسرعة بفضل جهود البابا أوربان الثاني Urban II (٩٧) .

وتجدر الإشارة الى أن أوروبا قامت بحملات صليبية ضد المسلمين قبل دعوتها لما يسمى بالحملة الصليبية الاولى ، مثل الحرب ضد المسلمين في الاندلس وغزوات النورمان ضد المسلمين في أبوليا وصقلية . وكان أوربان الثاني أحد البابوات الأكفاء على دراية كبيرة بالامور السياسية في عصره . وكانت لديه القدرة على التوفيق بين الفرق المختلفة المحاصرة . واستطاع هذا البابا أن يشرك البابوية مع البيازنة والنورمان في حركة توسعية ، واستطاع أيضا أن يربط بين الحرب المقدسة في الاندلس بتلك الحرب الصليبية في الشرق مما جعله يضع الحرب ضد المسلمين في الاندلس في نفس الدرجة من الاهمية

= ١٠٩٨ — ١٠٩٩ في مخيم للصليبيين او في مكان آخر في فرنسا لحث الصليبيين على القدوم لنجدة البيزنطيين ضد المسلمين. وذكر Gaston Paris أن الأبيسنولا قد كتبت سنة ١٠٩٠ لحث الفرسان الفرنسيين على مساعدة الامبراطور البيزنطي ، وذهب Hagenmeyer الى أن الوثيقة أعدت سنة ١٠٨٨ لنفس الغرض ، انظر :

Joranson. Op. Cit. , pp. 819 — 820.

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 387 — 88.

Ibid. . II, pp. 396 — 7.

(٩٦)

(٩٧)

التي وضع فيها الحرب الصليبية ضد المسلمين في الشرق (٩٨). وعلى سبيل المثال فقد أرسل البابا أوربان الثاني في سنة ١٠٨٩ م خطبا إلى الكونتات والاساقفة والنبل وغيرهم في اسيانيا يطلب منهم البقاء هناك في أراضيهم بدلا من الذهاب الى بيت المقدس ، وان ينفذوا كل جهودهم لتعمير الكنائس الخربة مما يوضح حقيقة الدافع الصليبي (٩٩) .

وهناك عاملان كان لهما التأثير الكبير على سياسة أوربان الثاني في الشرق ، العامل الأول هو تحقيق الوحدة مع الكنيسة البيزنطية ، والعامل الثاني هو تقديم المساعدة العسكرية للإمبراطورية الشرقية . وكان لدى البابا الأمل في أن المساعدات العسكرية قد تؤدي الى نجاحه في إعادة وحدة الكنيستين ، كنيستي روما والقسطنطينية . وفي السنوات ما بين ١٠٨٩ — ١٠٩١ كانت كلا الكنيستين الشرقية والغربية تفكر في هذا الامر ، لهذا لم يكن قصد البابا أوربان الثاني هو مجرّد الدفاع عن القسطنطينية وإنما كان قصده أن الحملات الحربية سوف تعيد حدود الاسلام الى الشام أو حتى فلسطين ، وأن يتم الاستيلاء على بيت المقدس ، وبالتالي وضع أوربان الثاني كلا المذهبين القسطنطينية وبيت المقدس في درجة واحدة من الأهمية في الحملة الصليبية الأولى (١٠٠) .

وفي نوفمبر سنة ١٠٩٥ وفي كليرمونت Clermont في وسط فرنسا انعقد المجمع الديني المشهور حيث امتلأت المدينة بالزوار . وفي نهاية جلسات المجمع ألقى البابا أوربان الثاني خطبة مشهورة قضاها للأسف النص الأصلي لها ، غير أن بعض الحاضرين في المجمع حاولوا كتابة النص فيما بعد من الذاكرة ، ولذا اختلفت كل رواية عن الأخرى . وحث

Baldwin, "Some recent interpretations of Pope Urban (٩٨) II's Eastern Policy" in *Catholic Historical Review*, XXV (1940), pp. 463 — 66 .

Vasiliev, *Byz. empire*, II, p. 400.

Baldwin, "Some recent interpretations", pp. 463 — 6. (٩٩) .

البابا جموع الحاضرين على حمل السلاح « لتحرير » بيت المقدس ومساعدة المسيحيين الشرقيين ، ووعدهم بالغفران من الخطايا والمساهمة من الديون ، وحماية ممتلكاتهم أثناء مدة غيابهم عن أوطانهم (١٠١) .

وتلقف دعوة البابا أوربان لحملة صليبية الى الشرق جموع المسيحيين الأوروبيين . والحقيقة أن الحروب الصليبية هي حركة نبعت من الغرب الأوروبي ، اتخذت من المسيحية ستارا كاذبا لها ، وشنت هجوما استعماريا على ديار الاسلام والمسلمين ، وحملت معها العداء والحقن الدفين . ولسنا هنا في مجال الحديث عن بواعث وأسباب الحروب الصليبية فهذه الحروب انبعثت نتيجة الأوضاع الدينية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية التي سادت غرب أوروبا أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي . يضاف الى ذلك أن الحروب الصليبية بدأت فعلا قبل الحملة التي عرفت في التاريخ باسم (الحملة الصليبية الاولى) . فممن توسع المسلمون في حوض البحر المتوسط ، لم تنقطع الحروب بين المسلمين وبين المسيحيين الأوروبيين في آسيا الصغرى وشمال افريقية وإسبانيا وصقلية وبعض جزر البحر المتوسط (١٠٢) . وأبلغ دليل على ذلك أن المؤرخ ابن الأثير بدأ حديثه عن الحروب الصليبية بالإشارة الى خروج الفرنج الى بلاد الاسلام واستيلائهم على طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 402;

(١٠١)

ومن مجمع كليرمونت انظر :

Setton, Hist. of the Crusades, I, pp. 236 — 52.

ومن نص خطبة أوربان الثاني انظر :

Ashour and Rabie, Fifty documents, pp. 77 — 79.

(١٠٢) انظر حسنين ربيع ، جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين ، رسالة المسجد ، العدد الرابع (السنة الرابعة) ربيع الاول ١٤٠١ هـ . يناير ١٩٨١ ، ص ١٨٢ — ١٨٣ .

تم استيلائهم على صقلية سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م (١٠٣) •

وتأقت البابوية الى مد نفوذها وسلطانها في الشرق وتحقيق آمالها في السيادة على العالم المسيحى • وساعت الاحوال الاقتصادية في غرب أوروبا وبخاصة في فرنسا مما دفع بجموع الامراء الاقطاعيين والفرسان والزارعين والاقنان الى الخروج في الحملة الصليبية الأولى هروباً من احوال معيشية سيئة ، وآملاً في تأسيس امارات في الشرق على حساب المسلمين وساهمت المدن التجارية الإيطالية في الحملة الصليبية بغية السيطرة على موانئ الشرق الغنية وطرق التجارة العالمية • وقصد النورمان استخدام الحركة الصليبية في الاستيلاء على اراضى جديدة وتحقيق انتصارات على حساب بيزنطة • وسعت البابوية لتحويل طاقات النورمان الحربية الى ميدان آخر بعيداً عن جنوب ايطاليا (١٠٤) •

ووصلت أخبار الحملة الصليبية الى الامبراطور الكيسوس كومنين غامضة ودون سابق مقدمات ، لأنه لم يكن متوقفاً و راغياً في مساعدة يقدهما الغرب اللاتينى على شكل حملة صليبية • فعندما طلب الامبراطور الكيسوس مساعدة الغرب الأوروبى ، فقد قصد استخدام هذه المساعدة لحماية القسطنطينية أى الدولة البيزنطية من أعدائها • أما فكرة الاستيلاء على الأراضى المقدسة في فلسطين فهي قضية لم تعد تهم بيزنطة منذ أربعة قرون خلت ، وهي ذات أهمية ثانوية ، فمشكلة الدولة البيزنطية — وقد ذاك — كانت انقاذها من أعدائها في الشرق والشمال ، ولم تسأل وصول حملات لى ترسلها الى الأراضى المقدسة • فالدولة البيزنطية أو الامبراطورية الشرقية قامت بحملات صليبية خاصة بها ، فهناك حملات هرقل التى حققت انتصارات عظيمة ضد الفرس في

(١٠٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٢ ، سعيد عاشور ،
الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٧٢ .
(١٠٤) عن بواعث الحركة الصليبية ، انظر سعيد عاشور ، الحركة
الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٧ — ٤٣ .

القرن السابع عندما استرد الأراضى المقدسة والصليب المقدس ، وهناك الحملات المنتصرة التى قام بها نقفور فوقاس وحنا تريمسكس وباسيل الأول فى بلاد الشام ، كما وضع بعض الأباطرة البيزنطيين خططا للاستيلاء على بيت المقدس ، غير أن الدولة للبيزنطية لم تعد تفكر فى مثل تلك الآمال بعد للنجاح الذى حققه الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى فى القرن الحادى عشر ، ولم تعد بلاد الشام وفلسطين فى ذلك الوقت تتصل بالمصالح الحيوية للإمبراطورية . والحقيقة أن بيزنطة كلنت فى سنتى ١٠٩٠ — ١٠٩١ على شفا الانهيار عندما سأل الكسيوس قوات مساعدة من الغرب ، وبالتالي نظر الكسيوس كومنين الى جموع الصليبيين على قدم المساواة مع البرابرة مثل البشناق والسلاجقة الذين أغاروا على الدولة البيزنطية ، اذ أن فكرة الحركة الصليبية كانت غريبة بالنسبة لبيزنطة فى أواخر القرن الحادى عشر ، ولم يكن لدى البيزنطيين سوى رغبة وحيدة هى التخلص من الخطر التركى المداهم من الشرق والشمال(١٠٥) .

وانزعج الكسيوس كومنين عندما وصلته أخبار حملة العامة بقيادة بطرس الناسك وما قامت به من النهب والسلب والدمار فى طريقها . كما نهب الصليبيون الجهات المجاورة للقسطنطينية عندما صاروا على مقربة منها . وأسرع الكسيوس بنقل الصليبيين عبر البوسفور الى آسيا الصغرى . وعلى مقربة من مدينة نيقية قضى الأتراك السلاجقة على هذه القوات الصليبية فى الوقت الذى عاد فيه بطرس الناسك الى القسطنطينية قبل حدوث الكارثة(١٠٦) . وتبع ذلك فى صيف ١٠٩٦ م وصول حملات الأمراء التى اشترك فيها من كبار الصليبيين جود فرى

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 403 — 404. (١٠٥)

Ibid. , II, pp. 404 — 405. (١٠٦)

عن حملة بطرس الناسك ، انظر حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ٥٣ — ٦٤ .

بوايون دوق الثورين الأدنى ، وأخوه بلدوين الباولوني الذي سوف يصبح فيما بعد ملكا على بيت المقدس ، فضلا عن عدد آخر من كبار الأمراء منهم بوهيموند النورمانى أخبر أبناء روبرت جويسكارد وريغوند الرابع أمير تولوز وبروفانس ، وروبرت أمير نورمندا ابن وليام الفاتح وأخ ملك إنجلترا . ووصل الصليبيون إلى القسطنطينية برا وبحرا ونهبوا ما حولها مثلما حدث في حملة العام ١٠٠٠ . وإذا كان بعض الباحثين قد اتهموا الكسيوس والبيزنطيين بعدم الولاء والإخلاص للحركة الصليبية فيمكن تفنيد هذه الآراء في ضوء النهب والسلب الذي اتبعه الصليبيون على طول الطريق (١٠٧) .

وفي القسطنطينية اجتمع الكسيوس بزعماء الصليبيين (١٠٩٦ — ١٠٩٧ م) الذين حصل منهم على قسم اقطاعي ويمين الولاء له باعتباره سيدا لهم . كما حصل الامبراطور على وعد بان يعيدوا إلى الامبراطورية الرومانية (البيزنطية) المدن والقلاع والممتلكات التي كانت تابعة لبيزنطة قبل ذلك . وكان المقصود بذلك اقاليم آسيا الصغرى التي فقدتها الدولة البيزنطية مؤخرا بعد هزيمة منازكر سنة ١٠٧١ م . وقدم الامبراطور لجموع الصليبيين سفنا وطعاما وأدلاء وقوات أمن . وعبرت القوات الصليبية إلى آسيا الصغرى ودخلت شمال الشام بمساعدة الأدلاء البيزنطيين (١٠٨) .

وكان استيلاء الصليبيين على انطاكية سنة ١٠٩٨ م مفترقا للطرق،

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 406; (١.٧)

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٤٥ — ١٦٠ .

Hussey, Byz. world, p. 54; La Monte, "To what extent (١.٨) was the Byzantine Empire the suzerain of the latin Crusading states", in *Byzantium*, Vol VII (1932), pp. 253 — 4; Setton : Hist. of the Crusades, Vol. I, p. 286; Vasiliev, Byz. empire, II, p. 408; Vryonis, *Byzantium*, p. 140.

وأماط اللثام عن النوايا العدوانية والسياسية للصليبيين • وقد سقطت انطاكية بعد أن أرسل صاحبها الأمير ياغي سيان إلى حكام دمشق وحمص « وإلى سائر البلاد والأطراف بالاستصراخ والاستنجد والبعث على الخوف إلى الجهاد وقصد تحصين انطاكية » (١٠٩) • وكانت انطاكية إلى وقت قريب وقتذاك في يد البيزنطيين • وتوقع الكسيوس قيام الصليبيين بتسليمها للبيزنطيين ، غير أن ذلك لم يحدث إذ أقام بها بوهيموند Bohemund ، ابن عدو الكسيوس القديم روبرت جويسكارد ، إمارة صليبية له • وتبع ذلك نجاح الصليبيين وتأسيسهم لامارة الرها ومملكة بيت المقدس ثم إمارة طرابلس بعد ذلك • وأذاع بوهيموند القصة القائلة بأن البيزنطيين قد خانوا الصليبيين حتى أنه اقترح على البابا غزو القسطنطينية ذاتها (١١٠) •

ومن الحقائق المسلم بها أن الانتصارات الكبيرة والمكاسب الضخمة التي حققها الصليبيون في الشرق غداة وصولهم في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد ، لم ترجع إلى قوتهم أو شجاعتهم بقدر ما كان مردها إلى ضعف القوى الإسلامية وانغماسها في خلافات مكنت الصليبيين من النفاذ إلى قلب العالم الإسلامي بالشام • يضاف إلى ذلك أن الخلافة الفاطمية وقفت موقفا سلبيا من الحملة الصليبية الأولى عند وصولها إلى شمال الشام ، ولم يشارك الفاطميون القوى الإسلامية التي نهضت للدفاع عن انطاكية ضد الصليبيين (١١١) •

(١٠٩) ابن الفلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٤ (حوادث سنة ٤٩٠ هـ) ومن الصليبيين في انطاكية انظر حسن حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ، ص ١١٠ - ١٥١ .
(١١٠) Hussey, Byz. World. p. 54; Vryonis, Byzantium, p. 141.
(١١١) انظر سعيد عشور : شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية ، في بحوث ودراسات في تاريخ العمور الوسطى ، ص ١٦٥ - ٢٢٣ •

وتطورت الأمور في اماره انطاكية ، وصمم بوهيموند على توجيه ضربة قاضية الى الدولة البيزنطية يغزو القسطنطينية نفسها بواسطة قوات يتم حشدھا في أوروبا . وترك بوهيموند ابن أخته تانكرد Tancred في انطاكية كنائب له ، وعاد هو الى ابوليا بايطاليا لقيادة الحملة التي كان أبوه روبرت جويسكارد قد أعدها سنة ١٠٨١ م للاستيلاء على دورازو وبعد ذلك لتتجه الحملة الى القسطنطينية عن طريق سالونيك . وخابت آمال بوهيموند فقد هزم عند دورازو سنة ١١٠٨ م وأرغم على قبول معاهدة صلح مع الامبراطور الكسيوس كومنين بشروط مهينة منها أنه أرغم على قبول سيادة بيزنطة على أنطاكية ، ووعد بأن يكون تابعا (فضلا) مخلصا للامبراطور البيزنطي وابنه حنا . وتمهد بوهيموند بأن يحمل سلاحه ضد أعداء الامبراطور ، وأن يعيد للأكسيوس الأراضي التي كانت تابعة لبيزنطة ، كما وعد بأن يشن حربا ضد ابن أخته تانكرد اذا رفض الخضوع للامبراطور البيزنطي . وأصبحت معاهدة الصلح هذه أساس الادعاءات البيزنطية على أنطاكية ، وحلت محل يمين الولاء الذي أقسمه بوهيموند في سنة ١٠٩٧ م (١١٢) .

وقضى بوهيموند الثلاث سنوات الأخيرة من حياته في أعمال ليست بذات أهمية ، ومات في أبوليا سنة ١١١١ م . غير أن موته جعل موقف الامبراطور الكسيوس أكثر صعوبة إذ أن تانكرد رفض تنفيذ المعاهدة ، ورفض تسليم انطاكية الى الامبراطور البيزنطي . وفكر الكسيوس في اعداد حملة ضد انطاكية الا أنه لم يكن في قدرته القيام بهذه المهمة الصعبة . وحتى عندما مات تانكرد بعد بوهيموند بوقت قصير لم يستطع الكسيوس التقدم نحو انطاكية للاستيلاء عليها ،

La Monte, "To what extent was the Byzantine Empire (١١٢) the suzerain of the latin crusading states", p. 254; Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 410 — 411.

اذ انشغل في السنوات الأخيرة من حياته بحملات سنوية ضد الأتراك
السلاجقة في آسيا الصغرى • غير أن الكيسوس نجح في الحقيقة في
أن أطال من عمر الامبراطورية وأخر انحلالها وانهارها ولكن الى
حين (١١٣٣) •

خلفاء الكيسوس كومنين :

مات الكيسوس كومنين سنة ١١١٨ م وخلفه ابنه حنا الثاني
كومنين John II Comnenus الذي حكم الدولة البيزنطية حتى
سنة ١١٤٣ م • وورث حنا الثاني وخليفته ابنه مانويل الأول
Manuel I Comnenus تركة مثقلة بكثير من المشكلات • فاذا كان
الخوف من خطر النورمان هو الدافع للامبراطور الكيسوس كومنين
لأن يمنح امتيازات تجارية كبيرة للبنادقة سنة ١٠٨٢ م ، فقد استفادت
البندقية في غضون القرن الحادى عشر من هذه الامتيازات فائدة كبيرة
وبفضلها كونت امبراطوريتها التجارية • وسبق أن ذكرنا أن الامبراطور
الكيسوس منح البنادقة حق المتاجرة في موانئ الدولة البيزنطية دون
دفع رسوم ضرائبية ، وأدى هذا الحق الى أن أصبح البنادقة يتوالى
السنين بعيدين عن منافسة التجار البيزنطيين الذين ظلوا يدفعون
ضرائب تجارية • وأدى ذلك الى الحاق الضرر بالتجار البيزنطيين
عندما باعوا سلعهم للبنادقة ، كما أن موردا هاما من موارد الدولة
ممثلا في الضرائب التجارية قد فقدته الدولة البيزنطية • وكان
الامبراطور الكيسوس كومنين قد منح البنادقة أحد أحياء القسطنطينية
بالاضافة الى ثلاثة موانئ بمخازنها على القرن الذهبى لسفنهم
ومتاجرهم • وأدى ذلك الى زيادة نفوذ وقوة البنادقة في علاقاتهم
مع البيزنطيين ، ليس فقط عند تعاملهم مع أفراد الطبقة الدنيا في
المجتمع البيزنطى ، بل ومع كبار الموظفين والنبل مما أدى الى سحق في

الدولة • وتوافد على بيزنطة وفود التجار اللاتين الذين بلغ عددهم في القسطنطينية في القرن الثاني عشر عشرات الآلاف • وصمم الامبراطور حنا الثاني على إلغاء المعاهدة التي عقدها الكيسوس مع البنادقة • غير أن البندقية أرسلت أسطولها للاغارة على الجزر البيزنطية في البحر الادرياتيكي والبحر الأيجي • وعندما أدرك حنا صعوبة مواجهة قوة البندقية البحرية تفاوض مع البنادقة وقدم لهم التأكيدات على سريان المعاهدة التجارية التي عقدها أبوه الكيسوس معهم سنة ١٠٨٢ م • وعندما خافت الدولة البيزنطية من اختكار البندقية لتجارها الداخلية ، منعت امتيازات تجارية محدودة لبعض المدن التجارية الإيطالية الأخرى مثل بيزا وجنوة في محاولة منها لضرب كل مدينة إيطالية بأخرى • غير أن هذه الامتيازات التجارية الجديدة لا تقارن بما حصل عليه البنادقة زمن الامبراطور الكيسوس (١١٤) •

وفي البلقان هزم الامبراطور حنا جموع المغيرين من البشناق سنة ١١٢٢ م بعد أن عبروا الدانوب في محاولة لغزو بيزنطة • وقد ألحقت جيوش الامبراطورية بهذه الجموع هزيمة ساحقة أنهت مشكلة البشناق الى الأبد (١١٥) •

واستمر النورمان يشكلون خطراً قائماً ضد بيزنطة نظراً لطموح قادتهم بصقلية الذين تمنوا الاستيلاء على القسطنطينية • وفي سنة ١١٣٠م قام روجر الثاني Roger II بتوحيد صقلية وجنوب إيطاليا وتم تتويجه في بالرمو Palermo بالتاج الملكي ، وبالتالي أصبح روجر من أقوى حكام أوروبا ، واستعد بدوره لتوجيه ضربة عنيفة ضد

Vryonis, Byzantium, pp. 141 — 44; Vasiliev, Byz. empire, (١١٤) II, p. 413.

Hussey, Byz. world, p. 58; Vasiliev, Byz. empire, II, (١١٥) p. 413.

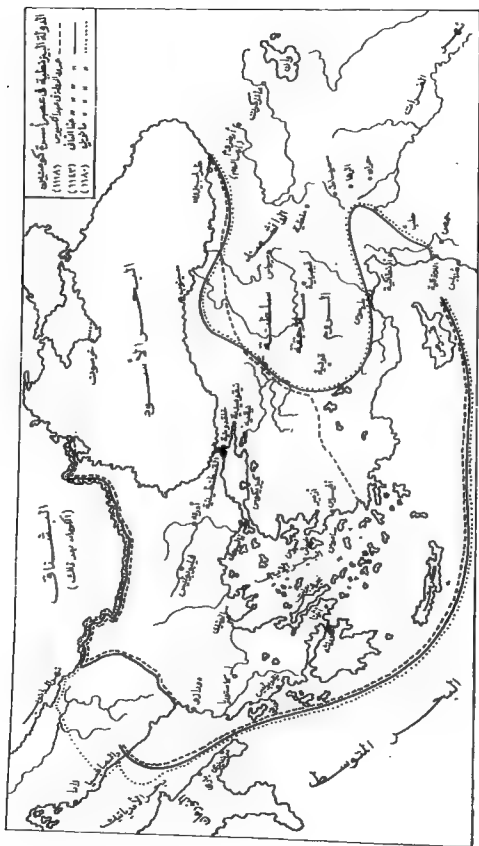
بيزنطة • وقد انزعج من تتويج روجر الثانى كل من امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وامبراطور الدولة البيزنطية ، وأدى ذلك الى تقارب كل منهما للآخر ضد عدوهما المشترك روجر • وعقد الامبراطور حنا الثانى كومنين اتفاقا مع الامبراطور لوثر الثانى الالمانى Lothar وبعد موته مع الامبراطور كونراد الثالث Conrad III من أباطرة الدولة الرومانية المقدسة • وتطور ذلك الى تحالف حقيقى بين الامبراطوريتين • وكان الغرض من هذا الاتفاق ثم التحالف هو القضاء على قوة النورمان فى ايطاليا • ورغم أن الامبراطور حنا فشل فى توجيه ضربة قاضية ضد روجر ، الا أنه نجح على الأقل فى منعه من القيام بغزو بيزنطة • وقد برهن التحالف مع الدولة الرومانية المقدسة على أهميته فى عصر خليفته مانويل كومنين(١١٦) •

وتركزت الى حد ما مشكلة النورمان لدى الامبراطور حنا فى امارة انطاكية الصليبية التى انشأها بوهيموند النورمانى • وفى أغسطس سنة ١١٣٧ م وصل الامبراطور حنا الثانى كومنين الى انطاكية بعد أن غزا قيليقية، وحاصر انطاكية، واضطر حاكمها الصليبي زوج الوريثة النورمانية الى طلب السلام الذى منحه حنا له بعد أن أرغمه على العودة الى الولاء والخضوع لبيزنطة طبقا للمعاهدة التى تمت بين الكسيوس وبوهيموند • وأقسم حاكم المدينة يمين الولاء للامبراطور البيزنطى • ولكى يدل على تثبيت حقوق بيزنطة فى انطاكية رفع حاكمها اللواء الامبراطورى فوق قلعتها(١١٧) •

ولم يفكر الامبراطور البيزنطى حنا كومنين فى مهاجمة المسلمين

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 414; Hussey, Byz. World, (١١٦) p. 58.

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 415 --- 16; Cam. Med. (١١٧) Hist. , Vol. 4 . Part I, p 223; La Monte, "to what extent was the Byzantine Empire the Suzerain of the Latin States", p. 255.



في شمال الشام ، ويرجع سبب ذلك بصفة خاصة الى عدم تلقيه مساعدات حربية من جانب الصليبيين . وقد أكد ذلك المؤرخ المسلم ابن العديم عندما تحدث في حوادث سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٧ م عن وصول ملك الروم من القسطنطينية في جموعه حتى وصل الى انطاكية . وعقب ابن العديم على ذلك بقوله : « فخالفه الفرنج - لظفا من الله تعالى - وأقام الى ان وصلته مرابيه البحرية بالأنقال والميرة والمال » (١١٨) . وأثناء عودة الامبراطور البيزنطي من انطاكية في ٢٢ ذى الحجة ٥٣١ هـ / أغسطس ١١٣٧ م أرسل رسولا من قبله الى عماد الدين زنكي فردده زنكي « ومعه هدية الى ملك الروم فهوذ وبزاة وصقور » (١١٩) . ومعنى هذا أن حنا الثاني حرص على استمرار الود مع المسلمين في وقت كان الزنكيون أتابكة الموصل قد ترايدت قوتهم يوما بعد آخر .

وفي سنة ١١٤٣ م وبينما كان حنا الثاني في طريقه لمحاربة الأتراك ، وأثناء حفلة صيد على جبال قيليقية جرح في ذراعه بسهم مسموم ومات بعيداً عن عاصمته . وفي وسط تلك الأحداث انتقل التاج البيزنطي الى ابنه الأصغر مانويل كومنين الذي حكم الدولة البيزنطية فيما بين سنتي ١١٤٣ - ١١٨٠ م (١٢٠) .

وكان مانويل كومنين حاكماً وجندياً ودبلوماسياً ناجحاً ، كما كان ادارياً قديراً اشتهع بشرعية التقليد البيزنطي القديم عن السيادة العالمية وعن التراث الامبراطوري العظيم (١٢١) . واختلف مانويل عن أبيه في نقطة هامة جعلت عصره يتصف بسمات معينة . فحنا الثاني كومنين حاول أن يجعل هناك توازناً بين مصالح الدولة البيزنطية

(١١٨) ابن العديم ، زبدة الطب ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

(١١٩) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 416.

(١٢٠)

Hussey, Byz. World, p. 58.

(١٢١)

في الشرق ومصلحتها في الغرب • ولم يجمد انتصارات أبيه الكسيوس في آسيا الصغرى ، وإنما حاول مد أطراف الدولة على حساب السلاجقة • أما مانويل فقد كان مغرما بالغرب اللاتيني ، فأمه كانت هنغارية وكانت زوجاته من الغرب فزوجته الأولى بيرثا Bertha أخت زوجة كونراد امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وزوجته الثانية ماري Mary التي تزوجها بعد ذلك من انطاكية • ورغم حرصه على بيزنطة العظيمة إلا أنه أحب كثيرا اللاتين ، وأحاط نفسه بهم ، واتبع عاداتهم ، وكثيرا ما تأثر في حياته اليومية في قصره بالقسطنطينية بهذه العادات ، وحرص على تكوين صداقات وطيدة مع الصليبيين ، وعلى سبيل المثال مع الملك بلدوين الثالث ملك مملكة بيت المقدس ومع كونراد الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة (١٢٢) •

وتحالف مانويل مع كونراد الثالث يوضح من البداية ميله الى اللاتين • فقد كانت المفاوضات بين كونراد الثالث وحنا قد انقطعت بموت حنا كومنين ، ولكنها جددت في أول عهد مانويل • وتزوج مانويل بيرثا أخت زوجة كونراد ، وهو مشروع زواج كان مقترحا منذ عهد والده حنا • وفي خطاب أرسله كونراد الى مانويل بخصوص هذا الزواج ، كتب كونراد أن هذا الزواج يجب أن يكون دليلا « على تحالف دائم لصداقة راسخة » • وحرص الامبراطور مانويل على أن يكون كونراد « صديقا لأصدقاء الامبراطور ، وعدوا لأعدائه » • وتعهد كونراد أيضا بمساعدة الدولة البيزنطية في حالة تعرضها لأي خطر ، ليس فقط بارسال قوات عسكرية ، بل بالحضور بنفسه على رأس كل قوات الدولة الألمانية إذا لزم الأمر • وعندما وصلت الأميرة الألمانية بيرثا الى القسطنطينية أطلق عليها اسم إيرين Irene كدليل على التحالف الذي تم بين الامبراطوريتين • وأعطى هذا

Hussey, Byz. World, pp. 58 — 59; Vryonis, Byzantium, (١٢٢)
p. 144.

التحالف الأمل لمانويل كومنين في التخلص من الخطر الذي يهدد الدولة البيزنطية من جهة روجر الثانى • والحقيقة أن روجر لم يخطر بمهاجمة بيزنطة نظرا لتحالفها مع الامبراطورية الألمانية • غير أن الخطر الذى قضى على آمال مانويل تمثل فى الحملة الصليبية الثانية التى حرمت بيزنطة — لفترة من الزمن — من المساعدة الألمانية ، وكان على الدولة البيزنطية أن تواجه الصليبيين والنورمان (١٢٣) •

أما عن موقف بيزنطة من الحملة الصليبية الثانية ، فعلى سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م وهى السنة التالية لموت حنا كومنين ، استرد عماد الدين زنكى أتابك الموصل مدينة الرها بعد أن أحاط بها من جميع الجهات ، وحال بينها وبين ما يصل إليها من الميرة والأقوات ، وأعادها الى حوزة الاسلام والمسلمين • ويمتد استرداد عماد الدين زنكى للرها نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية ، بوصفها أولى الامارات التى أسسها الصليبيون فى الشرق ، بالإضافة الى موقعها الاستراتيجى الهام فى الطريق الموصل بين الموصل والشام • وبالتالي فان بقاءها فى أيدي الصليبيين كان من شأنه أن يحول دون اتحاد القوى الاسلامية فى أعالي العراق والشام (١٢٤) •

وأحدث سقوط الرها فى أيدي المسلمين هزة كبيرة ويأسا عميقا فى الغرب الأوروبى وفى الحركة الصليبية ، وبخاصة أنه لم يكن فى قدرة البابا — وقتذاك — يوجين الثالث Eugenius III قيادة

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 417 — 418.

(١٢٣)

(١٢٤) عن استرداد الرها انظر : ابن القلائسى ، نيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ ، ابن الأثير ، حوادث سنة ٥٣٩ هـ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج ٢ ، ص ٦٠٣ — ٦٠٨ ، ص ٢٦٥ — ٢٥٩ ، ص ٢٦٥ ، حسنين الاسلاية فى عصر الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٥٩ — ٢٦٥ ، حسنين ربيع ، جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين ، ص ١٨٣ ،

Setton, Hist. of the Crusades, I, pp. 460 — 62.

الدعوة الى حملة صليبية جديدة الى الشرق • وتولى هذا الأمر الملك لويس السابع ملك فرنسا ، صديق روجر ، وممن قام بالدعاية لتلك الحملة الصليبية الراهب برنارد رئيس دير كليرفو Bernard of Clairvaux • وبعد أن نجح برنارد في دعوته في فرنسا لحملة صليبية ، ذهب الى ألمانيا ليحث الامبراطور كونراد الثالث ، الحليف الألماني للامبراطور مانويل ، على الاشتراك في الحملة الصليبية المقترحة • وسرعان ما كثر عدد المشتركين في الحملة الصليبية الثانية (١٢٥) •

وعندما وصلت القسطنطينية أخبار الاستعدادات لحملة صليبية ، قلق وخاف الامبراطور مانويل ، لأنه وجد في هذه الحملة خطرا يهدد دولته وينفذه على الأمراء الصليبيين في بلاد الشام ، وخاصة أمير أنطاكية • كما رأى الامبراطور البيزنطي مانويل أن اشتراك ألمانيا في هذه الحملة الصليبية سوف يجرّد الدولة البيزنطية من اخذهاقات والتهديدات التي حصلت عليها من تحالفه مع كونراد الثالث ملك ألمانيا • وخاف مانويل أنه اذا ترك كونراد بسلاده الى الشرق لمدة طويلة ، فلن يبدى اهتماما بالمصالح الغربية للدولة البيزنطية ، مما يؤدي الى قيام روجر بتنفيذ خططه الطموحة • وأمر مانويل بترميم أسوار وقلاع القسطنطينية لما عرفه عن الأخطار التي تعرضت لها العاصمة أثناء الحملة الصليبية الأولى ، دون النظر الى روابط الصداقة التي تربطه مع كونراد • ومما يدل على مخاوفه أيضا أنه عندما وصلت القوات الألمانية عند أسوار القسطنطينية ، عمل مانويل على نقلها الى آسيا الصغرى قبل وصول القوات الفرنسية ، ولقى الألمان هزيمة ساحقة أمام الأتراك السلاجقة (١٢٦) •

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 418 — 19.

(١٢٥)

Ibid., II, p. 419.

(١٢٦)

وزادت هواجس الامبراطور البيزنطى عندما وصلت القوات الفرنسيه بقيادة لويس السابع • فقبل قيام لويس بحملته الصليبية حثه روجر على السفر الى الشرق عن طريق ممتلكاته فى ايطاليا • وراى مانويل فى الملك الفرنسى حليفا سريا لروجر • وزادت مخاوفه عندما قام روجر فجأة بالاستيلاء على جزيرة كورفو Corfu ، وخرّب جزرا بيزنطية أخرى • ووصل النورمان الى اليونان واستولوا على طيبه Thebes ودورنث Corinth اللتان اشتهرتا فى ذلك الوقت بمصانع الحرير ، كما اغاروا على اثينا • ووصلت أخبار غزوات النورمان الفاجحة فى اليونان بينما كان الفرنسيون يقفون تحت أسوار القسطنطينية • وقتل الملك الفرنسى لويس السابع عندما سمع خبر اتفاق مانويل مع السلطان مسعود سلطان سلاجقة الروم حكما قونية ، حتى اقترح بعض قادة الملك لويس الاسيلاء على القسطنطينية • ولمواجهة هذا الخطر المنتظر أسرع مانويل بنقل الفرنسيين الى آسيا الصغرى • وعرف الملك لويس السابع بالكارثة التى حلت بالحملة الألمانية بعد وصوله الى آسيا الصغرى ، وتقابل مع الملك الألماني كونراد الثالث وسارا سويا • وفشلت القوات الألمانية والفرنسية فى غزو دمشق • وأخيرا غادر كونراد بلاد الشام على سفينة يونانية الى سالونيك ، حيث تقابل هناك مع الامبراطور البيزنطى مانويل الذى كان يقوم باعداد حملة حربية ضد النورمان • وهناك تناقشا واتفقا على تحالف ضد روجر الثانى ، وعاد كونراد الى ألمانيا • أما الملك الفرنسى لويس السابع فقد ظل فى الشرق عدة شهور ، وبعد أن تأكد من عجزه عن القيام بأى عمل ، وأن الحملة الصليبية لن تحقق شيئا ، عاد الى فرنسا عن طريق جنوب ايطاليا حيث التقى بروجر (١٢٧) •

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية ، وفرح الامبراطور البيزنطى

مانويل بهذا الفشل • وليس من العدل أن يتهم مانويل بأنه السبب في فشل هذه الحملة الصليبية ، وإنما يرجع فشلها الى أسباب كثيرة منها عدم التنظيم العام بين الصليبيين ، والنزاع المستمر الذي نشب بينهم • وقد اختار رجالها أن يسلكوا الطريق البرى عبر آسيا الصغرى في طريقهم الى الشام بدلا من الطريق البحرى المباشر ، مما أدى الى وقوع معظم رجال الحملة فريسة سهلة في أيدي السلاجقة المسلمين • يضاف الى ذلك أن هذه الحملة الصليبية هاجمت مدينة دمشق ، تلك المدينة التي كانت تقف — وقتذاك — موقف الصديق من الصليبيين ، بدلا من توجيه الحملة ضد مدينة حلب التي كانت مركزا هاما للجهاد الاسلامى ضد الصليبيين زمن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى • وانتهر نور الدين محمود الفرصة وتحول من الدفاع الى الهجوم استجابة لطلب معين الدين انز أتابك دمشق • ونهض نور الدين محمود وأخوه سيف الدين لنجدة دمشق ، وجاءت القوات الاسلامية لتقديم المساعدة لعاصمة الشام • وتجدر الاشارة أيضا الى أن هجمات روجر ضد جزر البحر الأدرياتيكي وبلاد اليونان كان لها أثرها على مصير هذه الحملة الصليبية التي انتهت بالفشل (١٢٨) •

وعلى حين فشل الصليبيون في حملتهم الثانية ، استفاد المسلمون فائدة كبيرة • فقد استشرت فكرة الجهاد الاسلامى وتم احيائها للقضاء على الوجود الصليبي في بلاد الشام • ورأى نور الدين محمود أن ذلك لن يتم الا بتوحيد الجبهة الاسلامية • وفى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م استولى نور الدين على مدينة دمشق ، وقربت النهاية المحتومة للصليبيين عندما

(١٢٨) من الحملة الصليبية الثانية وفشلها انظر : حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص ٤٩ — ٦٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٢١ — ٦٢٧ ، حابد غنيم أبو سعيد ، الجبهة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢٧٠ — ٢٧٦ ،

Setton, Op. Cit., Vol. I, pp. 463 — 512; Hussey, Byz. World, p. 60; Vasiliev, Byz. empire, II, p. 422.

استولى انان من قادة نور الدين هما شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي على مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م بعد ثلاث محاولات متتالية . وتم القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية ، وأصبح صلاح الدين الأيوبي هو المتحكم فى طقة القوى الاسلامية ، وبخاصة انه عاش فى ذروة عصر الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، وتعلم من نور الدين محمود فضائل كثيرة أهمها الاجتهاد فى أمور الجهاد . وأظهر صلاح الدين كفاية حربية كبيرة وخبرة عسكرية نادرة (١٢٩) .

أما بالنسبة للدولة البيزنطية فقد اتخذ مانويل اجراءات هامة لشن حرب ضد روجر نظرا لحملاته العدائية ضد ممتلكات الدولة البيزنطية فى البحر الأدرياتيكي واليونان ، ولأستيلائه على جزيرة كورفو . وكان من الحليعى أن تغلق مدينة البندقية لقوة النورمان المترابطة ، وبالتالى كانت على استعداد لتقديم المساعدات الحربية لبيزنطة مقابل مزيد من الامتيازات التجارية فى مدن الدولة البيزنطية . وبمساعدة الأسطول البندقي استرد الامبراطور مانويل جزيرة كورفو . وتأكد روجر من خطورة التحالف الذى تم بين البيزنطيين والألمان ، فقد وعدت الامبراطورية الألمانية ببيزنطة بارسال جيش برى لمساعدتها ، واستعدت البندقية لارسال اسطول أيضا ، لهذا انتهز روجر فرصة غضب وسخط الملك الفرنسى لويس السابع من فشل الحملة الصليبية الثانية وموقف البيزنطيين الذين سببوا هذا الفشل ، وعقد مع الملك الفرنسى اتفقا وديا ، وأخذا يعدان المدة لحملة صليبية ضد بيزنطة ذاتها (١٣٠) .

وفى الوقت الذى توقع فيه مانويل الحصول على مساعدة الألمان مات كونراد الثالث سنة ١١٥٢م ، ولم يكن خليفته فردريك الأول

(١٢٩) انظر حصنين ربيع ، جهاد صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين ،

ص ١٨٣ — ١٨٤ .

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 422 — 423.

(١٣٠.)

بربروسا Frederick I Barbarossa على استعداد لمسايرة
 الامبراطور البيزنطى لتحقيق اهدافه لأنه كان يؤمن بقوة امبراطوريته ،
 وهى — فى رايه — قوة لا حدود لها منحها الله له . وبالتالى لم يقبل بأن
 يقتسم مع الامبراطوريه الشرقية نفوذ الامبراطوريه الرومانية المقدسة
 فى ايطاليا . بل اعتقد فردريث الأول انه يجب عليه ان يحكم ايطاليا كلها
 بنفسه بما فى ذلك مملكة حقلية فى الجنوب . وفى سنة ١١٥٣ م أخبر
 فردريك الأول البابا يوجين الثالث بأنه لن يتنازل عن « اية بلاد على هذا
 الجانب من البحر الى ملك الروم » (١٣١) . وعقد الامبراطور فردريك
 الأول معاهدة مع البابا ذكر فيها اسم مانويل مسبقا بلقب rex
 (ملك) وليس imperator (امبراطور) كما كان يلقبه سلفه
 كونراد (١٣٢) .

وفى سنة ١١٥٤ مات روجر الثانى النورمانى عدو بيزنطة . وأخذ
 خليفته وليام الأول William 1 على عاتقه انتهاء التحالف الالمانى —
 البيزنطى . والتحالف القديم بين البيزنطيين والبنداقية . وخلفت البندقية
 من خطط مانويل التى قصد بها اقامة نفوذ لبيزنطة فى ايطاليا ، واعتبرت
 البندقية هذا الأمر فى غاية الخطورة مثل اسلاء النورمان على شاطئ
 البحر الأدرياتيكي المواجه للبندقية . ورأت البندقية أيضا أن تحكم أية
 قوة من القوى على كلا شاطئ البحر الادرياتيكي سوف يحول دون
 ابحار سفن البندقية فى هذا البحر فضلا عن البحر المتوسط ، ولهذا
 خرجت البندقية من تحالف مع الدولة البيزنطية وحصلت على امتيازات
 تجارية فى صقلية ، وعقدت تحالفا مع وليام الأول . وفى ايطاليا الحق
 وليام هزيمة ساحقة بقوات مانويل عند برنديزى Brindisi
 فى سنة ١١٥٦ . وأوضحت حملة مانويل الفائلة الى ايطاليا لفردريك
 بربروسا أن الدولة البيزنطية تريد غزو ايطاليا ، فأنهى تحالفه معها ،

Hussey, Byz. world, p. 60; Vasiliev, Byz. empire, II, (١٣١)

pp. 423 — 4

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 424.

(١٣٢)

وقضى على آمال الامبراطور مانويل فى استرداد ايطاليا واعادة النفوذ البيزنطى اليها (١٣٣) •

• وفى سنة ١١٥٨ م تم عقد معاهدة سلام لمدة ثلاثين سنة بين الامبراطور البيزنطى مانويل وحاكم صقلية وليام النورمانى • وفى هذه المعاهدة تنازلت الدولة البيزنطية عن آملها وأحلامها • ولم تدخل الجيوش البيزنطية ايطاليا مرة أخرى أبدا • وعرف مانويل وقتذاك عدوه الحقيقى خلال تلك السنوات الباقية من حكمه : فقد كان عدوه اللحد هو فردريك بربروسا • يضاف الى ذلك أن النتائج برهنت على فشل مانويل فى سياسته الايطالية • وأثارت سياسته معارضة شديدة ضده : ولم تسمح الموارد المالية للدولة البيزنطية بتحقيق أى احياء للامبراطورية الرومانية • وقاده طموحه الى محاولة تحقيق شئء مشالى ، برهنت الحوادث على استحالة تحقيقه مثل ذلك المشروع الذى أراد الصليبيون تحقيقه فى الشام وفلسطين (١٣٤) •

أما فى الشرق ، فقد تأرجحت جهود الامبراطور مانويل كومنين بين النجاح والفشل • وقد ساعده فى الشرق الضعف الذى انتاب الامارات الصليبية • وكما فعل حنا الثانى كومنين من قبل ، حرص مانويل على استمرار سيادته على الأمير الأرمنى فى قيليقية (١١٥٨م) • ثم امتدت تلك السيادة الى انطاكية • فقد تأكد زوج أميرة انطاكية وهو الفارس الفرنسى رينودى شاتيون (ريجنالد) Reginald of Chailion — الذى عرفه العرب باسم أرناط — أنه لن يستطيع مقاومة القوات البيزنطية ، وقرر الاعتراف بسيادة الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين والخضوع لبيزنطة ، والذهاب الى معسكر الامبراطور •

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 424 — 425.

(١٣٣)

Hussey. Byz. World. p. 60; Vasiliev, Byz. empire. II, p. 425. (١٣٤)

وبينما كان الامبراطور مانويل مقيماً عند المحيصة Manistra في قيليقية ، وصل رينودى شابيون الى معسكر مانويل . ويحدثنا المؤرخ المعاصر وليم الصورى William of Tyre (١١٣٠-١١٨٤م) عن ذلك بان زوج أميرة انطاكية دخل الى حضرة مانويل حافى القدمين ، مرتديا الحوف ، واحاط رقبته بحبل ، واخرج سيفه من غمده ، وسلم الامبراطور مقبض السيف ممسكا هو بطرفه ، ثم انبطح على الأرض وسأله العفو . وعقب وليم الصورى على ذلك بقوله بان مجد اللاتين (الصليبيون) تحول الى عار (١٣٥) .

وشبه أحد الباحثين ذلك الحادث بحادث كانوسا المشهور فقد اعترف صاحب انطاكية بسلطة الدولة البيزنطية العليا على امارة انطاكية الصليبية . ومنذ ذلك الوقت وحتى موت الامبراطور مانويل كومنين سنة ١١٨٠ م ظلت انطاكية تعترف بالسيادة البيزنطية سواء من الناحية النظرية أو من الناحية العملية (١٣٦) . وفسرت الاستاذة هسى Hussey

(١٢٥) عن تفاصيل ذلك الحادث لنظر

William of Tyre, History of Deeds, Vol. II, pp. 275 -- 277;

وانظر ايضا :

Vasiliev, Byz. Empire, II, p. 426; Hussey, Byz. World, p. 61

La Monte, "To what extent was the Byzantine Empire the (١٣٦)

Suzerain of the latin 'Crusading states", pp. 255 256.

وحادث كانتوسا هو ان البابا جريجورى السابع أصدر سنة ١٠٧٦ قرار الحرب ضد الامبراطور الالماني هنرى الرابع وعزله من منصبه وذلك اثناء النزاع بينهما حول مشكلة التقايد العلماني . وعقد اراء ألمانيا واساقفتها مجتمعا في اكتوبر ١٠٧٦ قرروا فيه الخروج عن طاعة هنرى الرابع ويغفر له البابا . واضطر هنرى الرابع الى ان يرحل سرا الى البابا الذى كان محتفيا في قلعة كانتوسا المايعة لأميرة تسكانيا مانيلدا . ومنذ الامبراطور ثلاثة ايام امام ابواب القلعة وسط الجليد في يناير ١٠٧٧ حتى نعلف البابا وسبح له بالقول بين يديه بشرط التسليم للبابوية بكل ما تطلبه دون قيد . وكان هذا الدال للامبراطورية ، انظر مسعود عاشور ، او ، وبا العصور الوسطى ج ١ - ص ٢٤٢ - ٢٤٥ .

Tout, The Empire and the Papacy, pp. 130 32.

ذلك بأن خضوع انطاكية لبيزنطة كان بمثابة الازلال الكبير لها لأنها
وعدت القسطنطينية ليس فقط بمساعدة حربية ، ولكن بمنحها الحق
التمين الذى دار عليه الجدل طويلا ، وهو حق تعيين بطريرك الكرسي
الأسقفى القديم فى انطاكية(١٣٧) .

وحضر أيضا ملك مملكة بيت المقدس الصليبية بلدوين الثالث
Baldwin III الى حضرة الامبراطور فى معسكره فى المصيصة .
واستقبله الامبراطور مانويل بحفاوة بالغة ، وأجلسه الى جواره على
مقعد منخفض عنه قليلا ، وأرغمه على عقد معاهدة معه تعهد فيها بتقديم
مساعدة حربية للامبراطور البيزنطى(١٣٨) .

وفى ابريل سنة ١١٥٩ دخل الامبراطور مانويل كومنين مدينة
انطاكية . وكان لهذا الحادث أبلغ الأثر فى نفوس المعاصرين ، وتحدث
عنه بأسهاب وليم الصورى فى كتابه . فقد دخل مانويل المدينة ممتطيا
جواده محاطا بالأمير رينودى ثباتيون والأمراء الصليبيين الآخرين ،
يسبرون على أرجلهم ولا يحملون سلاحا ، وخلفهم سار ملك بيت المقدس
ممتطيا جواده دون أن يحمل سلاحا أيضا . وسار الامبراطور البيزنطى
فى شوارع انطاكية المزينة بالسجاجيد والزينات والزهور، وسط أصوات
الطبول والأبواق والأغاني . ووصل الامبراطور الى كنيسة انطاكية
بصحبة البطريرك . واستمرت الأعلام البيزنطية مرتفعة فوق أسوار
المدينة لمدة ثمانية أيام(١٣٩) .

Hussey, Byz. World, p. 61.

(١٣٧)

William of Tyre, Op. Cit. , Vol. II, pp. 277 — 9; Vasiliev, (١٣٨)

Byz. empire, II, p. 426.

(١٣٩) عن دخول مانويل انطاكية انظر :

William of Tyre, Op. Cit. , II, pp. 279 — 81;

وانظر أيضا :

La Monte, "To what extent was the Byzantine Empire, p. 259; Vasiliev

Byz. empire, II, p. 427. .

ولا شك أن خضوع رينو دي شاتيون ودخول مانويل مدينة انطاكية سنة ١١٥٩ يدلان على نجاح سياسة بيزنطة تجاه الصليبيين في عصر مانويل ، وهي السياسة التي حققت أخيرا نجاحا بعد أكثر من ستين سنة من الجهود والنزاع (١٤٠) . ومما يدل على سيادة الدولة البيزنطية على مملكة بيت المقدس الصليبية في عصر مانويل تلك المعاهدة التي عقدت بين بلدوين الثالث ومانويل سنة ١١٥٩ ، وضمن بها بلدوين مساعدة بيزنطة ضد المسلمين ، وكذلك نقش على لوحة في كنيسة الميلاد في بيت لحم يرجع الى سنة ١١٦٩ جاء فيه اسم مانويل قبل اسم عموري الأول Amaury I ملك بيت المقدس الذي خلف بلدوين الثالث ، وكذلك الاتفاق الذي تم بين الملك الصليبي عموري الأول والامبراطور مانويل سنة ١١٧١م (١٤١) .

ولقى الامبراطور مانويل نجاحا مماثلا على الحدود الشمالية للدولة البيزنطية في بلاد البلغار . فقد تدخل هذا الامبراطور — مثل والده حنا من قبل — في موضوع وراثة عرش بلغاريا . وفكر في اخضاع بلاد البلغار كلها لسلطانه . واقترح مانويل — قبل أن يرزق ولدا — حلا جديدا لانتهاء النزاع بين بلغاريا والقسطنطينية ، وهو أن يتزوج بلا Bela ورث العرش البلغاري من ابنة مانويل ، وأن يخلفه على العرش الامبراطوري . وبالتالي كانت خطة مانويل هي ضم بلغاريا الى الدولة البيزنطية الى حين ولادة ابن ذكر له فيقوم حينئذ بتغيير خطته . وفي بلاد الصرب نجح مانويل أيضا في اسدهار سيادته على ستفن نيمانيا Stephen Nemanya مؤسس أسرة زوبان Zupan الشهيرة . واحتقل مانويل بنفوذ هذا عندما دخل القسطنطينية في مثل ذلك المركب والشهد الذي حدث قبل ذلك عندما دخل مدينة انطاكية سنة ١١٥٩م (١٤٢) .

Vasi'iev, Byz. empire. II, p. 427.

(١٤٠)

La Monte, "To what extent", p. 258.

(١٤١)

Hussey, Byz. world, pp. 61 62.

(١٤٢)

وانتقل العداء بين الدولة البيزنطية والمغرب اللاتينى الى العلاقات بين اللاتين واليونانيين فى القسطنطينية نفسها • وتزايد الشعور العدائى تجاه اللاتين فى العاصمة وبخاصة أنه كان يوجد فى داخل الدولة البيزنطية عداء مستحكم ضد البنادقة الذين تدفقوا على بيزنطة وحصلوا على امتيازات تجارية كانت عبئا ثقيلا عليها • وتضايقت مدينة البندقية لنفوذ مانويل المتزايد فى البلقان • وضمه ساحل دالماتيا • وظهر ذلك الشعور العدائى تجاه البنادقة عندما تحالف مانويل مع بيزنة ثم جنوة سنة ١١٦٩ لضرب مصالح البنادقة فى الامبراطورية • وفى ١٢ مارس سنة ١١٧١ تم القبض على جميع البنادقة فى بيزنطة ، وصودرت تجارتهم وسفنهم ، ولم تعد تلك الامتيازات التجارية للبنادقة الا فيما بعد (١٤٣) •

اما فى آسيا الصغرى فقد انقلبت المواقف المودية التى ربطت بين البيزنطيين وسلاجقة الروم الى عداء مرير جنت منه بيزنطة خسارة فادحة • فقد اتصفت علاقات بيزنطة بالسلطان السلجوقى قلعج أرسلان بالود ابضع سنين • وفى سنة ١١٦١ - ١١٦٢ زار السلطان السلجوقى قلعج أرسلان مدينة القسطنطينية حيث استقبل استقبالاً حافلا • وقضى السلطان ثمانين يوما فى القسطنطينية ، شاهد فيها ثروات وكوز العاصمة البيزنطية • وشاهد السلطان السلجوقى أيضا اثناء مقامه فى القسطنطينية استعراضات كثيرة أقيمت فى شرف السلطان بعضها استعراضات بحرية ، وشاهد فيها عرضا للنيران الأخرقية • ولم تكن النتائج السياسية لزيارة قلعج أرسلان للقسطنطينية ذات أهمية كبيرة • فقد تم عقد معاهدة صداقة ، ولكنها لم تستمر سوى وقت قصير (١٤٤) •

فقد انتهز قلعج أرسلان فرصة انغماس مانويل كومنين فى سياسته الايطالية والألمانية ، واهماله الدفاع عن الاقاليم البيزنطية فى آسيا

Vryonis, Byzantium, p. 145 ; Hussey, Byz. World, p. 62. (١٤٣)

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 427 — 8.

(١٤٤)

الصغرى • وقام بمحاولة للقضاء على منافسيه من الدانشمند أمراء قبادوقيا المسلمين • لكى يجعل قوة السلاجقة محدد تهديد خطير للدولة البيزنطية مرة أخرى (١٤٥) • ودخل فردريك بربروسا في مفاوضات مع سلطان قونية السلجوقي وحرصه ضد الامبراطور مانويل وحثه على غزو الدولة البيزنطية • وكان غرض فردريك هو تحويل انتباه مانويل كومنين عن التدخل فى شؤون أوروبا (١٤٦) •

وفى سنة ١١٧٦ خرج مانويل كومنين على رأس حملة لمهاجمة العاصمة السلجوقية قونية Iconium وعندما تحرك البيزنطيون من غرب آسيا الصغرى الى ممرات الجبال التى تؤدى الى السهول ، لقوا خسائر كبيرة من قبائل التركمان العديدة التى كانت تعيش على الحدود الفاصلة بين السلاجقة والبيزنطيين • واثناء مرور الجيش البيزنطى فى احد ممرات فريجيا • حاصر السلاجقة الأتراك الجيش البيزنطى ، وعند بلدة مريوكيفاون Myriocephalon جرت معركة هامة فى ١٧ سبتمبر ١١٧٦ • وهزم سلاجقة الروم البيزنطيين هزيمة ساحقة ، ونجا الامبراطور البيزنطى بصعوبة • وهذه المعركة الهامة سجلها المؤرخ البيزنطى نيقيتاس خونيئات Nicetas Choniates وغيره ، ووصفها الأستاذ فريونى Vryonis بأنها كانت منازكة ثنائية للمعسكر البيزنطية • تلك المعركة التى حدثت قبل ذلك بقرن من الزمان • وقال شارل ديل Charles Diehl معقبا على نتائج هذه المعركة بأن بيزنطة فقدت فى يوم واحد (١٧ سبتمبر ١١٧٦) كل المكاسب السابقة التى عمل من أجلها الأباطر السابقون • ووضعت هذه المعركة نهاية لسيادة بيزنطة على آسيا الصغرى الى الابد • وقبل مانويل شروط السلطان قلع أرسلان ، وتم تدمير بعض التحصينات البيزنطية فى آسيا الصغرى ،

Vryonis, Byzantium, p. 144.

(١٤٥)

Hussey, Byz. World, p. 62, Vasiliev, Byz. empire II, pp. (١٤٦)
425 --- 26:

وأقلع البيزنطيون عن تحقيق أى أمل لطرد الأتراك من آسيا الصغرى .
وفى خلال السنوات الباقية من القرن الثانى عشر توغلت القبائل
التركمانية متتبعين الأنهار من منابعها على الجبال حتى مصباتها فى
البحر الايجى (١٤٧) .

وبعد هزيمة مانويل أمام السلاجقة أرسل فردريك ببروسا فى
لحظة ابتهاجه خطابا الى الامبراطور البيزنطى مخبرا اياه بأن الأباطرة
الألمان الذين تلقوا سلطتهم من الأباطرة الرومان العظام ، يجب عليهم
أن يحكموا ليس فقط الامبراطورية الرومانية بل أيضا «المملكة اليونانية»
أى الدولة البيزنطية ، وأن على مانويل القيام بالتنازل عن لقب (ملك
الروم) الى الامبراطور الرومانى . ولما كان فردريك ببروسا قد أعلن
نفسه وريثا لأباطرة الرومان ، لذلك رأى أن يمتد سلطانه على بلاد الروم
(الدولة البيزنطية) ذاتها (١٤٨) .

وهكذا أضعفت مشروعات مانويل موارد الدولة المالية ، وبرهنت
على استحالة ابقاء سيادته على كل من أوروبا والشرق الأدنى أمام دول
غربية لاتينية مسيحية وحلقة قوية من القوى الاسلامية . وإذا كان
انهيار الدولة البيزنطية قد بدأ بعد موت باسيل الثانى سنة ١٠٢٥ ، أى
فى عصر الأسرة المقدونية ، ونجح كل من الكسيوس كومنين وحنا كومنين
فى تأخير سرعة هذا الانهيار ، الا أنهما فشلا فى ايقافه . أما السياسة
الناطقة التى اتبعها مانويل كومنين فقد قادت الدولة البيزنطية مرة أخرى
الى طريق الانهيار ، بل الى الانهيار التام (١٤٩) .

Vryonis, The Decline of medieval Hellenism in Asia Minor, (١٤٧)
pp. 123 — 26; Vryonis, Byzantium, pp. 144 — 5; Charles Diehl, Byzantium,
p. 208; Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 428 — 30; Ostrogorsky,
Byz. State, pp. 390 — 91.

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 430; Hussey, Byz. Wor'd. p. 62. (١٤٨)

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 432.

(١٤٩)

وعندما مات مانويل كومنين سنة ١١٨٠ كانت الدولة البيزنطية تعاني من التدهور والضعف والانهيار . فقد ازداد نفوذ عائلات أصحاب الضياع الكبيرة الذين استفادوا من نظام البرونويا Pronoia بما منحهم من حقوق مالية وقضائية . وأضعف ذلك من سلطة الدولة ، كما واكله سوء الأحوال الاقتصادية ، وكثرة الضرائب ، وما حدث لتجارة بيزنطة التي أصبحت في أيدي التجار الأجانب اللاتين (١٥٠) .

وتولى عرش الدولة البيزنطية بعد موت مانويل كومنين ابنه القاصر الكسيوس الثاني Alexius II (١١٨٠ - ١١٨٣) ، وأصبحت أمه ماريه Maria - وهي من انطاكية - هي الحاكمة للامبراطورية ، بينما تركت لعشيقتها واسمه الكسيوس كومنين ، ابن أخ مانويل ، تدبير كل أمور الدولة (١٥١) .

واضطربت الأمور في القسطنطينية وثار سكان العاصمة في ابريل ١١٨٢ م نتيجة لسيطرة اللاتين على الأحوال الاقتصادية ، وساعدوا سنة ١١٨٣ أندرونيقوس الأول Andronicus I ابن عم مانويل في انتزاع الحكم من الكسيوس الثاني وأمه اللاتينية . وادى الشعب الذي جرى في شوارع العاصمة في ابريل ١١٨٢ الى هجوم على أرواح وممتلكات اللاتين في المدينة . وإذا يرى البعض أن حوادث سنة ١١٧١ ، عندما تم القبض على جميع البنادقة في أثناء الدولة البيزنطية ، وحوادث سنة ١١٨٢ م كانت علامة هامة أدت الى الغزو اللاتيني للقسطنطينية سنة ١٢٠٤ م . فالبنادقة كانوا قد حصلوا على أقصى ما يمكن الحصول عليه من الامتيازات التجارية والتنازلات من الدولة البيزنطية ، وكل الذي بقي لهم كان الغزو العسكري للقسطنطينية ، وهو الذي تم

(١٥٠) Hussey, Byz. world, pp. 62 — 63.

ومن نظام البرونويا انظر ما سبق ، ص ١٧٣ ، ١٩٩ — ٢٠٠ .
(١٥١) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 432 - 433.

سنة ١٢٠٤ (١٥٢) •

ومن المعروف أن اندرونيقوس لم يكن على وفاق أبدا مع الامبراطور مانويل كومنين ، وعاش حياة قاسية متجولا في قصور عدد من الحكام في الشرق الأدنى. ونظرا لعدم تمسكه بالتقاليد فقد حث تيودورا كومنين أرملة بلدوين الثالث ملك بيت المقدس على الفرار معه • وظهر عدم تمسكه بالتقاليد أيضا أنه برغم كبر سنه ، فقد بلغ ٦٣ أو ٦٥ سنة من العمر عندما تولى عرش بيزنطة ، الا أنه أراد أن يقوى مركزه في الحكم فتزوج من أرملة الكسيوس الثاني وهي الأميرة آن الفرنسية ، التي كانت — وقتذاك — في الثالثة عشرة من عمرها (١٥٣) •

وواجه الامبراطور اندرونيقوس الأول مشكلتين عويصتين في أحوال بيزنطة الداخلية وهما :

- (١) ان يخلص الدولة البيزنطية من الامتيازات التي يتمتع بها اللاتين ، ويقوى السلطة المحلية الوطنية •
- (٢) أن يضعف الارستقراطية القابضة على الوظائف وبار أصحاب الضياع الذين سببوا انهيار واختفاء طبقة المزارعين •

وكانت هذه مهمة كبيرة • وأثناء قيامه بمحاولات الإصلاح قام أندرونيقوس بزيادة مرتبات كثير من الموظفين حتى يقلل من انتشار الرشوة ، وعين جماعة من الأمناء الأكفاء كقضاة ، وخفف الأعباء الضرائبية ، وفرض عقوبات قاسية على جامعي الضرائب الذين عملوا لحسابهم ، واتخذ اجراءات حاسمة ضد أصحاب الضياع الكبيرة وكثير من أفراد الطبقة الارستقراطية • ووجد الامبراطور اندرونيقوس الأول

Vryonis, Byzantium, p. 145.

(١٥٢)

Hussey, Byz. world, pp. 63 — 64; Vasiliev, Byz. empirc. (١٥٣)

II, p. 433.

نفسه فى صراع مع الأرستقراطية البيزنطية التى وصل أفرادها إلى هذه الطبقة الاجتماعية عن طريق الوراثة أو تراكم الثروة • وبطبيعة الحال فشل الامبراطور، فى القيام بحركة اصلاح جزرية للنظام الاجتماعى البيزنطى ، لأنه كان نتيجة تطورات تاريخية متعاقبة • ولم يكن حتى لامبراطور عظيم مثل باسيل الثانى أن ينجح فى القضاء على المشكلات التى كانت تعاني منها الدولة البيزنطية فى نهاية القرن الثانى عشر • وانتظر أعضاء الطبقة الارستقراطية من كبار أصحاب الضياع أوله فرصة للتخلص من اندرونيقوس الأول • ولكى يضعوا على عرش بيزنطة امبراطورا يسير على خطى الأباطرة الثلاث الأول من آل كومنين(١٥٤) •

وانتفض النورمان المشكلات الداخلية التى واجهت الدولة البيزنطية وتفاقمت فى عصر أندرونيقوس ، وقام وليام الأول حاكم صقلية بتجهيز حملة حربية ضد بيزنطة • ولم يكن هدف وليام هو الانتقام لكارثة اللاتين التى حلت بهم سنة ١١٨٢ أو تأييد مطالبته بالعرش البيزنطى ، بل كان قصده وهدفه هو الاستيلاء على العرش البيزنطى لنفسه • وقرر أندرونيقوس الدخول فى مفاوضات مع القوى اللاتينية فى الغرب والقوى الاسلامية فى الشرق ، فعقد معاهدة مع البندقية قبل بداية سنة ١١٨٥ ، كما أنه تقرب إلى البابا فى روما لى يضمن تأييده ومساندته ضد النورمان ، مقابل أن يمنح الامبراطور، البيزنطى أندرونيقوس بعض الامتيازات للكنيسة الكاثوليكية(١٥٥) •

واتصل الامبراطور البيزنطى أندرونيقوس الأول بأقوى حاكم مسلم فى الشرق فى عصره وهو صلاح الدين الأيوبي الذى نجح فى

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 433 -- 5; Hussey, Byz. (١٥٤)

World, p. 64.

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 436. (١٥٥)

توحيد الجبهة الاسلامية بعد وفاة نور الدين محمود • فقد دخل الناصر صلاح الدين مدينة دمشق وهزم الزنكيين فى موقعة قرون حماء سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٥م ودخل مدينة حلب ، ثم هزم الزنكيين للمرة الثانية فى موقعة تل السلطان على الطريق بين حلب وحماء سنة ٥٧١هـ / ١١٧٦م ومد سلطانه على مدينة الموصل • وأرسل له الخليفة العباسى تقيدا بولاية مصر والشام ، وشرع صلاح الدين فى تصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام بعد ان وضع الصليبيين بين شقى الرعى (١٥٦) • وفى يونيه سنة ١١٨٥ — أى قبل وفاة أندرونيقوس الأول بوقت قصير — أرسل الامبراطور البيزنطى سفارة الى صلاح الدين يستعيد بها ملكان بينهما من صداقة • والحقيقة كما أشار الأستاذ اهرنكرويتز Ehrenkreutz أنه فى الربع الاخير من القرن الثانى عشر الميلادى ، تقارب كل من البيزنطيين والأيوبيين لمواجهة عدوهما المشترك • فالنورمان فى مثلية كانوا ذا خطر على مصر كما هو الحال بالنسبة لبيزنطة • وسلاجقة الروم فى قونية استولوا على كثير من الأقاليم البيزنطية فى آسيا الصغرى ، وهددوا مصالح صلاح الدين فى شمال الشام ، وجزيرة قبرص التى ثارت ضد القسطنطينية تتطلعت لكى ترث الصليبيين فى المستقبل • يضاف الى ذلك أن الصليبيين وحلفاءهم فى غرب أوروبا كونوا جبهة عدائية ضد البيزنطيين وكذلك ضد الأيوبيين (١٥٧) •

واقترح الامبراطور البيزنطى أندرونيقوس الأول — عن طريق سفارته لصلاح الدين التى وصلت فى صيف سنة ١١٨٥ — قيام تحالف بينهما ، وأن يقوما بفتح فلسطين وأن تقسم بينهما على أن ينال البيزنطيون بيت المقدس واللدن الساحلية ماعدا عسقلان • وأنه اذا تم الاستيلاء على آسيا الصغرى ، فسوف تعود الى الدولة البيزنطية حتى انطلاقية وأرمينية • وفى مقابل ذلك وعد أندرونيقوس صلاح الدين

(١٥٦) حنين ربيع ، جهاد صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين ،

ص ١٨٤ •

Ehrenkreutz, Saladin, pp. 198 — 9.

(١٥٧)

المساعدة في صراعه ضد الصليبيين في الشام • ورد صلاح الدين على هذه السفارة غير معروف ، ومن المحتمل أن شروط هذا التحالف لم يكن مقبولا لدى صلاح الدين ، لأن القسطنطينية ادعت دون وجه حق نوعا من السيادة ، وطالبت بتنازلات كثيرة في فلسطين بما في ذلك بيت المقدس ومختلف المدن الساحلية • وعرض صلاح الدين شروطه الخاصة للتحالف المقترح ، وعارض ادعاءات بيزنطة في السيادة ، بل اقترح منح الكنائس اللاتينية في فلسطين حق انبعاث المذهب الذي تحين به القسطنطينية • وكانت هذه حركة ذكية ماهرة من صلاح الدين قصد بها استمالة المسيحيين اليونانيين في مملكة بيت المقدس الصليبية لجانب الأيوبيين قبيل جهاده لاسترداد بيت المقدس (١٥٨) •

وقبل وصول رد صلاح الدين الى القسطنطينية توالت الكوارث على الدولة البيزنطية • فقد أعلن اسحاق كومنين حاكم قبرص استقلاله عن بيزنطة • ونظرا لعدم وجود أسطول لدى اندرونيقوس فقد عجز عن القضاء على ثورة اسحاق وتمكنت بيزنطة قبرص • وكان فقد قبرص ضربة عنيفة للدولة البيزنطية لما لقبرص من أهمية استراتيجية كبيرة وأهمية تجارية ، إذ كانت ترد منها لخزانة الامبراطورية موارد مالية كثيرة من تجارتها النشطة مع الامارات الصليبية • وجاءت الضربة

Brand, "The Byzantines and Saladin", *Speculum* Vol. 37 (١٥٨)
(1962), pp. 168 --- 169; Ehrenkreutz, Saladin, p. 199; Ostrogorsky, Byz.
State, p. 399 ;

والصادر الوحيد عن سفارة اندرونيقوس لصلاح الدين هو :
Franz Dolger, ed. , *Regesten der Kaiserurkunden des Ostromischen
Reichs Von 565 — 1453*, Corpus der griechischen Urkunden des Mittelelters
und der neueren zeit, Reihe A, Abl. I (Munich and Berlin,
1924 --- 1960), No. 1563 .

وهو خطاب مجهول من المحتمل انه يرجع الى شتاء سنة ١١٨٨ م
لتقصير ذلك انظر :

Brand, "The Byzantines and Saladin", p. 168 note 2 and p. 181.

القاضية لحكم أندرونيقوس من الغرب عندما هاجم النورمان بقيادة وليام الأول دوارزو واستولوا عليها ، ثم اتجهوا الى سالونيك وحاصروها برا وبحرا لمدة عشرة أيام . ويبدو أن البنطقية وقفت على الحياد في هذه المرحلة . وفي أغسطس سنة ١١٨٥ م سقطت سالونيك في ايدي النورمان وهى المدينة التالية فى الأهمية للقسطنطينية . وأحدث النورمان فيها مذبحة انتقاما لما حدث فى مذبحة الثلاثين فى القسطنطينية سنة ١١٨٢ م . وما أن وصلت هذه الأخبار الى القسطنطينية حتى ثار سكانها ضد اندرونيقوس واتهموه بعدم قيامه بالاستعدادات اللازمة لمقاومة الأعداء . وعزل اندرونيقوس ومات بعد أن تعرض للتعذيب وبعد أن تمت المناداة باسحاق انجيلوس

Isaac Angelus امبراطور (١٥٩) •

وتلقى الامبراطور الجديد اسحاق الثانى انجيلوس اجابة صلاح الدين على سفارة سلفه اندرونيقوس والتي من المحتمل أن تكون قد احتوت على صيغة معاهدة مقترحة أعدت من جديد ، رفض صلاح الدين فيها ادعاءات بيزنطة فى السيادة . فقد استقبل الامبراطور اليميني اسحاق انجيلوس رد صلاح الدين بترحاب ، فقد كان فى حاجة الى حليف بعد أن هدد النورمان العاصمة البيزنطية نفسها . وصادق

Vasilev, Byz. empire, II, pp. 437 — 8; Vryonis, (١٥٩)
Byzantium, p. 145.

انتوت اسرة كومنين بثورة سنة ١١٨٥ ، وتولى مرش الدولة البيزنطية فى الفترة من سنة ١١٨٥ الى سنة ١٢٠٤ م اباطرة من بيت انجيلوس .
Constantine Angelus وتنسب هذه الاسرة الى قسطنطين انجيلوس الذى كان معاصرا لالكسيوس كومنين ، وتزوج من ابنة الكسيوس . وقسطنطين انجيلوس هو جد اسحاق الثانى انجيلوس اول اباطرة هذه الاسرة التى تنتمى الى اسرة كومنين من ناحية الأم . واباطرة هذه الاسرة : اسحاق الثانى (١١٨٥ — ١١٩٥ م ثم من ١٢٠٣ — ١٢٠٤ م) ، والكسيوس الثالث (١١٩٥ — ١٢٠٣ م) ، والكسيوس الرابع (١٢٠٣ — ١٢٠٤ م) ، انظر :

Vasilev, Byz. empire, II, p. 438.

الامبراطور اسحاق الثانى انجيلوس على المعاهدة مع صلاح الدين ،
واستدعى اخاه الحسيوس الذى كان مقيما فى بلاط صلاح الدين (١٦٠) .

وتسربت الاشاعات عن التحالف البيزنطى - الاسلامى الى

الصليبيين ، ولدلت عندما مر الحسيوس انجيلوس Alexius Angelus
بجانبه عكا فى طريقه الى القسطنطينية قبض عليه كونت طرابلس
و... . وعندما علم بهذه الاهانة الامبراطور البيزنطى اسحاق كتب
الى خليفه صلاح الدين وحثه على مهاجمة الصليبيين لاطلاق سراح
أخيه الحسيوس . وكان ذلك فى الوقت الذى بلغت فيه علاقة صلاح الدين
مع مملكة بيت المقدس الصليبية الى ذروة العداء بعد ان انتهك حاكم
حصن الكرك أرناط (رينو دى شاتيون) الهدنة المعقودة بين صلاح
الدين والصليبيين . وفى اواخر سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٧م انقض أرناط
على قافلة للمسلمين فى طريقها من القاهرة الى دمشق ، واستولى
على ما تحمله من ثروة ومتاع . واخذ جماعة من المسلمين أسرى دون
مبالاة لليهود . وعندما أرسل صلاح الدين الى أرناط ينكر هذا
العمل ويطلب منه رد ما استولى عليه من المسلمين واطلاق سراح
الأسرى ، امتنع . وغضب صلاح الدين ونذر دم أرناط وأعلن الجهاد
وجاءته العساكر من كل مكان فى دولته الكبيرة . وفى صباح يوم السبت
٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣هـ / ٤ يوليو ١١٨٧م التقى صلاح الدين بجيوش
الصليبيين عند قرين حطين . وكانت هزيمة ساحقة للصليبيين . وأسر
المسلمون جاى لوزنجان ملك بيت المقدس ، وأرناط صاحب حصن
الكرك وغيرهما من اكابر الصليبيين . وأصبح الصليبيون بعد هزيمتهم
فى حطين تحت رحمة صلاح الدين الذى أخذ يفتح البلاد والمدن
والموانئ الهامة ، مثل عكا وحيفا وقيسارية وأرسوف ونابلس وصيدا
وغزة وغيرها . وتوج صلاح الدين انتصاراته باسترداد بيت المقدس فى

Brand, "The Byzantines and Saladin", p. 169;

(١٦٠)

Ehrenkreutz, Saladin. p. 199; Ostrogorsky, Byz. State, pp. 406 7.

٢٧ رجب ٥٨٣ هـ / ٢ أكتوبر ١١٨٧ م (١٦١) .

أما بالنسبة للدولة البيزنطية فالحقيقة — كما سبق القول — أن التحالف مع صلاح الدين كان ركن الزاوية في سياسة بيزنطة الخارجية فيما بين سنتي ١١٨٥ و ١١٩٢ م . فقد اعتمدت الدولة البيزنطية على القوة الإسلامية الكبيرة في مصر والشام ، أي قوة صلاح الدين للوقوف في وجه أخطار النورمان والبيازنة والجنوية وإمبراطور ألمانيا والبابا (١٦٢) . وقد أورد أبو شامة في كتاب الروضتين بعض الرسائل الصادرة من صلاح الدين تلقى الأضواء على حقيقة علاقة صلاح الدين بالبيزنطيين ، ومدى حرص الدولة البيزنطية على كسب ود العناصر لصالح الدين . فبعد الانتصارات التي حققها صلاح الدين في سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ — ١١٨٩ في بلاد الساحل الشامي كتب القاضي الفاضل رسالة على لسان السلطان صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام باليمن يوضح له فيها أن صاحب القسطنطينية كان ممن كتبوا إليه ينذرونه باستمدادات ملوك وأمراء أوروبا للقيام بالحملة الصليبية (الثالثة) . وورد في الرسالة « وقد كتب المستخدمون بالاسكندرية وصاحب قسطنطينية والثغور المغربية ينذرون بأن العدو قد جمع أمرا وحاول نكرا ، وغضبوا زادهم الله غضبا ، وأوقدوا نارا للحرب جعلها الله عليهم حطبا ، وسلوا سيوفا للبنى ، لا يبعد أن يكونوا أغماها ، وتواعدت جموع ضلالتهم أخلف الله ميعادها . . . » (١٦٣) .

وذكر القاضي بهاء الدين بن شداد أيضا في السيرة الصلاحية أنه كان بين صلاح الدين وملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة ، وأن رسولا من قبل الإمبراطور البيزنطي وصل إلى حضرة السلطان صلاح الدين

(١٦١) حسنين ربيع ، جهاد صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين ،

ص ١٨٧ — ١٨٨ .

(١٦٢) Brand, "The Byzantines and Saladin", pp. 178 — 9 .

(١٦٣) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .

بمرج عيون فى رجب سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م وذلك «جواب رسول كان أنفذه السلطان — رحمه الله عليه — اليه بعد تقرير القواعد واقامة قانون الخطبة فى جامع قسطنطينية» . وأضاف ابن شداد أن الخطبة الاسلامية والدعوة الاسلامية العباسية أقيمتا فى القسطنطينية ، وأن رسول صلاح الدين استقبل باحترام عظيم واكرام زائد . وذكر أيضا أن كتاب الامبراطور البيزنطى يحتوى على المحبة والمودة ويخبر صلاح الدين فيه بمسير الألمان (فردريك بربروسا) فى بلاده وما عانوه من تعب ومشقة ، وأن الامبراطور أضاف فى خطابه قوله : « ما يرجع ملكى من محبتك الا عداوة الفرنج وجنسهم » (١٦٤) . وهذا يدل على أن بيزنطة لم تستقد من صداقتها لصلاح الدين كما سيشار اليه فيما بعد .

ونقل أبو شامة عن العماد الأصفهاني فى حوادث سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠ — ١١٩١ م أثناء الحملة الصليبية الثالثة وصول كتاب من ملك قسطنطينية « يتضمن استعطافا واستسعاغا ، ويذكر تمكنه من اقامة الجمعة فى جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة فيه ، وأنه مستمر على المودة راغب فى المحبة ، ويعتذر عن عبور الملك الألمانى (فردريك بربروسا) ، وأنه قد فجع فى طريقه بالأمانى ، ونال من الشدة ونقص العدة ما أضعفه وأواه ، وأنه لا يصل الى بلادكم فينتفع بنفسه ، أو ينفع ويكون مصرعه هناك ولا يرجع » (١٦٥) .

ولاشك أن الامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس اعتقد بأن تحالفه مع صلاح الدين سوف يقضى على ما واجهه من مشكلات . وكانت لديه آمال كبيرة ووعود باسترداد قبرص والاستيلاء على

(١٦٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ١٣٢ — ١٣٣ ، انظر أيضا أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٩ — ١٦٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ — ٣٢٩ .
(١٦٥) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

الأراضي المقدسة في فلسطين ، والعودة بالدولة البيزنطية في آسيا الصغرى الى حدود القرن العاشر . والحقيقة أن البيزنطيين لم يستفيدوا — بعض ما توقعوه — غير فائدة بسيطة من تحالفهم مع السلطان صلاح الدين ، وهي ان بعض الخائس اللاتينية في بلاد الشام عادت الى ممارسة طقوس الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية . أما قبرص فقد استولى عليها اللاتين وأصبح حاكمها حليفا لصلاح الدين ، وظلت قونية في أيدي السلاجقة المسلمين . يضاف الى ذلك أن تحالف البيزنطيين مع السلطان المسلم صلاح الدين أساء الى سمعة الدولة البيزنطية . فقد انزعج الصليبيون في الشام من هذا التحالف وأشاعوه في أوروبا ، وأثاروا الشعور العدائى ضد بيزنطة والبيزنطيين . فقد أرسل الامبراطور الألماني فردريك بربروسا ، وهو في تراقيا ، تعليماته الى ابنه طالبا منه حث البابا للدعوة لحملة صليبية ضد البيزنطيين . ولاشك أن تفضيل ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد وملك فرنسا فيليب أوغسطس والحملات الصليبية التالية لاتخاذ طريق البحر الى الشرق ، كان سببه تحالف الامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس بالمسلمين (١٦٦) .

وكيفما كان الأمر ، فقد فشل التحالف بين بيزنطة وصلاح الدين : فالسلطان المجاهد صلاح الدين كان لا يمكنه تقويم أية مساعدات يحمي بها اسحاق انجيلوس من أعدائه لبعد المسافة وطبيعة العصر ، ولم يكن على قدرة بيزنطة مقاومة الصليبيين . وأما تقدير المسلمين لقيمة هذا التحالف مع البيزنطيين فقد سجله القاضى الفاضل بقلمه في رسالتين أرسلهما صلاح الدين الى الخليفة العباسى فى بغداد ينهى اليه في الرسالة الأولى « وصول رسول ملك الروم بما فى صحبته من هدية ، وبما على لسانه من رسالة ، وبما على يده من كتاب » ويذكر صلاح الدين للخليفة أن الامبراطور البيزنطى خائف من الصليبيين ، فاذا نجح

Brand, "The Byzantines and Saladin", p. 179.

فى دفعهم ادعى أنه فعل ذلك من أجل صلاح الدين ، وإذا فشل كما حدث عند عبور حملة فردريك بربروسا ، ادعى أن ذلك حدث دون رغبته « وهذا ملك الروم خائف من الفرنج على بلده ، مدافع عن نفسه ، أن تم له الدفع ادعى أنه بسببنا ، وأن لم يتم ادعى أنه غائب عن مقصده ومقصدا « (١٦٧) • وفى الرسالة الثانية — بقلم القاضى الفاضل أيضا — أشار فيها صلاح الدين الى وصول وسل حاكم قبرص الذى أصبح على علاقة طيبة به ، وورد فى الرسالة : « ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القسطنطينية فى أنا ننجده على قبرص ، فانا انما وعدناه بالنجدة عليها لما كانت بيد عدونا ، والله ما أفلح ملك الروم قط ، ولا نفع أن يكون صديقا ، ولا ضر أن يكون عدوا ••• » (١٦٨) • وهذا يفسر حقيقة التحالف بين بيزنطة وصلاح الدين فى عهدى الامبراطور اندرونيقوس الأول والامبراطور اسحاق الثانى انجيلوس •

وتجدر الإشارة الى أنه قبل وصول الصليبيين الى الشرق فى الحملة الصليبية الثالثة ، كان على الامبراطور اسحاق انجيلوس مواجهة التهديد اللاتينى الممثل فى النورمان وكذلك خطر البلغار فى الشمال • فبعد أن استولى النورمان على سالونيك سنة ١١٨٥ م تقدم جيش وأسطول النورمان نحو القسطنطينية • وفرح النورمان بما حققوه من انتصارات ، فنهبوا الأقاليم المجاورة للعاصمة البيزنطية دون أن يعملوا حسابا للجيش البيزنطى • وانتهم البيزنطيون الفرصة وهزموا النورمان ، وأرغموهم على إخلاء سالونيك ودورازو • وانسحب الأسطول النورمانى من أمام القسطنطينية وتم عقد معاهدة صلح بين اسحاق انجيلوس ووليام الثانى وضعت نهاية للحرب ضد النورمان (١٦٩) •

(١٦٧) أبو شامة ، كتاب الروشتين ، ج ٢ ، ص ١٧٨ •

(١٦٨) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة •

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 440.

(١٦٩)

وفى الشمال فشلت الدولة البيزنطية فى قمع الشعور القومى الانفصالى المتزايد فى بلغاريا للقضاء على تسلط البيزنطيين ، والرغبة فى الانفصال بعد اندماج بلغاريا فى الامبراطورية منذ سنة ١٠١٨ م . ونجح البلغار فى سنة ١١٨٦ فى تأسيس المملكة البلغارية الثانية وتخلصوا من نير البيزنطيين . وفشل الامبراطور البيزنطى اسحاق الثانى انجيلوس فى اخمد الفتنة فى بلغاريا بل على العكس نشأت قوة منافسة لبيزنطة فى البلقان فى شخص الملك البلغارى . ومع نهاية حكم أسرة انجيلوس زادت قوة المملكة البلغارية الثانية حتى أصبحت تشكل التهديد الحقيقى للامبراطورية اللاتينية التى قامت فى القسطنطينية فيما بعد فى سنة ١٢٠٤ (١٧٠) .

وفى سنة ١١٨٩ واجهت الدولة البيزنطية حملة صليبية ثالثة قادمة من الغرب الأوروبى . فمضت الحملة الصليبية الثانية فى سنة ١١٤٧ أخذت أحوال الصليبيين فى الشرق تنهار تدريجيا . فقد فشلت مملكة بيت المقدس الصليبية فى تأسيس أسرة مستقرة ، ونشب النزاع الداخلى بين أمراء الصليبيين ، ودب النزاع بين مختلف فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام بحثا عن المصالح الخاصة (١٧١) . وألحق صلاح الدين

Hussey, Byz. World, p. 65; Vasiliev, Byz. empire, II, (١٧٠) pp. 441 — 4;

(١٧١) ظهرت فى اواخر القرن الحادى عشر الميلادى فى بلاد الشام فرق الرهبان الفرسان ، وكان أشهر تلك الفرق الاسبتارية والداوية والتيتون . وكان ظهور هذه الفرق نتيجة لاستقرار الصليبيين فى الشام ورغبتهم فى تثبيت أقدامهم فى الأراضى الاسلامية . ورغم أن أهداف فرق الرهبان الفرسان كانت فى بداية الأمر أهدافا خيرية وإنسانية تتمثل فى ابواء فقراء الحجاج المسيحيين وعلاج مرضاهم ، وحراستهم على الطرق المؤدية الى الأماكن المقدسة بفلسطين ، إلا أن هذه الأهداف تلاحقت بالتدريج وتطورت عندها قويت هذه الفرق وزاد نفوذها واستقلالها ، وأصبحت كل منها تبذل دولة داخل الكيان الصليبي بالشام ، وتوحدت أهدافها مع أهداف الصليبيين ضد الاسلام والمسلمين ، فنظر نبيلة مقابى ، فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، رسالة ماجستير لم تنشر ، بكلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥ .

بالصليبيين هزيمة فاصلة عند حطين سنة ١١٨٧م واسترد بيت المقدس
فى نفس العام . وعندما أدركت أوروبا خطورة انتصارات صلاح الدين
قرضت ضريبة للاستعانة بها فى سد نفقات الحرب ضد المسلمين عرفت
باسم (عشور صلاح الدين) للاعداد لحملة صليبية ثالثة . وقاد هذه
الحملة الصليبية ثلاثة من أقدر ملوك أوروبا وقتذاك ، وهم : فردريك
بربروسا امبرطور ألمانيا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد قلب
الأسد ملك إنجلترا (١١٧٢) .

أما بالنسبة لموقف الدولة البيزنطية من الحملة الصليبية الثالثة ،
فالحقيقة أن شسور الشك والريبة كان سائدا بين البيزنطيين والصليبيين .
ومنذ مذبحة اللاتين فى القسطنطينية سنة ١١٨٢ م واتصالات بيزنطة
بصلاح الدين منذ سنة ١١٨٥ توترت العلاقات بين الشرق البيزنطى
والغرب اللاتينى . ونظر الامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس فى ريبة
كبيرة الى علاقات الود التى ربطت بين الامبراطور الألمانى فردريك
بربروسا عدو بيزنطة المحقود والنورمان ، وتوجت تلك العلاقات بزواج
هنرى وريث فردريك بوريثة مملكة صقلية . ويلاحظ أنه رغم المعاهدة
التي عقدها البيزنطيون مع فردريك بربروسا فى نورنبرج بألمانيا
Nurnberg قبل خروج فردريك فى حملته الصليبية ، الا أن اسحاق
كان يخشى غدر فردريك ولا يثق فيه . والدليل على ذلك أنه حتى بعد عقد
هذه المعاهدة مع فردريك استأنف اسحاق انجيلوس مفاوضات مع صلاح
الدين وعقد معه تحالفا ضد سلطان قونية السلجوقى على أساس أن يقوم
اسحاق — على قدر طاقته — باعاقبة تقدم الامبراطور فردريك بربروسا
فى آسيا الصغرى . ووعد صلاح الدين الامبراطور البيزنطى باعادة
الأراضى المقدسة الى البيزنطيين . وزاد شك اسحاق فى فردريك

(١١٧٢) انتلر حسنين ربيع ، جهاد صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين

ص ١٨٩ .

بربروسا عندما قام الامبراطور الالمانى بمفاوضة الصرب والبلغار . وساعت العلاقات بينهما الى درجة أن فردريك صمم على غزو القسطنطينية وكتب — كما سبق ذكره — الى ابنه هنرى يطلب منه جمع الأسطول فى إيطاليا ، وحث البابا على الدعوة لحملة صليبية ضد البيزنطيين (١٧٣) .

وأخيرا اتفق فردريك بربروسا واسحاق عند ادرنه على أن يقدم اسحاق السفن لنقل قوات فردريك عبر البوسفور الى آسيا الصغرى ، وأن يمهدهم بالمؤن والطعام . وفى ربيع سنة ١١٩٠ عبر الالمان البوسفور ، وفى ١٠ يونيو ١١٩٠ غرق فردريك بربروسا فى أحد أنهار قيليقية بآسيا الصغرى وفشلت الحملة الالمانية . وقضى موت الامبراطور على روحها ووحدتها كما أعطى موته المفاجئ راحة مؤقتة للدولة البيزنطية (١٧٤) .

أما حملتا فيليب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد فقد ابهرتا الى فلسطين بحرا من صقلية حيث أمضيا فصل الشتاء (١١٩٠ — ١١٩١م) . وفى ١٢ ربيع الأول ٥٨٧م / ٢٠ ابريل ١١٩١ م وصل الملك الفرنسى الى عكا بينما انصرف ريتشارد أثناء ابحاره الى الشرق للاستيلاء على جزيرة قبرص لاتخاذها قاعدة للامدادات والعمليات التى تقوم بها الجيوش ضد صلاح الدين . وارتحل ريتشارد من قبرص الى عكا فوصلها فى ٨ يونيو . وازداد هجوم الصليبيين على عكا حتى سقطت فى أيديهم يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧ هـ / ١٢ يوليو ١١٩١م . وأنهى الصليبيون بذلك الحصار الذى استمر مضروبا على عكا لمدة سنتين . وغدر ريتشارد بأمرى المسلمين فى عكا وساقهم الى جنوب تل العياضية وأمر بذبحهم جميعا ، فاستشهدوا فى سبيل الله ونالوا الجنة التى وعدها الله تعالى

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 446 — 447.

(١٧٣)

Ibid, II, p. 447 ; Sotton, Hist. of the Crusades,

(١٧٤)

II, pp. 114 — 115.

للحديقيين والشهداء • وعاد فيليب أوغسطس الى فرنسا متعللاً بسوء
 صحته تاركاً ريتشارد ومن معه من الصليبيين يواجهون القوات الاسلامية
 بقيادة صلاح الدين • ولم يستطع ريتشارد أن يحرز سوى انتصار جزئى
 محلى فى (أرسوف ، ووجد استحكامات يافا • وتدهورت صحة ريتشارد
 وتحت تأثير الرغبة الملحة فى العودة الى بلاده بعد أن علم بثورة أخيه
 جنا خذده • أرسل الى صلاح الدين فى دلب الصلح • وبدأت المفاوضات
 بين صلاح الدين وريتشارد بواسطة رجالهما • وكان صلاح الدين ، الذى
 لم يأتق بريتشارد أبداً ، يفاوض من مركز القوة نظراً للمدادات
 العسكرية الكبيرة التى وحصلته فى تلك الفترة من أنحاء دولته الكبيرة •
 وانسلر ريتشارد قلب الاسد أمام صلاح الدين الى قبول الصلح
 وتنازل عن بعض شروطه فتم عقد صلح الرملة فى ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ /
 ٢ سبتمبر ١١٩٢ م • ونص على أن تكون مدته ثلاث سنوات وثلاثة
 اشهر ، وأن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور الى يافا بما فيها
 قيسارية وحيفا وأرسوف • أما الأماكن المقدسة فى فلسطين فقد نصت
 الاتفاقية على أن يكون للمسيحيين فقط حرية الحج الى بيت المقدس دون
 مطالبتهم بأية ضريبة • وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثالثة فى تحقيق
 الهدف الذى قامت من أجله وهو استرداد بيت المقدس من المسلمين (١٧٥) •

وارتد فشل الحملة الصليبية الثالثة الى بيزنطة • فقد أبحر
 ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا بنتائج جالبة للنائب للقسطنطينية •
 فقد استولى ريتشارد على قبرص وانتزعها من اسحاق كومنين ، وبالتالى
 انتقلت الجزيرة — التى فقدتها بيزنطة — من أيدي البيزنطيين الى
 اللاتين • وأدى فشل الحملة الصليبية الثالثة أيضاً الى ظهور مشكلات
 الازمة خاصة بالاحتفاظ بما بقى من امارات صليبية فى الشام وفلسطين •
 وفكر اللاتين فى اعداد حملة صليبية جديدة • وكانت هناك آراء كثيرة تؤيد

١٧٥ (١٧٥) حسدن ربيع ، جهاد صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين ،

١٨٩١ — ١٩٠

فكرة مهاجمة بيزنطة كمرحلة أولى لسياسة هجومية حقيقية ضد القوى
الاسلامية • ولفترات تاريخية طويلة كان الغرب اللاتيني يعزى فشله
الصليبيين الى البيزنطيين الفاعدين (١٧٦) •

وأنت المبادرة ضد بيزنطة من حاكم الامبراطورية الرومانية
المقدسة هنرى السادس بن فردريك بربروسا Henry VI • وورث
هنرى السادس كل الحقد الذى يكنه النورمان لبيزنطة وبخاصة
ازواجه من ابنة وليام النورمانى • ومال هنرى نحو السياسة للشرقية
للنورمان التى اتخذت اتجاها توسعيا طموحا لا يقل عن السيطرة على
العالم المسيحى كله فى الشرق • وفكر هنرى السادس فى اعداد حملة
صليبية للاستيلاء على الشرق المسيحى كله بما فى ذلك الدولة البيزنطية
على اعتبار أن القسطنطينية مثلها مثل فلسطين • وكانت الخطوة الأولى
لتحقيق تلك السيطرة هى قهر البيزنطيين • ووجد هنرى فرصة للتدخل
فى شئون الدولة البيزنطية ، عندما تم عزل اسحاق الثانى سنة ١١٩٥ م
وسملت عيانه بواسطة أخيه الامبراطور الكسيوس الثالث • وزاد تهديد

هنرى عندما رتب زواج أخيه فيليب السوابى Philip of Swabia
من ايرين Irene ابنة الامبراطور المعزول اسحاق ، وذلك لكى يجعل
لأخيه بعض الحقوق فى بيزنطة • وأرسل هنرى السادس رسالة تهديد الى
الامبراطور الكسيوس الثالث طالب منه فيها أن يشترى السلام
مقابل أن يدفع الى هنرى اتلوة كبيرة من المال • ولهذا استحدث
الكسيوس ضريبة خاصة سميت باسم الضريبة الألمانية Alamanian
وتم انتزاع ذخائر ذات قيمة ثمينة من المقابر الامبراطورية لدفع تلك
الاتلوة • وبهذا الشكل المبهين اشترى الامبراطور البيزنطى الكسيوس
الثالث السلام من هنرى السادس • وفى نهاية صيف سنة ١١٩٧ م أخذ
هنرى يعد العدة للخروج فى حملة صليبية جديدة بعد أن حصل على

اعتراف بالسيادة من قبرص ومن أرمينية الصغرى • وتجمع أسطول كبير عند مسينا Messina بإيطاليا وكان هدفه — فيما يبدو — مهاجمة القسطنطينية لا بلاد الشام • وفى ذلك الوقت مرض هنرى السادس بالحمى ومات فى خريف نفس العام ١١٩٧ م • وانتهت بموته خطته الطموحة • وفرح البيزنطيون لموته وتخلصهم من الخريبة الألمانية ، كما ارتاح البابا • وفقدت الحركة الصليبية قائلداً كان على ما يبدو قادرا على اعطاء تلك الحركة نوعا من الوحدة والاتجاه الصحيح • غير أن ذلك لم ينقذ القسطنطينية ، فبعد سنوات قلائل أى فى سنة ١٢٠٤ م سقطت القسطنطينية فى أيدي اللاتين (١٧٧) •

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 448 9 ; Hussey, Byz. (١٧٧)
World, p. 66 ; Vryonis, Byzantium. p. 150.

الفصل الخامس

اضمحلال الدولة البيزنطية

(١٢٠٤ - ١٣٥٤ م)

تعتبر السنوات من ١٢٠٤ الى ١٣٥٤ م من أهلك سنوات التاريخ البيزنطى . وتبدأ هذه الفترة باستيلاء الصليبيين اللاتين على القسطنطينية الذى يعد ضربة قاصمة أدت الى هزة عنيفة فى المجتمع اليونانى البيزنطى بعد أن غدت القسطنطينية يحكمها امبراطور غربى لاتينى . ولم تستطع بيزنطة النهوض من كبوتها بعد كارثة سنة ١٢٠٤ ، اذ انغمست فى حلقات متتابة من الانهيار والتدهور والنزاع . وسقوط القسطنطينية فى أيدى اللاتين سنة ١٢٠٤ م هى قصة الحملة الصليبية الرابعة التى دعا اليها البابا انوسنت الثالث Innocent III الذى تولى كرسى البابوية فى روما فى فبراير سنة ١١٩٨ م . وأراد هذا البابا اعادة سيادة البابوية كاملة ، وأن تكون البابوية على رأس الحركة الصليبية ضد الاسلام والمسلمين . وكان البابا انوسنت الثالث نشطا للغاية للدعوة الى حملة صليبية عامة يشترك فيها المسيحيون فى الشرق والغرب للوصول الى هدف واحد هو الاستيلاء على بيت المقدس . وراسل البابا الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث لتحقيق وحدة الكنيستين أى كنيستى روما والقسطنطينية . وبعث رسائل وأرسل رسلا الى ملوك أوروبا وقادتها بخصوص الحملة الصليبية المقترحة ضد مصر . وفى احدى رسائله وصف البابا انوسنت الثالث سوء أحوال الصليبيين فى الشرق ، وعبر عن غضبه من حكام وأمراء عصره الذين يقضون أوقاتهم فى اللهو والمتعة والمنازعات الحلية ، فى حين يستهزئ المسلمون بهم . ولم يستجب لدعوة البابا أحد من

مارك أوروبا ، وبالتالي لم تكن الحملة الصليبية الرابعة حملة ملوك وأباطرة ، فملك فرنسا فيليب الثاني أوغسطس كان قد صدر ضده قرار الحرمان اقيامه بطلاق زوجته ، وملك إنجلترا حنا كان قد تولى الدرس مؤخرا وكان عليه تدعيم حكمه ، كما أن النزاع في ألمانيا نشب بين أوتو وفيليب السوابي ولم يكن في استطاعة أحدهما مغادرة بلاده من أجل حملة صليبية . ولم يستجب لدعوة البابا انوسنت الثالث ، وى تيررات خونت شمانيا Count Thibault of Champagne وبلدوين دى فلاندرز واويس بلوا وغيرهم من أمراء أوروبا (١) .

غير أن الشخصية الأساسية التي لعبت دورا هاما في هذه الحملة الصليبية كانت شخصية الدوج هنري داندولو Dandolo . ورغم أنه كان قد بلغ وقتذاك الثمانين من عمره إلا أنه كان سياسيا بارعا ، جمع بين النشاط والحزم والشجاعة التي كانت تدل به الى مرتبة البهولة . وكان داندولو بندقيا في عقلية وصفاته وبخاشية في النواحي الاقتصادية ، وكان يضع مصالح البندقية الاقتصادية ورفاهيتها فوق كل اعتبار ومهما تكن الظروف . يضاف الى ذلك أنه كان على مقدره كبيرة في التعامل مع الرجال ، ورجل دولة من الداراز الأول ، ودبلوماسيا ذكيا ، وخبيرا اقتصاديا (٢) .

وأثناء الاستعداد لهذه الحملة الصليبية مات ثيبولت سنة ١٢٠١ م وانتقلت قيادة الحملة الى بونيفاس مونتفerrat Boniface of Montferrat وانتدب بونيفاس باهتمامه الشخصي في الأراضي المقدسة وفي الدولة البيزنطية . واستطاع بما تتمتع به من شخصية قوية أن يضع حدا

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 450-452 ; Nicol "The Fourth (1) Crusade and the Greek and latin Empires 1204-1261", in Cam. Med. Hist., Vol. 4, Part I, p. 276.

(٢) عن شخصية داندولو انظر ، شارل ديل ، البندقية جمهورية
البحر ، مقدمة ، ص ٤١ .

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 452.

لاى تحكم من جانب البابوية على الحملة الصليبية • وقلم بونيفاس
بزيارة صديقه امبراطور المانيا فيليب السوابى فى بلاطه حيث ناقشه
الأمر، وتم تدبير أمر الحملة الصليبية • وسبق أن ذكرنا أن فيليب
السوابى شقيق هنرى السادس كان متزوجا من إيرين Irene ابنة
الامبراطور البيزنطى المخاوع اسحاق الثانى انجيلوس • وكان فى ضيافة
فيليب السوابى شقيق زوجته وهو الابن الصغير لاسحاق الثانى واسمه
الكسيوس (٣) •

ووصل الصليبيون الى مدينة البندقية التى كانت مكان تجمع
رجال الحملة الصليبية • وعجز الصليبيون عن جمع مبلغ قدره ٨٥ ألف
مارك من الفضة ، وهو المبلغ الذى طالبت به البندقية نظير نقل
الصليبيين الى المكان الذى يقصده • وهنا اقترح الدوق داندولو ،
الذى عرف بدهائه ، تأجيل دفع هذا المبلغ المتفق عليه مقابل أن يساعد
الصليبيون البنادقة فى استرداد مدينة زارا Zara على ساحل
دالماتيا ، وهى المدينة التى ادعت البندقية بأحقية السيادة عليها من
الهنغاريين • وحث داندولو الصليبيين على مساعدة البندقية لاسترداد
زارا مقابل أن تقوم البندقية على نقل الصليبيين على سفنها الى
مصر • وهكذا استخدم البنادقة الصليبيين لتحقيق مصالحهم الشخصية
من البداية • وكان الهجوم على مدينة زارا المسيحية ضربة عنيفة
للصليبيين وللحركة الصليبية وانتصارا لداندولو • ولما كان البنادقة
قبل ذلك بوقت قصير قد دخلوا فى مفاوضات مع السلطان العادل الأيوبي
فى مصر ، فاشك أنهم قصدوا — بطريقة أو أخرى — حماية مصر
من أى هجوم من جانب الصليبيين (٤) •

Vryonis, Byzantium, pp. 150 I.

(٣)

Ibid., p. 151 ; Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 453 - 4 ; (٤)

Nicol, 'The Fourth Crusade' in Cam. Med. Hist. Vol. 4, i, pp. 278--9.

روبرت كلارى ، فتح القسطنطينية (الذجة العربية) ص ٤٠ - ٤٩ ،

شارل ديل ، البندقية جمهورية أرستقراطية ، ص ٤٢ ، اسمت غنيم =

فقد فكر الصليبيون أولا في الهجوم على مصر ، اعتقادا منهم بأنهم إذا تم لهم فتح مصر أصبح استرجاع فلسطين أمرا مقضيا ، لأن مصر كانت مركز المقاومة ضد الصليبيين بالشام ، وهى التى أمدت حركة الجهاد الاسلامى بالقوى البشرية والمادية لمحاربة الصليبيين .

أما من ناحية البنادقة فقد رأوا عكس ذلك ، ولم يرغبوا فى الاشتراك فى حرب ضد مصر . فقد كانت لهم جالية كبيرة فى الاسكندرية ، وكان الحى البندقى بها يحتوى على فندقين و حمام ومخبز وكنيسة . ومنح السلطان الأيوبيى العادل البنادقة امتيازات تجارية سخية ، وأعفاهم من عدة ضرائب . وحصل البنادقة الى مصر الأسلحة والحديد والأخشاب والمالليك رغم تحريم البابوية بيع ذلك للمسلمين . ومما يدل على حسن العلاقات الطيبة بين مصر والبندقية ما حدث سنة ١٢٠٨ م عندما عقد السلطان العادل معاهدة تجارية مع البندقية ، منح البنادقة بمقتضاها مزيدا من الامتيازات والتسهيلات فى الموانئ المصرية . وتعهد السلطان بحماية البنادقة ومعاملتهم كأبناء أمة صديقة ، وتعهد البنادقة بالآي يقدموا أية مساعدة لأى مشروع صليبي ضد مصر (٥) .

لهذا بذل البنادقة كل جهد بعد الاستيلاء على زارا لتحويل الصليبيين عن هدفهم ، ورأوا أن غزو القسطنطينية سوف يحقق أكبر

= الحملة الصليبية الرابعة، ص ٦٢-٦٥ . وهناك ترجمة انجليزية للنصوص المستقاة من المصادر الأصلية بشأن الحملة الصليبية الرابعة وتحويلها الى زارا ثم القسطنطينية ، انظر :

Translations and Reprints from original
Sources of European History, Vol. III (Philadelphia, 1907) p. 1 — 20.
(٥) عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب ، ص ١٩١ — ١٩٢ ، شارل ديل ، البندقية جمهورية اريستقراطية ، ص ٥٩ ، نشر ، تالريخ أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢٤٢ — ٢٤٣ ، انظر ايضا :

Ifassanein Rabie, The Financial system of Egypt. p. 9.

فائدة لهم بعد أن ضيق الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث انجيلوس على البنادقة وجاليتهم الكجارية فى القسطنطينية ، وأغلق الامتيازات على منافسيهم من البيازنة(٦) . كما أرادت البندقية تأمين تجارتها الخاصة فى الدولة البيزنطية مدفوعة بعامل الغيرة من نشاط المدن الايطالية المنافسة لها فى الشرق . واستتكرت البندقية المحاولات البيزنطية الجديدة لتحديد امتيازاتها العديدة(٧) . وبعد استيلاء الصليبيين على زارا بدأ الكسيوس بن اسحاق الثانى فى مساومة الصليبيين . فتعهد الكسيوس بأن يدفع للصليبيين المبلغ الذى هو دين للبنادقة فى خدمة الصليبيين فى مقابل مساعدته لاسترداد عرش أبيه اسحاق فى القسطنطينية(٨) . وتحمس الصليبيون وصمموا على الاشتراك فى الحملة ضد القسطنطينية . ولم يكن الاستيلاء على القسطنطينية فكرة جديدة طارئة ، غير أنها ظهرت فى ذلك الحين فى وقتها المناسب . يضاف الى ذلك أن الأسطورة القائلة بأن البيزنطيين كانوا مسئولين دائماً عن سوء حظ الحركة الصليبية أخذت تزداد عمقا . واشترط الصليبيون فقط أنه بعد أن يستولوا على القسطنطينية ويقيمون فيها اقامة قصيرة عليهم أن يتوجهوا الى مصر كما كان مقررا(٩) . ومعنى هذا — كما ذهب هنرى جريجوار Henri Grégoire — أن تحويل الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها كان مقصودا من البداية ، أو بمعنى أدق منذ اللحظة التى انتخب فيها بونيفاس مونتفرات ليخلف كونت ثيولت(١٠) .

وهكذا استغل داندواو بمهارة فائقة تحمس الصليبيين ، وسياسة

(٦) غشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢٤٣ .

Hussey, Byzantine World, p. 67. (٧)

Vryonis, Byzantium, p. 15. (٨)

Vasiliev, Byz. empire, p. 455 ; Hussey, Byz. Wor'd, p. 67. (٩)

Grégoire, II., 'The Question of the diversion of the Fourth (١٠) Crusade', Byzantium, Vol. XV (1940 -- 41), pp. 158 -- 166.

أفراد الأسرة الحاكمة البيزنطية ، واشتراك الألمان في الحملة ، استغل هذا كله إلى أبعد مدى لتحقيق مصالح البندقية في بيزنطة • ودخل الصليبيون والبنادقة القسطنطينية في صيف سنة ١٢٠٣ م ، واسترد اسحاق الثاني أنجيليوس العرش (١٢٠٣ - ١٢٠٤ م) وتوج ابنه الكسيوس نمساعدا للامبراطور باسم الكسيوس الرابع • غير أن الكسيوس الرابع عجز عن تحقيق ما وعد به الصليبيين من دفع المبلغ الكبير لاحتجته إلى المسألة ، كما عجز عن تحقيق وعده بالمسير معهم في الحملة الصليبية إلى مصر ، كما قاوم سكان العاصمة البيزنطية أي اتحاد خنس مع اللاتين • وزاد من توتر العلاقات بين اللاتين واليونانيين ما قام به اللاتين من سلب ونهب للقرى اليونانية المجاورة للقسطنطينية ، كما أنهم أحرقوا جانباً من العاصمة نفسها (١١) •

وعندما تفاقم الأمر حث الكسيوس الرابع الصليبيين بأن لا يقيموا في القسطنطينية بل عليهم أن يعسكروا في ضواحيها ، وأن يمنحوه فسحة من الوقت لعدم قدرته على دفع جميع المال الذي تعهد به • وثار سكان العاصمة البيزنطية ، وتضايقوا من سياسة الامبراطور اسحاق وابنه واتهموهما بخيانة الامبراطورية لصالح الصليبيين • وتم عزل كل من اسحاق الثاني وابنه الكسيوس الرابع وقتلا ، وتولى عرش الدولة البيزنطية في بداية سنة ١٢٠٤ م امبراطور جديد اسمه الكسيوس الخامس دوقاس Alexius V Ducas ، انتمى إلى أسرة انجيليوس عن طريق زواجه بابنة الكسيوس الثالث • وفقد الصليبيون مؤيدهم الأساس في العاصمة البيزنطية بقتل اسحاق وابنه ، إذ انضم الكسيوس دوقاس إلى الحزب المعادي للصليبيين ، ورفع راية المقاومة ضد اللاتين • وانتهى بذلك أي علاقة تربطهم به وشعروا بأنهم

اصبحوا احبارا تجاه اية التزامات لبيزنطة • وصمم الصليبيون على الاستيلاء على القسطنطينية لحسابهم (١٢) •

وفي مارس سنة ١٢٠٤ م عقد الصليبيون والبنادقة اجتماعا خارج اسوار القسطنطينية قرروا فيه ايقاف النزاع ضد المسلمين ، وعقدوا معاهدة فيما بينهم بخصوص تقسيم الدولة البيزنطية بعد غزوها والاستيلاء عليها ، وهى المعاهدة التى حددت مستقبل الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية • واجتمعوا على انه اذا وقع الاختيار عليهم أحد من الفرنسيين ليكون امبراطورا ، كان البطريرك من البنادقة ، كما اتفقوا على أن يؤول ربع المدينة لمن يصبح امبراطورا ملكا خالصا له لا يشاركه فيه أحد ، أما الثلاثة الأرباع الباقية فتقسم نصفين : أحدهما للبنادقة وثانيهما للصليبيين ، وأن يعتبر كل شيء اقطاعا من الامبراطور • واستقدموا جميع رجال الجيش الصليبي ليقسموا قسما يجابون بمقتضاه الى المعسكر كل ما يقع فى أيديهم من الأسلاب والغنائم ، ولا يتعرضوا للنساء او الرهبان والا يقتحموا كنيسة أو ديرا (١٣) •

وفى أبريل سنة ١٢٠٤ م هجم اللاتين على القسطنطينية • وهرب الامبراطور البيزنطى والبطريرك وتيودور لاسكاريس Theodore Lascaris مع غيرهم من اليونانيين الى آسيا الصغرى. والبلقان لكى يكونوا مقاومة هناك • ونهب وسلب الصليبيون أعظم مدينة فى أوروبا • وقام الجند اللاتين لمدة ثلاثة أيام بقتل وانتهاك

Vasiliev, Byz. empire, II pp. 440, 460.

(١٢)

(١٣) عن اتفاقية البنادقة والصليبيين فى مارس ١٢٠٤ م ، انظر روبرت

كلارى ، فتح القسطنطينية ، ص ١٠٩ — ١١٠ ،

Setton, Op. Cit., II, pp. 183 — 5 ; Vryonis, Byzantium,

p. 151 ; Vasiliev, Byz. empire, II. p. 460.

أعراض سكان العاصمة البيزنطية ، وسلبوا وغنموا كل ما وجدوه من ذخائر وثحف وكنوز ، ودمروا وأتلفوا منشآت القسطنطينية وملاعها وميادينها وأسواقها . فالقسطنطينية كانت متحفا للفن القديم والفن البيزنطى ومدينة غنية رابحة ، دمرها الصليبيون الذين شربوا الخمر حتى الثمالة فى شوارعها ، وانتهكوا أعراض الراهبات ، وقتلوا رجال ألدن الأرثوذكس . وعبر الصليبيون عن كرههم لليونانيين البيزنطيين بتدنيس اعظم كنائس المسيحية كنيسة القديسة صوفيه . فقد أتلّفوا الأيقونات اللغسية والأيقونات الأخرى والكتب المقدسة المحفوظة فى هذه الكنيسة . وجلس الصليبيون على كرسي البطريرك يغنون ويسربون النبيذ من الأواني المقدسة للكنيسة . وانعكس التباعد الذى كان سائدا بين الشرق والغرب وزاد خلال القرون الماضية فى تلك المذبحة البشعة التى صاحبت غزو الصليبيين للقسطنطينية . وتؤكد البيزنطيون المعاصرون بأن القسطنطينية لو كانت قد وقعت تحت أيدي الأتراك المسلمين ما فعلوا بها مثلما فعل الصليبيون اللاتين(١٤) .

ورسم نيقيتاس خونياتس Nicetas Choniates — الذى كان شاهد عيان لاستيلاء الصليبيين على القسطنطينية — صورة واضحة عن نهب المدينة وما حدث بها من تخريب لدرجة القول بأن المسلمين عند استردادهم لبيت المقدس سنة ١١٨٧ م كانوا أكثر رحمة بالمسيحيين ، من أولئك الذين تسبوا بجنود المسيح أى الصليبيين . وهناك شاهد عيان آخر لحوادث غزو القسطنطينية وهو نيقولا ميساريثس Nicholas Mesarites وهو من سكان مدينة أفيسوس أعطى وصفا مجزنا لما حدث فى القسطنطينية وذلك فى خطبة الغزاء التى ألقاها بمناسبة وفاة ابنه الأكبر وتحدث فيها عن تخريب الصليبيين للقسطنطينية . وامتلات مدن غرب أوروبا بالكنوز والذخائر التى خرجت

من القسطنطينية ، حتى الجياد البرونزية الأربعة التي كانت تزين ميدان
السباق في القسطنطينية ، حملها داندولو إلى البندقية ، ولا تزال هذه
الجياد تزين واجهة كاتدرائية القديس ماركو St. Mark في فينيسيا
المحالية (البندقية) (١٥) .

أما عن الإدارة اللاتينية في القسطنطينية فقد خاف داندولو من
حماسة قائد الحملة الصليبية بونيفاس ، فقد وجد فيه قائدا قويا ،
ويخافه أن يمتلكه كانت على مقربة من البندقية ، لهذا رأى داندولو
أن يتم انتخاب رجل أقل قوة وحماسة من بونيفاس ، وهو بلدوين كونت
فلاندرز Baldwin of Flanders امبراطورا ، وأن يتم اختيار
شخص من البنادقة ، وهو توماس موروسيني Thomas Morosini
بطريك . وفي ٢٦ مايو ١٢٠٤ م توج بلدوين كونت فلاندرز امبراطورا
في كنيسة القديسة صوفية . وتم تقسيم الدولة البيزنطية كما كان
متقنا عليه من قبل . فقد أخذ بلدوين جنوب تراقيا و ^١/_٢ القسطنطينية
وجزء صغيرا شمال غرب آسيا الصغرى مجاورا للبوغور وبحر مرمرة
وبعض جزر بحر ايجه مثل لسبوس وخيوس وساموس . أما منافسه
قائد الحملة بونيفاس فقد أخذ مدينة سالونيك وبعض الأقاليم المجاورة
في مقدونيا وشمال تساليا مكونا مملكة سالونيك التي حكمها كفصل
تابع للملك بلدوين . وأخذ أوتو Otto de la Roche أتيكا Attica .
أما البنادقة فقد ادعوا ملكية المناطق التي تحقق الأمن لمصالحهم
التجارية ، وأهمها ^٢/_٣ القسطنطينية وكنيسة القديسة صوفية ،
وأخذوا دورازو Dyrrachium وجزر البحر الأيوني والعديد الكبير
من جزر البحر الأيحي جنوب البيلوبونيز بالإضافة إلى بعض موانئ ،

Vasiliev, Byz. empire, II. pp. 461 — 2 ; Ashour and Rabie, (١٥)

Fifty Documents, pp. 96 — 99 ;

روبرت كلاري ، فتح القسطنطينية ، ص ١٢٢ — ١٢٣ ، أسمت
غنيمة ، الحملة الصليبية الرابعة ، ص ٨٧ — ٨٩ .

الجرنديل وبحر مرمرة ومدينة ادرنه • كما كونت الجزر الأيونية وكريت
و جزر بحر ايجة بقية ممتلكاتهم • وتم تسليم البيلوبونيز و المورة Morea
كما كانت تسمى الى وليم شامليت William of Champlitte
وجفرى فيلغاردين Geoffrey of Villhardouin • وتجدر الاشارة الى
ان الصليبيين مارسوا نظاما لقطاعيا غربيا في الممتلكات الجديدة ، أدى
الى لامرحية خطيرة • فقد قسم الامبراطور اللاتينى البلاد المفتوحة
الى عدد كبير من الاقطاعات الصغيرة والكبيرة منحها للأمرء والفرسان
طبقا لنظام الاقطاع السائد فى غرب أوروبا • وكان لابد للفرسان
الأوروبيين اللاتين ان يقسموا يمين الولاء للامبراطور اللاتينى فى
المقسطنطينية غير ان البنادقة رأوا أن ذلك ليس شرطا واجبا • ولأنك
أن هذا كان من عوامل ضعف المملكة اللاتينية(١٦) •

ودخل الصليبيون اللاتين بعد قضائهم على الدولة البيزنطية
فى نزاع مع البلغار حول السيطرة على البلقان • ومنذ سنة ١١٩٦ م
جلس على عرش البلغار الملك كالوجان Kalojan الذى عرف بعذائه
الشديد لبيزنطة فى عصر أسرة انجيلوس • وتوترت العلاقات بين اللاتين
والبلغار عندما طلب اللاتين من البلغار الاعتراف بسيادتهم ، وهددوا
الملك البلغارى بغزو بلغاريا • وفى نفس الوقت أغضب الصليبيون
اليونانيين فى تراقيا ومقدونية لامتھانهم العقائد الدينية اليونانية •
وبدأت الاتصالات السرية بين اليونانيين والبلغار • ولعب بطريك
المقسطنطينية السابق حنا كوماتروس John Comaterus دورا هاما فى
تكوين التحالف البيزنطى — البلغارى سنة ١٢٠٤ — ١٢٠٥ م نظرا لأنه
كان قد عاش فى بلغاريا قبل توليه الكرسي البطريركى • وتمنى ملك
البلغار الحصول على تاج الامبراطور البيزنطى • واصطدم الصليبيون

Vryonis, Byzantium, pp. 159 - 60 ; Vasiliev, Byz. (١٦)
empire, II, pp. 462 — 4.

اللاتين بالبلغار . وفي معركة أدرنه التي وقعت في ١٥ أبريل سنة ١٢٠٥م استطاع ملك البلغار كالوجان بمساعدة الفرسان الكومان الصالح هزيمة سلاطنة الصليبيين . وسقط في هذه المعركة زهرة الفرسان الغربيين . وأسر البلغار الامبراطور اللاتيني بلدوين . ولم يعرف مصير الامبراطور ، ويبدو أن ملك البلغار قد أمر بقتله بطريقة أو أخرى في ظروف غامضة (١٧) .

ونظرا لعدم حصول الصليبيين على أخبار عن مصير بلدوين ، فقد تم انتخاب أخوه هنري Henry ليحكم المملكة اللاتينية خلال فترة غيابة . وكان الدوق داندولو من المشتركين في هذه المعركة غير أنه انسحب مع المنهزمين ، ومات بعد ذلك بقليل في القسطنطينية ودفن في كنيسة القديسة صوفية . والحقيقة أن وقعة أدرنه سنة ١٢٠٥م وضعت الصليبيين في موقف يائس ، وكانت ضربة عنيفة للمملكة اللاتينية وبداية النهاية لها (١٨) .

ومن الجدير بالذكر أن الضعف الرئيسي للدول اللاتينية التي انقسمت اليها الدولة البيزنطية كان يكمن في حقيقة هامة ، هي أن السكان الخاضعين لحكم اللاتين كانوا عامة من اليونانيين وبالتالي اندمج ولاؤهم للطبقة الحاكمة . يضاف الى ذلك كما يشير الأستاذ فريونس Vryonis أن الخلافات الدينية المذهبية زادت من كره اليونانيين لسادتهم الجدد لأن أحد جوانب السياسة التي اتبعها اللاتين هو تحقيق

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 509 — 510.

(١٧)

من الأساطير والروايات الخفيفة المتطفة بموت بلدوين ، أول امبراطور للمملكة اللاتينية في القسطنطينية لنظر :

Wolff, R.L. : Baldwin of Flanders and Hainaut, First Latin Emperor of Constantinople his life, death and resurrection, in *Speculum*, Vol. XXVII (1952), pp. 281 — 322.

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 510 :

(١٨)

روبرت كلاري ، فتح القسطنطينية ، ص ١٥١ — ١٥٢ .

سمو الكنيسة الكاثوليكية • فالبابا انوسنت الثالث ، الذى كان يريد جذب الكنيسة اليونانية الى العالم الكاثوليكي ، استاء من المذبحة وانتهاك الأعراض الذى صاحب دخول اللاتين الى القسطنطينية • وحث رجال الدين اللاتين وامراء الصليبيين أكثر من مرة أن يعاملوا المسيحيين معاملة طيبة ، ولئن دون جدوى ، فقد استاء من تصرفات اللاتين المشينة (١٩) •

ومما يوضح ذلك ، ماكتبه البابا انوسنت الثالث الى القاصد الرسولى الكاردينال بطرس كابوانو Cardinal Peter Capuano اذ يقول متعجبا : « كيف يمكن أن نتوقع عودة كنيسة اليونانيين الى الولاء للبابوية الرسولية ، بينما ضرب اللاتين مثالا للشر وقاموا بأعمال الشيطان ، ونتيجة لذلك ولأسباب واضحة كرههم اليونانيون أكثر من كرههم للكلاب » • وأرسل البابا أيضا الى بونيفاس مونترفرات خطابا يحتوى على نفس المعنى ويؤكد ما أحدثه سلب اللاتين للكنائس وما أتلّفوه من أيقونات وصلبان وذخائر من أثر سئ فى نفوس اليونانيين • وامتدت هذه الروح لفهم أوضاع اليونانيين تحت حكم اللاتين ، الى ادارة الكنيسة اللاتينية فى القسطنطينية (٢٠) •

ففى سنة ١٢٠٦ م كتب توماس موروسيني Thomas Morosini أول بطريرك لاتينى فى القسطنطينية ، الى البابا خطبا مطولا يخبره فيه بالأحوال فى المملكة اللاتينية ويسأله عن أية تعليمات فى نواحي ادارية معينة • ورغم أن خطاب البطريرك الى البابا مفقود ، الا أن ما أثاره فى خطابه يظهر فى رد البابا على هذه الرسالة ، وهذا الرد مؤرخ فى ٢ أغسطس ١٢٠٦ م • ويفهم من رد البابا أن البطريرك اشتكى اليه أن

Vryonis, Byzantium, p. 160.

(١٩)

Wolff, R.L., "The Organisation of the Latin Patriarchate of Constantinople, 1204 -- 1261", *Traditio*, Vol. VI (1948), pp. 33--34.

(٢٠)

بعض الأساقفة اليونانيين رفضوا الخضوع لطاعته رغم التحذيرات التى وجهت اليهم . فقد استمر كثير من الأساقفة اليونانيين يجمعون الأموال من أتباعهم فى اسقياتهم ، وهرب بعضهم ولا يمكن الوصول اليهم . واصبحت كثير من الأبروشيات شاغرة لمدة ستة شهور وأكثر . وسأل البطريرك مورويسينى البابا عما يفعله فى هذه الحالات . وأجابه البابا انوسنت الثالث أنه يجب عليه مباشرة مهام وظيفته بكل حزم وحصافة . ونظرا لما حدث فى بيزنطة وفى ضوء عدم الاستقرار كان على البطريرك مورويسينى أن يرشح أساقفه جديدا مرة ومرتين وثلاث مرات . واذا صمم رجال الدين اليونانيون على مواقفهم فيجب على البطريرك اللاتينى أن يعزلهم عن وظائفهم ، ويصدر ضدهم قرارات الحرمان ، ويعين مكانهم رجال دين وموظفين لاتين . غير أن البابا حذر البطريرك أن لا يستخدم القسوة الا بعد أن يستنفد كل الطرق والوسائل معهم (٢١) .

وسأل البطريرك مورويسينى البابا انوسنت الثالث أيضا فى رسالته (١٢٠٦ م) عن أية تعليمات بخصوص الأقاليم التى يسكنها كلها اليونانيون وكذلك تلك التى يسكنها خليط من اليونانيين واللاتين . وأجاب البابا انوسنت بأن الأقاليم التى يسكنها اليونانيون فقط ، فيستطيع البطريرك تعيين أساقفة يونانيين مخلصين للبابا والبطريرك ، على أن يقبل الأسقف المرشح رسامته (تكريسه) بيدى البطريرك مورويسينى . أما فى الأقاليم التى يسكنها يونانيون ولاتين فعلى البطريرك أن يعين رجال دين لاتين . وتجدد الإشارة الى أنه كان من الصعوبة بمكان أن يقبل رجال الدين اليونانيون سيادة اللاتين ، والاعتراف بسمو كنيسة روما . وفى مارس سنة ١٢٠٨ م طلب البابا من

Wolff, 'The organisation of the Latin Patriarchate',
pp. 34 — 35.

الامبراطور اللاتيني هنرى والبارونات والبنادقة وسكان القسطنطينية أن يساعدوا البطريك ويناصحوه في محاولاته لجلب اليونانيين الى حظيرة الكنيسة اللاتينية ، وأن يتابعوا توقيع عقوبة الحرمان ضد أولئك اليونانيين الذين رفضوا القيام بمتطلبات الطاعة لروما وللبطريك اللاتيني . واستمر رجال الدين اليونانيون في عنادهم وموقفهم المتعنت تجاه الكنيسة اللاتينية(٢٢) .

فالحقيقة أنه بعد الغزو اللاتيني للقسطنطينية فر من الأقاليم التي امتلكها اللاتين عدد من الأساقفة اليونانيين بما فيهم بطريك القسطنطينية ورئيس أساقفة أثينا ميخائيل أكوميناتوس Michael Acominatus فروا الى ابيروس ونيقية وطرابيزون وبلغاريا . وعاش بعض رجال الدين من اليونانيين في أماكنهم الجديدة . وتجاهلوا أحيانا طلبات رجال الدين اللاتين ، وحرصوا غالبا على الإتصال برجال الدين المقيمين في الأقاليم التي لم تخضع لحكم اللاتين . وانتقلت الوظائف الكنسية الكبرى في الأقاليم المفتوحة الى أيدي الكاثوليك بينما ظل صغار رجال الدين في القرى من اليونانيين . يضاف الى ذلك أن رجال الدين اليونانيين واللاتين اشتركوا في مجادلات دينية ومذهبية كان أهمها تلك التي جرت في مدينة القسطنطينية في السنوات ١٢٠٦ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ . وامتد الخلاف والنزاع بين الكاثوليك اللاتين والأرثوذكس اليونانيين حتى في تفاصيل المصطلحات الدينية واجراءات الطقوس وما الى ذلك(٢٣) .

وهناك معلومات كثيرة في المصادر التاريخية وغيرها عن طائفة الفرنسيسكان ودورهم في تاريخ المملكة اللاتينية في القسطنطينية . فقد أصبح للرهبان الفرنسيسكان مركز هام في القسطنطينية ، ولعبوا

Wolff, Loc. Cit.

(٢٢)

Vryonis, Byzantium, pp. 160 — 161.

(٢٣)

دورا هاما في التاريخ الديني والاجتماعي للمملكة اللاتينية • وبدأ نفوذ طائفة الفرانسيסקان في البلاط الامبراطوري في القسطنطينية في عهد حنا دي بريين (١٢٢٩ - ١٢٣٧ م) • وكان حنا دي بريين ملكا على بيت المقدس وامبراطورا للقسطنطينية • وازداد نفوذ ونشاط الرهبان الفرانسيסקان لدرجة أن قاموا بدور هام في الحياة السياسية والكنسية، وكذلك في النشاط الثقافي في المملكة اللاتينية في القسطنطينية(٢٤) •

وتجدر الإشارة الى أنه قد حدث تداخل بين الثقافتين اليونانية واللاتينية • فقد حدث تزاوج بين اليونانيين واللاتين في مجالات كثيرة غير الدين • وانعكس مزج وتداخل العناصر البيزنطية اليونانية والفرنجية اللاتينية فيما يسمى باسم تاريخ المورة *Chronicle of Morea* وأصل هذا التاريخ يجده الباحث في اليونانية والفرنسية والاطالية والأرجونية ، ويصكي كيف اتصل الحكام اليونانيون في المورة (البيلوبونيز) بالفرسان اللاتين ، وكونوا مجتمعا اقطاعيا واحدا • فنظام البرونويا البيزنطي قد واكب الاقطاع الفرنجي ، وبالتالي ورد في تاريخ المورة كثير من المصطلحات الخاصة بكل من نظام البرونويا البيزنطي ونظام الاقطاع الأوروبي الغربي ، وانتقلت كثير من المصطلحات اللاتينية الخاصة بنظام حيازة الأراضي الى اللغة اليونانية • وانتقل هذا النوع من التعايش الى مجال الأدب ، وعلى سبيل المثال حدث تأثير مباشر للروايات الفرنسية على الروايات البيزنطية وتطور ذلك التأثير في القرن الثالث عشر والقرون التالية • أما بالنسبة للحياة الاقتصادية فلذلك أن نفوذ التجار الايطاليين أصبح كبيرا جدا لدرجة أن المصطلحات البحرية والتجارية في اللغة اليونانية أصبحت باللغة

(٢٤) انظر

Wolff, R.L., "The Latin Empire of Constantinople and the Franciscans, in *Traditio*, Vol. II (1944), pp. 213 — 237.

الايطالية • وظهر هذا التأثير اللاتيني القوى في ممتلكات البندقية التي ظلت تحت حكم الغرب الأوروبي حتى نهاية القرن الثامن عشر (٢٥).

أما بالنسبة للدولة البيزنطية بعد كارثة سنة ١٢٠٤ م فقد أدى سقوط مدينة القسطنطينية في أيدي الصليبيين — كما سبق القول — الى انشقاق المجتمع اليوناني البيزنطي • ولم يستطع اليونانيون أن ينظروا الى القسطنطينية كنقطة تجمع لولائهم بعد أن أصبحت حياتها السياسية والدينية يرأسها امبراطور غربي لاتيني وبطريك كاثوليكي • ولم يمنع هذا الشعور من رغبة وايمان في قلوبهم في استرداد القسطنطينية ، وأصبح ذلك دافعا قويا في العالم الأرثوذكسي • فقد ضاعت القسطنطينية ولكن الامبراطورية ظلت حية قائمة ، فبينما احتل اللاتين أم المدن (القسطنطينية) ، وتثريا من الولايات ، الا أن النبلاء اليونانيين ورجال الدين والجند هربوا في أعداد كبيرة الى تلك الأقاليم التي ظلوا فيها بعيدين عن سيطرة وسلطان اللاتين الغربيين • وفي هذه الأقاليم التي هاجر اليها اليونانيون حالت الجبال أو مياه البحر دون دخول اللاتين اليها مباشرة • وتركز الوجود اليوناني حول مدن نيقية وطرابزون وأرطا Artà في ابيروس • وتنافست الممالك اليونانية التي قامت بعد سنة ١٢٠٤ فيما بينها من أجل كسب ولاء اليونانيين ، كما تنافست لاسترداد القسطنطينية من قبضة اللاتين • وانتسب مؤسسو الأسرات اليونانية التي قامت في ابيروس وبيثينيا Bithynia وغيرهما الى أسرات امبراطورية بيزنطية • والحقيقة التي يجب ابرازها هي أن ما حدث من انقسام سياسي للعالم البيزنطي نتيجة الغزو اللاتيني سنة ١٢٠٤م ، لم يؤخر فقط استرداد القسطنطينية حتى سنة ١٢٦١ م ، بل أدى هذا الانقسام الى الموت النهائي للدولة البيزنطية (٢٦) • يضاف الى ذلك أن الدولة البيزنطية لم تستطع

Vryonis, Byzantium, p. 162.

Ibid., p. 153.

(٢٥)

(٢٦)

النهوض من كبوتها في سنة ١٢٠٤ م ، فقد فقدت الى الأبد معنى ومزى دورها. كقوة سياسية عالمية ، ولم تستطع استرداد ما كان لها من ازدهار سابق ونفوذ كبير (٢٧) .

فبعد سنة ١٢٠٤ م قامت ثلاث دول يونانية مستقلة على بقايا الدولة البيزنطية وهى : امبراطورية نيقية تحت حكم أسرة لاسكاريس Lascaris فى الجزء الغربى من آسيا الصغرى . وتقع هذه الدولة بين الممتلكات اللاتينية فى آسيا الصغرى وأراضى سلطنة سلاجقة الروم . وامتلكت هذه الدولة جزءا من الشاطئ الساحلى لبصر ايجة وكانت أكبر الدول اليونانية المستقلة وأخطر منافس للمملكة اللاتينية فى القسطنطينية . وفى الجزء الغربى من البلقان قامت دوقية Despotat فى ابيروس Epirus تحت حكم أسرة تنتمى الى أسرة انجيلوس ولها صلات بأسرة كومنين وأسرة دوقاس . أما الدولة اليونانية الثالثة فهى امبراطورية طرابيزون التى أقامها على الساحل الجنوبى الشرقى للبحر الأسود أفراد من أسرة كومنين (٢٨) .

ودوقية ابيروس أسسها ميخائيل الأول انجيلوس Michael I Angelus وهو — كما سبق ذكره — من أسرة انجيلوس التى كان لها صلات بعائلى كومنين ودوقاس ، ولهذا كانت أسماها حكام ابيروس تذيّل أحيانا باسم عائلى طويل Angelus Comnenus Ducas . وامتدت هذه الدوقية فى الأصل من دورازو فى الشمال ، الى خليج كورنث فى الجنوب . وأصبحت مدينة أرطا عاصمة الدولة الجديدة . ويشير الأستاذ فازيليف الى أن تاريخ هذه الدوقية فى القرن الثالث عشر لم يدرس دراسة وافية وبخاصة أن المصادر التاريخية عن هذه الفترة من تاريخها ناقصة (٢٩) .

Vasiliev, Byzantine Empire, II, p. 469.

(٢٧)

Ibid., II, p. 468.

(٢٨)

Ibid., II, pp. 518 — 519.

(٢٩)

وكان ميخائيل الأول انجيلوس قد فكر في أن يجعل مستقبله السياسي متصلا بالقرابة اللاتين في اليونان وقيم علاقات معهم . غير أنه عدل عن هذا التفكير ونجح — اعتمادا على صلات عائلية في وسط وغرب اليونان — في الاستيلاء على أرمط حيث أرغم الامبراطور البيزنطي المطرود المتجول الكسيوس الثالث انجيلوس على أن يتوجه حاكما ، وذلك لكي يضمن على نفسه الصفة الشرعية . ونظرا لما ائصف به ميخائيل من دهاء وشجاعة فقد نجح في معالجة أموره مع اللاتين والبطريرك ، وامتدت حدود دوقيته إلى دورازو غربا وتساليا شرقا (٣٠) .

أما عن الإدارة الداخلية لدوقية ابيروس فلم تختلف عن النظام الذي كان سائدا قبل سنة ١٢٠٤ م عندما كانت اقليما تابعها للدولة البيزنطية ، وعاش السكان تبعاً لنظام الإدارة البيزنطية السابقة . واعتبر ميخائيل انجيلوس نفسه حاكما مستقلا استقلالاً كاملاً ، ولم يعترف بسيادة تيودور لاسكاريس حاكم نيقية . وكانت كنيسة ابيروس مستقلة أيضا عن غيرها من الكنائس ، وأصبحت المهمة الأساسية لدوقية ابيروس هي الحفاظ على الهلينية في الأقاليم الغربية من اليونان خوفا من أن تتلشى بواسطة الفرنجة المجاورين والبلغار (٣١) .

أما طرابزون ، فقد كانت تقع على بعد مئات الأميال من مواقع اللاتين ، وبالتالي كانت بعيدة عن التوسع اللاتيني بعكس دوقية ابيروس . يضاف إلى ذلك أنها امتازت بهزايا كثيرة . فموقعها الاستراتيجي والجغرافي جعلها واحدة من أعظم المراكز التجارية في الشرق ، حيث كانت تلقى هناك سفن اللاتين واليونانيين بقوافل المسلمين الجالبة

Vryonis, Byzantium, p. 154.

Vasilev, By. empire, II, p. 519.

(٣٠)

(٣١)

للمتاجر والبرج الوفير لسكان طرابيزون . ورغم أن مساحة المدينة لم يكن متسعا ، نظرا لأن الأتراك كانوا يحكمون السهل الواقع جنوب الجبال ، إلا أنها كانت كثرة المياه والخصب . وفي نهاية القرن الحادى عشر غزا الأتراك السلاجقة الساحل الجنوبى للبحر الأسود وعزلوا طرابيزون ، وأدى هذا الى ازدياد روح العزلة بين كثير من سكانها . وكانت أقوى الأسرات التى لعبت دورا هاما فى تاريخ هذه المنطقة هى أسرة جابراس Gabras ، وهى أسرة أرستقراطية قامت بدور عظيم فى تاريخ طرابيزون فى القرن الثانى عشر وبخاصة فى دفاعها ضد هجمات الأتراك السلاجقة (٣٢) .

وكانت هناك صلات قديمة بين أسرة جابراس وحكام جورجيا Georgia (أيبريا) وأسرة كومنين . فعفى زمن الامبراطور البيزنطى الكسيوس الأول كومنين (١٠٨١ — ١١١٨ م) ، أرسل داود الثانى ملك جورجيا (١٠٨١ — ١١١٨ م) واحدة من بناته اسمها كاتا Kata الى القسطنطينية لتتزوج حفيد الامبراطور البيزنطى واسمه الكسيوس ابن مؤلفة الاكسياد حنه كومنين Anna Comnenus من زوجها نقفور برينيوس Nicephorus Bryennius . وخلال القرن الثانى عشر تمت زيجات أخرى بين البيزنطيين والبيت الحاكم فى جورجيا (٣٣) .

ومؤسسا امبراطورية طرابيزون اليونانية هما الكسيوس وداود ابنا الامبراطور مانويل كومنين ، وهما بالتالى ينتميان الى امبراطور بيزنطى سابق بالإضافة الى أن أسرة كومنين كانت لها اتصالات قوية محلية ، فبجدهما اندرونيقوس الأول Andronicus I. كان حاكما لمناه

Vryonis, Byzantium, pp. 154 — 155.

(٣٢)

Vasiliev, "The Foundation of the Empire of Trebizond (1204 — 1222)", Speculum, Vol. XI (1936), pp. 3 — 4.

(٣٣)

سينوب Sinope . ، ثما ثانت عمتها هي الملكة تامار Thamar
منكة جورجيا (٣٤) .

وكان الكسيوس وداود طفلين صغيرين عندما مات والدهما مانويل
تومنين سنة ١١٨٠ م . وبعد عزل أندرونيقوس وموته سنة ١١٨٥ م ،
أصبح الكسيوس وداود الوريثين لعرش بيزنطة ومنافسين خطيرين
للإمبراطور اسحاق انجيلوس . وكان من المستحيل على الأُميرين الصغيرين
البقاء في القسطنطينية بعد محاولة اسحاق انجيلوس القضاء على أفراد أسرة
كومننين قضاء تاما . ولا تذكر المصادر التاريخية شيئاً عن تاريخ الأخوين
الكسيوس وداود خلال الفترة من سنة ١١٨٥ م الى سنة ١٢٠٤ م ،
ولكن هناك معلومات تؤكد اقامتها في تفليس Tiflis عاصمة جورجيا
في بلاط عمتها الملكة تامار (١١٨٤ — ١٢١٢ م) ابنة أندرونيقوس ،
أعظم شخصية في تاريخ وأساطير جورجيا (٣٥) .

وارتفع شأن الكسيوس وداود في بلاط الملكة تامار التي انتهزت
فرصة الغزو اللاتيني للقسطنطينية في سنة ١٢٠٤ م لكي تعد جيشاً من
قوات جورجيا لاحتلال مدينة طرابيزون ولكي تضع ولدي أخيها
حكاهما لها . واعتماداً على مؤرخ طرابيزون اليوناني ميخائيل باناريوتوس
Michael Panaretos ، سار الكسيوس كومننين بتأييد من عمته
الملكة تامار ونجح في الاستيلاء على طرابيزون . وتذكر معظم المصادر
اليونانية الأخرى أن الأخوين الكسيوس وداود هما مؤسسي
إمبراطورية طرابيزون وتسميها هذه المصادر أحفاد أندرونيقوس
وأولاد مانويل . وقد استولى الكسيوس على طرابيزون في أبريل
سنة ١٢٠٤ م مما يدل على أن ذلك قد تم بعد الاستيلاء الأول للصليبيين

Vryonis, Byzantium, p. 156.

(٣٤)

Vasiliev, 'The foundation of the Empire of
Trabizond', p. 9.

(٣٥)

على القسطنطينية في ١٨ يوليو ١٢٠٣ م وليس بعد الاستيلاء الثاني في ١٣ ابريل ١٢٠٤ م . و نجحت حملة الملكة تامار بقيادة الكسيوس الي طرابيزون اذ أخذت الطريق البرى اليها من تفليس عن طريق لازيكا Lazica في بلاد القوقاز . وقام داود أخو الكسيوس بفتوحات واسعة غربا على طول الساحل بعد أن استخدم جندا مرتزقة من جورجيا ، فدخل بونطس Pontus ، واستولى على مدن وموانئ عديدة منها بافلاجونيا Paphlagonia وسينوب Sinope . وامتدت دولتهما من طرابيزون الى هرقلية Heracleia في الغرب (٣٦) .

وكيفما كان الأمر فالحقيقة أن امبراطورية طرابيزون كانت بعيدة عن القسطنطينية ، وحال هذا دون تحقيق الأمل في استرداد القسطنطينية من أيدي اللاتين . حقيقة أن حكام طرابيزون كنولانتيمون الى أسرة كومنين الأكثر شهرة بين اليونانيين عن أسرة لاسكاريس في نيقية ، كما كانت طرابيزون أكثر أهمية — من الناحية الاقتصادية — من امبراطورية نيقية ، الا أنه على الرغم من ذلك فقد فشلت طرابيزون في تأسيس دولة قوية في آسيا الصغرى وفي استرداد القسطنطينية (٣٧) .

وكانت الثلاثة بين هذه الدول اليونانية التي قامت على انقاض الدولة البيزنطية هي امبراطورية نيقية التي كان من نصيبها المحافظة على الشرف البيزنطى واسترداد القسطنطينية . ولم تكن امبراطورية نيقية بعيدة جدا من الناحية الجغرافية عن القسطنطينية كما هو الحال بالنسبة لطرابيزون ، كما لم تكن فقيرة من الناحية الاقتصادية كما كانت دوقية ابيروس ، فقد تمتعت نيقية بموقع جغرافى ممتاز ، وامتلكت أراضي كثيرة خصبة حيث وديان غرب آسيا الصغرى التي كانت تأتينا

Ibid., pp. 15 — 22.

(٣٦)

(٣٧) عن امبراطورية طرابيزون في كتب التاريخ والادب انظر الدراسة القيمة التي قام بها الأستاذ غازييف :

Vasiliev, A.A. "The Empire of Trebizond in History and Literature, Byzantion, Vol. XV (1940 — 41), pp. 316 — 326.

اليام من الأنهار، التي تتبع من الجبال وتعدها بحياة زراعية مزدهرة ،
وامتازت أيضاً بكثرة عدد السكان . يضاف الى ذلك ان المدن الهامة مثل
أزمير Smyrna ، وإفسوس Ephesus ، ومغنيسيا Magnesia
وبرجاموم Pergamum ، وبروسه Prusa ، ونيقوميديا Nicomedia
ونيقية Nicaea . أعطت لهذه المنطقة أهمية اقتصادية كبيرة وطابعا
مهنيا مميزا . وكانت مدينة نيقية قريبة من القسطنطينية عن طرابيزون ،
كما كانت مدينة حصينة لا تقهر تقمع على شواطئ بحيرة اسكانيا
Ascania . ومحاطة بأسوار قوية . يضاف الى ذلك أن مدينة نيقية
تمتعت بشرف كبير اذ أنها كانت مكان أول وآخر مجمع ديني مسكوني
اعترفت به الكنيسة اليونانية (٣٨) .

وتيودور لاسكاريس Theodore Lascaris (١٢٠٤—١٢٢٢م)
مؤسس امبراطورية نيقية كان رجلا يبلغ الثلاثين من عمره ، ينتمي الى
أسرة أنجيلوس بزواجه من حنة Anna ابنة الامبراطور البيزنطي
السابق الكسيوس الثالث ، كما ينتمي بنسبه الى أسرة كومنين أيضا .
ورغم أن المصادر لا تذكر أصل لاسكاريس أو اسم المدينة التي أتى منها،
إلا أنه تولى زمن الامبراطور الكسيوس الثالث قيادة عسكرية وحارب
بشجاعة ضد الصليبيين (٣٩) . وترك تيودور القسطنطينية كخيره من
الموظفين البيزنطيين الذين فضلوا القتال في غرب آسيا الصغرى .
فقد كانت الأحوال مضطربة في تلك المناطق حيث بدأ بعض اليونانيين في
تأسيس دويلات منافسة ، وبدأ اللاتين والسلاجقة وحكام طرابيزون في
الهجوم من كل جانب (٤٠) .

Vryonis, Byzantium, pp. 156 — 8.

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 508 ;

اسد رستم ، الروم ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

Vryonis, Byzantium, p. 158.

(٣٨)

(٣٩)

(٤٠)

ومن الثابت أن الفرسان اللاتين بعد أن استولوا على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ خططوا في السنة نفسها لغزو آسيا الصغرى ، وحققوا نجاحاً في عملياتهم الحربية هناك ، وظن اليونانيون في آسيا الصغرى أنهم فقدوا كل شيء . وفي تلك اللحظة الحرجة اضطر اللاتين لدعوة قيسانهم إلى أوروبا لمواجهة خطر البلغار . وانهزم الصليبيون أمام البلغار في موقعة آدرنة في ١٥ أبريل ١٢٠٥ وقتل الامبراطور بلحوين . ونتيجة لهذه المعركة وهزيمة اللاتين ، حصل تيودور لاسكاريس على مهلة من الوقت لكي ينظم قواته ويؤسس دولته ، ولذلك حكم حوالي أربع سنوات بدون لقب امبراطور متخذاً لقب despot (حاكم مستبد) (٤١) .

ولما رفض بطريك القسطنطينية السابق حنا كوماتروس John Comaterus — الذي هرب بعد الغزو اللاتيني إلى بلغاريا — القدوم إلى نيقية ، تم في سنة ١٢٠٨ انتخاب بطريك جديد اسمه ميخائيل أوتوريانوس Michael Autoreanus ، وأصبح مقبر الكرسي البطريركي في نيقية . وفي نفس العام قام البطريرك الجديد بتتويج تيودور لاسكاريس امبراطوراً . وتعتبر سنة ١٢٠٨م ذات أهمية كبيرة فقد أصبحت نيقية مقراً للامبراطورية والكنيسة معاً (٤٢) . وفي القسطنطينية بدأ هنري حاكم الملكة اللاتينية يواجه نتائج موقعة آدرنة التي فقد فيها أخاه الامبراطور بلحوين . وأعلن هنري العداء ضد تيودور لاسكاريس وكان لديه الأمل في أن يلحق ممثلات نيقية إلى الملكة اللاتينية . غير أن خوف هنري من خطر البلغار وخوف تيودور من خطر السلاجقة أرغم كلاهما على أن يتفقا ويعقدا هدنة بينهما . وهدد سلاجقة الروم في قونية امبراطورية نيقية ليونانية ، فقد كان قيام دولة

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 508 — 9. (٤١)

وانظر ما سبق ، ص ٢٥٩ .

Vasiliev, Op. Cit., II, pp. 511 — 12 ; Vasiliev, (٤٢)

"The Foundation of the Empire of Trebizond", p. 3.

يونانية جديدة في آسيا الصغرى أمرا مفوضا من جانب سلاجقة الروم، لأن قيام مثل هذه الدولة يحول دون تقدم الأتراك السلاجقة غربا ناحية ساحل البحر الأبيض • وتوترت العلاقات بين سلاجقة الروم في قونية وإمبراطورية نيقية خصوصا بعد أن التجأ الكسيوس الثالث أنجيلوس والد زوجة تيودور لاسكاريس الى بلاط سلطان قونية طالبا منه المساعدة لاسترداد عرشه • وأرسل السلطان السلجوقي غياث الدين كيخسرو الأول تهديدا الى تيودور بأن يسلم العرش الى الشيسوس أنجيلوس ، وأخفى في تهديده حقيقة هدفه في الاستيلاء على آسيا الصغرى كلها • وغزا السلطان السلجوقي في سنة ١٢١١ م بعض الأقاليم التابعة لإمبراطورية نيقية بحجة تأمين سلامة الكسيوس الثالث وفي الحقيقة لتوسيع السلطنة السلجوقية • وفي معركة جرت بالقرب من نهر مايندر Macender River بين السلطان السلجوقي غياث الدين والإمبراطور تيودور لاسكاريس ، حازت الهزيمة بالسلاجقة وقتل السلطان السلجوقي، وتم القبض على الكسيوس الثالث الذي قضى بقية حياته في أحد أديرة نيقية • وأدى انتصار البيزنطيين في هذه المعركة الى تأمين الحدود الشرقية لإمبراطورية نيقية والى آثار نفسية عميقة في نفس تيودور لاسكاريس ، كما كان لهذا النصر أثر كبير في نفوس اليونانيين في كل مكان ، وأعطاهم الأمل في استرداد عرش القسطنطينية من اللاتين (٤٣) •

أما بالنسبة للمملكة اللاتينية في القسطنطينية فبرغم أن هنري عبر عن سروره لهزيمة الأتراك السلاجقة المسلمين ، إلا أنه رأى — خطأ — أن انتصار اليونانيين سوف يؤدي الى إضعاف إمبراطورية نيقية • وحدث عكس ما توقعه هنري فبعد قضاء تيودور لاسكاريس على مشكلة السلاجقة التفت الى هدفه الأساسي وهو الهجوم على

القسطنطينية بمساعدة أسطوله ، مما أدى الى التجاء هنرى الى اللاتين طالبا مساعدتهم . غير أن مشروع تيودور لاسكاريس لاسترداد القسطنطينية قد تم اجهاضه ، اذ لم يكن لامبراطورية نيقية الوليدة من القوة والاستعداد ما يساعدها على تحقيق هذا الهدف . ونجح هنرى فى اختراق آسيا الصغرى فى ١٢١٢ - ١٢١٣ م وانتهى النزاع بين المملكة اللاتينية وامبراطورية نيقية اليونانية بعقد سلام بين الجانبين ، تم فيها تحديد حدود الدولتين فى آسيا الصغرى ، وان يظل الجزء الشمالى من آسيا الصغرى تابعا للمملكة اللاتينية فى القسطنطينية . وفى سنة ١٢١٦ م مات هنرى الذى عرف بنشاطه وذكائه ، وبمسموته تخلصت امبراطورية نيقية من أخطر أعدائها ، اذ لم يكن خلفاؤه فى حكم القسطنطينية مثله ذكاء ونشاطا وهمة ، وبدأت الأنظار تتجه الى امبراطورية نيقية (٤٤) .

ومما يدل على ذلك أن بابوات روما خابت آمالهم بعد أن توقعوا ان استيلاء الصليبيين على القسطنطينية سوف يؤدى الى وحدة دائمة بين الكنيسة اليونانية والكنيسة اللاتينية . وما أن جاءت سنة ١٢١٦ م حتى أصبحوا لا ينظرون الى المملكة اللاتينية والبطركية اللاتينية فى القسطنطينية كقوة مؤثرة لتحقيق هذه الوحدة الكنسية . والغريب أن البابوات بدأوا يفضلون اجراء المفاوضات لتحقيق هذا الهدف مع المنافس المخطر للمملكة اللاتينية ، أى مع امبراطورية تيودور لاسكاريس فى نيقية ، ولديهم الأمل فى تحقيق الوحدة الكنسية التى طال الأمد لتحقيقها منذ قطيعة سنة ١٠٥٤ م (٤٥) .

وأخيرا فى سنة ١٢٢٢ م مات تيودور الأول لاسكاريس مؤسس

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 515 — 516.

(٤٤)

Wolff, R.L., 'The Latin Empire of Constantinople and the Franciscans', p. 224 and note 43.

(٤٥)

امبراطورية نيقية بعد أن شيد مركزا هيلينيا في آسيا الصغرى، وجذب
انثباء اليونانيين الأوروبيين الى دولته ، وأسس قاعدة قوية مكنت
لخلفائه من بعده أن يبنوا فوقها صرحا شاهدا لاسترداد القسطنطينية .

وتولى عرش نيقية حنا الثالث دوقاس فاتاتزيس
John III. Ducas Vatatzes بعد موت تيودور لاسكاريس ، وهو زوج
ابنته ايرين Irene ، وحكم الامبراطورية من سنة ١٢٢٢ م الى
سنة ١٢٥٤ م . ورغم أن سلفه تيودور لاسكاريس وضع أساس تقدم
امبراطورية نيقية الا أن مركزها الدولى كان في حاجة الى رجل نشط
شجاع . وظهرت هذه الصفات فى شخصية حنا فاتاتزيس الذى ظهرت
امبراطورية نيقية فى عهده كقوى الدول اليونانية ، ولعبت دورا هاما
فى عالم العصور الوسطى . فقد عقد فاتاتزيس تحالفا زواجيا مع
الامبراطور فردريك الثانى ، واتصل بالبابا بشأن الوحدة بين الكنائس،
وعقد اتفاقا مع السلاجقة فى وجه الغزو المغولى . وفى الداخل نجح
هذا الامبراطور فى تحقيق رخاء كبير فى آسيا الصغرى ، واتخذ
سياسة معينة لحماية المصانع المحلية من تنافس المدن التجارية
الايطالية ، مما أدى الى احياء صناعة النسيج البيزنطى ، وامتلأت
مخازن الموانئ بالمتاجر الواردة من جميع أنحاء العالم المعروف
وقتذاك . يضاف الى ذلك أن فاتاتزيس بذل اهتماما كبيرا بأحوال مدن
دولته ، وملأها بالمنتجات الزراعية ، ودرب حرفيين متخصصين فى
صناعة الأسلحة على حساب الدولة ، واهتم بالتعليم فجلب مجموعات
من الكتب من المدن المختلفة . وشاهد عصره توسع سلطان امبراطورية
نيقية فى البلقان ، وتوج هذا التوسع باستيلائه على سالونيك
سنة ١٢٤٦، فنجح فى عزل اللاتين فى القسطنطينية ، وجعل استردادها
قريبا (٤٦) .

وشاهد عصر فانتازيس تنافسا جرى بين اليونانيين فى البلقان وآسيا الصغرى — اى بين دوقية ابيروس وامبراطورية نيقية — لتحقيق هدف مشترك وهو استرداد القسطنطينية • واثناء عهد تيودور لاسكاريس لم تكن هناك اية صلات بين امبراطورية نيقية ودوقية ابيروس • ولكن عندما تولى حنا فانتازيس عرش نيقية تغيرت الامور • ففى ذلك الوقت كان يجلس على عرش دوقية ابيروس تيودور انجيلوس الذى وصل الى هذا المنصب بعد مقتل أخيه ميخائيل الاول انجيلوس مؤسس الدوقية (٤٧) • وعاش تيودور انجيلوس فى بلاط امبراطور نيقية فى عهد أخيه ميخائيل ، ولم يطلق امبراطور نيقية سراحه للذهاب لمساعدة أخيه ميخائيل فى الحكم الا بعد ان أقسم له يمين الولاء • وما أن تولى تيودور انجيلوس عرش ابيروس حتى حثت بالقسم وشرع فى اتخاذ اجراءات عدائية ضد امبراطورية نيقية (٤٨) •

وسلك تيودور انجيلوس سلوكا عدائيا ضد المملكة اللاتينية فى القسطنطينية وخاصة عندما ظهرت مشكلة مملكة سالونيك • ففى سنة ١٢٠٧ م قتل حاكم سالونيك بونيفاس دى مونفيرات اثناء حربه ضد البلقان • وعندما كان الامبراطور اللاتينى هنرى على قيد الحياة كان فى استطاعته الدفاع عن سالونيك من خطر البلقان ودوقية ابيروس • ولكن موت هنرى سنة ١٢١٦ م وضعف خليفته بطرس دى كورتناى Peter de Courtenay أديا الى عدم استطاعة سالونيك مقاومة السياسة العدائية التى شنها تيودور حاكم ابيروس • وفى سنة ١٢٢٢ م استولى تيودور انجيلوس على سالونيك دون مقاومة كبيرة ، وامتدت دولته من الأديرياتيك الى البحر الأيجى ، ووجد نفسه جديرا بأن يدعى أحقيته فى التاج الامبراطورى ، وأن يصبح امبراطورا

(٤٧) عن تأسيس دوقية ابيروس انظر ما سبق من ٢٦٥ •

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 519.

(٤٨)

على الرومان • ورفض تيودور الاعتراف بلقب حنا فانتاتريس الذي تولى عرش امبراطورية نيقية في نفس السنة ١٢٢٢ م • ورأى تيودور أنجيلوس أنه يمثل العائلات البيزنطية المجيدة انجيلوس وكومنين ودوقاس وبالتالي له الدرجة العليا على حنا فانتاتريس الذي لا ينتمى الى أصل نبيل ، وتولى العرش لمجرد أنه زوج ابنة تيودور لاسكاريس • واتخذ تيودور انجيلوس لقب الامبراطور البيزنطي واعتبر نفسه امبراطورا على الرومان ، وأصبحت القسطنطينية تمثل هدفه المنتظر لطموحاته • وكان كل أمله أن يدخل كنيسة القديسة صوفيه ، وأن يأخذ عرش الأباطرة الرومان الأرثوذكس • وعندما تم اعلان قيام امبراطورية سالونيك سنة ١٢٢٢ م رفض تيودور انجيلوس الاعتراف بامبراطورية نيقية وأصبح في الشرق المسيحي ثلاث ممالك : امبراطوريتين يونانيتين في سالونيك ونيقية والمملكة اللاتينية في القسطنطينية التي أخذت تضعف سنة بعد أخرى • وأصبحت مملكة البلغار عاملا مصيريا في العلاقات التي ربطت هذه الامبراطوريات الثلاث (٤٩) •

ولاشك أن هدف كل من الامبراطورين اليونانيين حنا فانتاتريس وتيودور انجيلوس هو الوصول الى منصب امبراطور القسطنطينية • وبالتالي كان على كل واحد منهما أن يحارب منفردا ضد المملكة اللاتينية في القسطنطينية الى أن يحدث الاصطدام بينهما أخيرا • فعندما تولى حنا فانتاتريس عرش امبراطورية نيقية قام بهجوم ناجح ضد اللاتين في آسيا الصغرى ، واستطاع بأسطوله الاستيلاء على بعض جزر الأرخبيل ومنها خيوس واسبوس وساموس • ثم عبر الى أوروبا وأرسل جيشا استولى على أدرنه دون قتال • وكان لدى فانتاتريس الأمل في أن تفتح له تلك المدينة الهامة (أدرنة) أبواب القسطنطينية • ولكن في نفس الوقت خرج تيودور انجيلوس من سالونيك غازيا معظم تراقيا •

وفى سنة ١٢٢٥ م وصل قرب أدرنة وأرغم جيش منافسه حنا فاتاتريس على الانسحاب ، وكانت ضربة عنيفة لحنا وبخاصة أن تيودور انجيلوس تقدم حتى وصل الى أسوار القسطنطينية . غير أنه فى الوقت الذى قربت فيه لحظة استرداد تيودور انجيلوس للقسطنطينية وإحيائه للدولة البيزنطية ، واجه خطرا كبيرا قادما من الشمال متمثلا فى حنا آسن الثانى *Thar John Asen II* خان البلغار الذى أراد أيضا الاستيلاء على القسطنطينية(٥٠) .

وحنا آسن الثانى (١٢١٨ - ١٢٤١ م) كان أعظم ملوك البلغار ، استطاع أن يمد حدود مملكة البلغار الى درجة لم تصل اليها قبلة أو بعده . وكان هذا الملك البلغارى متسامحا من الناحية الدينية ، ومتعلما ورحيما . واشتهر بتلك الصفات بين البلغار واليونانيين على حد سواء فأحبوه . وكانت لديه خطة لتوحيد العالم الأرثوذكسى فى البلقان فى دولة واحدة عاصمتها القسطنطينية ، وبالتالى وقفت الامبراطوريتان الميونانيتان فى سالونيك ونيقية فى وجه تحقيق تلك الخطة . ومما يدل على ذلك أنه بعد استيلاء تيودور انجيلوس على سالونيك عقد تحالفا مع حنا آسن ملك البلغار . غير أن صداقتها لم تستمر طويلا نظرا لرغبة آسن فى الاستيلاء على القسطنطينية ، وبالتالى بدأ النزاع بينهما . وفى سنة ١٢٣٠ جرت معركة حاسمة بين تيودور انجيلوس وحنا الثانى آسن فى مكان يسمى كلوكوتينترا *Clocotinitza*

وهو مكان يقع بين أدرنة وفيليبوبولس . وانتهت المعركة بانتصار حنا آسن الذى ساعده الفرسان الكومان . وأسر تيودور انجيلوس وسلمت عيناه بعد أن اشترك فى مؤامرة ضد حياة خان البلغار . وتعتبر معركة كلوكوتينترا نقطة تحول هامة فى تاريخ المسيحية فى الشرق فى القرن الثالث عشر ، فقد قضت هذه المعركة على امبراطورية سالونيك

تلك الامبراطورية اليونانية التي كادت أن تسترد القسطنطينية من اللاتين . فامبراطورية سالونيك كانت قصيرة العمر لم تعيش سوى ثمان سنوات (١٢٢٢ — ١٢٣٠ م) فقد خلف مانويل أخاه تيودور انجيلوس في حكم سالونيك غير أن سالونيك وابيروس لم يابعا — بعد ذلك — دورا هاما ، وبالتالي انتقل التنافس على استرداد القسطنطينية بين حنا فانتاتريس والخان حنا آسن (٥١) .

أما عن الخان حنا آسن فقد استولى على أدرنة بدون مقاومة بعد هزيمته لتيودور انجيلوس وسقطت في يده معظم مقدونية والبايا حتى دورازو ، بينما ظلت سالونيك وثمانيا وابيروس في أيدي اليونانيين . وعندما فشل حنا آسن في الاستيلاء على القسطنطينية بمفرده تحالف مع حنا فانتاتريس حاكم نيقية ومانويل حاكم سالونيك ، وكان هذا التحالف موجها ضد اللاتين في القسطنطينية . وهكذا أصبحت عاصمة المملكة اللاتينية محاطة بالأعداء من جميع الجهات وفي موقف خطر للغاية . وفي سنة ١٢٣٥ م حاصرت قوات حنا آسن وفانتاتريس القسطنطينية برا وبحرا ، غير أنها أرغمت على الانسحاب

دون أن تصل الى نتائج حاسمة . وغادر بلدوين الثاني Baldwin II آخر الأباطرة اللاتين العاصمة القسطنطينية يائسا ، وانتقل في انحاء أوروبا يسأل حكامها تقديم المساعدة والعون بالمال والرجال للمملكة اللاتينية . ولم ينقذ القسطنطينية في تلك المرحلة سوى انهيار التحالف اليونانى — البلغارى ، فقد تحقق حنا آسن أن امبراطورية نيقية هي العدو الخطير لمملكة البلغار ، وأكثر خطرا عليها من المملكة اللاتينية الضعيفة التى تموت موتا بطيئا ، وغير حنا آسن موقفه وأصبح مدافعا عن المملكة اللاتينية ، وأعلن ايمانه بالكنيسة البابوية الكاثوليكية ، وأرسل

الى البابا يطالب وفدا للتفاوض قاضيا على التحالف اليونانى -
البلغارى (٥٢) .

وبدا تحالف جديد بين حنا فاتاتريس والامبراطور فردريك الثانى
هوهنشتاوفن ، وكان نتيجة هذا التحالف الجديد هو عداء كل من
فردريك الثانى وحنا فاتاتريس للبابوية . ففردريك الثانى كان قد قام
بتوحيد المانيا ومملكة صقلية تحت سلطانه ، فقد ولد من أب المانى
هو هنرى السادس وأم ايطالية هى الأميرة كونستانس وريثة صقلية .
ونشأ فردريك وتربى وتعلم فى باليهو بجزيرة صقلية ، وهى الجزيرة
التي كانت ملتقى للحضارات الاسلامية واليونانية والملايينية ، فنشأ
فردريك الثانى محبا للجدل يجيد عدة لغات منها العربية واليونانية ،
ومعجبا بحضارة السلفين وعلومهم . وكان فردريك عدوا للبابوية
بسبب نظرية السمو البابوى والسيادة العليا التي ادعتها البابوية ،
واعتقاد فردريك بأنه خليفة قيصر وأوغسطس وشارلمان ، وأنه يمثل
السلطة الامبراطورية العليا ، وأن رجال الكنيسة وعلى رأسهم البابا
يجب أن يعترفوا له بالسمو والزعامة . ويبلغ العداء مداه عندما قامت
البابوية باصدار قرارات الحزمان ضد فردريك ثلاث مرات (٥٣) .

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 525 — 526.

(٥٢)

Kantorowicz, Frederick the Second 1194 — 1250, London, (٥٣)

1931, pp. 25 — 30 :

سعيد عاشور ، الامبراطور فردريك الثانى والشرق العربى فى كتاب
بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١١٢ — ١١٣ ، وانظر
ما ذكره المؤرخ جمال الدين بن واصل (مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب ،
ج ٤ تحقيق حسنين ربيع ، ص ٢٤٩) عن عداء فردريك الثانى
للبابوية وتهكمه على البابا وصنوبر قرار الحزمان ضده ، وقد فردريك
الثانى الحما الصليبية السلسلة سنة ١٢٢٥ هـ / ١٢٢٨ م وهو مطرود من
رحمة الكنيسة ، منبذ من المجتمع المسيحى ، واستغل علاقته الطيبة
بالسلطان الابوبى الكامل واستخدم كل الوسائل الدبلوماسية حتى تآمر
له السلطان الكامل عن بيت المقدس ، وقوبل هذا بالسخط الشديد
من المسلمين ، لتفصيل ذلك انظر ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ،
ص ٢٠٦ ، ٢٣٣ — ٢٣٤ ، ٢٤١ — ٢٥١ ، سعيد عاشور ، الامبراطور
فردريك الثانى والشرق العربى ، ص ١١٦ — ١٢٩ .

وهكذا اشترك فردريك الثانى وحنا فانتاتريس فى العداء البابوية . وكانت البابوية ترى فى المملكة اللاتينية فى القسطنطينية وسيلة لتوحيد الكنائس الشرقية والغربية ، بينما ناصب فردريك هذه المملكة العداء لأنه رأى فيها عاملا من عوامل قوة البابوية ونفوذها . ومن ناحية أخرى نظر حنا فانتاتريس الى البابا نظرة عدائية لأنه رفض الاعتراف بالبطريك الأرثوذكسى فى القسطنطينية الذى تم رسامته فى نيقية ، مما حال دون استيلاء فانتاتريس على القسطنطينية (٥٤) . وبالتالي أدى العداء للبابوية وللمملكة اللاتينية الى عقد تحالف بين فردريك الثانى وحنا فانتاتريس فى العقد الرابع من القرن الثالث عشر . وأرسل فانتاتريس سفارة الى فردريك أتبعها بهدايا ثمينة ومبلغ من المال (٥٥) . وبناء على هذا التحالف وعد الامبراطور فردريك الثانى حنا فانتاتريس بالعمل على تحرير القسطنطينية من اللاتين واعادتها الى امبراطورها الشرعى . ومن ناحية أخرى تعهد امبراطور نيقية بأن يصبح تابعه وفصلا Vassal للامبراطور فردريك الثانى ، وأن يعيد وحدة الكنيستين كنيستى روما والقسطنطينية . وتوثقت الصلات بين الحاكمين بصلة المصاهرة . فبعد وفاة الزوجة الأولى لحنا فانتاتريس ، تزوج ابنة فردريك الثانى وكان اسمها قنسطانس Constance ثم اتخذت اسما يونانيا Anna حنه (٥٦) . واستمرت الصداقة بين فردريك الثانى وحنا فانتاتريس حتى موت فردريك رغم أن الامبراطور الاسانى انزعج فى آخر عهده بالمفاوضات التى دارت بين نيقية وروما وتبادل السفراء بينهما . وهناك مراسلات بين فردريك الثانى وحنا فانتاتريس ، حذر فيها فردريك صهره حنا من خطورة التقارب مع البابوية ، قائلا له أن الاساقفة الرومان « لبسوا قمامة للمسيح

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 527 28.

(٥٤)

Kantorwicz, Op. Cit. p. 207.

(٥٥)

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 528 ;

(٥٦)

وانظر أيضا عن علاقة فردريك الثانى، بحنا فانتاتريس :

Kantorwicz, Op. Cit., pp. 207, 598, 660.

ولكنهم خُلاب خارية ، وحيوانات متوحشة تلتهم شعب المسيح » . وقد تغيرت هذه العلاقات وبخاصة بعد موت فردريك الثانى فى سنة ١٢٥٠ م ، وتولى ابنه مانفرد Manfred عرش مملكة صقلية ، اذ انقلب مانفرد الى عدو لحدود لامبراطورية نيقية . وبعد موت هنا فانتاتريس سنة ١٢٥٤ م أصبح التحالف الألمانى — اليونانى الذى كان يحلم به فردريك الثانى مجرد ذكرى . ولم يؤد هذا التحالف الى نتائج هامة ، ولكنه يدل على أن هنا فانتاتريس كان لديه الأمل فى الوصول الى هدفه وهو الاستيلاء على القسطنطينية ، اعتمادا على مساعدة الصديق فردريك الثانى(٥٧) .

وشاهد عصر هنا فانتاتريس خطرا مدمرا وفد من الشرق كاد يودى بآمال امبراطورية نيقية فى استرداد القسطنطينية . وتمثل هذا الخطر فى الغزو المغولى التتارى . وأطلقت المصادر البيزنطية على المغول أو التتار أسماء Tahars, Tatars, Atars (٥٨) . ومن المعروف أن المغول الأصليين نشأوا فى الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبى ، وهى تمتد فى أواسط آسيا جنوبى سيبيريا وشمال التبت وغربى منشوريا وشرقى التركستان بين جبال التاى غربا وجبال خنجان شرقا(٥٩) . وأرسل أوكتاى خان المغول خليفة جنكيز خان جيشا كبيرا بقيادة باطو بن جوجى ، وكلفه بفتح بلاد الروس والجركس والبلغار وأقاليم أوروبا الشرقية . وتمكن هذا الجيش المغولى من الاستيلاء على كل المنطقة الواقعة بين جبال الأورال وشبه جزيرة القرم(٦٠) . واندفع المغول نحو أوروبا الروسية واستولوا على مدينة

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 530 :

(٥٧)

وعن المراسلات المكتوبة باللغة اليونانية من فردريك الثانى الى زوج ابنته هنا فانتاتريس ، انظر :

Kantorowicz, Op. Cit., pp. 306, 627.

Vasiliev, Op. Cit., II, p. 530.

(٥٨) انظر :

(٥٩) نؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص ٢٠ — ٢١ .

(٦٠) المرجع السابق ، ص ١٨٦ — ١٨٧ .

كثيف سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م ، وعبروا جبال الكربات ووصلوا الى بوهيميا قبل ازغامهم على الانسحاب الى سهول روسيا . وفى نفس الوقت تقدمت جموع مغولية أخرى جنوبا وغزوا أرمينية بما فى ذلك أرضروم (أرض الروم) Erzurum وغزوا آسيا الصغرى ، وهاجموا سلطنة سلاجقة الروم فى قونية وامبراطورية طرابيزون (٦١) .

وعلى الرغم من أن دولة السلاجقة بأسيا الصغرى قد بلغت ذروة سلطانها فى عهد السلطان كيخباد الأول ، الا أنه بعد موت هذا السلطان سنة ١٢٣٧ م تعرضت دولة سلاجقة الروم لتجهيز المغول منذ بداية عهد كيخسرو الثانى (١٢٣٧ — ١٢٤٥ م) . وتوغل المغول فى أراضي سلطنة سلاجقة الروم ، وحققوا انتصارات متعاقبة حتى هزموا السلطان السلجوقى فى ٢٦ يونيه ١٢٤٣ م عند كوزداخ Kozdagh بالقرب من أرزنجان . وترتب على انتصارات المغول استيلائهم على سبيواس واكتفوا بنهبها ، وخرّبوا توقلات وقيصرية . واضطر سلاجقة الروم الى عقد معاهدة مع الأمير المغولى باطوخان تعهد السلاجقة فيها بأداء اتاوة وإمدادات للمغول ، وكانت صدمة عنيفة مهدت لنهاية دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى (٦٢) .

وتحت ضغط الخطر المشترك العام من المغول ثم التحالف بين دول آسيا الصغرى الثلاث : سلطنة قونية وامبراطورية نيقية وامبراطورية طرابيزون . وهزم المغول القوات العسكرية السلجوقية وقوات ملطرابيزون ، واضطر امبراطور طرابيزون الى عقد معاهدة سلام مع المغول ، وتعهد بدفع اتاوة سنوية ليصبح تابعا وفصلا لهم (٦٣) .

وكان من حسن حظ السلاجقة وكذلك حنا فاتاتريس أن انشغل

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 530.

(٦١)

(٦٢) السيد البلاز العربى ، المغول ، ص ١٧٨ — ١٧٩ .

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 531.

(٦٣)

المغول بعمليات حربية أخرى ، وركزوا هجومهم ناحية الغرب في أوروبا مما ساعد امبراطور نيقية في القيام بإجراءات حاسمة في البلقان مهدت لتحقيق الأمل الكبير وهو استرداد القسطنطينية (٦٤) .

ففي البلقان انتهر حنا فاتاتريس انهيار المملكة البلغارية الثانية عندما مات حنا آسن الثاني سنة ١٢٤١ م . ولم يستطع خلفاء حنا آسن المحافظة على فتوحاته نتيجة ضعفهم وقلة خبرتهم . وعبر حنا فاتاتريس بجيوشه الى الساحل الأوروبي ، وفي خلال شعور قلاقل استولى على كل أقاليم مقدونية وتراقيا التي كان قد غزاها آسن . ثم تقدم حنا فاتاتريس نحو سالونيك حيث انتشر فيها الاضطراب والفوضى واستطاع الاستيلاء عليها بدون صعوبة في سنة ١٢٤٦ م ، وبالتالي قضى على دولة سالونيك . وفي السنة التالية ١٢٤٧ م استولى فاتاتريس على بعض مدن تراقيا التي كانت لا تزال في قبضة اللاتين وأصبح بذلك على مقربة من القسطنطينية . وخضعت دوقية اثينوس لسيادة حنا فاتاتريس وبالتالي امتدت دولته من البحر الأسود الى بحر الادرياتيك (٦٥) .

وفي سنة ١٢٥٤ م مات الامبراطور حنا فاتاتريس بعد أن بلغ من العمر اثنين وستين سنة وحكم ثلاثين عاما . وقد مدحه ويجهله كل المؤرخين البيزنطيين مثل نقفور جريجوراس Nicephorus Gregoras . وجورج اكربوليتا George Acropolita . وأصبح فاتاتريس قديسا في التراث الشعبي اليوناني ، ونشأت أساطير وروايات حول شخصيته باعتباره أول من فكر في احياء الدولة البيزنطية . والحقيقة أن الامبراطور حنا فاتاتريس قضى بالتدريج على أولئك الذين ادعوا العمل لاهياء الدولة البيزنطية بوجه خاصة حكام سالونيك وابيروس وبلغارياء .

(٦٤) عن المغول في أوروبا ووصولهم الى قلب أوروبا وسواجل بحر الادرياتيك ، انظر السيد الباز العربي ، المغول ، ص ١٨٠ - ١٨٨ ، نؤاد الصبيح ، المغول في التاريخ ، ص ١٨٦ - ١٨٨ .
(٦٥) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 532 ;
Vryonis, Byzantium, p. 165 : انظر : وعن الاستيلاء على سالونيك ،

ويرجع إليه الدور الرئيسي لحركة استرداد القسطنطينية • وبالتالى
يمكن القول بأن ميخائيل باليولوغس Michael Palaeologus
استفاد من جهود ونشاط وإنجازات أقدر حكام نيقية أى حنا فاتاتريس
الذى نظرت إليه الأجيال التالية على أنه « أب اليونانيين » (٦٦) •

وبعد حنا فاتاتريس حكم نيقية ابنه تيودور الثانى لاسكاريس
Theodore II Lascaris (١٢٥٤ — ١٢٥٨ م) ثم حفيده حنا الرابع
لاسكاريس John IV Lascaris (١٢٥٨ — ١٢٥٩ م) • أما عن تيودور
لاسكاريس ، فرغم ضعف صحته إلا أنه قضى كل أوقاته فى دراسة
الآداب فقد كان تلميذ أعظم علماء العصر وعلى رأسهم نقفور بلמידيس
Nicephorus Blennmydes وجورج اكروبوليتا George Acropolita .
ورغم اهتمام تيودور الثانى بالعلوم والآداب إلا أنه اهتم فى بداية
عمره بتكوين جيش يونانى قوى دون الاعتماد — الى حد كبير — على
الجند المرتقة • كما قام هذا الامبراطور بحملتين ناجحتين ضد
البلغار عندما انتهز الخان البلغارى ميخائيل آسن فرصة موت فاتاتريس ،
وحاول استرداد الأقاليم التى استولى عليها من الملكة البلغارية •
وتوسط بينهما الأمير الروسى روستسلاف Rostislav صهر ميخائيل
آسن ، وتم عقد مهادنة بين تيودور لاسكاريس وميخائيل آسن عادى
بعدها الى حدودهما الأولى • أما علاقة تيودور بدوقية ابيروس ،
فبمقتضى مشروع الزواج المقترح بين ابن دوق ابيروس وابنة تيودور
تسلم تيودور الأبناء الساحلى دورازو على الأدرياتيك وحصن صربيا
Serbia على حدود ابيروس — بلغاريا • ولم يحدث صدام بين
حكام نيقية والخوان بل أرسل الخول سفارة الى نيقية استقبلت استقبالاً
رائعاً (٦٧) •

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 533 -- 534.
Ibid., II, pp. 534 — 535.

(٦٦)

(٦٧)

وفي سنة ١٢٥٨ م مات تيودور الثاني لاسكاريس وخلفه ابنه القاصر حنا الرابع الذي لم يبلغ من العمر - وقتذاك - ثمان سنوات . ولم يستطع الامبراطور الصغير التحكم في شؤون الامبراطورية حتى بمساعدة وصيه جورج موزالون George Muzalon . وفي ذلك الوقت نجح شخص طموح اسمه ميخائيل باليولوجس في الاستيلاء على عرش نيقية . وينتمي ميخائيل باليولوجس الى أسرة ارستقراطية عريقة في المجتمع البيزنطي ، لعبت دورا هاما في تاريخ الدولة البيزنطية منذ منتصف القرن الحادي عشر . فجدّه الأكبر هو جورج باليولوجس الذي ساعد آل كومنين في الوصول الى العرش في أواخر القرن السادس عشر . وتحديث ميخائيل عن نفسه وذكر أنه ينسب الى الأسرات البيزنطية الحاكمة : دوقاس وكومنين وانجيلوس . وشغل بعض أفراد أسرة باليولوجس مناصب كبيرة في قيادات الجيش وفي إدارة الامبراطورية ، كما ارتبطت أسرته بصلات المصاهرة بأسرة تيودور الأول لاسكاريس امبراطور نيقية . وتولى ميخائيل باليولوجس وظائف في امبراطورية نيقية ، فقد كان قائدا عسكريا لفرقة الفرقة المرتقة ، وعرف بشجاعته وذكائه ، كما كان حاكما لمدينة نيقية في عهد تيودور الثاني لاسكاريس (٦٨) . وحامت حول ميخائيل باليولوجس اتهامات بتدبير مؤامرات ضد حنا فانتاتريس الذي ينتمي اليه بصلة قرابة ، وضد تيودور الثاني . وعندما انكشف أمره هرب الى بلاط سلطان قونية السلجوقي . واستفاد ميخائيل باليولوجس من الظروف التي أحاطت بدولة نيقية في عهد الامبراطور الطفل حنا الرابع لاسكاريس حتى تم تنصيبه امبراطورا في سنة ١٢٥٩ م (٦٩) .

وكان على الامبراطور ميخائيل باليولوجس مواجهة خطر خارجي

(٦٨) انظر اسحق عبيد ، الدولة البيزنطية في مصر باليولوجوس

س ٣٥ - ٣٧ .

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 536 ; Hussey, Byz.

(٦٩)

World, p. 71.

عُخذ ممتلكات نيقية في البلقان • فقد نجح دوق ابيروس في تكوين تحالف ضد امبراطورية نيقية منه ومن قريبه، مانفرد بن فردريك الثاني ملك صقلية ومن امير اماره (أخايا) Achaia في بلاد اليونان وهو وليام دى فيلغارديون William de Villehardouin . والمتقي ميخائيل باليولوغس مع القوات المتحالفة في معركة فاصلة سنة ١٢٥٩ م في سهل بيلاجونيا Pelagonia غربي مقدونية بالقرب من مدينة كاستوريا Castoria • وحارب في جيش ميخائيل في هذه المعركة جنود مرتقة من الأتراك والكومان والصقالبة واليونانيين • وكان انتصار الامبراطور ميخائيل باليولوغس انتصارا حاسما ، وسجل هو ذلك بالتفصيل في السيرة الذاتية التي كتبها ولا تزال محفوظة لم تتدثر ، سجل فيها ميخائيل كيف سحق دوق ابيروس وامير أخايا والألمان وأهل صقلية والايطاليين القادمين من أبوليا وغيرهم • وتعتبر معركة كاستوريا من المعارك الحاسمة التي مهدت لاسترداد مدينة القسطنطينية ، فقد انحسر دور دوقية ابيروس في أراضيها ، ولم تعد الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية تستطيع الاعتماد على اماره أخايا • وساعدت هذه المعركة ميخائيل باليولوغس على أن يركز جهوده لاسترداد القسطنطينية ، وأن يحرز انتصارات في المورة ، وأن يجعل الأسطول البندقي يقف على الحياذ ، وهو القوة الوحيدة — وقتذاك — التي كانت قادرة على مقاومة خطته (٧٠) •

ولكى يتأكد ميخائيل باليولوغس من تحقيق نصر مؤكد على الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية عقد معاهدة مع الجنوية منتعزا فرصة التنافس والزراعين البندقي وجنوقحول مصالحهما التجارية • فمن المعروف أنه بعد الحملة الصليبية الرابعة استفادت البندقية فائدة كبيرة

وأصبحت ذات قوة تجارية لا يستهان بها . ورغم أن الجنوبية كانوا على دراية بأن أى اتفاق سوف يعقدونه مع اليونانيين المنشقين عن طاعة كنيسة روما ، أى مع اليونانيين في نيقية ، سوف يثير البابا والغرب عموماً ضدهم ، إلا أنهم أرادوا إبعاد منافسهم البنادقة من الشرق وعقدوا معاهدة مع ميخائيل . وفي ١٣ مارس ١٢٦١ م وفي مدينة نيمفايوم Nymphaeum (قرب مدينة أزمير) تم توقيع معاهدة في غاية الأهمية بين الجنوبية وميخائيل باليولوغس . وأعطت هذه المعاهدة للجنوبية السيادة للتجارية في الشرق ، وهي السيادة التي كانت لدة ظويلة من الزمن في أيدي البنادقة . ومنح الجنوبية امتيازات تجارية في جميع أنحاء دولة ميخائيل باليولوغس . وحصلت الجنوبية على منح هامة في القسطنطينية وفي جزيرتي كريت وإيوبيا Euboea (نجروبونت) إذا نجح ميخائيل باليولوغس في استردادهم . كما حصلوا أيضاً على مدينة أزمير Smyrna ذات الأهمية التجارية الكبيرة وخاصة بمينائها الهام . كما حصل الجنوبية على مراكز تجارية في جزيرتي غيوس ولسبوس وفي أماكن أخرى بما في ذلك الحق في إنشاء الكنائس والقنصليات . وبمقتضى هذه المعاهدة الهامة أصبح البحر الأسود مغلقاً في وجه كل التجار الأجانب ما عدا الجنوبية والبيازنه المخلصين لميخائيل . وفي مقابل كل هذا تعهد الجنوبية بأن يمنحوا تجارة حرة لرعايا الإمبراطور ، وأن يساعدوه بأسطولهم بشرط أن لا تستخدم السفن ضد البابا أو أصدقاء جنوة . وكان الأسطول الجنوى في غاية الأهمية بالنسبة لمشروع ميخائيل باليولوغس لغزو القسطنطينية . وهذه المعاهدة تم المصادقة عليها في جنوة قبل استيلاء قوات ميخائيل على القسطنطينية ببضعة أيام . وكان هذا انتصاراً كبيراً لجنوة التي قلعت خسائر كثيرة بعد انتصارات صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام ، وبذات صفحة جديدة في

التاريخ الاقتصادي للعصور الوسطى (٧١) • وحصلت جنوة على مزيد من الامتيازات التجارية ، وعلى سبيل المثال منح الجنوبية فى سنة ١٢٧٥م حق استغلال مناجم حجر الشب الغنية فى فوكيا Phocaea عند مدخل خليج أزمير • وحصل الجنوبية على ثروات ضخمة من هذه المناجم لشدة حاجة أوروبا وقتذاك لحجر الشب فى الصباغة وصناعة المنسوجات ودبغ الجلود وما الى ذلك (٧٢) •

أما عن أحوال الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية فى السنوات الأخيرة من عمرها فكانت فى غاية السوء • ولعل أبلغ دليل على ما تردت فيه امبراطورية اللاتين من انهيار وضعف وفقر ، هو قيام آخر امبراطور لاتينى فى القسطنطينية بلحوين الثانى (١٢٣٧ — ١٢٦١ م) برهن ابنه وولى عهده فيليب كورتناى Philip de Courtenay لجماعة من التجار البنادقة كضمان لدين استدانه • وقد شرح وولف Wolff هذا الموضوع شرحا وافيا وخلصته أن الامبراطور اللاتينى استدان مبلغا كقرض حوالى سنة ١٢٤٨ م ، وأنه رهن ابنه وولى عهده فيليب الى اخوان فيرو Ferre وهم تجار بنادقة فى القسطنطينية • وفى ٨ يناير ١٢٥٨ م أرسل ملك فرنسا القديس لويس التاسع هبه مالية كبيرة لكى يقضى بها الأمير فيليب نفقاته الخاصة ، ولم يقصد الملك

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 537 — 8 ; Charanis, (٧١)
'Economic Factors in the decline of the Byz. Empire', p. 422 ; Cam.
Med. Hist., Vol. 4, Part 1, p. 326 ;

عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصور
الوسطى ، ص ٨٧ — ٨٨ ، اسحق عبيد ، الدولة البيزنطية فى عصر
بالولوجوس ، ص ٧٧ •

Hussey, Byz. World, pp. 69 — 70 ; (٧٢)

وعن أهمية الشب واستخراجه وتجارته انظر :
Rabic, 'The Financial system of Egypt', pp. 82 — 5 ; Cahen, 'L'Alum
avant phocée', pp. 433 — 47 :

انظر ما سبق ، ص ١٦٠ •

الفرنسي اداء دين امبراطور القسطنطينية بلدوين الثاني . ولم تصل
 الهبة الى فيليب الا في يونية سنة ١٢٥٩ م . وخلال الفترة من
 يونية ١٢٥٨ الى أول مايو ١٢٦١ م قامت الامبراطورة مارية دي بريين
 Marie de Brienne — وهي أم فيليب وزوجة بلدوين الثاني —
 بزيارة قشتالة Castile ، وحصلت من ابن عمها الفونس العاشر
 Alfonso X على المال اللازم لاطلاق سراح ابنها فيليب ، ونجحت
 في اطلاق سراحه في أول مايو ١٢٦١ م . واتفقت الامبراطورة مارية
 والفونس على أن يتزوج ابنها فيليب كورنتاي بابنة الفونس ، غير أن
 مشروع الزواج ثعر وقتذاك ، فقد عارضت البابوية مشروع الزواج
 على أساس أن ابنة الفونس لا تحل لفيليب لصلة القرابة الوثيقة بينهما ،
 كما وجد مشروع الزواج معارضة في قشتالة ذاتها . والحقيقة أن هذه
 المعارضة من جانب البابوية ومن أهل قشتالة كان سببها المصادقة التي
 تربط امبراطور القسطنطينية بلدوين الثاني بمانفرد ملك صقلية . وبهنا
 هنا القول أن قصة هذا الرهن يوضح مدى ما تردت فيه الامبراطورية
 اللاتينية من انهيار وضعف عشية دخول ميخائيل باليولوغس
 القسطنطينية (٧٣) .

ففي يوم ٢٥ يوليو ١٢٦١ م استولت قوات ميخائيل باليولوغس
 على مدينة القسطنطينية بسهولة . وكان ميخائيل في ذلك الحين في آسيا
 الصغرى عندما وصلت أنباء الاستيلاء على القسطنطينية ، فسار بسرعة
 اليها . وفي أول أغسطس دخل ميخائيل باليولوغس مدينة قسطنطين في
 موكب عظيم ، وحياء الناس . وتبع ذلك بوقت قصير تنصيبه للمرة
 الثانية في كنيسة القديسة صوفية بواسطة البطريرك . وبهذه الاجراءات

Robert Wolff, 'Mortgage and redemption of an Emperor's (٧٢)
 son : Castile and the Latin Empire of Constantinople, in *Speculum*,
 Vol. XXIX (1954), pp. 45 — 84.

تم احياء التقاليد البيزنطية القديمة بأن القسطنطينية هي رأس امبراطورية اليونانيين وكنيستهم . وهرب بلحوين الثانى الى جزيرة ايوبيا (نجريوننت) باليونان ومنها الى طيبه تم الى اثينا ومنها الى بعض مدن أوروبا بإحثاً عن مساعدة لاسترداد ملحه المفقود . وغادر البطريرك اللاتينى ورؤسا ، رجال الدين الحثوليك العاصمة البيزنطية . وأمر ميخائيل بسمل عيني حنا الرابع لاسكاريس ، واسترد ميخائيل التامن بالمولوغس الدولة البيزنطية واعادها الى أهلها البيزنطيين . وتم نقل العاصمة من نيقية الى القسطنطينية(٧٤) .

ورغم أن طرد اللاتين من القسطنطينية كان نصرا عظيما لبيزنطة ، الا أنه من ناحية أخرى كان فاللا سيئا لمصير الدولة البيزنطية . فالدولة البيزنطية لم تعد تشمل سوى شمال غرب آسيا الصغرى والقسطنطينية وتراقيا ، وجزء من مقدونية بما فى ذلك سالونيك وبعض الجزر الواقعة شمال الأرخيل وجزء من أراضى بلاد اليونان الأصلية . ولم يكن فى استطاعة ميخائيل بالمولوغس أن يوحد بين الممالك الليونانية التى انسلخت عقب حوادث سنة ١٢٠٤ م . فقد أصبحت الدولة البيزنطية متاخمة لامبراطورية طرابيزون التى احتلت كل ساحل البحر الأسود من هرقله الى القوقاز ، ومتاخمة لدوقية ابيروس . واحتفظ البنادقة بملكاتهم فى البيلوبونيز وفى جزر كورفو وكريت ، كما ظل البارونات البنادقة فى مواقعهم فى جميع جزر الأرخيل . وسيطرت مدينة جنوة على تجارة الدولة البيزنطية كلها ، واعتمدت بيزنطة عليها ماليا واقتصاديا . واحتفظ الجنوية بملكاتهم على ساحل آسيا الصغرى والجزر الكبرى المجاورة مثل خيوس ولسبوس ، هذا فضلا عن وجود دوقية أثينا فى وسط اليونان وامارة آخايا فى البنلوبونيز . وهكذا انبثقت قوى كثيرة جديدة

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 538 ; Vryonis, Byzantium, (٧٤)
p. 166 ; Cam. Med. Hist., Vol. 4, i, pp. 327 -- 8.

نافس : امبراطورية باليولوغس في القسطنطينية التي أصبحت أضعف
من . وقت مضى (٧٥) •

ووجد ميخائيل باليولوغس نفسه منعسا في نزاع مع دول بلقانية
متعددة بدأت شعوبها تقوى ويكثر عددها وبخاصة الصربيون والبلغار •
يضاف الى ذلك أنه بنقل عاصمة الدولة البيزنطية الى أوروبا أدار
الامبراطور ميخائيل ظهره لغرب آسيا الصغرى ، وبالتالي أهمل شئون
الولايات التي جعلت استرداد الدولة البيزنطية أمرا ممكنا • وأهملت
ولايات آسيا الصغرى في الوقت الذي زاد فيه خطر الأتراك مرة أخرى •
وصار هذا الخطر جسيما في السنوات التالية حتى تم القضاء على الدولة
البيزنطية في النهاية على أيدي الأتراك العثمانيين (٧٦) •

وواجه ميخائيل باليولوغس خطرا آخر وفد من الغرب ممثلا في
تهديدات الصليبيين اللاتين الذين كان لديهم الأمل في إعادة الامبراطورية
اللاتينية في القسطنطينية • فقد نجح شارل الأنجوى Charles of Anjou
أخو الملك الفرنسي لويس التاسع في الاستيلاء على مملكة صقلية من
مانفرد • وبمقتضى معاهدة فيتربو Viterbo التي عقدها شارل الأنجوى
في سنة ١٢٦٧ م مع الامبراطور اللاتيني المعزول من القسطنطينية
بلدوين الثاني ، بدأ شارل يكون حلفا ضد القسطنطينية • ونجحت
دبلوماسية شارل الأنجوى مع اللاتين في المورة ومع حكام ابيوس ومع
البلغار والصربيين في تكوين حلف ضد الدولة البيزنطية • وعاش
الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوغس مدة خمس عشرة سنة
تحت تهديد حملة صليبية قادمة من الغرب لاسترداد القسطنطينية •
ولم يمنع تحقيق هذا الأمل الصليبي اللاتيني سوى الدبلوماسية

Charles Diehl, Byzantium, p. 209 ; Vasiliev, Byz. empirc, (٧٥)
II, pp. 580 — 81.

Vryonis, Byzantium, p. 166.

البيزنطية ، فقد أرسل الامبراطور البيزنطي ميخائيل الى البابا جريجورى العاشر طالبا منه استخدام نفوذه لمنع شارل الأنجوى من تحقيق مشروعاته ضد بيزنطة . واشترط البابا مقابل ذلك ان يوافق الامبراطور البيزنطى على اعادة جميع الامتيازات التي كانت للبابوية قبل حدوث التقطيع بين روما وبيزنطة سنة ١٠٥٤ م . وكان على الامبراطور البيزنطي ميخائيل ان يؤكد صدق النية والرغبة في وحدة الكنيستين والاعتراف بسيادة البابا امام مندوبي البابا الذين أوفدوا الى القسطنطينية . وفى سنة ١٢٧٤ م انعقد مجمع ليون الثانى في مدينة ليون Lyons ، وارسل ميخائيل وفدا رسميا للمشاركة في أعمال المجمع مؤلفا من السكرتير الامبراطورى جورج اكروبوليتا والبطريك جرمانيوس الثالث وثيوفانيس ومطران نيقية . وقدم الوفد البيزنطي الى المؤتمر الرسائل الامبراطورية التي احتوت على الاعتراف بقدااسة البابا على سائر الكنائس ، وتقويضه الفصل في امور الكنيستين (كنيسة بيزنطة والكنيسة الرومانية) وفقا لقوانين الكنيسة الرومانية . ورغم أن ميخائيل الثامن ظل مخلصا طيلة حياته لقراراتمجمع ليون الثانى ، فقد غضب البيزنطيون ورجال الدين اليونانيون على مجمع ليون وقراراته . وعقد رجال الدين البيزنطيون مجلسا في حماية حكام ابيروس أصدروا فيه قرار الحرمان ضد كل من الامبراطور ميخائيل الثامن والبطريك جرمانيوس الثالث ، ولم يعترفوا بقرارات مجمع ليون الثانى ورأوا فيه صورة جديدة لمجمع الملصوص في القرن الخامس . وفى سنة ١٢٨١ م تولى كرسى البابوية مارتن الرابع Martin IV الذى انضم الى شارل الأنجوى ضد ميخائيل الثامن باليولوغس ، مما أعطى لشارل فرصة لتحقيق هدفه . وعندما تأهب شارل الأنجوى للقيام بحملته شبت ثورة مريعة في صقلية عرفت باسم الصلوات الصقلية Sicilian Vespers فى ٣٠ مارس سنة ١٢٨٢ م . وبدأت بحادث قتل جرى في كاتدرائية الروح القدس في بالرمو . وانتقمت تلك الثورة من جند شارل الأنجوى

وحاشيته وموظفيه وسائر الفرنسيين بأنهاء الجزيرة • وأدت هذه الثورة الى انفصال جزيرة صقلية عن مملكة نابلى الفرنسية ، وقضت على مشروعات شارل ضد الدولة البيزنطية ، ووصلت الى صقلية قوات بطرس الثالث ملك أرغونه Peter III of Aragon (٧٧) •

وحاول الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوغس أن يأمن جانب أقوى الدول الاسلامية وقتذاك وهي سلطنة المماليك حتى يستطيع التفرغ لمواجهة المشكلات السياسية التي واجهته ، ويضمن حليفا يقف الى جانبه في حالة هجوم صليبي لاتيني ، لذلك تقرب الى سلاطين المماليك ، فأرسل الى السلطان الظاهر بيبرس طالبا منه ايفاد شخص لرعاية شئون الطائفة المملوكية في القسطنطينية • وأرسل السلطان بيبرس سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢م الرشيد الكحال ومعه بعض الأساقفة صحبة الأمير فارس الدين أقوش المسعودي • واستقبلت السفارة المملوكية استقبالا حسنا ، وزار الأمير أقوش المسجد الذي جدد الامبراطور بناءه • وأرسل السلطان بيبرس الى جامع القسطنطينية « الحصر العبداني ، والقناديل المذهبة ، والستور المرقومة ، والمباخر والسجادات والعود والعنبر والمسك وماء الورد » • ثم توترت العلاقات بين السلطنة المملوكية والدولة البيزنطية عندما عاق الامبراطور ميخائيل رسل السلطان بيبرس عند عبورهم بلاد الدولة البيزنطية الى بلاط بركة خان ، خان مغول القفجاق سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤م • غير أن الامبراطور البيزنطي أطلق سراح رسل بيبرس وسمح لهم بمتابعة سفرهم ، وأرسل الهدايا الى السلطان بيبرس ليسترضيه (٧٨) •

(٧٧) اسحق عبيد ، الدولة البيزنطية في عصر باليولوغوس ص ١١٣ — ١١٦ ،

Vryonis, Byzantium, pp. 166 — 7 ;

وعن ثورة الصلوات الصقلية :

انتظر اسحق عبيد ، نفس المرجع ، ص ١٠٥ — ١٠٦ ، نشر ، تفرغ لوروبا العصور الوسطى ، ص ٢٦٠ ، ٢٢٨ •
(٧٨) التريزي ، كتاب السلوك لمرسة دول الماوك ، ج ١ ، ص ٤٧١ — ٤٧٢ ، ٥١٤ ، ٥٢٧ ، محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر =

وعقد الامبراطور ميخائيل باليولوغس مع السلطان المملوكي المنصور قلاوون (٧٩) . وأورد القلقشندي في كتابه صبح الأعشى في صناعة الانشا (٨٠) ترجمة عربية لنص الهدنة التي وردت من الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوغس (الأتسكرى) (٨١) صاحب القسطنطينية في رمضان سنة ٦٨٠ هـ / ديسمبر ١٢٨١ م . وعبر الامبراطور البيزنطي عن رغبته في اقامة علاقات ود وصداقة واتفاق وأن يكون بينهما « محبة مستقيمة ، وصداقة كاملة نقية ، ولا يحرك ملكي أبدا على عز سلطانه حربا ولا على بلاده ، ولا على قلاعها ، ولا على عساكره ، ولا يتحرك ملكي أبدا على حربه » .

وورد في نص الهدنة أيضا أن يتبادلا الرسل ، وأن لا يلحق بأحد من تجار الطرفين ضرر أو جور أو ظلم ، وأن يتم تسهيل مرور أهل سوداق (٨٢) بما بصحبته من ممالك وتجار الى بلاد السلطنة

= بيبيرس ، ص ١١٠ — ١١١ ، عبد العزيز الخويطر ، الملك الظاهر بيبيرس ، ص ١٣١ — ١٣٤ ، سعيد عاشور ، العصر المملوكي ، ص ٢٦٢ ، (٧٩) من هذه المعاهدة انظر :

Canard, M., 'le traité de 1281 entre Michel Paléologue et le Sultan Oulâ'un' Byzantion, X (1935), pp. 669 — 680.

وعن معاهدة أخرى عقدها السلطان قلاوون مع جنوة سنة ١٢٩٠ انظر :

Holt, Qalawun's Treaty with Genoa in 1290, in *Des Islam*, Band 57, Heft 1 (1980), pp. 101 — 108.

(٨٠) القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ج ١٤ ، ص ٧٢ — ٧٥ .

(٨١) أطلق المؤرخون المسلمون منذ اوائل القرن السابع الهجري اسم الأتسكرى على اباطرة الدولة البيزنطية ، واطلق الاسم اول الامر على تيودور لاسكاريس الاول امبراطور نيقية بعد استيلاء اللاتين على القسطنطينية ، ثم غلب اسم الأتسكرى بعد ذلك على كل اباطرة بيزنطة ، لتفصيل ذلك انظر حاشية الدكتور محمد مصطفى زبادة في تعليقاته على كتاب الفريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٧٩ حاشية ٢ .

(٨٢) أي مغول القفجاق الذين عرفوا بمغول القبيلة الذهبية في جورجيا (الكرج) وحوض نهر الفولجا .

الملوكية • وعرض ميخائيل على السلطان قلاون نجدة في البحر « لخضرة
الحدو المشترك » •

وأورد القلقشندي (٨٣) أيضا نسخة اتفلق كتبت من الأبواب
السلطانية عن السلطان قلاون نظير الهدنة السابقة وفيها أقسم السلطان
قلاون على « استمرار الصداقة ، واستقرار المودة الثقية » للإمبراطور
ولولده ولوارثي مملكته وتعهد السلطان بعدم محاربة مملكة الإمبراطور
أو بلاده أو قلاعه أو عساكره ، وأن يكون الوضع بالمثل • وطلب
السلطان قلاون أن يتعهد الإمبراطور البيزنطي بأن لا يحرك أحدا آخر
على حرب مملكة السلطان في البر ولا في البحر ، ولا يساعد أحدا من
أعداء السلطان من سائر الأديان والأجناس ، وأن لا يسمح لهم بالعبور
الى سلطنة دولة المماليك • وأكد السلطان في هذا الاتفاق على ضرورة
تحقيق الأمان للمرسل المسيرين الى بلاد سوادق سواء كان ذلك برا
أو بحرا ، وما يحضرونه معهم من ممالك وبحار وغير ذلك والمعاملة
بالمثل للتجار البيزنطيين (٨٤) •

وتجدر الإشارة الى أنه رغم أن ميخائيل باليوولوجس نجح في
استرداد القسطنطينية ، ورفع بيزنطة مرة أخرى الى درجة عالية بفضل
انتصاراته على اللاتين ، الا أن انجازه كان سريع الزوال ، فاسترداد
القسطنطينية برهن على أنه عبء ثقيل على كاهل الدولة البيزنطية ، حتى
العاصمة القسطنطينية — كما يذكر غازيليف — لم تسترد قوتها بعد
ما حدث من نهها سنة ١٢٠٤ م • والحقيقة أن القسطنطينية انتقلت الى

٨٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٧٥ — ٧٨ .

٨٤) عن الأهمية السياسية لهذه المعاهدة انظر أيضا :

Canard, M., 'Un traité entre Byzance et l'Egypte au XIII^e siècle et les relations diplomatiques de Michel VIII paléologue avec les sultans Mamluks Baibars et Qalā'un', in *Mélanges Godefroy-Demombynes*, (1935—45), pp. 209 — 223.

أيدى ميخائيل الثامن ولكنها كانت في حالة من الانهيار والاضمحلال والدمار . وبدأت الأبنية الفخمة وكأنها قد نهبت حديثاً ، وفقدت الكنائس ذخائرها وكنوزها (٨٥) . وأهم من هذا كله — كما سبقت الإشارة إليه — أن الدولة البيزنطية بعد أن تم إحيائها في القسطنطينية بعدت عن قاعدة قوتها الأساسية في آسيا الصغرى ، لكي تعيش في ظل مجد زائل في ثلبلقان . ومنذ سنة ١٢٦١ م اتبع ميخائيل الثامن باليولوغس سياسة حربية واقتصادية قللت من أهمية أقاليم آسيا الصغرى التي كثرت فيها الفتن والثورات ، وتم تسريح جنود آسيا الصغرى من الوطنيين ، وتمثلت الحياة الزراعية ، وتولى الغرباء الوظائف الكنسية (٨٦) .

وجنى الامبراطور اندرونيقوس الثامن Andronicus II (١٢٨٢ — ١٣٢٨ م) الثمار المرة لأعمال ميخائيل الثامن باليولوغس . ووجد اندرونيقوس الثاني أن الدولة البيزنطية قد انهكتها سياسة سلفه ميخائيل . ويمكن القول أن قصة الدولة البيزنطية بعد وفاة ميخائيل باليولوغس أصبحت قصة كوارث حربية واقتصادية وسياسية . فميخائيل قد أنهك الامبراطورية بطلعات ومطالب متزايدة في وقت انكسرت فيه موارد الدولة . وحاول ميخائيل باليولوغس إرضاء مؤيديه من العسكريين ومن أصحاب الضياع الكبيرة من الطبقة النبيلة البيزنطية ، فبعد أن كانت الاقطاعات الزراعية الكبيرة التي تسمى برونويا Pronoia تمنح لفترة محدودة وتكون في الغالب مدى الحياة أي لا يجوز توريثها ، أصبحت هذه الاقطاعات وراثية . وغدا من حق أصحاب البرونويات توريثها إلى أولادهم فتدهورت هذه الاقطاعات . وخلال القرنين التاليين حدث ازدياد مستمر في اعداد البرونويات نتيجة هذا التوريث . وصاحب ازدياد هذه الاقطاعات الوراثية انقضاء من الخدمة العسكرية ، فاضطرت الدولة البيزنطية إلى الاعتماد على

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 581.

(٨٥)

Vryonis, Byzantium, p. 167.

(٨٦)

استخدام الجند المرتزقة في الجيش ، مما أدى بدوره الى انعدام الولاء من الجند لها ، فضلا عن ارهاقها بمبالغ طائلة من الأموال . وفي نفس الوقت منح أباطرة أسرة باليولوغس اعفاءات ضرائبية كثيرة لأصحاب الضياع الكبيرة من المدنيين ، وأدى هذا الى نقص الموارد الضرائبية للدولة فضلا عن نقص الخدمات العسكرية (٨٧) .

واخسر اندرونيقوس الثاني في سنة ١٣٠٣ لكى يقف في وجه السلاجقة والأتراك العثمانيين الى الاستعانة بفرقة من الجند المرتزقة من القطلان الأسبان (نسبة الى قطلونيا) وعلى رأسها قائد مغامر اسمه روجر دى فلور Roger de Flor . وتكونت هذه الفرقة القطلونية من عناصر مختلفة وفدت من أماكن متعددة لتتحارب لمن يدفع لها الثمن ، وبلغ عددها حوالي عشرة آلاف شخص بما في ذلك زوجاتهم وأولادهم . وحقت هذه العصبة القطلونية بعض الانتصارات البسيطة في آسيا الصغرى ضد الأتراك بمساعدة بعض فرق الجيش البيزنطى ، وركن رجال الفرقة القطلونية الى الخمول والدعة ، واشتبكوا مع الجنوية في القسطنطينية في نزاع عنيف ، وزاد نفوذهم وقوتهم الى درجة أن حمل روجر القطلانى لقب (قيصر) وهو اللقب التالى للقب الامبراطور رغم أنه كان أجنبيا . وعندما تأخرت على القطلان رواتبهم ، تمردوا على الامبراطور اندرونيقوس الثانى . ودبر الامبراطور مؤامرة اغتيال فيها روجر القطلانى ، فثار جنوده وألحقوا الهزيمة بالجيش البيزنطى ، وأغاروا على القرى والحدن والأديرة البيزنطية للسلب والنهب في تراقيا ومقدونية وغاليبولى وغيرها ، مما سبب للدولة البيزنطية الكثير من

Vryonis, Byzantium, pp. 168 — 9 ;

(٨٧)

وعن توريث منح البرونويا في مصر ميخائيل باليولوغس ونتائج

لتنظر :

Charanis, 'On the social structure and economic organization of the Empire in the Thirteenth Century and later', *Byzantinistica*, Vol. 12 (1951), pp. 105 — 6.

المتاعب والعناء حتى سنة ١٣١٠ م عندما التحقت الفرقة القطلونية
بخدمة دوق أثينا الفرنجي (٨٨) .

وما حدث في القرن الرابع عشر من تنافس بين أفراد الأسرة
البيزنطية الحاكمة ، ونزاع بين الطبقات الاجتماعية ، وفتن دينية قضى
على القوة القليلة الباقية للدولة البيزنطية حتى أصبحت لعبة في أيدي
الصربيين والأتراك العثمانيين . وفي سنة ١٣٢١ سار اندرونيقوس
الثالث أو الأصغر ، حفيد الامبراطور اندرونيقوس الثاني الى العاصمة
القسطنطينية طامعا في حكم الامبراطورية بعد وفاة والده . وأرغم
الحفيد اندرونيقوس جده على منحه جزءا من مقدونية وتراقيا . وعندما
تجدد النزاع الأسرى لجأ كل منهما الى طلب المساعدة من الصربيين
والبulgars ، وانتهى هذا النزاع في سنة ١٣٢٨ م بانتصار الحفيد على
الجد ، وتولى اندرونيقوس الثالث عرش الدولة البيزنطية (١٣٢٨ —
١٣٤١ م) . وأرغم جده اندرونيقوس الثاني على ارتداء ملابس الرهبان
والإقامة في الدير (٨٩) .

وانتزع الأتراك العثمانيون فرصة نشوب النزاع الأسرى في الدولة
البيزنطية ، وما واجبه من هروب أهلية وحققوا — في السنوات الأخيرة
من عهد اندرونيقوس الثاني وفي عهد حفيده اندرونيقوس الثالث —
انتصارات هامة في آسيا الصغرى . فقد غزا السلطان عثمان وبعده ابنه
أورخان المدن البيزنطية الهامة بروسه Brusa ، ونيقية ونيقوميديا ،
ووصل العثمانيون الى شواطئ بحر مرمرة . وبدأت مدن عديدة على
الساحل الغربي لآسيا الصغرى تدفع أتاة للأتراك المسلمين الفاتحين .
وفي سنة ١٣٤١ م عندما مات اندرونيقوس الثالث كان الأتراك العثمانيون

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 604 — 7 :

(٨٨)

اسحق ، عبد ، الدولة البيزنطية في عصر بالاولوغوس ، ١١٧ — ١١٨ .

Vryonis, Byzantium, pp. 169 — 70.

(٨٩)

قد أصبحوا سادة آسيا الصغرى وبدأوا يفكرون في نقل فتوحاتهم الى ممتلكات بيزنطة في أوروبا بل وهددوا القسطنطينية ذاتها (٩٠) .

وحقق العثمانيون هذه الانتصارات في الوقت الذي انغمس فيه البيزنطيون في الفتن والحروب الأهلية . ولما مات اندرونيقوس الثالث سنة ١٣٤١ م وخلفه في الحكم ابنه حنا الخامس John V تحت وصاية أمه آن من سافوي Anne of Savoy اندلعت مرة أخرى الحروب الأهلية وكانت أهمها تلك التي اندلعت في مدينة أدرنة في ٢٧ أكتوبر سنة ١٣٤١ م وانتشرت في كل مدينة من مدن الدولة البيزنطية وخاصة في سالونيك . وتراكمت أسباب الفتن والحروب الداخلية ، فبالإضافة الى التنافس على العرش البيزنطي ، شب النزاع بين العامة والنبل ، وازدادت الأحوال الاقتصادية سوءا مع قسوة جامعي الضرائب فضلا عن الفقر والبؤس الذي عانى منهما البيزنطيون كثيرا (٩١) .

وكان حنا الخامس باليولوغس في السادسة عشرة من عمره عندما ورث عرش أبيه سنة ١٣٤١ م . ونشبت حرب أهلية للفوز بالعرش الدولة البيزنطية لعب فيها حنا كنتاكيزين John Cantacuzene دورا هاما . ووقف في وجه حنا كنتاكيزين حزب قوى من آن من سافوي أرملة الامبراطور اندرونيقوس الثالث والوصية على العرش ، والبطريك الكسيوس ابوكاوكوس Alexius Apocaucus . ومما زاد من خطورة هذه الحرب الأهلية تدخل قوى أجنبية لتحقيق أهداف سياسية مثل الصربيين والبلغار والأتراك السلاجقة والأتراك العثمانيين . وبعد تتويج حنا الخامس باليولوغس ببضعة شهور أعلن حنا كنتاكيزين نفسه

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 608 — 9.

(٩٠)

(٩١) لتفصيل ذلك انظر :

Charanis, 'Internal strife in Byzantium during the Fourteenth Century, Byzantium, Vol. XV (1940 — 41), pp. 208 — 30.

امبراطورا في احدى مدن تراقيا ، وأصبح هناك امبراطوران في الدولة البيزنطية . ووجد كنتاكيزين المعون والمساعدة من الأتراك العثمانيين حتى أنه زوج ابنته من السلطان العثماني أورخان . وقام بطيريك بيت المقدس بتتويج كنتاكيزين في أدرنه ، وفتحت القسطنطينية أبوابها لحنا كنتاكيزين الذي تم الاعتراف به امبراطورا باسم حنا السادس ، وأصبح ممثلا للامبراطور حنا الخامس باليولوغس . وفي سنة ١٣٤٧ م تم تتويج كنتاكيزين مرة أخرى وتزوج الامبراطور الشاب حنا الخامس باليولوغس بابنته وحقق كنتاكيزين آماله . وحاول كنتاكيزين ابتعاد حنا الخامس باليولوغس بشتى الطرق ، فمنع ذكر اسمه في الكنائس وفي الاحتفالات العامة ، وأعلن ابنه مساعدا له في حكم الدولة البيزنطية ووريثا للعرش . غير أن البيزنطيين لم يطمئئوا للامبراطور حنا كنتاكيزين وسياسته بعد أن أرهقت الحروب الأهلية الدولة . وجاءت الضربة القاضية لمهد كنتاكيزين من جانب العثمانيين الذين استولوا في سنة ١٣٥٤ م على غاليبولي Gallipoli برضى وعلم الامبراطور البيزنطي . وكانت غاليبولي أول مدينة أوروبية استولى عليها العثمانيون . واستعان حنا باليولوغس بالجنوية ، واستطاع بمساعدتهم دخول القسطنطينية في نهاية سنة ١٣٥٤ ، وأجبر حنا كنتاكيزين على التخلي عن العرش ودخول أحد الأديرة حيث قضى بقية حياته لكتابة مذكراته (٩٢) .

وانتهز الصربيون — كما فعل العثمانيون — فرصة تردى الدولة البيزنطية في فتن وحروب داخلية ، فقام ملك الصرب ستيفن دوشان Stephan Dusan (١٣٣١ — ١٣٥٥ م) بالانقضاض على بيزنطة والاستيلاء على أراضيها في البلقان . وكان دوشان قد عقد أولا اتفاقا مع حنا كنتاكيزين في سنة ١٣٤٢ — ١٣٤٣ م غير أنه ترك جانبه وانضم الى حنا الخامس باليولوغس لكي يحقق مزيدا من المكاسب والمصالح

الخاصة • وعندما ترك ككتاكيوزين مقدونية متجها الى القسطنطينية انتهز دوشان الفرصة واحتل معظم البانيا ووسط وشمال اليونان • وحاول ملك الصرب دوشبان تأسيس امبراطورية على النمط البيزنطي كما فعل سيمون خان البلغار في القرن العاشر • غير أن محاولة دوشبان كانت قصيرة العمر اذ مات فجأة في سنة ١٣٥٥ م وبموته انهارت مملكة الصرب وحل محلها عدد من الدويلات الصغيرة (٩٣) •

وهكذا ترك حنا ككتاكيوزين الدولة البيزنطية سنة ١٣٥٤ م في حالة سيئة من التدهور والانحيار فقد اتسعت الهوة والفوارق بين الأغنياء والفقراء بسبب الحروب الأهلية والانحيار السياسي والاقتصادي • وجلبت تلك السنوات من الفتن والحروب الأهلية الكوارث والأضرار بالدولة والمجتمع البيزنطي ، وألحقت بالزراعة أضرارا بالغة ، ودمرت وسائل الانتاج في الأقاليم التي كانت تمد الدولة البيزنطية بالموارد المالية وغيرها (٩٤) • ونتيجة لسيطرة الجنوية والبنادقة على الحياة الاقتصادية في الدولة البيزنطية انخفضت متحصلات الضرائب الجمركية • ففي القرن الرابع عشر الميلادي وصلت الضرائب الجمركية التي جمعها الجنوية في مستوطنتهم جالاطا Galata (ضاحية بالقسطنطينية) (٩٥) الى مبلغ مقداره ٢٠٠ ألف عملة ذهبية Hyperpera في حين كانت حصيلة الضرائب الجمركية التي جمعها

Vryonis, Byzantium, p. 171.

(٩٣)

Ibid, p. 171.

(٩٤)

(٩٥) في سنة ١٢٦٧ وافق الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوجس على ان يؤسس الجنوية مستوطنة جديدة على الجانب الآخر من القرن الذهبي في مواجهة القسطنطينية عرفت باسم مستوطنة جالاطا • وتتمتع هذه المستوطنة الجنوبية بمركز اقتصادي متين نتيجة تنوع جنوة وسيادتها التجارية في الدولة البيزنطية بعد عام ١٢٦١ • واستمرت مستوطنة جالاطا في ايدي الجنوية حتى استيلاء العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ، انظر عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ١٢٢ - ١٢٥ •

البيزنطيون في ميناء القسطنطينية مبلغ ٣٠ ألف Hyperpera فقط . وأصبحت المتحصلات المالية للدولة البيزنطية في نهاية القرن الثالث عشر لا تتجاوز ١٠ إيرادات الدولة في عصر الأسرة الأيسورية في القرن الثامن . وكان لهذا أثره حتى في نفقات احتفالات البلاط البيزنطي، ففي حفل تتويج حنا السادس كنتاكوزين سنة ١٣٤٧ م — على سبيل المثال — استبدلت بالأطباق الذهبية والفضية أطباق من الرصاص والفخار (٩٦) .

وكيفما كان الأمر ، فقد دخلت الدولة البيزنطية بعد سنة ١٣٥٤ م مرحلة الانحسار والموت بعد مرحلة الانهيار والتدهور ، ففي الوقت الذي انهارت فيه الدولة البيزنطية سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، كان عليها أن تتوقع خطر الأتراك العثمانيين الذين ورثوا عقيدة الجهاد من العرب الفاتحين ، وحملوا راية الجهاد الاسلامي ضد بيزنطة ليحققوا حلم المسلمين القديم منذ عصر صدر الاسلام الا وهو الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية .

المصادر والمراجع (١)

أولا — المصادر والمراجع الأوروبية :

Alföldi, A. :

'On the Foundation of Constantinople : A Few Notes', *The Journal of Roman Studies*, Vol. 37 (1947), pp. 10 — 16.

Anna Comnena :

The Alexiad of the Princess Anna Comnena, translated by Elizabeth A.S. Dawes, London, 1967.

Ashour S. and Rabie, H. :

Fifty Documents in Medieval History, Cairo 1971.

Baldwin, M.W. :

'Some Recent Interpretations of Pope Urban II's Eastern Policy', *Catholic Historical Review*, Vol. XXV (1940), pp. 459 — 66.

Baynes, N. :

Byzantine Studies and Other Essays, London, 1955.

Baynes, N., and Moss, L.B. :

Byzantium, London, 1969.

Brand, C.M. :

The Byzantines and Saladin, 1185 — 1192 . Opponents of the Third Crusade, *Speculum*, Vol. 37 (1962), pp. 167 — 181.

Bréhier, L. :

(i) 'Constantin et la Fondation de Constantinople', *Revue Historique*, Vol. CXIX (1915).

(ii) 'La Marine de Byzance du VIII^e au XI^e Siècle', *Byzantion*, Vol. XIX (1949), pp. 1 — 16.

Brice, W.C. :

'The Turkish Colonization of Anatolia' *Bulletin of the John Rylands Library*, Vol. 38 (1955 — 56), pp. 18 — 44.

(١) النى ورد ذكرها فى حواشى الكتب .

Brooks, E.:

'Arabic lists of the Byzantine Themes' *Journal of Hellenic Studies*, Vol. XXI (1901), pp. 67 — 77.

Bury, J.B. :

'Roman Emperors from Basil II to Isaac Komnénos', *English Historical Review*, Vol. IV (1889), pp. 41 — 64, 251 — 85.

Cahen, C. :

- (i) 'La Campagne de Mantzikert d'après les Sources Musulmanes', *Byzantion*, Vol. IX (1934), pp. 613 — 42.
- (ii) 'Les Grandes Lignes de l'Histoire de la pénétration Turque en Anatolie et en Syrie Pendant la Seconde Moitié du XIe siècle', *Actes du XXe Congrès International des Orientalistes*, Brussels, 1938.
- (iii) 'L'alun avant Phocée', *Revue d'Histoire Economique et Sociale*, Vol. XII (1963), pp. 433 — 47.
- (iv) *Pre-Ottoman Turkey*, English translation, London, 1968.

Cambridge Medieval History : See Hussey.

Canard, M. :

- (i) Les Expéditions des Arabes Contre Constantinople dans l'Histoire et dans la légende', *Journal Asiatique*, Vol. 208 (1926), pp. 61 — 121.
- (ii) 'Le Traité de 1218 entre Michel Paléologue et le Sultan Qalâ' un' *Byzantion*, Vol. X (1935), pp. 669 — 680.
- (iii) 'Un Traité entre Byzance et l'Egypte au XIIIe siècle et les Relations Diplomatiques de Michel VIII Paléologue avec les sultans Mamlûks Baibars et Qalâ' un, *Mélanges Godefroy-Demombynes*, 1935 — 45), pp. 197 — 224.
- (iv) 'Les Sources Arabes de l'Histoire Byzantine aux Confins des Xe et XIe Siècles', *Revue des Etudes Byzantines*, Vol. 19 (1961), pp. 284 — 313.

Charanis, p. :

- (i) 'Internal Strife in Byzantium during the Fourteenth Century', *Byzantion*, Vol. XV (1940 — 41), pp. 208 — 30.
- (ii) 'The Slavic Element in Byzantine Asia Minor in the Thirteenth Century', *Byzantion*, XVIII (1948), pp. 69 — 83.
- (iii) 'Byzantium, the West and the Origin of the First Crusade', *Byzantion*, XIX (1949), pp. 17 — 36.

- (iv) 'On the Social Structure and Economic Organization of the Byzantine Empire in the Thirteenth Century and Later', *Byzantinistica*, Vol. 12 (1951), pp. 94 — 153.
- (v) 'Economic Factors in the decline of the Byzantine Empire', *Journal of Economic History*, Vol. 13 (1953), pp. 412 - 24.
- Creswell, K.A.C. :
'The lawfulness of Painting in Early Islam', *Art Islamica*, Vol. XI-XII (1946), pp. 159 — 166.
- Daoud, D.A. :
'Alexandria and the Early Church Councils', *Cahiers d'Alexandrie*, Série II (1964), pp. 51 — 65.
- Diehl, Ch. :
Byzantium, Greatness and Decline, New Brunswick, New Jersey, 1957.
- Ehrenkrentz, A. :
Saladin, State Univ. of New York Press, 1972.
- El-Hajji, Abdurrahman Ali :
Andalusian Diplomatic Relations with western Europe During the Umayyad Period, (A.H. 138 — 366 / A.D. 755 — 976)
Berlut, 1970.
- Eusebius,
The Ecclesiastical History, London, 1926.
- Fahmy, Aly Mohamed :
Muslim Sea — Power in the Eastern Mediterranean from the Seventh to the Tenth Century A.D., Cairo, 1966.
- Frye, R. :
'Remarks on Some New Islamic Sources of the Rus', *Byzantion*, XVIII (1948), pp. 119 — 125.
- Gaudefroy — Demombynes :
Le Monde Musulman et Byzantin jusqu'aux Croisades, Paris, 1931.
- Gibb, Hamilton A. :
'Arab — Byzantine Relations under the Umayyad Caliphate'.
Dumbarton Oaks Papers, No. 12, Cambridge, Massachusetts, 1958, pp. 220 — 33.

Grégoire, H. :

'The Question of the Diversion of the Fourth Crusade', *Byzantion*, XV (1940-41), pp. 158-66.

Grierson, p. :

'The Monetary Reforms of 'Abd al-Malik', *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, Vol. 3 (1960), pp. 241 - 64.

Grumel, V. :

'Les Préliminaires du schisme de Michel Cérulaire ou la Question Romaine Avant 1054', *Revue des Etudes Byzantines*, Vol. X (1953), pp. 1 - 23.

Holt, P. :

'Qalawun's Treaty with Genoa in 1290', *Der Islam*, Band 57 Heft 1 (1980), pp. 101 - 108.

Hussey, Joan M. :

- (i) *The Byzantine World*, 3rd edition, London, 1967.
- (ii) *The Cambridge Medieval History*, Vol. IV, 2 parts, *The Byzantine Empire*, ed. by J.M. Hussey, Camb. Univ. Press 1966.

Jones, A.H.M. :

'Thoughts on the decline of the Roman Empire', *Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo Univ.*, Vol. XXIII, Part 1 (1961), pp. 9-18.

Joranson, Einar :

'The Problem of the Spurious letter of Emperor Alexius to the Count of Flanders', *American Historical Review*, Vol. 55 (1950), pp. 811 - 832.

Kantorowicz, E. :

Frederick the Second 1194 - 1250, London, 1931.

La Monte, J.L.

'To what extent was the Byzantine Empire the Suzerain of the Latin Crusading States', *Byzantion*, VII (1932), pp. 253 - 64.

Nichols, R.H. :

The Growth of the Christian Church, Philadelphia, 1941.

Ostrogorsky, G. :

- (i) 'Sur la Promote, A Propos de l'Article de M. Lascaris', *Byzantion*, XXII (1952), pp. 161 — 63.
- (ii) Pour l'Histoire de la Féodalité Byzantine, Bruxelles, 1954.
- (iii) History of the Byzantine State, tr. by Joan Hussey, Oxford, 1968.

Rabie,Hassanein:

The Financial System of Egypt A.H. 564 — 741 / A.D. 1169-1341,
London, 1972.

Runciman, S. :

Byzantine Civilization, London, reprinted 1966.

Setton, K.M. (Editor) :

A History of the Crusades, 2 Vols., Univ. of Pennsylvania Press,
1958 — 62.

Stanley, A.P. :

Lectures on the History of the Eastern Church, London, 1908.

Siern, S.M. :

'An Embassy of the Byzantine Emperor to the Fatimid Caliph
al-Mu'izz', *Byzantion*, XX (1950), pp. 239 — 58.

Thompson, J.W. and Johnson, E.N. :

An Introduction to Medieval Europe, New York, 1937.

Tout, T.F. :

The Empire and the Papacy, 918 — 1273, London, 1914.

Vasiliev, A.A. :

- (i) 'The Foundation of the Empire of Trebizond (1204—1222),
Speculum, Vol. XI (1936), pp. 3 — 37.
- (ii) 'The Empire of Trebizond in History and Literature',
Byzantion, XV (1940 — 41),pp. 316 — 26.
- (iii) 'Notes on Some Episodes Concerning the Relations between
the Arabs and the Byzantine Empire from the Fourth to the
Sixth Century', *Dumbarton Oaks Papers*, nos. 9—10, (Cam-
bridge, Mass., 1956), pp. 306 — 16.

- (iv) 'The Iconoclastic Edict of the Caliph Yazid II, A.D. 721, *Dumbarton Oaks Papers*, nos. 9 — 10. (Cambridge-Mass 1956), pp. 24 — 47.
- (v) History of the Byzantine Empire 324 — 1453, 2 vols, 3rd. edition Madison, 1961.

Vryonis, Speros, Jr. :

- (i) 'The will of a Provincial Magnate, Eustathius Boilas (1059)', *Dumbarton Oaks Papers*, No. 11 (1957), pp. 263 — 77.
- (ii) 'Byzantium : The social Basis of Decline in the Eleventh Century', *Greek, Roman and Byzantine Studies*, Vol. II (1959), pp. 159 — 175.
- (iii) *Byzantium and Europe*, London, 1967.
- (iv) *The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from Eleventh through the Fifteenth Century*, Berkeley Los Angeles, 1971.

Walker, P. :

'The Crusade of John Tzimiskes in the light of New Arabic Evidence', *Byzantion*, XLVII (1977), pp. 301 — 27.

William of Tyre :

A History of Deeds Done Beyond the Sea, trans. and Annot. by Emily Babcock and A.C. Krey. 2 Vols., New York, 1943.

Wolff, Robert Lee :

- (i) 'The Latin Empire of Constantinople and the Franciscans', *Traditio*, II (1944), pp. 213 — 37.
- (ii) 'The Organization of the Latin Patriarchate of Constantinople, 1204 — 1261, *Traditio*, VI (1948), pp. 33 — 60.
- (iii) 'Ba'dwin of Flanders and Hainaut, First Latin Emperor of Constantinople : His Life, Death, and Resurrection, 1172-1225, *Speculum*, XXVII (1952), pp. 281 — 322.
- (iv) 'Mortgage and Redemption of an Emperor's Son : Castile and the Latin Empire of Constantinople', *Speculum*, XXIX (1954), pp. 45 — 84.

ثانياً - المصادر العربية :

ابن الأثير (على بن محمد) :

- الكامل فى التاريخ ، أجزاء ٦ - ١٠ ، ليدن ١٨٥١ - ١٨٧٦ م .
- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله) :
- رحلة ابن بطوطة ، بيروت ، ١٩٦٤ م .

ابن تغرى بردى (ابو المعاسن يوسف) :
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ١ ، القاهرة
١٩٢٩ م .

ابن خرداذبه (ابو القاسم عبيد الله) :
المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٩ م .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :
المقدمة ، الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتلى والخبر ،
القاهرة ١٩٣٠ .

ابن رسته (احمد بن عمر) :
الأعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١ - ١٨٩٢ م .

ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) :
فتوح مصر واخبارها ، ليدن ١٩٢٠ م .

ابن العديم (عمر بن احمد) :
زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سامى الدهان ، جزءان ،
دمشق ١٩٥١ ، ١٩٥٤ م .

ابن عذارى المراكشى :
كتاب البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة
كولان وليفى بروفنسال ، الجزء الأول ، بيروت ١٩٤٨ .

ابن العمري (محمد بن على) :
الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائى ، ليدن
١٩٧٣ م .

ابن الفراء (الحسين بن محمد) :
كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والصفارة ، تحقيق صلاح
الدين المنجد ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٢ .

ابن الفقيه الهمداني :

بتداد مدينة السلام ، مقدمة صالح أحمد العلي ، باريس ١٩٧٧ م .

ابن القلائس (أبو يعلى حمزة) :

ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق أمروزي ، بيروت - لبنان ١٩٠٨ م .

ابن هشام :

السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، الجزء الرابع .
ط . القاهرة د . ت .

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) :

مفرد الكروبي في أخبار بني أيوب ، ج ٢ تحقيق جمال الدين
الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ ، ج ٤ تحقيق حسنين ربيع ، القاهرة
١٩٧٢ .

أبو تمام الطائي :

ديوان الشاعر أبي تمام ، بيروت ١٨٨٩ م .

أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل) :

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ٢ ، القاهرة ١٢٨٨ هـ .

أبو العتاهية (إسماعيل بن القاسم) :

ديوان أبي العتاهية ، بيروت ١٩٦٤ م .

البلاتري (أحمد بن يحيى بن جابر) :

كتاب فتوح البلدان ، نشره صلاح الدين المنجد ، القاهرة
١٩٥٦ م .

الجواليقي (موهوب بن أحمد) :

المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم ، تحقيق أحمد
محمد شاكر ، القاهرة ١٩٦٩ م .

الدياغ (عبد الرحمن بن محمد الأنصاري) :

ممالك الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تحقيق محمد الأحمدي
أبو النور ومحمد منصور ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٧٢ .

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) :

حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد
أبو الفضل إبراهيم ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٧ .

الطبرى (محمد بن جرير) :

تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبرى) ، تحقيق محمد أبو الفضل
ابراهيم أجزاء ٢ - ١٠ ، القاهرة ١٩٦٩ - ١٩٧٦ .

عماد الدين الأصفهاني (محمد بن محمد) :

تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار الفتح بن على البندارى ،
الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٨ م .

قدامه بن جعفر :

نيد من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، لندن ١٨٨٩ .

القلقشندي (احمد بن على) :

صبح الأضفى فى صناعة الانشا ، اجزاء ٦ ، ٧ ، ١٤ ، القاهرة
١٩١٤ - ١٩١٨ .

الكلعى (سليمان بن موسى) :

الاكتفاء فى مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء ، تحقيق مصطفى
عبد الواحد ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٧٠ م .

المسعودى (على بن الحسين) :

التنبيه والاشراف ، القاهرة ، ١٩٣٨ م .

مسلم (الامام ابو الحسن مسلم النيسابورى) :

صحيح مسلم ، ج ٨ ، القاهرة ١٢٢٤ هـ .

المقرئ (احمد بن محمد التلمسانى) :

نفع الطيب من غصن الأتيلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس ،
المجلد الأول ، بيروت ١٩٦٨ .

المقرئ (احمد بن على) :

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط) ، ج ١ ،
القاهرة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٢ م .

(ب) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، الطبعة
الثانية ، القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٥٧ .

(ج) لتعاط الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، ج ٢ ، تحقيق
محمد حلمى محمد احمد ، القاهرة ١٩٧١ .

الواقدي (محمد بن عمر) :

- (١) كتاب المغازي ، تحقيق مارسدن جونز ، ج ٢ ، ج ٣ ،
القاهرة - لندن ١٩٦٦ م .
(ب) فتوح الشام ، جزءان ، القاهرة ١٣٥٢ هـ .

ثالثا - المراجع العربية والمترجمة :

ابراهيم احمد العدوي :

- (١) الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، القاهرة
١٩٥١ م .
(ب) اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع
الميلادي ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد
الثاني (اكتوبر ١٩٥٠) ، ص ٥٣ - ٦٨ .

ابراهيم على طرخسان :

- (١) الحركة اللاتينية في الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٥٦ .
(ب) تاكينوس والشعوب الجرمانية ، القاهرة ١٩٥٩ .
(ج) المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦ .

اثناسيوس الرسولي :

- رسائل اثناسيوس الرسولي عن الروح القدس ، تعريب القس
مرقس داود ، القاهرة د . ت .

احسان عباس :

- العرب في صقلية ، القاهرة ١٩٥٩ .

احمد توفيق المنلي :

- المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، الجزائر ١٣٦٥ هـ .

احمد تيمور :

- التصوير عند العرب ، القاهرة ١٩٤٢ .

احمد سراج :

- عبد الرحمن الخافقي ، بطل بلاط الشهداء ، رسالة المسجد ،
العدد الرابع (١٤٠١ هـ / ١٩٨١) ، ص ٨٠ - ٨٥ .

احمد مختار العبداني :

- في تاريخ المغرب والأندلس ، الاسكندرية د . ت .

أرتولد (توماس) :

الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون ،
الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٠ .

اسحق عبيد :

(١) قصة عثور القديسة هيلانة على خشبة الصليب ، أسطورة
أم ولق ٩ ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٧ (١٩٧٠) ،
ص ٥ - ٢٩ .

(ب) الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية مع دراسة في
« مدينة الله » ، القاهرة ١٩٧٢ .

(ج) من الآرك إلى جستنيان دراسة في حوليات العصور الظلمة ،
القاهرة ١٩٧٧ م .

(د) الدولة البيزنطية في عصر يالويولوجوس ، بيروت د . ت .

أسعد وسقم :

الروم ، جزءان ، بيروت ١٩٥٥ - ١٩٥٦ م .

أسعد غنيم :

(١) العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية وجزيرة كريت
الاسلامية (٨٢٧ - ٩٦١ م / ٢١٢ - ٣٥٠ هـ) ، رسالة دكتوراه
لم تنشر ، كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ١٩٧٢ .

(ب) الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد
القسطنطينية ، القاهرة ١٩٧٨ .

أماري (ميخائيل) :

المكتبة العربية الصقلية ، ليسك ١٨٥٧ م .

اشور عبد العظيم :

الملاح وعلوم البحار عند العرب ، الكويت ١٩٧٩ م .

أوسمان :

الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة مصطفى طه بدر ، القاهرة
١٩٥٣ م .

الباز العربي (السيد) :

(١) أجناد الروم ، القاهرة ١٩٥٦ .

(ب) كتاب عن الحمصة في بيزنطة أو كتاب إلى المدينة ، مجلة

كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد ١٩ ، الجزء الأول ،
مايو ١٩٥٧ ، ص ١٣٥ - ١٨٧ .

(ج) الدولة البيزنطية ٣٢٢ - ١٠٨١ م ، القاهرة ١٩٦٠ .^٤

(د) المقول ، بيروت ١٩٦٧ .

يقتلر (الفرد) :

فتح العرب مصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، القاهرة
١٩٤٦ .

بروفنسبال (فيفى) :

الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة السيد عبد العزيز سالم
ومحمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ١٩٥٦ .

بيل (هـ آيسنس) :

مفسر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى . ترجمة
عبد اللطيف أحمد على ومحمد عواد حسين ، القاهرة ١٩٥٤ .

بيلىز (نورمان) :

الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف
زايد ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٧ .

جوزيف نسيم يوسف :

مجتمع الاسكندرية فى العصر المسيحى (حوالى ٤٨ - ٦٤٢) ،
فى كتاب مجتمع الاسكندرية عبر العصور ، الاسكندرية ١٩٧٥ .

جيبسون (انوارد) :

اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ٢ اجزاء ، ترجمة
محمد على أبو ذر و لويس أسكندر ومحمد سليم سالم ، القاهرة
١٩٦٩ .

حامد غنيم أبو سنعيد :

الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، ج ١ ، القاهرة
١٩٧١ .

حسن حبشى :

(١) نور الدين والصليبيون ، القاهرة ١٩٤٨ .

(ب) الحرب للصليبية الأولى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ .

حسنين محمد ربيع :

- جهاد صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين ، رسالة المسجد ،
العدد الرابع (١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م) ، ص ١٨٢ - ١٩٠ .

حسني مؤنس :

- (١) المسلمون في حوض البحر الأبيض الى الحروب الصليبية ،
المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، مايو
١٩٥١ ، ص ٤٥ - ١٧٤ .
(ب) معالم تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة ١٩٨٠ .

ديفنز (كارلس) :

- شارلمان ، ترجمة السيد البلاز العريني ، القاهرة ١٩٥٩ .

ديسل (شارل) :

- البنديقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم
وتوفيق إسكندر ، القاهرة ١٩٤٧ .

ريستوفتوف م . :

- تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي ، ج ١
(المتن) ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم ، القاهرة ١٩٥٧ .

رئيسيمان (ستيفن) :

- المضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة
١٩٦١ .

سعاد صاهر :

- البحرية في مصر الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٧ .

سميد عاشور :

- (١) الحركة الصليبية ، جزءان ، القاهرة ، الطبعة الأولى
١٩٦٣ .

- (ب) المذنية الاسلامية واثرها في الحضارة الأوروبية ، القاهرة
١٩٦٣ .

- (ج) العصر المالكي في مصر والشام ، القاهرة ، الطبعة
الأولى ١٩٦٥ .

- (د) أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، الطبعة السادسة
القاهرة ١٩٧٥ .

(هـ) بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، بيروت
١٩٧٧ .

سهيل زكار :

مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، الطبعة الثانية ، بيروت
١٩٧٣ .

سيد احمد الناصرى :

(١) تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسى والحضارى .
القاهرة ١٩٧٥ .

(ب) الاغريق ، تاريخهم وحضارتهم ، الطبعة الثانية ، القاهرة
١٩٧٧ .

السيد عبد العزيز مالم :

المغرب الكبير (العصر الاسلامى) ، الاسكندرية ١٩٦٦ .

شاكر مصطفى :

« دخول الترك الغز الى الشام » ، فى كتاب تاريخ بلاد الشام من
القرن السادس الى القرن السابع عشر (المؤتمر الدولى لتاريخ
بلاد الشام) ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٣٠٣ - ٣٩٨ .

شكرى فيصل :

حركة الفتح الاسلامى فى القرن الاول ، بيروت ١٩٧٤ .

شفيش (القوش ماريا) :

قبور الصحابة فى القسطنطينية ، فى كتاب المنقلى من دراسات
المستشرقين لصالح الدين المنجد ، ج ١ (القاهرة ١٩٥٥) ،
ص ١٥٣ - ١٥٩ .

صاير ليالى :

سياسة الدولة الاسلامية فى حوض البحر المتوسط من اوائل
القرن الثانى الهجرى حتى نهاية العصر الفاطمى ، القاهرة
١٩٧٣ .

عادل زينون :

العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى .
(بحث فى النشاط التجارى للجمهوريات الايطالية فى الحوض
الشرقى للبحر المتوسط ق ١٣ - ١٤ م) ، دمشق ١٩٨٠

عيد الجيار محمود السامرائي :

الرسائل التي بحث بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك
الدول المجاورة ، مجلة الفيصل ، العدد ٥٥ محرم ١٤٠٢ هـ /
نوفمبر ١٩٨١ ، ص ٧١ - ٨١ .

عيد الرحمن فهمي :

• (١) النقود العربية ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٦٤ .
(ب) موسوعة النقود العربية وعلم النميات ، ج ١ عجن السكة
العربية ، القاهرة ١٩٦٥ .

عيد العزيز الخويطر :

الملك الظاهر بيبرس ، الطبعة الأولى ١٢٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

عيد القاضي أحمد اليوسف :

الامبراطورية البيزنطية ، بيروت ١٩٦٦ .

عيد المنعم مساجد :

العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، بيروت
١٩٦٦ .

عيد النعيم حسنين :

دولة السلاجقة ، القاهرة ١٩٧٥ .

علي القمراوي :

مدخل إلى دراسة التاريخ الأوروبي الوسيط ، الطبعة الثانية ،
القاهرة ١٩٧٧ .

عليه الجيتوري :

(١) الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية في
العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٩ .

(ب) الامبراطورة ايرين ، القاهرة ١٩٨١ .

عمر كمال توفيق :

(١) مقدمات العدوان الصليبي ، الامبراطور يوحنا تزيمنيس
وسياسته الشرقية ، الاسكندرية ١٩٦٦ .

(ب) تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، الاسكندرية ١٩٦٧ .

عواد مجيد الأعظمي :

الأمير مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، بغداد ١٩٨٠ .

فازيليف :

العرب والروم ، ترجمة محمد عبد الهادى شعير ، القاهرة
دنت .

فتحى عثمان :

الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال
المحضارى ، ٣ اجزاء ، القاهرة ١٩٦٦ .

فشر (هـ . ا . ل .) :

تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، قسمان ، ترجمة محمد
مصطفى زياده وآخرون ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ .
فؤاد عبد المعطى الصياد :

المغول فى التاريخ ، بيروت ١٩٧٠ .

كريستسن (آرثر) :

ايران فى عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة
١٩٥٧ .

كلارى (روبرت) :

فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ترجمة حسن حبشى ،
القاهرة ١٩٦٤ .

لويس (أرشيبالد) :

القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ترجمة
احمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٦٠ .

محمد جمال الدين سرور :

(١) دولة الظاهر بيبرس فى مصر ، القاهرة ١٩٦٠ .

(ب) دراسات فى العلاقات السياسية بين دول الشرق الاسلامى
والدولة البيزنطية فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٠ .

محمد حميد الله :

مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة
بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٦٩ .

محمد عبد الله عنان :

دولة الاسلام فى الاندلس ، العصر الاول - القسم الاول ، الطبعة
الرابعة ، القاهرة ١٩٦٩ .

محمد على الصليوني :

روائع البيان ، تفسير آيات الأحكام من القرآن ، جزءان ، للطبعة
الثالثة ، دمشق ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م

محمد ياسين الحموي :

تاريخ الاسطول العربي ، دمشق ١٩٤٥ .

محمود اسماعيل عبد الرازق :

الأغلبية (١٨٤ - ٢٩٦ هـ) ، سياستهم الخارجية ، القاهرة
١٩٧٢ .

محمود شيت خطاب :

عقبة بن نافع النهري ، بيروت ١٩٧٢ .

موسى (سانت) :

ميلاد العصور الوسطى ٣٩٥ - ٨١٤ ، ترجمة عبد العزيز جاويد ،
القاهرة ١٩٦٧ .

ميخائيل عواد :

المصر في بلاد الروم والاسلام ، بغداد ١٩٤٨ .

ميشيل جرجس :

الكنيسة المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ .

نبيلة مقامى :

فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر
والثالث عشر ، رسالة ملجستير لم تنشر ، كلية الآداب
بجامعة القاهرة ١٩٧٥ .

نبيه عاقل :

الامبراطورية البيزنطية ، دمشق ١٩٦٩ .

هارتمان (ل . م) وباراكلاف (ج) :

النولة والامبراطورية في العصور الوسطى ، ترجمة جوزيف
نسيم يوسف ، الطبعة الثانية ، الاسكندرية ١٩٧٠ .

هسي (ج . م .) :

العالم البيزنطي ، ترجمة زانت عبد الحميد ، القاهرة ١٩٧٧ .

وسام عبد العزيز فرج :

العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف
القرن الثامن الميلادي ، الاسكندرية ١٩٨١ •

وهيب عملا الله جرجس :

تعليم كنيسة الاسكندرية فيما يختص بطبيعة السيد المسيح .
القاهرة ١٩٦١ •



كشاف

- أولا – كشاف الأعلام والأمم والشعوب والقبائل .
- ثانيا – كشاف البلدان والمدن والأماكن والبقاع .
- ثالثا – كشاف المصطلحات .

أولا - كشاف الاعلام والامم والشعوب والقبائل

أرنسط : (لئطر رينودى

شانيون) .

أريوس : ٢٨ - ٣٠ ، ٤٨ .

اسلمه بن زيد بن حارثه : ٦٨ .

اسبروخ (خان البلغار) : ٩٢ ،

١١٩ .

الاستقارية : ٢٤٣ .

استولف (ملك) : ١٢١ .

اسحاق الأول كومننن

(الامبراطور) : ١٦٨ - ١٧٠ ،

١٦٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٦ .

اسحاق الثماني انجيلوس

(الامبراطور) : ٢٣٧ - ٢٤٧ ،

٢٥١ - ٢٥٤ ، ٢٦٨ .

اسد بن الفرات : ١٥١ .

الاسكندر الأكبر : ١٦ ، ٢٦ .

آسن (خان البلغار) : ٢٧٧ -

٢٧٨ ، ٢٨٣ - ٢٨٤ .

الاغلبة : ١٣٨ ، ١٤٩ - ١٥١ .

الاغريق : ٣١ ، ٣٢ .

الانار : ٤٠ ، ٦١ - ٦٢ ، ٩٠ ،

١٠٥ .

انشين (قائد تركماني) : ١٨٧ .

الأقباط : ٢٢ ، ٥٥ - ٥٦ ،

٧٩ .

الكليوس (بطريرك

القسطنطينية) : ٥٦ .

الارك : ٤١ - ٤٣ .

الان (قبيل) : ٤٠ ، ٤٣ .

الب ارسلان : ١٨٥ - ١٩٠ .

الفونس العاشر (ملك تشنالة) :

٢٨٩ .

الكسيوس الأول كومننن

(الامبراطور) : ١٦٦ ، ١٧٣ ،

(١)

ابراهيم بن الاغلب : ١٤٩ .

ابراهيم ينال : ١٨٢ .

ابن الاثير : ٢٠٨ .

ابن خلدون : ٨٣ .

ابن العديم : ١٨٧ - ١٨٨ ،

١٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢١٧ .

ابن العبراني : ١٨٤ .

ابو ايوب الانصاري : ٨٨ .

ابو بكر الصديق : ٦٨ - ٦٩ .

ابو تهم الطائي (الشاعر) : ١٤٤ .

ابو جعفر بن محمد البخاري

تاضي حلب : ١٨٥ ، ١٨٨ .

ابو جعفر القصور (الخليفة

العباسي) : ١٢٥ .

ابو حفص عمر بن عيسى

البلوطي : ١٤٦ .

ابو شلمه (المؤرخ) : ٢٣٩ -

٢٤٠ .

ابو عبيده بن الجراح : ٦٩ ،

٧١ ، ٩٦ .

ابيفانيوس القبرصي : ١٠٩ .

الأتراك (قبائل) : ١٠٦ ، ١٧٥ ،

١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٨٥ - ١٩٣ .

أنيلا (قائد الهون) : ٤٣ - ٤٤ .

أفناسيوس : ٢٩ - ٣٠ .

الأجاشي : ٥٧ - ٥٨ .

أرتامسوس (قائد) : ١١٦ .

أرتامسوس الخابسي : ١٦ .

أردشير الأول : ١٦ .

أرطميون (القائد البيزنطي

أرطيون) : ٧٠ .

أركاديوس : ٤٢ .

الأرمين : ٨٧ ، ١٢٠ ، ١٤١ ،

١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٨٧ ، ١٨٩ .

- أوتو (حاكم أتيكا) : ٢٥٧ .
 أوتيا (يوطيا) : ٥٢ — ٥٤ .
 اودوفلكر : ٤٤ .
 اوربان الثاني (البابا) :
 ٢٠٦ — ٢٠٨ .
 أورخان (السلطان العثماني) :
 ٢٩٨ ، ٣٠٠ .
 اورليان (الامبراطور) : ١٦ .
 اوجسطس (الامبراطور) : ٢٧٩ .
 اوجسطين (القديس) : ٤٢ .
 اوكتاي (خان المغول) : ٢٨١ .
 اولفيلد (لولفلاس) : ٣٩ .
 امورتاج (خان الينغار) : ١٥٤ .
 الامين (الخليفة العباسي) :
 ١٤٠ ، ١٤٦ .
 الانوجور (قبيلة) : ٩٢ .
 ايتيوس (الطوائف) : ١٢٥ .
 ايدوكيا (الامبراطورة) : ١٩٢ .
 ايرين (الامبراطورة) : ١٢٢ —
 ١٣٩ ، ١٧٤ .
 ايرين (ابنة اسحاق الثاني) :
 ٢٤٧ ، ٢٥١ .
 ايرين (ابنة تيودور لاسكاريس) :
 ٢٧٤ .
 ايوستاتيوس بولاس (أحد كبار
 اصحاب الضياع) : ١٧٤ — ١٧٥ .

(ب)

- البازينيك (البشناق — البجناك) :
 ٤٠ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٦ — ١٨٠ ،
 ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،
 ٢٠٣ — ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٥ .
 البارثيون : ١٦ .
 بارداس (القيصر خال الامبراطور
 ميخائيل الثالث) : ١٣٦ ، ١٦١ —
 ١٦٢ .
 بارداس فوقاس : ١٦١ .
 بلسيل الاول (الامبراطور) :
 ١٥٧ ، ٢١٠ .

- ١٦٨ — ٢١٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٧ ،
 ٢٦٧ .
 الكسيوس الثاني (الامبراطور) :
 ٢٣٢ — ٢٣٣ .
 الكسيوس الثالث انجيليوس
 (الامبراطور) : ٢٣٧ — ٢٣٨ ،
 ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٦٦ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧٢ .
 الكسيوس الرابع (الامبراطور) :
 ٢٥٤ ، ٢٥٤ .
 الكسيوس الخامس فوتلس
 (الامبراطور) : ٢٥٤ .
 الكسيوس (حفيد الكسيوس
 الاول كومنين ومن مؤسسي
 امبراطورية طرابزون) : ٢٦٧ —
 ٢٦٩ .
 الكسيوس ابو كلوكوس
 (البطريرك) : ٢٩٩ .
 الكسيوس كومنين (ابن اخ
 مانويل كومنين) : ٢٣٢ .
 اللان : ١٥ ، ٤٦ ، ٢٤٠ ،
 ٢٨٦ .
 آن الفرنسية (ارملة الكسيوس
 الثاني) : ٢٣٣ .
 آن من سلافوي (زوجة
 اندرونيقوس الثالث) : ٢٩٩ .
 اندرونيقوس الاول (الامبراطور) :
 ٢٣٢ — ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٦٧ —
 ٢٦٨ .
 اندرونيقوس الثاني (امبراطور) :
 ٢٩٦ — ٢٩٨ .
 اندرونيقوس الثالث (امبراطور) :
 ٢٩٨ — ٢٩٩ .
 اندرونيقوس فوقاس (ملحد) :
 ١٨٩ .
 انستاسيوس (البطريرك) :
 ١١٤ ، ١١٦ .
 انستاسيوس الاول (الامبراطور) :
 ٤٥ — ٤٦ ، ٥٦ — ٥٧ .
 انوسنت الثالث (البابا) : ٢٤٩ —
 ٢٥٠ ، ٢٦٠ — ٢٦١ .

- باسيل الثاني (الامبراطور) : ١٥٨ ، ١٦١ — ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٢ — ١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢٣٤ .
- بلطون بن جوجي (المغولي) : ٢٨١ — ٢٨٢ .
- البجناك : (انظر الباتريناك) .
- البدو : ٥٩ ، ٦٧ .
- البرابرة : ٢٠ ، ٣١ ، ٤٦ ، ٥٧ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ — ٢٠٤ ، ٢١٠ .
- البربر : ٧٥ ، ٧٨ ، ٩١ ، ٩٩ .
- البرجنديين : ٤٦ .
- بركة خان (خان مغول القتجاق) : ٢٩٣ .
- برنارد (راهب) : ٢٢٠ .
- البلسيري : ١٨٣ — ١٨٤ .
- بسيللوس (المؤرخ) : ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٩٣ .
- البشناق : (انظر الباتريناك) .
- بطرس (القديس) : ٢٧ ، ١٠٩ .
- بطرس الثالث (ملك أرغونه) : ٢٩٣ .
- بطرس دي كورتاي : ٢٧٥ .
- بطرس كلبواتو (الكاردينال) : ٢٦٠ .
- بطرس الناسك : ٢١٠ .
- بلا (وبيك العرش البلخاري) : ٢٢٨ .
- بلاطه (قائد) : ١٥١ .
- بلدوين الاول (امبراطور القسطنطينية ١٢٠٤ — ١٢٠٥ م) : ٢٥٠ ، ٢٥٧ ، ٢٧١ .
- بلدوين الثاني (آخر الاباطرة اللاتين في القسطنطينية) : ٢٧٨ ، ٢٨٨ — ٢٩١ .
- بلدوين الثالث (ملك مملكة بيت المقدس) : ٢١١ ، ٢١٨ ، ٢٢٧ — ٢٢٨ ، ٢٣٣ .
- البلغار : ٤٠ ، ٤٥ ، ٥٧ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٧ ، ٩٢ — ٩٣ ، ١٠١ — ١٠٥ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٤ — ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٥٣ — ١٥٨ ، ١٧٥ — ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٩ ، ٢٢٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥٨ — ٢٥٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ — ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٨ — ٢٩٩ ، ٣٠١ .
- البنادقة : ٩ ، ١٥٣ ، ٢٠١ — ٢٠٣ ، ٢١٤ — ٢١٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٥١ — ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٨٧ — ٢٩٠ ، ٣٠١ .
- بندكت (القديس) : ١٦٣ .
- بنيامين (بطريك الاسكندرية) : ٧٩ .
- بهاء الدين بن شداد : ٢٣٩ — ٢٤٠ .
- بوريس (خان البلغار) : ١٥٤ — ١٥٥ .
- بولس (القديس) : ١٠٩ .
- بولكريا (زوجة الامبراطور مارقيان) : ٥٣ .
- البوليصيون : ١٩٢ .
- بونيفس مونفترات : ٢٥٠ — ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٥ .
- بوهمند : ٢٠١ ، ٢١١ — ٢١٣ ، ٢١٦ .
- بويلاس : (انظر ايوستاتيس) .
- البويهيون : ١٨٣ — ١٨٤ .
- البيزانة : ٢٠٦ ، ٢٣٩ ، ٢٥٣ ، ٢٨٧ .
- بيبرس (السلطان المملوكي) : ٢٩٣ .
- بيبين القصير (ملك الفرنجة) : ١٢١ .
- بيثا (زوجة الامبراطور ماثيول) : ٢١٨ .
- بيزاس (قائد) : ٣١ .

(ت)

- تازاسيوس (البطريك) :
١٢٣ ، ١٣٣ .
تلكيتوس (المؤرخ) : ١٤ .
تلمار (ملكة جورجيا) :
٢٦٨ - ٢٦٩ .
تلتسكرد : ٢١٣ .
التركمان : ١٨٧ ، ١٩٣ ،
٢٣ ، ٢٣١ .
تزييمسكي : (انظر حنا
تزييمسكي) .
توماس (الشاعر) : ١٤٠ - ١٤٤ ،
١٤٦ .
توماس موروسيني (البطريك) :
٢٦٠ ، ٢٦١ .
تيريوس الثالث (الامبراطور) :
١٠١ .
تيبولت : ٢٥٠ ، ٢٥٣ .
التيون : ٢٤٣ .
تيودور (الراهب) : ١٣٣ ،
١٣٥ .
تيودور انجيلوس (دوق ابيروس) :
٢٧٥ - ٢٧٨ .
تيودور لاسكاريس (البطريك) :
٢٥٥ .
تيودور الاول لاسكاريس
(مؤسس امبراطورية نيقية) :
٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٩٤ .
تيودور الثاني لاسكاريس
(امبراطور نيقية) : ٢٨٤ - ٢٨٥ .
تيودورا (والدة الامبراطور
ميخائيل الثالث) : ١٣٦ - ١٣٧ .
تيودورا (آخر اباطرة الاسرة
القدونية) : ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٨٢ -
١٨٤ .
تيودورا كومنين (ارملة بلدوين
الثالث ملك بيت المقدس) : ٢٢٣ .

(ث)

- ثيودريك (زعيم القوط
الشرقيين) : ٤٤ - ٤٥ .
ثيوفوتوس (بطريك) : ١٣٤ .
ثيودورا : (انظر ثيودورا) .
ثيودوسيوس (اسقف افيسوس) :
١١٧ .
ثيودوسيوس الاول او العظيم
(الامبراطور) : ٤١ - ٤٢ ،
٤٨ - ٤٩ ، ١٣٠ .
ثيودوسيوس الثاني (الامبراطور) :
٤٩ - ٥٠ ، ٥٣ .
ثيوفانو (المؤرخ) : ١١١ ، ١١٨ ،
١٢٦ .
ثيومانيس (البطريك) : ٢٩٢ .
ثيوفيل (الامبراطور) : ١٣٥ -
١٣٦ ، ١٤٣ - ١٤٨ ، ١٥١ ،
١٥٣ ، ١٦٢ .
ثيوكتستوس (عشيق ثيودورا) :
١٣٦ .

(ج)

- جاللوس (من اسرة قسطنطين
الكبير) : ٣٥ ، ٣٧ .
جاليريوس (قيصر) : ١٨ ،
٢٢ - ٢٣ .
جاي لوزجنان (ملك بيت
القدس) : ٢٣٨ .
الجراجمة (الردة) : ٩٦ ، ٩٨ .
الجرس : ٢٨٨ .
الجرمان : ٧ ، ١٢ - ٢٠ ،
٣١ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ - ٤٧ .
جرمانوس (بطريك
القسطنطينية ٧١٥ - ٧٣٠ م) :
١١٣ - ١١٤ ، ١١٧ .
جرمانوس الثالث (بطريك
القسطنطينية ١٢٦٧ م) : ٢٩٢ .
جرجوراس (مؤرخ بيزنطي) :
٢٨٣ .

- جريجورى (أرخون افريقية) :
 ٨٠ .
 جريجورى (اسقف نيسا) : ٤٧ .
 جريجورى الثانى (البلبا) : ١١٣ .
 جريجورى الثالث (البلبا) :
 ١١٣ — ١١٤ .
 جريجورى السليح (البلبا) :
 ١٦٢ ، ١٨٠ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٢٦ .
 جريجورى العاشر (البلبا) :
 ٢٩٢ .
 جزيريك (قائد الوندال) : ٤٣ .
 جستنيان الاول (الامبراطور) :
 ٤١ — ٤٢ ، ٥٠ ، ١٠٧ — ١٠٨ ، ١٣٠ — ١٣١ ، ١٥٨ .
 جستنيان الثانى (الامبراطور) :
 ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ١٢٠ .
 جستين الاول (الامبراطور) : ٥٧ — ٥٨ .
 جعفر بن ابي طالب : ٦٧ .
 جغرى السلجوقى : ١٨١ .
 جنداء بن ابي امية : ٨٩ ، ١٤٥ .
 جنكيز خان : ٢٨١ .
 الجنوبية : ٩ ، ٢٣٩ ، ٢٨٦ — ٢٩٠ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ — ٣٠١ .
 جودفرى بويون : ٢١٠ .
 جورج اكروبوليتا (مؤرخ بيزنطى) : ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩٢ .
 جورج موزالون : ٢٨٥ .
 جورديان (الامبراطور) : ٣٩ .
 جوليان (الامبراطور) : ٣٤ — ٣٨ ، ٤٧ .
- (ح)
 حاطب بن ابي بلتمه اللخمى :
 ٦٤ .
 حسان بن ثابت (الشاعر) : ٦٤ .
 حسان بن النعمان : ٩٩ .
 الحسن بن ملهم : ١٨٣ .
 الحكم بن هشام (الامير الاموى
- فى الاندلس) ١٤٦ .
 حنا (اخو ريتشارد قلب الاسد) : ٢٤٦ ، ٢٥٠ .
 حنا تريمسكس (الامبراطور) :
 ١٥٧ — ١٥٨ ، ١٧٨ ، ٢١٠ .
 حنا الثانى كومنين (الامبراطور) :
 ٢١٢ — ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ .
 حنا الثالث دوقاس فاتاتريس (الامبراطور) : ٢٧٤ — ٢٨٥ .
 حنا الرابع لاسكاريس (الامبراطور) : ٢٨٤ — ٢٨٥ ، ٢٩٠ .
 حنا الخامس باليولوفس (الامبراطور) : ٢٩٩ — ٣٠٠ .
 حنا السادس ككتاكيوزين (الامبراطور) : ٢٩٩ — ٣٠٢ .
 حنا العمى : ١١٣ — ١١٤ ، ١١٧ ، ١٢٣ .
 حنادى بريين : ٢٦٣ .
 حنا كوركواس : ١٥٧ .
 حنا كومانروس (البطريرك) :
 ٢٥٨ ، ٢٧١ .
 حنا النحوى : ١٣٦ — ١٣٧ .
 حنه (اخت باسيل الثانى) :
 ١٦١ .
 حنه كومنين : ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ — ٢٠٤ ، ٢٦٧ .
 حنه (ابنة الكسيوس الثالث) :
 ٢٧٠ .
- (خ)
 خالد بن الوليد : ٦٧ ، ٧٠ .
 الخزر : ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٢٢ ، ١٧٨ ، ١٨٧ .
- (د)
 دالمبوس (البلبا) : ٤٧ .
 داندولو (دوج البندقية) : ٢٥٠ — ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ .
 الدانشموند : ٢٣٠ .

روستسلاف (أمير روسي) :
• ٢٨٤

رومانوس (ابن قسطنطين
بورغريوجينيوس) : ١٧٨ •

رومانوس الأول ليكابينوس
(الامبراطور) : ١٧٢ •

رومانوس الثاني (الامبراطور) :
• ١٤٩

رومانوس الثالث (الامبراطور) :
• ١٦٣ ، ١٦٩

رومانوس الرابع ديوجينيس
(الامبراطور) : ١٨٦ — ١٩٠ •

• ١٩٣ — ١٩٥
رومولوس اغسطس : ٤٤ •

ريتشارد قلب الأسد : ٢٤١ ،
• ٢٤٤ — ٢٤٦

ريموند الرابع (أمير تولوز
ويروقاتس) : ٢١١ •

رينو دي شاتيون (ارناط) :
• ٢٢٥ — ٢٢٨ ، ٢٢٨

(ز)

الزنكيون : ٢١٧ ، ٢٣٥ •

زويان (أسرة) : ٢٢٨ •

زوي (امبراطورة) : ١٦٣ ،
• ١٦٦ — ١٦٨

زيادة الله الاول الاغلي :
• ١٥٠ — ١٥١

زيد بن حارثه الكلبى : ٦٦ —
• ٦٧

زينون (الامبراطور) : ٤٤ ،
• ٥٥ — ٥٦

(س)

السامانيون : ٢٥ •

السامانيون : ١٨١ •

سلاويرس بن المقفع : ١١٠ •

سستيموس سيفيروس
(الامبراطور) : ١٥ ، ٢١ ، ٣٢ •

داود (من مؤسسى امبراطورية
طرابزون) : ٢٦٧ — ٢٦٩ •

داود الثاني (ملك جورجيا) :
• ٢٦٧

الدالية : ٢٤٣ •

حبة بن خليفة الكلبى : ٦٤ •

نقديتوس (الامبراطور) : ١٣ ،
• ١٧ — ٢٣ ، ٢١ ، ٧٤ ، ١٦٦ •

نكيوس (الامبراطور) : ١٥ ،
• ٢١ — ٢٢ ، ٣٩ •

الديلم : ١٨١ •

ديوسقورس (بطريرك
الاسكندرية) : ٥٢ — ٥٤ •

(ذ)

ذو نواس (آخر ملوك حمير) :
• ٥٧ — ٥٨

(ر)

رانجايى (أسرة) : ١٢٣ •

الريضيون : ١٤٦ ، ١٤٨ •

الرشيد الكمال : ٢٩٣ •

الرهيلان الفرسان : ٢٤٣ •

روبرت (أمير نورمنديا ابن
وليام الفاتح) : ٢١١ •

روبرت الاول (كونت فلاندرز) :
• ٢٠٥

روبرت جويسكلرد : ١٧٧ •

• ١٩٤ — ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ •

• ٢١١ — ٢١٣ •

روتود (ابنة شرلمان) : ١٢٨ •

روجر بن روبرت جويسكلرد :
• ٢٠١

روجر الثاني : ٢١٥ — ٢١٦ •

• ٢٢١ — ٢٢٣ ، ٢٢٤ •

روجر دى غلور (قائد الفرقة
التطلونية) : ٢٩٧ •

الروس : ١٦١ ، ١٧٨ ، ١٨٧ •

• ٢٠٤ ، ٢٨١ •

(ش)

- شاپور الاول : ١٦ .
- شارل الأنجوى : ٢٩١ — ٢٩٢ .
- شارل مارتل : ١٠٥ .
- شرحبيل بن حسنة : ٦٩ .
- شريمان : ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٢٨ — ١٣١ ، ١٤٤ ، ٢٧٩ .
- شيركوه (عم صلاح الدين الأيوبي) : ٢٢٣ .

(ص)

- الصقالبة (السلاف) : ٤٥ — ٤٦ ، ٥٧ ، ٦١ — ٦٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ — ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٤٠ — ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٨٠ ، ١٨٩ — ٢٨٦ .
- صلاح الدين الأيوبي : ٢٢٣ ، ٢٣٤ — ٢٤٦ ، ٢٨٧ .
- صوبيل (خان البلغار) : ١٥٨ .
- صندق التركي (قائد) : ١٨٧ .

(ط)

- طارق بن زياد : ٦٩ .
- طرفه بن العبد (شاعر) : ٨٣ .
- طغرل بك المسلجوتى : ١٨١ — ١٨٦ ، ١٩٧ .

(ع)

- العادل (السلطان الأيوبي) : ٢٥١ — ٢٥٢ .
- العباسيون : ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٤٤ .
- عبد الرحمن الأوسط : ١٤٧ — ١٤٨ .
- عبد الرحمن الغافقى : ١٠٥ .

- ستوراكيوس (الطوائى) : ١٢٥ .
- ستوراكيوس بن ثقفور : ١٣٣ .
- ستيفن دوشان (ملك الصرب) : ٣٠١ — ٣٠٢ .
- ستيفن نيمانيا : ٢٢٨ .
- ستيفن (الأب) : ١١٩ .
- ستيفن الثاني (البلبا) : ١٢١ .
- ستيليكو : ٤٢ — ٤٣ .
- سرجيوس (البلبا) : ٩٨ .
- سرجيوس (البطريرك) : ٦١ — ٦٢ ، ٧٣ .

• سقراط : ٣٧ .

• السكسون : ٤٦ .

- السلاجقة : ٨ ، ١٦٥ — ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٥ — ١٧٨ ، ١٨٠ — ١٨٥ ، ١٨٩ ، ٢٠٠ — ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٧ — ٢٢٢ ، ٢٣٠ — ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٥٦ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ — ٢٧٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ .

- السلاف : (انظر. الصقالبة) .
- سلجوق بن حقائق : ١٨٠ .
- السلوقيون : ١٦ .

- سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأموي) : ١٠١ ، ١٠٣ — ١٠٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ — ٢٠٤ .

• السوريان : ١٧٥ .

• السوريون : ٥٥ ، ٥٦ .

• السوفى (قبائل) : ٤٣ .

- سمرين (تحت إمارة القبطية) : ٦٤ .

• سيف الاسلام (أخو صلاح الدين الأيوبي) : ٢٣٩ .

• سيف الدين (أخو نور الدين محمود) : ٢٢٢ .

• سيمون (خان البلغار) : ١٥٨ ، ٣٠١ .

عمورى الاول (ملك بيت القدس):
٢٢٨ .

(غ)

الغز (قبائل) : ١٧٠ ، ١٧٧ —
١٨٠ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٨ .
الغزال : (انظر يحيى بن الحكم) .
الغزنويون : ١٨١ .
غيلك الدين كيخسرو : ٢٧٢ .

(فـ)

فاتاتريس : (انظر حنا الثالث
دوقلس) .
فارسي الدين اقوش : ٢٩٣ .
الفاطميون : ١٤٩ .
فالنس (الامبراطور) : ٤٠ —
٤١ ، ٤٨ ، ١٥٤ .
فاليريان (الامبراطور) : ١٦ .
الفرانسيסקان : ٢٦٢ — ٢٦٣ .
فردريك الاول بربوسا : ٢٢٣ —
٢٢٥ ، ٢٣٠ — ٢٣١ ، ٢٣٩ —
٢٤٢ ، ٢٤٤ — ٢٤٥ ، ٢٤٧ .
فردريك الثاني : ٢٧٤ ،
٢٧٩ — ٢٨١ ، ٢٨٦ .
الفرس : ١٢ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٧ ،
٣١ ، ٤٠ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦١ — ٦٤ ،
٦٦ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٨٥ ، ١٤١ ،
١٥٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٩ .
الفرنجة : ١٥ ، ٤٥ ، ١٢١ ،
١٢٨ ، ١٤٤ ، ١٨٧ ، ٢٠٨ ، ٢٤٠ ،
٢٤٢ ، ٢٦٦ ، ٢٨٥ .
فوقاس (الامبراطور) : ٦٠ .
فلاديمير : ١٦١ .
فيتاليان (قائد) : ٥٦ — ٥٧ .
فيرو (تجار بندقية) : ٢٨٨ .
فيهاردوين : ٢٥٨ .
فيليب اوجسطلس : ٢٤١ ،
٢٤٤ — ٢٤٦ ، ٢٥٠ .
فيايب السوابي : ٢٤٧ ،
٢٥٠ — ٢٥١ .

عبد الله البطلال : ١٠٦ — ١٠٧ .
عبد الله بن حبيب : ١٥٠ .
عبد الله بن رواجه : ٦٦ — ٦٧ .
عبد الله بن الزبير : ٧٩ .
عبد الله بن سعد بن ابي سرح :
٧٩ ، ٨١ — ٨٥ .
عبد الله بن طاهر : ١٤٦ .
عبد الله بن عباس (المحدث) :
٨٨ .
عبد الله بن عمر بن الخطاب :
٧٩ .
عبد الله بن عمرو بن العاص :
٧٩ .
عبد الله بن قيس : ٨٤ .
عبد الملك بن مروان (الخليفة
الأموي) : ٩٤ — ٩٩ .
عثمان بن عفان : ٦٧ ، ٧٨ —
٧٩ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ١٠٦ .
عثمان بن الوليد : ٩٥ ، ٩٧ .
عثمان (السلطان العثماني) :
٢٩٨ .
العثمانيون : ٩ ، ٨٨ ، ١٥٦ ،
٢٩١ ، ٢٩٧ — ٣٠٠ ، ٣٠٢ .
العرب : ٧ ، ٥٥ ، ٥٨ — ٥٩ ،
٦٣ — ٦٤ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ،
٨٣ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، ١٣٩ ، ١٥٧ ،
١٨٧ ، ١٩٢ .
عقبة بن نافع النهري : ٩١ .
على الأشعري (أبو الحسن) :
١٤٩ .
على بن ابي طالب : ٨٧ .
العماد الاصبهاني : ٢٤٠ .
عماد الدين زنكي : ٢١٧ ، ٢١٩ .
عمرو بن الخطاب : ٧٠ ، ٧١ ،
٧٨ ، ٨٢ .
عمر بن عبد العزيز (الخليفة
الأموي) : ١٠٥ .
عمرو بن العاص : ٦٦ — ٧٢ ،
٧٨ — ٧٩ ، ٨٢ ، ٩١ .

الفنجلقي : ١٨٧ ، ٢٩٣ .
تلاون (السلطان الملوكي) :
٢٩٤ — ٢٩٥ .

قلج أرسلان : ٢٢٩ — ٢٣٠ .
الفتشندي : ٢٩٤ — ٢٩٥ .
قنسطانز الأول : ٣٥ .
قنسطانز الثاني (الامبراطور) :
٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٥ — ٨٨ ،
٩١ — ٩٢ ، ٩٨ .

قنسطانز (ابنة فردريك
الثاني) : ٢٨٠ .
القوط : ١٥ — ١٦ ، ٢٧ ،
٣٨ — ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ١٥٤ ،
١٧٨ .

(ك)

كلنا (ابنة داود الثاني ملك
جورجيا) : ٢٦٧ .
كلراكلا (الامبراطور) : ١٢ .
كلالينيكوس (مهندس) : ٩٠ .
كلالوجان (خان البلغار) : ٢٥٨ —
٢٥٩ .
الكابل (السلطان الايوبي) :
٢٧٩ .

الكاهنه (ملقة البربر) : ٩٩ .
كروم (خان البلغار) : ١٥٣ —
١٥٤ .

كلوديوس القوطي : ١٥ .
كلوفس (ملك الفرنجة) : ٤٥ .
الكومان : ٤٥ ، ١٧٧ — ١٧٨ ،
٢٠٤ ، ٢٥٩ ، ٢٧٧ ، ٢٨٦ .
كونراد الثالث (الامبراطور
الاولى) : ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ،
٢٢٣ — ٢٢٤ .

كونستانس (الاميرة) : ٢٧٩ .
كيسرو الثاني : ٢٨٢ .
كيرلس الاول (بطريرك
الاسكندرية) : ٥١ — ٥٢ .
كيرولاريوس : (انظر ميخائيل
كيرولاريوس) .
كيتباز الاول : ٢٨٢ .

فيليب كورتاي : ٢٨٨ — ٢٨٩ .
غيمي (قائد) : ١٥١ .

(ق)

القائم بأمر الله (الخليفة
المعالي) : ١٨٢ — ١٨٤ .
القاضي الفاضل : ٢٣٩ ، ٢٤١ —
٢٤٢ .

القبازصة : ٨٤ ، ٩٧ .
القرشيون : ٦٣ .
قنسطانطين الكبير (الامبراطور) :
١١ ، ١٨ — ١٩ ، ٣٩ ،
٤٧ ، ٥٠ ، ٧٤ ، ١٢٣ ، ١٣٠ ،
١٣٧ ، ١٧٦ ، ٢٨٩ .

قنسطانطين الثاني (الامبراطور) :
٣٥ .
قنسطانطين الرابع (الامبراطور) :
٩٠ ، ٩٤ — ٨٨ .

قنسطانطين الخامس كويرونيوس
(الامبراطور) : ١٠٧ — ١٠٨ ،
١١٦ — ١٢٢ ، ١٢٨ .
قنسطانطين السادس (الامبراطور) :
١٢٢ — ١٣٠ .

قنسطانطين السابع بورغيريونيتوس
(الامبراطور) : ٧٤ ، ١٤٩ ،
١٧٨ .

قنسطانطين الثامن (الامبراطور) :
١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٩ .
قنسطانطين التاسع مونوملخوس
(الامبراطور) : ١٦٣ ، ١٧٩ ،
١٨٢ .

قنسطانطين العاشر دوتانس
(الامبراطور) : ١٦٨ — ١٧٠ ،
١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٩ ، ١٩٢ .
قنسطانطين انجيلوس : ٢٣٧ .
قنسطانطينوس (ابن قنسطانطين
الكبير) : ٣٥ — ٣٧ .

قنسطانطينوس خلوروس (والد
قنسطانطين الكبير) : ١٨ ، ٢٣ ،
٢٦ .

ملرى (زوجة مانويل كومنين) :
٢١٨ .

ملريه (أم الكسيوس الثانى) :
٢٣٢ .

ملريه دى بريين : ٢٨٩ .
ملرية القبطية الحمرية : ٦٤ .
ملكسنتيوس بن ملكسيميان :
٢٣ ، ٢٥ .

ملكسيوس المعترف : ٨٠ - ٨١ .
ملكسيميان (الأغسطس) : ١٨ ،
٢٣ ، ٣٩ .

المأمون (الخليفة العباسى) :
١٤٠ - ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،
١٥١ ، ١٦٢ .

ماتفرد (ابن فردريك الثانى) :
٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ .

مانويل (قائد الأسطول) : ٧٩ .
مانويل الأول كومنين (الامبراطور) :
٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٣٣ - ٢٦٧ -
٢٦٨ .

مانويل انجيلوس : ٢٧٨ .
المتوكل (الخليفة العباسى) :
١٣٦ .

المجربون : ١٧٨ .
محمد رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) : ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٦ - ٦٨ ،
٨١ ، ١٠٤ ، ١١١ .

محمد الثانى (السلطان
العثمانى) : ٨٩ .

محمد بن مروان (قائد) : ٩٥ .
محمود بن نصر الرنداسى : ١٨٦ .
مريم العذراء : ٥١ ، ١٠٩ ،
١١٥ .

المستنصر بالله (الخليفة الفاطمى) :
١٨٢ - ١٨٣ ، ١٨٦ .
مسعود (سلطان سلاجقة
الروم) : ٢٢١ .

مسعود الفزنوى : ١٨١ .
مسلم بن أبى مسلم الجرمى :
٧٦ .

٧٦ .

ميكاوامينوس (قائد) : ١٦٧ ،
١٧١ .

(ج)

لوثر الثانى (الامبراطور
الاملى) : ٢١٦ .
اللومبارديون : ٧٥ ، ٨٧ ، ١٠٣ ،
١٢١ ، ١٢٨ .

لويس بلوا : ٢٥٠ .
لويس التتى : ١٤٤ .
لويس السابع : ٢٢٠ - ٢٢١ ،
٢٢٣ .

لويس التاسع : ٢٢٨ ، ٢٩١ .
ليبياتيوس (فيلسوف) : ٣٦ .
ليكينتيوس (الأغسطس) : ٢٣ -
٢٤ ، ٣٦ ، ٣١ ، ٣٩ .

ليو (فيلسوف) : ١٦٢ .
ليو الأول العظيم (البلبا) :
٤٤ ، ٥٣ - ٥٤ .

ليو الثالث (البلبا) : ١٢٨ -
١٣٠ .

ليو الثالث (الامبراطور) : ١٠١ ،
١٠٣ - ١٢١ ، ١٢٨ .

ليو الرابع الخزرى (الامبراطور) :
١٢١ ، ١٢٢ ، ١٣٠ .

ليو الخليس الأرمنى (الامبراطور) :
١٣٥ ، ١٥٤ .

ليو السادس (الامبراطور) :
١٥٩ .

ليو التاسع (البلبا) : ١٦٤ .

(م)

ماتيلدا (اميرة تسكافيا) : ٢٢٦ .
مارتن الأول (البلبا) : ٨٠ ،
٨١ ، ٩٨ - ٩٩ .

مارتن الرابع (البلبا) : ٢٩٢ .
ماردونيويس : ٣٦ .
مارتريان (الامبراطور) : ٥٣ .

ميخائيل السادس (الامبراطور) :
 ١٦٨ ، ١٦٩ .
 ميخائيل السابع دوقس
 (الامبراطور) : ١٧٩ — ١٨٠ ،
 ١٩٣ — ١٩٧ ، ٢٠٥ .
 ميخائيل الاول انجيلوس (دوق
 ابيروس) : ٢٦٥ — ٢٦٦ ، ٢٧٥ .
 ميخائيل باليولوغس (الامبراطور) :
 ٢٨٤ — ٢٩٦ ، ٣٠١ .
 ميخائيل كيرولايوس (البطريرك) :
 ١٦٤ ، ١٦٨ .

(ن)

نسطوريوس (اسقف
 القسطنطينية) : ٥١ — ٥٢ .
 نصر بن الازهر الشيبى : ١٣٦ .
 نقفور (البطريرك) : ١١٠ ،
 ١٣٣ — ١٣٤ .
 نقفور (عم قسطنطين السادس) :
 ١٢٤ .
 نقفور الاول (الامبراطور) :
 ١٣١ — ١٣٣ ، ١٣٩ — ١٤٠ ،
 ١٤٥ — ١٥٣ ، ١٥٤ .
 نقفور الثانى فوكاس (الامبراطور) :
 ١٤٩ ، ١٥٧ ، ١٧٢ ، ٢١٠ .
 نقفور الثالث بوتانيقتس
 (الامبراطور) : ١٩٧ .
 نقفور برينيوس (زوج حنة
 كومنين) : ٢٦٧ .
 نقفور بلميديس : ٢٨٤ .
 نور الدين محمود (السلطان) :
 ٢٢٢ — ٢٢٣ ، ٢٣٥ .
 النورمان : ٩ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ،
 ١٧٠ — ١٧٧ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ،
 ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ — ٢١٩ ،
 ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٣٤ — ٢٣٥ ،

مسلمة بن عبد الملك : ١٠٤ ،
 ١٠٦ .
 المسيح عليه السلام : ٢٥ ،
 ٢٨ — ٣٠ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ،
 ٧٣ ، ١١٢ ، ١١٤ — ١١٥ ، ١١٧ ،
 ١٢٤ .
 معاوية بن ابي سفيان : ٧٩ ،
 ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٧ — ٩١ ، ١٤٥ ،
 ١٥٠ .
 معاوية بن حديج الكندى : ٩١ ،
 ١٥٠ .
 المعتصم (الخليفة العباسى) :
 ١٤٣ — ١٤٤ ، ١٤٧ .
 المعز لدين الله الفاطمى : ١٤٩ .
 معين الدين ائمر : ٢٢٢ .
 المنول : ٤٠ ، ٢٧٤ ، ٢٨١ —
 ٢٨٤ .
 المنرى (الارخ) : ١٤٧ .
 المقوقس : ٦٤ — ٦٥ .
 المهدي (الخليفة العباسى) :
 ١٢٦ — ١٢٧ ، ١٣٩ .
 موريس (الامبراطور) : ٧٥ .
 ميونديوس (البطريرك) : ١٣٧ .
 ميخائيل اكونياتوس (رئيس
 اساقفة اثينا) : ٢٦٢ .
 ميخائيل اوتوريانوس (البطريرك) :
 ٢٧١ .
 ميخائيل باتاريوتوس (مؤرخ
 طرابيزون) : ٢٦٨ .
 ميخائيل الاول رانجابه
 (الامبراطور) : ١٣١ ، ١٣٣ —
 ١٣٤ ، ١٥٤ .
 ميخائيل الثانى (الامبراطور) :
 ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٠ — ١٤٥ ،
 ١٥٠ .
 ميخائيل الثالث (الامبراطور) :
 ١٣٦ ، ١٤٥ ، ١٦١ .
 ميخائيل الرابع (الامبراطور) :
 ١٦٣ .

- هيلينا (هيلانه) : ٢٣ ، ٢٦ .
- (و)
- واليا (قلاد قوطى) : ٤٣ .
- وليام الأول النورمانى : ٢٢٤ — ٢٢٥ .
- ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
- وليام الثانى (ملك صقلية) : ٢٤٢ ، ٢٤٧ .
- وليام دى غيلاردوين : ٢٨١ .
- وليام شامبلت : ٢٥٨ .
- وليام الفاتح (ملك انجلترا) : ٢١١ .
- وليام الصورى : ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
- الوليد بن عبد الملك (الخليفة الاموى) : ١٤٥ .
- الوندال : ٤٣ ، ٤٦ .

(ي)

- ياغى سيان : ٢١٢ .
- يحيى بن حبيب : ١٤٨ .
- يحيى بن الحكم (الغزال) : ١٤٨ .
- يزيد بن ابي سفيان : ٦٩ ، ٨٨ .
- يزيد بن عبد الملك : ١١٠ ، ١١١ .
- يوجين الثالث (البابا) : ٢١٩ ، ٢٢٤ .
- يوسيبوس : ٢٥٠ ، ٣٦ ، ١٠٩ .
- يوفيموس : ١٥٠ .
- يوليوس قيصر : ٣٠ .

- ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ .
- ٢٤٧ .
- نيقئاس خوتياثس : ٢٣٠ .
- ٢٥٦ .
- نيقولا الاول (البابا) : ١٥٥ .
- نيقولا ميساريثس : ٢٥٦ .

(ه)

- هادريان الاول (البابا) : ١٢٣ .
- هارون الرشيد : ١٢٦ — ١٢٧ .
- ١٣٩ — ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٤٧ .
- ١٤٩ .
- هارون بن يحيى : ٣٤ .
- هانيبال : ٤٢ .
- هرقل (الامبراطور) : ٥٩ — ٦٤ .
- ٦٩ — ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٣ .
- ١٠٠ — ١٠١ ، ١٣٠ ، ٢٠٩ .
- همبرت (الكاردينال) : ١٦٤ .
- هنرى (الامبراطور اللاتينى فى القسطنطينية) : ٢٥٩ ، ٢٦٢ .
- ٢٧١ — ٢٧٥ .
- هنرى الرابع (الامبراطور الالمانى) : ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٢٦ .
- هنرى السادس : ٢٤٤ — ٢٤٨ .
- ٢٥١ ، ٢٧٩ .
- الهون : ١٣ ، ٣٩ — ٤٠ .
- ٤٣ — ٤٤ ، ٥٧ .
- هونوريوس (امبراطور الغرب) : ٤٢ .

ثانيا - كشاف البلدان والمدن والأماكن والبقاع

- الاستيس : ٣٩ ، ٩٢ .
 اسكلثيا (بحيرة) : ٢٧٠ .
 الاسكندرية : ٢٢ ، ٢٨ — ٢٩ ، ٣١ ، ٤٧ — ٥٤ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، ١١٦ ، ١٤٦ ، ١٦٥ ، ٢٣٩ ، ٢٥٢ .
 اسكى شهر (دوريلوم) : ١٠٧ .
 آسيا : ٣١ ، ٣٣ ، ٣٩ — ٤٤ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٢٨١ .
 آسيا الصغرى : ٨ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢٤ — ٢٧ ، ٣١ ، ٣٨ — ٣٩ ، ٦١ — ٦٢ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٦ — ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ — ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٢ — ١٣٣ ، ١٤٣ — ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٨ ، ١٧٤ — ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٩٠ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ — ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ — ٢٢٢ ، ٢٢٩ — ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ — ٢٤٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ — ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٦ — ٢٩٩ .
 اصزاز : ١٨٧ .
 افريقيه : ١٨ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٩ — ٦٠ ، ٧٩ — ٨٠ ، ٨٣ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٤٩ ، ١٥١ .
 افيسوس : ٣٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ١١٣ ، ١١٧ — ١١٨ ، ٢٥٦ ، ٢٧٠ .
 اكرينون (قره حصار) : ١٠٦ .
 اكس لاثيل : ١٣١ .
 الايجاز : (انظر ابيريا) .
 الانسكا : ١٦١ .
- (١)
 الابسيق (ثغر) : ٧٦ ، ٩٧ ، ١١٦ ، ١٤١ .
 ابن هبيرة (بحينة) : ١٢٥ .
 ابوليا : ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٢٨٦ .
 ابيروس (دوقية) : ٢٦٢ ، ٢٦٤ — ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ — ٢٧٨ ، ٢٨٣ — ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ — ٢٩٢ .
 اتيسكا : ٢٥٧ .
 اثينا : ٣٧ ، ٣٨ ، ٨٧ ، ١٢٢ ، ١٢١ ، ٢٦٢ ، ٢٩٠ ، ٢٩٨ .
 اجنادين : ٧٠ ، ٧١ .
 اخايا : ٢٨٦ ، ٢٩٠ .
 ادرنه : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٦ — ٤٧ ، ١٥٤ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ٢٠٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥٨ — ٢٥٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ — ٢٧٨ ، ٢٩٩ — ٣٠٠ .
 افريجان : ١٨١ .
 ارزن الروم (ارضروم — ارض الروم) : ١٨٢ — ١٨٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ .
 ارزنجان : ٢٨٢ .
 ارسوف : ٢٣٨ ، ٢٤٦ .
 ارطيا : ٢٦٤ — ٢٦٦ .
 ارغونه : ٢٩٣ .
 الارمنيانيق (ثغر) : ٧٥ ، ١٢٤ ، ١٤١ .
 ارمينية : ١٦ ، ٣٧ ، ٤٦ ، ٦٣ ، ٧٩ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٣٨ ، ١٥١ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٨٥ — ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ٢٣٥ ، ٢٨٢ .
 ارمينية الصغرى : ٢٤٨ .
 ازهر (سميرنا) : ٢٠٤ ، ٢٧٠ ، ٢٨٧ — ٢٨٨ .
 اسبانيا : ١٨ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

ايليريا (اقليم) : ١٧ ، ٤٣ ، ٢٠١
ايوبيا (جزيرة) : ٢٨٧ ، ٢٩٠

(ب)

بابلليون (حصن) : ٧٢ ، ١٩٤
بيلري : ١٩٤
بافلاجونيا : ١٣٦ ، ٢٦٦
بالرمو : ١٥١ — ١٥٢ ، ٢١٥ ، ٢٧٩ ، ٢٩٢

بتراس (مدينة) : ١٤٥
بحر آروغ : ٩٢
بحر الأديرياتي (الأديرياتيك) :
١٧ ، ١٥٣ ، ٢٠٠ — ٢٠٢ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ — ٢٢٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٣ — ٢٨٤

بحر الأرخبيل : ٨٥ ، ٨٦ ، ٢٧٦ ، ٢٩٠

البحر الأسود : ١٥ ، ٣٣ ، ٣٨ — ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٨١ ، ٩٢ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٩٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠

البحر الايجي (بحر ايجه) :
١٥ ، ٣٣ ، ٧٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٤٩ ، ١٥٧ ، ٢١٥ ، ٢٣١ ، ٢٥٧ — ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥

البحر الايوني : ٢٥٧
البحر البلطي : ١٥ ، ٣٨
البحر المتوسط : ٧ ، ١٢ ، ٢٥

٣٣ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٨١ — ٨٢ ، ٨٤ — ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ — ١٠٣ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٢٤ ، ٢٠٨

بحر قزوئين : ٤٠
بحر مريجة : ١٥ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٧٦ ، ١٠٤ ، ١٠٦ — ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٨

الالب (جبال) : ١٢١
الأورال (جبال) : ٤٠ ، ٢٨١
البانيا : ٢٧٨ ، ٣٠١
الريش : ١٤٦
الرملة : ٢٤٦
الرها : ١٠٩ ، ١٥٧ ، ١٩٠ ، ٢١٢ ، ٢١٩

الري : ١٨٥ ، ١٨٧
الغرا : ١٠٩
الكرك (حصن) : ٢٣٨
اللوؤة (قلعة) : ١٤٠
المستيا : ١٩٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ — ٢٥١ ، ٢٧٩
الانغوليك (ثغر) : ٧٥ ، ١٠١ ، ١٠٣

انجلترا : ٤٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠

الأنطلس : ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ١٠٥ — ١٠٦ ، ١٤٤ — ١٤٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٦

انطاكية : ٢٥ ، ٢٨ — ٢٩ ، ٤٧ — ٤٨ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١٤١ ، ١٥٧ ، ١٦٥ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢١١ — ٢١٣ ، ٢١٦ — ٢٢٠ ، ٢٢٥ — ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥

آنى : ١٨٥ — ١٨٦
أوكسمنتيوس (فير) : ١١٩
ايبيريا (الأبخاز) : ١٧٤ ، ١٨٢
ايران : ٢٥

ايسورية (ايزوريا) : ١٠٣
ايطاليا : ٨ ، ١٥ ، ١٨

٤٢ — ٤٦ ، ٧٥ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٣٧ — ١٣٨ ، ١٥٢ — ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٧٧ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠١ — ٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ — ٢٢٥ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨

بونطس : ٢٦٦ .
 بوهيبيا : ٢٨٢ .
 بيت المقدس : ٢٦ ، ٤٧ ، ٥٤ ،
 ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧١ ،
 ٩٤ ، ١٠٠ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ،
 ١٥٧ ، ١٦٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،
 ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٧ ،
 ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،
 ٢٢٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ،
 ٢٤٩ ، ٢٥٦ ، ٢٦٣ ، ٢٧٩ ،
 ٣٠٠ .
 بيت لحم : ٢٧ ، ٢٢٨ .
 بيتونيا : ٢٣ ، ٢٦٤ .
 بيموت : ١٥٨ .
 بيزا : ٢١٥ ، ٢٢٩ .
 بيلاجونيا : ٢٨٦ .
 البيلويونيز : ٣١ ، ٤٣ ، ٧٦ ،
 ٩٦ ، ١٤٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ،
 ٢٩٠ .

(ت)

تارنقوم : ١٥٢ - ١٥٣ .
 التاي (جبال) : ٢٨١ .
 التيت : ٢٨١ .
 تبريز : ١٨٢ .
 تبوك : ٦٨ .
 تراقيا : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ،
 ٤٦ ، ١٢٠ ، ١٥٤ ، ١٧٩ ، ٢٤١ ،
 ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٧٦ ، ٢٨٣ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ .
 التركستان : ١٨٠ ، ٢٨١ .
 ترغيس : ١٨ .
 تساليا : ١٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦ ،
 ٢٧٨ .
 تسكانيا : ٢٢٦ .
 تغليس : ٢٦٨ - ٢٦٩ .
 تل السلطان : ٢٣٥ .
 تل العياضية : ٢٤٥ .
 توقات : ٢٨٢ .
 تولوز : ٢١١ .

البحر الميت : ٦٦ .
 برجالموم (مدينة) : ٢٧٠ .
 برجنديا : ١٦٦ .
 برسلاف (عاصمة البلغار) :
 ١٥٨ .
 برقة : ٧٨ ، ٩١ ، ٩٩ .
 برنثوس : ٣٢ .
 برنديزي : ٢٢٤ .
 بروسه : ٢٧٠ ، ٢٩٨ .
 برونتس : ٢١١ .
 بريطانيا : ١٨ ، ٢٣ ، ٢١١ .
 بصرى (مخينة) : ٦٤ ، ٦٩ .
 بطليك : ٩٠ .
 بغداد : ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٤٣ ،
 ١٦٢ ، ١٨٢ - ١٨٤ ، ٢٤١ .
 بلبيس : ٧٢ .
 بلغاريا : ١٢٠ ، ١٥٥ ، ١٧٥ ،
 ٢٢٨ ، ٢٤٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ،
 ٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٢٨٣ - ٢٨٤ ،
 البلقاء : ٦٦ ، ٦٨ .
 البلقان : ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ،
 ٤١ ، ٤٤ - ٤٦ ، ٦١ - ٦٢ ،
 ٧٦ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١٠٢ ،
 ١٢٠ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٥٧ ،
 ١٧٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٥ ، ٢٢٩ ،
 ٢٤٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ،
 ٢٧٤ - ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٦ ،
 ٢٩٦ ، ٣٠٠ .
 البندقية : ١٤٤ ، ٢٠١ - ٢٠٣ ،
 ٢١٤ - ٢٢٣ ، ٢٢٤ - ٢٢٤ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٥٠ -
 ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤ ، ٢٨٦ .
 بنزرت : ٩١ .
 بنفيتو : ١٥٢ .
 بواتية : ١٠٦ .
 البوسفور : ١١ - ١٢ ، ٣٠ -
 ٣١ ، ٣٣ ، ١٠٤ ، ١١٦ ، ١٣٦ ،
 ٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢٤٥ ، ٢٥٧ .
 بولنتيا : ٤٢ .
 بوتنيون : ٢٢١ .

(د)

- الداروم : ٦٨ .
داكيا (ولاية) : ١٦ .
دالماتيا : ٢٢٩ ، ٢٥١ .
دانقلمان : ١٨١ .
الدانوب (نهر) : ١٤ - ١٥ ،
١٨ - ١٩ ، ٢١ ، ٢٨ ، ٤٠ ،
٤٤ - ١١٩ ، ١٥٨ ، ١٧٧ -
١٨٠ ، ٢٠٤ ، ٢١٥ .
دجلة (نهر) : ١٦ ، ١٢٥ .
الدرنديل : ٢٨ ، ٢٥٨ .
درهسترا (مدينة) : ٢٠٤ .
دمشق : ٦١ ، ٦٩ - ٧٠ ،
٧٦ - ٨٨ ، ١٠٠ ، ١١٣ ، ١٢٥ ،
١٥٨ ، ١٨٦ ، ٢١٢ ، ٢٢١ - ٢٢٢ ،
٢٣٥ ، ٢٣٨ .
الذئير (نهر) : ١٧٧ .
دورازو : ٢٠٢ ، ٢١٣ ، ٢٣٧ ،
٢٤٢ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ - ٢٦٦ ،
٢٧٨ ، ٢٨١ .
دير « وديون » : ١٣٣ ، ١٣٥ .
دير القديس سلبا : ١١٤ .
دير ثلوني : ١٦٣ .
دبراخيوم : ٢٠١ .

(ر)

- رافنا : ٤٤ - ٧٥ ، ١٠١ ،
١٢١ .
الراين (نهر) : ١٤ - ١٥ ،
١٩ ، ٢٥ ، ٤٤ ، ٤٦ .
ريتش اقترن : ١٠٦ .
الرملة : ٧٠ - ٧١ .
رودس : ٢٨ ، ٨٥ ، ٨٩ .
روسييا : ٤٠ ، ١٧٧ ، ٢٨٢ .
روبا : ٢٣ ، ٢٧ ، ٢٩ - ٣٢ ،
٤٢ - ٤٩ ، ٥١ - ٥٦ ، ٧٣ ،
٨٠ - ٨١ ، ٨٧ ، ٩٤ ، ١١٣ ،
١١٥ ، ١٢١ - ١٢٨ ، ١٣٠ ،
١٣٧ - ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٦٣ - ١٦٤ ،
١٩٦ ، ٢٠٧ ، ٢٣٤ ، ٢٤٩ ، ٢٦١ -

الفيير (نهر) : ٢٣ ، ١٥٣ .

(ج)

- جلاطيا : ٣٠١ .
جرجومه : ٦٦ .
الجزر الأيونيه : ٢٠١ .
الجزيرة (اقليم) : ٧٦ ، ٦٧ ،
١٥٧ ، ١٨٦ .
الجزيرة العربية : ٦٥ ، ٦٧ -
٦٨ .
جنوه : ٢١ ، ٢٢٩ ، ٢٨٦ -
٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٣٠١ .
جوى (صحراء) : ٢٨١ .
جورجيا : ٢٦٧ - ٢٦٩ ،
٢٩٤ .
جيحون (نهر) : ١٨٠ .

(ح)

- الحجاز (بلاد) : ٦٣ .
حطين : ٢٣٨ ، ٢٤٤ .
حلب : ١٥٧ ، ١٨٥ - ١٨٧ ،
٢٢٢ ، ٢٣٥ .
حماء : ٢٣٥ .
حمص : ٦٩ - ٧٠ ، ٨٢ ،
٢١٢ .
حيفا : ٢٣٨ ، ٢٤٦ .

(خ)

- خراسان : ١٨٠ - ١٨١ ،
١٨٦ - ١٨٧ .
خرسون : ٨١ ، ٩٩ ،
١٠٠ - ١٠١ .
خلاط : ١٨٧ - ١٨٨ .
ظفدونية : ٥٣ .
خنجان (جبال) : ٢٨١ .
خوارزم : ١٨١ .
خيوس (جزيرة) : ٨٩ ، ٢٥٧ ،
٢٧٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ .

٢٠٧ ، ٢١٠ — ٢١٢ ، ٢١٧
 ٢١٦ ، ٢٢١ — ٢٢٢ ، ٢٢٥
 ٢٣٥ — ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤١
 ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢
 . ٢٨٧

شمال افريقية : ٨ ، ٢٨ ، ٤٣ ،
 ٦ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٠ ،
 ٨٧ — ٨٨ ، ٩٩ ، ١٤٥ ، ١٤٩
 . ٢٠٨

(ص)

الصرب : ٢٢٨ ، ٢٤٥ ، ٢٩١
 . ٣٠١ — ٢٩٨
 صربيا (حصن) : ٢٨٤ .
 الصفصاف (حصن) : ١٢٧ .
 صقلية : ٨ ، ٨٧ ، ٩٩ ، ١١٥ ،
 ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٥٠ — ١٥٣ ،
 ١٩٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ — ٢٠٩ ،
 ٢١٥ — ٢٢٤ ، ٢٢٥ — ٢٢٤ ،
 ٢٣٥ ، ٢٤٤ — ٢٤٥ ، ٢٧٩ ،
 ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ —
 . ٢٩٣

صور : ٢٤٦ .
 صيدا : ١٥٨ ، ٢٣٨ .
 صرميوم (مدينة) : ١٨ .
 الصين : ٣٣ ، ١٦٠ .

(ط)

طرابلس (الشام) : ٢٠٣ ،
 ٢١٢ ، ٢٣٨ .
 طرابلس (الغرب) : ٧٨ .
 طرابيزون : ١٨٢ ، ٢٦٢ ،
 ٢٦٤ — ٢٧٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٠ .
 طرسوس : ١٥٧ ، ١٩٢ .
 طروادة : ٣١ .
 طليطلة : ٢٠٨ .
 الطوانة : ١٤٠ .
 طوريس (جبال) : ٩٦ ، ١٤٣ .
 طيبة : ٢٢١ .

٢٦٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ ،
 . ٢٩٢

(ز)

زارا : ٢٥١ — ٢٥٣ .
 زبطرة (حصن) : ١٤٣ .
 الزهرة (موقع) : ١٨٨ .

(س)

سالفونك : ٢٨ ، ٩٧ ، ١٦٢ ،
 ١٧٩ ، ٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٣٧ ،
 ٢٤٢ ، ٢٥٧ ، ٢٧٤ — ٢٧٨ ،
 ٢٨٣ ، ٢٩٠ ، ٢٩٩ .
 سالموس (جزيرة) : ٢٥٧ ،
 . ٢٧٦
 سياستوبوليس (سوتوسراي) :
 . ٩٧
 سبيطلة : ٧٩ ، ٩١ .
 سردينيا (جزيرة) : ٩٩ .
 سرقوصة : ١٥٠ .
 سميرنا : (انظر آزمر) .
 سميساط : ١٢٧ .
 سودا (خليج) : ١٤٦ .
 السودان : ١٨٦ .
 السوم : ٤٦ .
 سيبريا : ١٦١ ، ٢٨١ .
 سيراكوز : ٨٧ ، ١٥٢ .
 سينوب : ٢٦٨ — ٢٦٩ .
 سيواس : ٢٨٢ .

(ش)

شالون (موقع) : ٤٤ .
 الشام : ٨ ، ١٦ ، ٢٧ ، ٤٦ ،
 ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٣ ،
 ٦٥ ، ٧٣ ، ٧٨ — ٩٠ ، ٩٣ —
 ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ١٣٨ ،
 ١٤٤ ، ١٥٧ — ١٥٨ ، ١٨٢ —
 ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٢ — ١٩٣ .

قبرص : ٢٨ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٩ ،
٩٧ ، ١١٨ ، ١٥٧ ، ٢٣٥ — ٢٣٦ ،
٢٤٠ — ٢٤٢ ، ٢٤٥ — ٢٤٦ ،
٢٤٨ .

قرطاجنة : ٢٩ ، ٤٣ ، ٦١ ،
٧٥ ، ٩٩ .
قرطبة : ١٤٦ .
القرم (شبه جزيرة) : ٨١ ،
٩٩ ، ٢٨١ .

القرن الذهبي : ٣٣ ، ٨٩ ،
١٠٤ ، ٢١٤ ، ٣٠١ .

قرون حماء : ٢٣٥ .
القسطنطينية : ٩ ، ٢٧ ،

٣١ — ٣٤ ، ٣٩ — ٦٣ ، ٧١ ، ٧٣ ،
٧٩ ، ٨١ ، ٨٥ — ٩٠ ، ٩٢ —
٩٤ ، ٩٧ — ١٠٦ ، ١١٢ — ١١٦ ،
١١٩ — ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٦ —
١٢٧ ، ١٢٩ — ١٣١ ، ١٣٣ —
١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٨ — ١٤١ ،
١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ،
١٦٠ — ١٦٩ ، ١٧٩ — ١٨٤ ،
١٩١ ، ١٩٣ — ١٩٤ ، ١٩٦ ،
٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ — ٢٢١ ،
٢٢٧ — ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ —
٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٨١ — ٢٨٢ ،
٢٨٤ ، ٢٨٦ — ٣٠٠ ، ٣٠١ —
٣٠٢ .

قسنطلة : ٢٨٩ .
قصريانة : ١٥١ .
قطالونيا : ٢٩٧ .
قلورية (كالابريا) : ١٤٩ ،
١٥١ — ١٥٢ ، ١٩٤ .
التوقساز : ١٤٠ ، ١٨٥ ، ٢٦٩ ،
٢٩٠ .

قونية : ١٩٣ ، ١٩٧ ، ٢٣٠ ،
٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٧١ — ٢٧٢ ،
٢٨٥ ، ٢٨٢ .

القيروان : ٧٩ ، ٩١ ، ٩٩ ،
١٥٠ .

قيصرية : ٢٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٦ ،
٢٨٢ ، ٢٨٢ ، ٢٨٢ ، ٢٨٢ .

(ع)

العراق : ٨ ، ١٣٨ ، ١٥٧ ،
١٨٤ ، ٢١٩ ،
عسقلان : ٧١ ، ٢٣٥ .
عكا : ٨٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤٥ .
عمورية : ١٠٦ ، ١٣٥ ،
١٤٢ — ١٤٤ .

(غ)

غاليا (بلاد الفل) : ١٨ ،
٤٣ — ٤٦ ، ١٠٦ .
غاليولي : ٢٩٧ ، ٣٠٠ .
غزة : ٧٠ ، ٢٣٨ .

(ف)

فارس : ٢٥ ، ١٩٣ .
الفرات (نهر) : ١٦ ، ١٩ ،
١٨٥ ، ١٨٧ .
الفرما (بلوزيوم) : ٧٢ .
فرنسا : ١٧٧ ، ٢٠٦ — ٢٠٧ ،
٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ،
٢٤٦ ، ٢٥٠ .
فريجيا : ١٣٥ ، ١٤٤ ، ٢٣٠ .
الفسطاط : ٧٨ .
فلسطين : ٢٥ ، ٦١ ، ٦٣ ،
٦٨ — ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٩٣ ،
١٧٧ ، ١٩٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ —
٢١٠ ، ٢٢٥ ، ٢٣٥ — ٢٣٦ ،
٢٤١ — ٢٤٣ ، ٢٤٥ — ٢٤٧ ،
٢٥٢ .

فوكيا (مدينة) : ٢٨٨ .
الفولجيا (نهر) : ٢٩٤ .
فوينكس : ٨٥ .
فيلوبولس : ٢٧٧ .

(ق)

قابس : ٩١ ، ٩٩ .
القاهرة : ٧٢ ، ٢٣٨ .
قبادوقيا : ٣٦ ، ٧٩ ،
١٧٤ — ١٧٥ ، ١٩١ ، ٢٣٠ .

- كينالونيا : ٢٠٢ .
- كيف : ١٦١ ، ٢٨٢ .

(ج)

- اللانقبة : ١١٠ ، ١٨٣ .
- لاريقا (لاريكا) : ٨١ ، ٢٦٦ .
- لسبوس (جزيرة) : ٢٥٧ ، ٢٧٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ .
- اللكام (جبل) : ٩٦ .
- اللورين الأدنى : ٢١١ .
- ليفونيون (جبل) : ٢٠٤ .
- ليكيا (شواطئ) : ٨٥ .
- ليون : ٢٩٢ .

(م)

- ما بين النهرين (بلاد) : ٣٧ .
- ماركيلاي (حصن) : ١٢٧ .
- مكارز : ١٥١ .
- ما وراء النهر : ١٨٠ — ١٨١ .
- مايندر (نهر) : ٢٧٢ .
- المحيط الأطلسي : ٦٦ ، ٩١ .
- المحيط الهندي : ٦٦ .
- المدائن : ٦١ ، ٨٥ .
- المدينة المنورة : ٥٩ ، ٦٨ — ٦٩ ، ٨٨ .
- مرج عيون : ٢٤٠ .
- مرعش (جرمانيكا) : ١٠٣ .
- مريو كينالون : ٢٣٠ .
- ممسينة : ١٥١ ، ٢٤٨ .
- مصر : ٨ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٦ — ٢٧ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٧١ — ٧٣ ، ٧٨ — ٧٨ ، ٨٦ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١١١ ، ١٤٦ ، ١٨٢ — ١٨٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ — ٢٥٤ .
- المصبة : ١٥٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
- معان : ٦٦ .
- المغرب : ٧٨ ، ٨٠ — ٨١ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٤٩ .

- قيليقيية : ٧٦ ، ١٧٥ ، ١٩٢ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٥ — ٢٢٦ ، ٢٤٥ .

(ك)

- كايوا (مدينة) : ١٥٣ .
- كاندراثية الروح القدس (في بارمو) : ٢٩٢ .
- كاندراثية القديس ملركو : ٢٥٧ .
- كاستوريا : ٢٨٦ .
- كالابريا : (انظر تاورية) .
- كاتوسا : ٢٢٦ .
- كبريوت (الثغر البحري) : ٧٦ .
- الكريبات (جبال) : ٢٨٢ .
- الكرج (بلاد) : ١٨٥ — ١٨٧ .
- كرجو (جزيرة) : ٢٩٠ .
- كرمان : ١٨١ .
- كريت : ٨ ، ٢٨ ، ٨٥ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٥ — ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ .
- كريسو بوليس (مدينة) : ١٢٦ .
- كريسيا : ٣٨ ، ١٦١ ، ١٧٨ .
- كلوكوتينترا : ٢٧٧ .
- كليرنو : ٢٢٠ .
- كلرمونت : ٢٠٧ .
- كنيسة بطرس : ٤٧ ، ١٢٩ .
- كنيسة الرسل : ٢٨ ، ١٢٣ .
- كنيسة الصعود على جبل الزيتون : ٢٧ .
- كنيسة القديسة صوفيه : ١٠١ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٦٤ ، ٢٥٦ — ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧٦ ، ٢٨٩ .
- كنيسة العهد : ٢٧ .
- كنيسة البيلاد : ٢٢٨ .
- كورنو (جزيرة) : ٢٠١ — ٢٠٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٩٠ .
- كورنثة : ٣٨ ، ٢٢١ ، ٢٦٥ .
- كوزاداخ (مدينة) : ٢٨٢ .
- كيزيكوس (جزيرة) : ٣٨ ، ٩٧ ، ٨٩ .

نيقوميديا : ١٨ ، ٢٣ — ٢٤ ،
 ٢٨ — ٢٩ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٣٨ ،
 ٢٧٠ ، ٢٩٨ .
 نيقية : ٢٥ ، ٢٨ — ٢٩ ،
 ٥٥ ، ١٠٦ ، ١٢٢ ، ١٣٧ ، ٢٠٣ ،
 ٢١٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ — ٢٦٦ ،
 ٢٦٩ — ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ،
 ٢٩٨ .

نيمايوم (مدينة) : ٢٨٧ .
 نينوى : ٦٢ .

(ه)

هرقله : ١٤٠ ، ٢٦٩ ، ٢٩٠ .
 الهند : ١٦٠ .
 هيريا (قصر) : ١١٦ .
 هبلاس (شقر) : ٣١ ، ٩٩ .

(و)

وادي الأردن : ٦٩ .
 وان (بحيرة) : ١٨٢ ، ١٨٨ .

(ي)

يافا : ٧١ ، ٢٤٦ .
 اليرموك : ٧٠ ، ٧١ ، ٨٦ ،
 ١٩٠ .
 اليمن : ٥٧ ، ٥٨ ، ٢٣٩ .
 يورك : ١٨ .
 اليونان : ٣٨ ، ٩٩ ، ١٢٢ ،
 ٢٢١ — ٢٢٣ ، ٢٦٦ — ٢٨٦ ،
 ٣٠١ .

مغنيسيا : ٢٧٠ .
 مقدونية : ١٥٣ — ١٥٤ ،
 ١٧٩ ، ٢٥٧ — ٢٥٨ ، ٢٧٨ ،
 ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٧ — ٢٩٨ ،
 ٣٠١ .

مكة المكرمة : ٥٩ .
 ملطية : ١٤٣ ، ١٥٧ ، ١٧٥ .
 ملفيان (جسر) : ٢٣ — ٢٦ .
 منازكرد (ملنزيكرت) : ٨ ،
 ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٤ —
 ٢٠٠ ، ٢١١ ، ٢٣٠ .

منبج : ١٨٧ .
 منشوريا : ٢٨١ .
 منغوليا : ٢٨١ .
 مؤتة : ٦٦ — ٦٧ .
 المورة : ٢٨٦ ، ٢٩١ .
 الموصل : ٦٣ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ،
 ٢٣٥ .

ميجابرا : ٣١ .
 الميز : ٤٦ .
 ميلان : ١٨ ، ٢٤ .

(ن)

نابلس : ٢٢٨ .
 نابلس : ٧١ ، ٨٧ ، ١٥٢ ،
 ٢٦٣ .
 نجران : ٥٨ .
 نقيوس : ٧٩ .
 نورمندا : ١٧٧ ، ٢١١ .
 نورثبرج : ٢٤٤ .
 نوبيسا : ٤٧ .

ثالثاً - كشاف المصطلحات

١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ،
٢٢٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ - ٢٥٢ ،
٢٦٠ ، ٢٧٨ - ٢٨٠ ، ٢٨٩ ،
٢٩٢

البرونويا (نظام) : ١٧٢ ،
١٩٩ - ٢٠٠ ، ٢٣٢ ، ٢٦٢ ،
٢٩٦ - ٢٩٧
بلاط الشهداء (معركة) : ١٠٥
البنود : (انظر الثغور)

(ت)

تاريخ المورة : ٢٦٣
التقويم القبطي : ٢٢

(ث)

الثغور (نظام الأجناد أو
البنود) : ٧٤ - ٧٧ ، ١٦٦

(ج)

الجند المرتزة : ١٧١ ، ١٧٦ -
١٧٧ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ،
٢٦٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٩٧

(ح)

الحرب البيلوبونيزية : ٢١
حرس الحدود : ١٩٥

(د)

ديجينس اكريتاس (ملحمة) :
١٢٧

(ذ)

ذات الصواري (معركة) :
٨٥ - ٨٦

(١)

الاثناسيوسى (الذهب) : ٢٩ ،
٤٨

الأجناد : (انظر الثغور)
أرباب السيوف (طبقة) : ١٦٦ ،
١٦٨ ، ١٧١ ، ١٦٨

الأرخونيفت : ٧٥ ، ١٧٣ ،
الأريوسية (مذهب) : ٣٩ ،
٤٥ ، ٤٨ - ٤٩ ، ٥١ ، ٦٥
أصحاب الأتلام (طبقة) : ١٦٦ ،
١٦٨ ، ١٧١ ، ١٨٩

أصحاب الضياع الكبيرة (طبقة) :
١٤٢ ، ١٧٢ - ١٧٥ ، ١٩٨ ،
٢٣٣ - ٢٣٤

أغسطس (لقب) : ١٨ ، ٢٣ ،
٣٥

أكسوم (ملكة الحبشة) :
٥٧ - ٥٨

الأكوجا (الخنجر) : ١٠٧ -
١٠٨

أنجيل (انجيل) : ٢٢ ، ٣٩ ،
٤٨

الأنونا (ضريبة) : ٢١ ،
أهل الكتف : ٦٥

أيزيس وأوزيريس (ديانة) :
١٧

الأيونات (الصور والتماثيل
القدسة) : ١٠٢ - ١٠٣ ، ١٠٨ -
١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٢ - ١٣٨ ،
١٤١ - ١٤٢ ، ١٦١ ، ٢٥٦ ،
٢٦٠

الايكسيسيز (مرسوم تقسيم
الايمان) : ٧٣

(ب)

البابوية : ٤٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ ،
١١٤ - ١١٥ ، ١٢١ ، ١٦٣ -

القطلان الأسبان (الفرقة
القطلاونية) : ٢٩٧ - ٢٩٨ .
قنصل (رتبة) : ٤٥ .

(ك)

الكلونية (حركة الإصلاح) :
١٦٣ .
الكنيسة الأرثوذكسية : ٥٤ ،
٥٧ ، ١٠٨ ، ١١٩ ، ١٦٤ .
الكنيسة المصرية : ٢٩ - ٣٠ ،
٥١ ، ٥٤ .

(ل)

لائحة الأسعار : ٢٠ .

(م)

المآصر : ١٠٤ .
مقراش (ديانة) : ١٧ .
المجمع المسكوني الأول (مجمع
نيقية ٣٢٥ م) : ٢٥ ، ٢٨ ، ٤٨ -
٤٩ ، ٥٥ ، ١٢٣ ، ١٣٧ .
المجمع المسكوني الثاني (مجمع
القسطنطينية ٣٨١ م) : ٥٥ .
المجمع المسكوني الثالث (مجمع
أفيسوس ٤٣١ م) : ٥٥ .
المجمع المسكوني الرابع (مجمع
خلقونية ٤٥١ م) : ٥٣ - ٥٥ ،
٥٧ .

المجمع المسكوني السادس (مجمع
القسطنطينية ٦٨٠ م) : ٩٣ - ٩٤ .
المجمع المسكوني الخامس -
السادس (تروان ٦٩١ م) : ٦٨ .
المجمع المسكوني السابع (مجمع
نيقية الأيقونية ٧٨٧ م) : ١٠٨ ،
١١٠ ، ١٢٣ ، ١٢٢ - ١٢٣ .
مجمع اللصوص (مجمع
أفيسوس ٤٤٩ م) : ٥٣ ، ٢٩٢ .
مجمع القسطنطينية (هيريا
٧٥٤ م) : ١١٦ - ١١٧ ، ١٣٤ .

(ر)

الردة (حروب) : ٦٩ .
رولان (انشودة) : ١٤٤ .

(ز)

الزردشتية (ديانة) : ٢٥ .

(س)

السفانو (مجلس) : ١٢ ، ١٩ ،
٣٣ ، ٤٢ ، ٧٨ ، ١٦٨ .
سبويل (ديانة) : ١٧ .
السيد البطال الغازي (ملحمة
البطل التركي) : ١٠٦ ، ١٩١ .
السيونية (شراء الوظائف
الدينية) : ١٦٣ .

(ش)

الشدة المستنصرية : ١٨٢ ،
١٨٦ .
الشواني : ١٢٦ ، ١٩٢ .

(ص)

صغار ملاك الأراضي (طبقة) :
١٤٢ .
صليب الصلبوت : ٢٦ .
الصوائف : ١٢٥ - ١٢٦ ،
١٩٢ .

(ط)

الطبيعتان (مذهب مجمع
خلقونية) : ٥٥ - ٥٧ ، ٦٦ ،
٧٢ .
الطواشية : ١٦٣ ، ١٦٧ -
١٦٨ .

(ف)

فيترو (معاهدة) : ٢٩١ .

(ق)

القرامليس (البردي) : ٩٥ .

- مجمع المصنفات اليونانية (٨١٥ م) :
١٢٤ .
مجمع نقبة الأبقوسى (٨١٣ م) :
١٢٧ .
مجمع امون الذى (١٢٧٤ م) :
٢٩٢ .
مجمع ميه ثيودوسيوس الثانوية :
٥٠ .
مجمع لينا الوثنية : ٤٩ - ٥٠ .
مجمع جاريوس : ٢٤ .
مجمع ملان : ٢٤ .
المزارعون الاسرار (طبقة) :
١٧١ - ١٧٣ - ٢٢٣ .
الامامون : ٤١ - ٤٤ .
الملك (مساطنة) : ٢٩٣ .
٢٩٥ .
المونثاينية (مذهب الارادة
الارادة : ٧٣ - ٨٠ - ٩٣ .
المونثاينية (مذهب الطبيعة
الارادة : ٥٢ - ٥٨ - ٦١ .
- ٦٥ - ٦٦ - ٧٢ - ٧٣ - ٩٢ ،
١٥٦ - ١٧٥ - ١٧٦ .
(ن)
النار الاغريقية : ٨٩ ، ١٠٤ ،
٢٢٩ .
نموذج الايسان (مرسوم) :
٨٠ - ٨١ .
(هـ)
الهينوتيكون (قرار الوحدة) :
٥٥ .
(و)
والى الحينة : ١٥٩ .
انوثية - الوثنيون : ١٧ .
٢١ - ٢٢ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٤ - ٣٨ ،
٤٨ - ٤٩ ، ١١٣ ، ١١٧ .

تصويبات الإخطاء المطبعية

أفلتت أثناء مراجعة تجارب الكتاب بعض الأخطاء المطبعية التي لا تخفى على قارئ التاريخ :

الصفحة	السطر	الصيغة المراد إثباتها
٧١	٥	٦٢٦ م
١٣٥	١١	الأرمني
١٤٠	١١	مد الخليفة
١٧٢	١٣	واسر رومئوس الأول
١٨١	٢	الفرزوني
٢٢٤	١٧	للبنقية
٢٣٠	٢١	الأباطرة
٢٣٥	١٦	تطلعت

رقم الإيداع : ٨٤ / ١٦٦٥
الترقيم الدولي : ٧ - ٠٠٦٤ - ٠٤ - ١٧٧

STUDIES
IN
THE HISTORY
OF
THE BYZANTINE STATE

BY
DR. HASSANEIN M. RABIE

Professor of Medieval History
Faculty of Arts, Univ. of Cairo

1983

Dar Al - Nahda Al - Arabiyya
32, Abd El Khaliq Tharwat st. , Cairo

STUDIES
IN
THE HISTORY
OF
THE BYZANTINE STATE

BY
DR. HASSANEIN M. RABIE

Professor of Medieval History
Faculty of Arts, Univ. of Cairo

1983



Dar Al Nahda Al-Arabiyya
32, Abd El Khaliq Tharwat st., Cairo